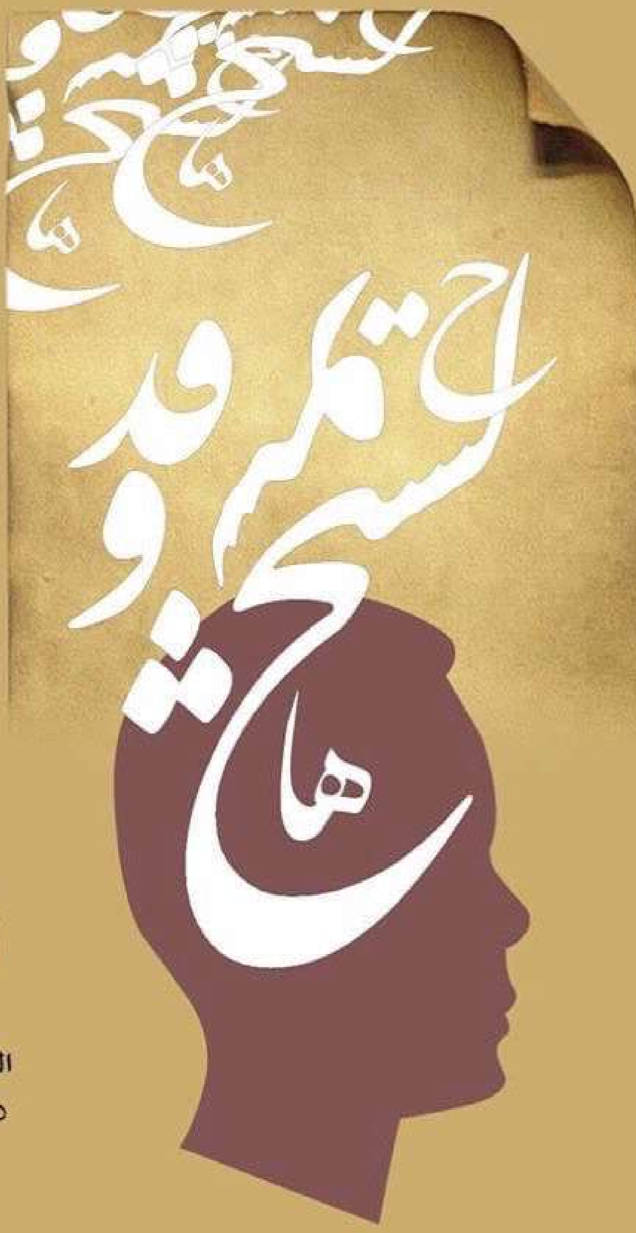
بروفيسور إبراهيم القرشي

عفو الخاطر

مقالات صحفية منشورة بين عامي ١٩٩٧ – ٢٠٠٧م



الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ ٢٠١٤م



-إبراهيم القرشي عثمان.
- مواليد: ١٩٥٥م – ود مدني – السودان.
- درجة الأستاذية – جامعة الرباط الوطني – الخرطوم – ٢٠٠٦م.
- درجة الدكتوراة في اللغة والنحو والصرف في (إعراب القراءات القرآنية) – جامعة الخرطوم – ١٩٩٣م.
-درجة الماجستير في اللغة والنقد – جامعة الخرطوم – ١٩٨٥.
-بكالوريوس اللغة العربية بمرتبة الشرف الأولى – جامعة الخرطوم – ١٩٨٠م.
- أستاذ العربية وآدابها – كلية اللغات والترجمة – جامعة الرباط الوطني – السودان.
- أستاذ زائر – جامعة الجزيرة / جامعة سنّار – السودان.

- كتب وبحوث ودراسات:
- إعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه –تحقيق ودراسة – ١٩٩٣م.
- عادات سودانية أصولها عربية (مدخل لغوي) – الجزء الأول –الرياض– ١٩٩٩م.
- السهل الممتنع (خواطر وصور بلاغية) – الرياض– ٢٠٠٠.
- بين الأميرين الشاعرين: امرئ القيس والحاردلو (مدخل لغوي) – الرياض– ٢٠٠٤م.
-قطب القرآن وخاتمة المحققين الشريف محمد الأمين الهندي (حياته وآثاره) الرياض– ٢٠٠٥م.
- من المفكرة –بيروت – ٢٠٠٧م.
- تحقيق ديوان الشيخ أحمد ودسليمان –الخرطوم – ٢٠٠٩م.
- تحقيق ديوان ود أب شريعة ٢٠١٤م
- تحقيق ديوان ود حليب ٢٠١٤م
- تحقيق ديوان قدورة ٢٠١٤م
- تحقيق كتاب مدح الرسول للدكتور عبد الله الطيب ٢٠١٤م

بحوث محكمة منشورة:
- ابن خالويه (إعراب القراءات السبع) بين الأصل اليتيم والتحقيق السقيم – مجلة عالم الكتب (علمية محكّمة) – العدد الثاني – المجلد ١٩ – الرياض –١٩٩٨م.
- الأصول العربية لبعض أدوات العطر والزينة في التراث السوداني (مدخل لغوي) – مجلة المأثورات الشعبية – العدد ٦٢ – الدوحة – قطر – ٢٠٠١م.
- الأثر الديني في الأغنية السودانية – مجلة بشائر – الرياض ٢٠٠٢م.
- مأثورات مشهورة في التراث السوداني – مجلة الدراسات الآسيوية والافريقية –الخرطوم – ٢٠٠٥م.
- الدوبيت لغة ومعنى – مجلة المجمع اللغوي – الخرطوم – ٢٠٠٧م

- المناصب والعضويات:
- وزير الثقافة والإعلام – ولاية الجزيرة – السودان –(٢٠١٠ -٢٠١٣م).
- رئيس مجلس أمناء جائزة البرعي في الأدب النبوي – السودان –٢٠١٣م.
- عضو المجمع اللغوي (رئيس دائرة اللغة العربية واللهجات العامية) الخرطوم – السودان.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب السودانيين.

- الجوائز والأوسمة:
- جائزة أفضل برنامج ثقافي تربوي – التلفزيون القومي السوداني – ٢٠٠٩م.
- جائزة الدولة (الشهيد الزبير) للإبداع والتميز العلمي – الخرطوم – ٢٠٠٣م.
- وسام العلم والآداب والفنون الذهبي من رئيس الجمهورية – الخرطوم – ٢٠٠٣م.
- جائزة الشعر على مستوى جامعة الخرطوم – ١٩٩٧م.
- جائزة التفوق الأكاديمي في الامتياز (الأول والثاني) على مستوى كلية الآداب – جامعة الخرطوم(١٩٧٩–١٩٨٠م).

- مناشط أخرى:
- إعداد وتقديم برنامج (روائع المديح) الإذاعة القومية السودانية.
- إعداد وتقديم برنامج (رياض المديح) بإذاعة الكوثر
- إعداد وتقديم برنامج (أسمار في التراث) إذاعة ساهرون (صوت الشرطة السودانية).
- إعداد وتقديم برنامج (في رحاب الحبيب) التلفزيون القومي السوداني.
- إعداد وتقديم برنامج (حديث السمار) تلفزيون ولاية الجزيرة

بروفيسور إبراهيم القرشي

عفو الخاطر

مقالات صحفية منشورة بين عامي ١٩٩٧ - ٢٠٠٧م



الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

بروفيسور إبراهيم القرشي

عفو الخاطر

حروف من زمان الاغتراب



قدم له بروفيسور حسن أبو عائشة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٣٧هـ ٢٠١٥م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان

٣٠٦.٠٨٩٦٢٤ إبراهيم القرشي عثمان، ١٩٥٥م-

ع.١١

عفو الخاطر/ إبراهيم القرشي عثمان .-

الخرطوم : ١١. عثمان: ٢٠١٥م.

٣١٢ ص، ٢٤سم.

ردمك ٧-٧٩٣-٣-٩٩٩٤٢-٩٧٨

١. السودان- الثقافة- مقالات ومحاضرات. أ. العنوان.

طبعت هذه النسخة على نفقة جامعة المغتربين

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

دعوة إلى كل من حَمَلته رياح الغُربة خارج الوطن

بعودة سالمة غانمة.

المحتويـــــات

تقديم

بقلم البروفيسور حسن أبو عائشة

رئيس جامعة المغتربين

أخي الأستاذ الدكتور إبراهيم القرشي، أبو محمد، من إشراقات هذا الزمان. أدبٌ جمٌ وعلم واسعٌ وحافظةٌ- ما شاء الله كان، عليها! عرفته منذ أخريات القرن الماضي في المملكة العربية السعودية، في رحاب جامعة الرياض الوريفة، وفي كنف رابطةٍ خفيةٍ للمغتربين السودانيين، حيث تَعْجَبُ كيفَ يربط بينهم وِدادُ "سودانيتهم" التي لا تخفى على العين، فيكونونَ إخوة متحابين، مترابطين، متآزرين. وأصحابُ الأمم الأخرى، وإخواننا من العرب، يتندَّرونَ علينا نحن السودانيين، وكيفَ "أنَّ كلَّ سوداني أخوك، وإن لَمْ تره من قبل، ولَمْ يكن من "بلديّاتك"، ولا رابطَ سابقَ بينكم"!

أخي أبو محمد، ليس من علماء السودان المعدودين فحسب، إذ إنَّ له من المؤلفات ما هو معروف وشائعٌ، وله من برامج التلفاز ما هو مشهور، يترقبه المشاهدون وأحبابُ الرسول ﷺ، ليغوص بهم في بدائع المدائح السودانية للنبي ﷺ؛ بل هو أيضاً زينةٌ لكل مجلسٍ يكون فيه، وصدرٌ حيث ما جلس، لعلمه الغزير، وتواضعه الجم، وحسن حديثه، وجميل صوته، وهو يؤدي أمثلة من بدائع المدائح النبوية، صلّى اللهُ على ممدوحها وسلم تسليماً كثيراً. وفي الحقيقة أول مرة التقيتُ فيها بأبي محمد، كان في مجلسٍ في دار أحدِ أخواننا أساتذة جامعة الرياض من السودانيين، في السكن الجامعي في مدينة الدرعيَّة، التي أصبحت الآن جزءاً من مدينة الرياض، حفظها الله وكَلأها. في ذلك المجلس جلس أخي أبو محمد القرفصاء بعد إلحاحِ الحاضرين عليه، وطلب من بعض الحاضرين ممن يعرفهم أنْ يعينوه في بعض ما كان ينوي أنْ يقوله، فتحلَّقوا حوله مسرعين، ولبوا طلبه فرحين، فعلمتُ أنَّ ذلك أمرٌ مألوفٌ لديهم، ثُمَّ شرع وأنشد لنا مدائح نبوية بصوت ندي، وكلماتٍ واضحة، واختيارات بديعة. كان ذلك المجلس مفاجأة سارةً لي، فقد طالَ بي الزمانُ الَّذي سمعتُ فيه مدحاً للنبي ﷺ، على الطريقة السودانية، طريًا في مجلس حيٍّ! ومعلوم للكثير من قراء هذا الكتاب أنَّ ذلك أمرٌ غير ذائع في المملكة العربية السعودية، خاصة في هضاب نجد ومُدُنِها.

ثُمَّ جَمعتْ صحيفة الخرطوم بيني وبين أخي أبي محمد أكثر، أقرأ ما يكتبُ فيها، وأتشوَّق لقلمه المدرار، وما ينتج من فكر وأدب، وأكتبُ فيها بعضاً مما أراه في الشأن السوداني، مما هو ليس في مستوى ما يكتب البروفسير القرشي، ولكنَّ الصحيفة كحاطب الليل، تجمع ما تجمع! وكما قل البروفسير إبراهيم القرشي في بعض مقالاته في هذا الكتاب، إنَّ صحيفة الخرطوم كانت في زمن من الأزمان الصحيفة الوحيدة المتاحة للمغتربين، تربطهم ببلادهم الحبيبة، وإن اختلفتْ حولها أهواؤهم، ولكنهم جميعاً يشتركون في حب بلادهم، كلٌّ على طريقته. أذكرُ أنَّ أخاً من إخواننا العراقيين عتبَ عليَّ مرةً عندما علمَ أنِّي كنتُ في زيارة أحد إخواننا اليساريين من أهل السودان لمناسبة اجتماعية دعانا لها. قلَ أخي العراقي: عجباً لكم أنتم السودانين، كيف تذهبُ أنتَ، ومعروفٌ عنك توجهُك الإسلامي في المعتقد والحياة، كيف تزور فلاناً وهو يُبغض الإسلاميين، ويصرِّحُ ببغضهم، ويتمنى أنْ يزولوا من الوجود بعد أنْ صار لهم شأن في حكم السودان! قل: نحن في العراق ليس بيننا وبين أمثل هؤلاء إلا ما صنع الحداد! قلتُ له: أمّا نحن في السودان، فإننا نحترم الرأي الآخر، ونحمله على أننا كلنا نشترك في حبِّ السودان، بلدنا، ولكن كلٌّ منا يرى الخير للبلد في طريقته ومنهجه. لذا فإننا نحتفظ بعلاقاتنا الاجتماعية، ونعلم أنَّ هناك المهم جداً مما نشترك فيه بلا خلاف، وهو حب الوطن.

طلبَ إليَّ أخي أبو محمد أنْ أكتبَ مقدِّمةً للطبعة الجديدة من هذا الكتاب المهم. تلكَّأت في الاستجابة لطلبه، رجاء أنْ ينصرفَ عني إلى من هو أكفأ مني. ولكنه أعجزني بالصبر عليَّ، وأعلمني أنَّه لن يتنازل عن طلبه ذاك وإن طال الزمان! فها أنا أكتبُ على مضض، وأعلم أني لست أهلاً لهذا الشرف الرفيع، إذ أنَّ أبا محمد، عالم فذٌّ في العربية بمفهومها الفسيح لكل الأمة العربية والإسلامية، وفي تاريخ السودان، وفي الأدب السوداني، وفي روائع الأدب الصوفي، وأنا محبٌّ للاستماع إليه وهو يقرِّبُ البعيد من كلمات المدائح النبوية لشعراء سودانيين، يجلهم الأكثرون، ولا يضرهم جهل الناس بهم،لأنهم أحبابِ رسول الله ﷺ ،ولا يكترثون لشيء غير هذا في حياتهم. ثُمَّ إنَّ أبا محمد شاعر فحل، له قصائد تأسرك بمبانيها ومعانيها، ولعله يجمعها لنا في ديوان ذات يوم.

أمّا هذا الكتاب الّذي بين يدي القارئ، فهو كتابٌ يسجل لحقبةٍ تاريخية مهمة في حياة السودانيين. ولئن استمر الاغتراب عن السودان ممتداً عبر الأزمان القادمة، كما أتوقعُ مع تقارب الأماكن، وسهولة الأسفار في هذا الزمان، إلا أنَّ أخريات القرن العشرين الميلادي كان لها طعم خاص، وشأن خاص. فالسودانيون خارج السودان كانوا من نوع خاص، جُلُّهم من طبقات مستنيرة، كان لها فضل سابغ على الكثير من بلاد الجزيرة العربية، والكثيرون منهم كانوا قد تركوا السودان كُرهاً، بعد أنْ ضاقت بهم سبل الحياة بسبب الضوائق الاقتصادية، والاختلافات السياسية. وفي بلاد المُغْتَرَبِ كانتْ الغربةُ تكويهم، وتحملهم أشواقُهم إلى ذكريات بلادهم، ولكنهم مقيّدون بعدم تحقيق الأماني التي راودتهم ودعتهم إلى ركوب الأسفار، وكما قال أبو نواس:

وأوبَةُ مُشتاقٍ بغيرِ دَراهِمٍ ... إلى أهْلِهِ مِنْ أعظَمِ الحَدَثانِ!

غير أنَّ الرابطة السودانية الخفية، التي كانت تربط السودانيين دون تمييز، كانتْ تلك الرابطة من أعظم نعم الله عليهم أينما كانوا. وفي هذا الكتاب سيجد القارئ نماذج شتى سجلها البروفسير إبراهيم القرشي بكل براعة لخلجات النفوس، ونوادر المواقف التي مرت به في حِقبة تاريخية مهمة في حياته وهو في المملكة العربية السعودية، أستاذاً للغة العربية فيها، ونجماً من نجوم المجتمع السوداني المترابط في مدينة الرياض، وفي رحاب الحرمين الشريفين، وغير ذلك من بقاع المملكة العربية السعودية، حفظها الله ورعاها، قبلة للمسلمين، وحفظاً لحوزة الدين.

أترك القارئ الفطن ليستمتع بهذا الكتاب، السهل الممتنع. فهو حلقات قصيرة من دُرٍّ منظوم في عقد بديع، تتأمّلُه، وتبدأ فيه من أيّ جزء فيه شئتَ. وهو تأريخ يبدو كالهزل وهو جدٌّ، يؤرِّخ لفترة مهمة من تاريخ السودانيين عامة، والذين تغرَّبوا منهم خاصة، يضربُ أمثلة حيّةً لعلائقهم فيما بينهم، وفيما بينهم وبين سواهم من الأمم. أليس التأريخ هو السكان والجغرافيا؟

حسن أبو عائشة

جامعة المغتربين

في ذي الحجة ١٤٣٦هـ، الموافق لشهر أكتوبر ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم الأستاذ/ محمود صالح عثمان صالح

يعجبني في الأخ د. إبراهيم القرشي، قبل كل شيء، نشاطه الجمّ. لا يمر أسبوع إلا وتجده ناشراً لمقال عن اللغة السودانية الدارجة وأصولها العربية، أو مقدماً برنامجاً إذاعياً عن الدوبيت السوداني، أو برنامجاً تلفزيونياً عن المدائح النبوية، أو مشاركاً في ندوة أو حوار في إحدى دُور الثقافة المنتشرة في العاصمة أو المدن المجاورة عن الشعر العربي قديمه وحديثه. هذا بالإضافة إلى مهنته الأساسية كأستاذ جامعي، في أكثر من جامعة، يحاضر ويُحضّر ويشرف ويمتحن ويصحح ويجتمع وخلافه.

أضف إلى ذلك أنه متمكّن من اللغة العربية نحواً وصرفاً، قديمها وجديدها، وضليع في اللغة السودانية الدارجة، يُرجِع أصلها العربي إلى منابعها في الجزيرة العربية بإقناع تام.

كما يحفظ كمّاً هائلاً من الأشعار العربية ويستشهد بها عفو الخاطر في كل مناسبة. أما عن أشعار الصوفية السودانية فيسوقها كواحد منهم، وفي رأيي أنه منهم.

كتب الأخ د. إبراهيم مقالات عديدة في جريدة "الخرطوم" في باب "من المفكرة" عن الشعر والدوبيت والمدائح النبوية وعن اللغة العربية الدارجة السودانية وأصولها. وقد استمتع الكثيرون، وأنا أحدهم، وقد أشرت عليه بأن نطبعها في كتاب ضمن منشورات مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي، وقد وافق مشكوراً على ذلك. ولكنه طلب مني أن أقدّم للكتاب!

حقيقة أنا لا أعتبر نفسي مؤهلاً أن أقدّم لهذا الكتاب، ولكن تحت إلحاح الأخ د. إبراهيم نزلت عند طلبه، أولاً: لأنني لست ضليعاً في اللغة العربية، ولا الشعر العربي أو الدوبيت، أو أدب الصوفية؛ ثانياً: لابد من الاعتراف بأنني عندما كنت في السنة الثانية الثانوية، خطر في بالي أن أكتب بعض الشعر، فقمت بتدبيج ثلاثة أو أربعة أبيات منه،

وعرضتها على أستاذ اللغة العربية، وكان رحمه الله، أستاذاً فاضلاً ومهذباً للغاية. فقرأها على مهل، ثم قال لي بلطف: "يا بني، أنا أنصحك أن تختار هواية أخرى غير الشعر". وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاماً.

وعليه فقد رأيت أن أسطِّر في هذه المقدمة المختصرة عن أخي د. إبراهيم وليس عما كتبه، لأنني لم أجد أي صعوبة في فهم وهضم ما كتبه، وعليه فلا أرى أن هناك داعياً لكتابة أي شيء عن مقالاته التي سيقرأها ويفهمها كل الناس.

محمود صالح عثمان صالح*

راعي مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي

* توفي رحمه الله في ٢٠١٤/١١/١٥م
انظر حديثي عنه في المقدمة والصفحات ١٩، ٢٨، ٦٥، ٧١، ٧٤، ٧٥، ٣٠٥ وغيرها.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ففي واحدة من مبادرات آل عثمان صالح التي لا تكاد تحصى، وفي إطار الرسالة الثقافية المستمرة النافعة لمركز عبدالكريم ميرغني الثقافي، عرض عليّ الأستاذ محمود صالح عثمان صالح راعي المركز - بارك الله في أيامه - أن يجمع بعض مقالاتي التي نشرت في باب (من المفكرة) بصحيفة الخرطوم في كتاب، وهذا تقدير وتكريم كبير من رجل كريم كبير، حمل هم النشر والثقافة ردحاً من الزمن وما يزال. فاختار اثنتين وخمسين مقالة لعلها مما توافر له من مقالات السنوات الأربع المحصورة بين عامي ٢٠٠٢ – ٢٠٠٥م. وترجع صلتي بالكتابة في صحيفة الخرطوم إلى عام ١٩٩٧م واستمرت إلى عام ٢٠٠٧م، ثم أصبحت بعد العودة إلى السودان لماماً. وقد كنت نشرت قبل ذلك كتابي (عادات سودانية أصولها عربية ١٩٩٩م) وكانت أكثر موضوعاته مما نشر في هذه الصحيفة أيضاً).

كانت صحيفة الخرطوم في تلك الفترة منبراً مهماً سدّ فراغاً كبيراً للمغتربين عموماً وفي دول الخليج بخاصة، ووفّر مساحات مقدرة للمبدعين وهواة الكلمة في جميع ضروبها، علاوة على توفير الخبر والمعلومة وتحليل الرأي ومتابعة أخبار الوطن. رافقتها محاولات لكنها كانت الصحيفة الوحيدة المنتظمة الصّامدة. وقد حاول محاربتها بعض المتشدِّدين – وما أفلحوا – بدعوى المعارضة، وما كانت كذلك تماماً، وما كتبنا فيها إلاّ بحسّ الوطنية الخالص والانتماء الواسع إلى السودان كلّه. وكانت بحق مسلحة واسعة مفتوحة لتواصل السودانيين بألوان طيفهم، فخلقت علاقات واسعة طيبة بين أبناء الوطن، فكم من السودانيين الأعلام تواصلوا عبر صفحاتها وكم من الأصدقاء والزملاء انقطعت الصلة بينهم مع تيار الاغترابِ الجارف فكانت صحيفة الخرطوم سبباً في إعادة مدّ حبال الوصل وإحياء الصلات القديمة بينهم. ولعلّ الذي يقف عند الأعلام الواردين في صفحات هذا

الكتابِ الثلاثمائة لكاتب واحد يهوله هذا العـدد الـضخم مـن الـسودانيين الـذي جـرى ذكرهم في هذا الكتابِ وقس على ذلك كتابات الآخرين.

هذا وقد كان الأستاذ محمود صالح – جـزاه الله خـيراً – اختـار للكتـاب عنوانـاً (مـن المفكرة) ورتب موضوعاته وصمم غلافه ثم أوصله إلى القُراء كتاباً مكـتملاً. (عـام ٢٠٠٨م) وليس لمثلي في هذه الحالة (المُلْجِمَة) إلاّ أن يحيـل الأمـر برُمَّتِـهِ علـى صـاحب الإحـسان في المكافأة جلّ شأنه. ثم بعد النظر في الكتابِ وكثرة الطلب عليه وسؤال الناس عنه آثرت أن أضيف إليه بعض الموضوعات خصوصاً الوجدانية لأناس كان لهـم فـضل شـراكة في مادّتـه وفاءً بحقهم. ووقع فيه قليل من التقديم والتأخير وتلافيت فيه بعض فوائت الطباعة. ومـع دقة الأخ الأستاذ محمود صالح وتوفيقه في اختيار العنـوان إلاّ أنّ الإضـافات الـتي أدخلتهـا لا تنضوي تحت باب المفكرة، فرأيت من باب الـصدق والتناسـب والـشمول أن أسمّيـه (عفـو الخاطر)؛ لأن كل ما تضمنه الكتاب كان حقيقةً عفو الخاطر، فهو مقالات خفيفة متنوعة فيها الاجتماعي والثقافي واللغوي والسياسي والديني والأخواني، أملتها مناسبات مختلفة أطلقنـا فيها النفس على سجيتها، فجاءت كتابات عفوية لا كالكتابات العلميـة استقـصاءً وتوثيقـاً ولا جفافاً ولكنها لا تخلو من الفوائد، إذ فيها التجارب والمواقـف الإنـسانية وفيهـا النكتـة والملحة والفائدة اللغوية والمثل والشاهد والبيت السيّار والحكمة والقول المأثور، وقـد يجـد القارئ نفسه في كثير من موضوعاتها، وليس في ذلك شيء متعمّد، وإنما هـي أمـور سـاقتها المناسبة وأوجدها الظرف. إضافة إلى مافيه من الردود والمساجلات وتبادل وجهات النظـر في الخاص والعام. وأرجو أن تكون فيه متعة وفائدة.

وأخيراً، فإن الشكر والامتنان والدعاء هو أقلّ ما أقدمه للأستاذ محمـود صـالح عثمـان صالح ولمركز عبدالكريم ميرغني الثقافي. والتحية لـصحيفة الخرطـوم وهـي مـاتزال تناضـل النضال الخالد بالكلمة الباقية.. والتحيـة والتقـدير والـود لكـل مـن جـرى ذكـره في هـذه الصفحات التي أصبحت ذكرى عزيزة لأيام طيبة نبيع بقية العمر لو يعود بعضها .. ولكـن

هيهات. نسأل الله العافية في الدين والبدن والخير للسودان وأهله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم القرشي

الخرطوم مايو ٢٠١٤م

يوم شكرك ما يجي*

من أساليب الثناء والمدح عندنا قول أهلنا (إن شاء الله يوم شكرك ما يجي) يعني يوم وفاتك. يبخلون ويضنون على الموت بالإنسان النافع ويتمنون له طول البقاء. ومن العادات القديمة أن الإنسان العظيم تُعدَّد مناقبه وتُذكر خصاله وتُسرد محاسنه يوم موته. فذكر محاسن الأموات سنة، ولكن تكريمهم وهم أموات وفاء ناقص. وهو من مكونات التراث التي نعلن العصيان لها وندعو إلى تغييرها. فالثناء على صاحب العطاء المحسن وهو حي حافز له لمزيد من العطاء والإحسان. وتكريم الحيّ أنفع له، فلا أقل من أن يذوق شيئاً من ثمرات عطائه حتى لا نصبح كما يقول إخواننا في تونس (عاش يتمنى عنبة . مات جابولو عنقود) ولا شك أن العنبة الواحدة وهو حي أنفع له من العنقود وهو ميت. وقد جاء اليوم شكر بعض العظماء، فقد نعت صحيفة الخرطوم إلى الأمة السودانية العالم المؤرخ الجليل مؤسس حركة التوثيق والحارس الأمين لبوابة التاريخ والوثائق السودانية البروفيسر محمد إبراهيم أبو سليم أنزل الله عليه شآبيب الرحمة وسحائب الغفران. فلحق برصفائه ممن أفنوا زهرة العمر وأحرقوا شموع البصر في التنقيب في صحائف تاريخ السودان وثقافته تنظيماً وفهرسة ودرساً فنفخوا فيها الروح وبعثوا رفاتها وقدموها للباحثين في أطباق من ذهب ويسروا عليهم أمر الرجوع لها بلا جهد، ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا بصماتهم عليها مؤلفين ومحققين ومعلقين ومستدركين وضابطين ومصححين فزادوها ثراءً وغنى.

لحق أبو سليم عليه الرحمة وله الغفران بركب الراحلين من جهابذة العلماء وفطاحلة الباحثين وكان أقربهم رحيلاً البروفيسر صلاح الدين المليك أستاذ العربية وآدابها بجامعة الخرطوم الذي رحل متدثراً بكساء الخدمة الطويلة الممتازة والبحث الثر، رحل في صمت وكأنه رأى أنه لا خير في الحياة بعد عميد الأدب وعمدة الآداب وعماد جامعة الخرطوم البروفيسر عبدالله الطيب. رحل ثلاثتهم مخلفين أحسن الآثار وأطيب الذكر. أما أولهم رحيلاً

* صحيفة الخرطوم ١٧ فبراير ٢٠٠٤م.

وهو البروفيسر عبدالله الطيب فقد وفاه الناس شيئاً من حقه إن كان بعض الوفاء ممكناً أو كان حقه مما يمكن أن يقضى وهيهات. وأما البروفيسر المليك فقد أحسن تلميذه زميلنا الدكتور صديق مصطفى الريح، فقد طالعت له مرثية تفيض حزناً وتتدفق وفاءً قال في صدرها:

يا قلب ما جدوى الأسى الغلاّب — والدمع إثر الفجع في الأحباب

حزن على حزن نعيش زمانه — في كل يوم نُبتلى بمصاب

عشرون عاماً آلمت بالعبقري — وأردفت بالألمعي الطاب

إن غار نجم ثاقب بالأمس ها — نجم يولي اليوم دون إياب

جرحان لا يرجى اندمال كليهما — والسلو يخدعنا كلمح سراب

يعني بالجرحين عبدالله الطيب والمليك وقد صارت الجروح ثلاثة برحيل أبي سليم. رحمهم الله.

والبروفيسر المليك فوق أدبه وعلمه ورسوخ قدمه وقدم أسرته في خدمة العلم والتعليم يمتاز بأُبوة شفافة وخفة روح نادرة فهو كما قال د. صديق:

حلو الدعابة والعلوم تمازجا — كأساً حلا لترشّف وشراب

بادي البشاشة والطلاقة أينما — تلقاه تَلْقَ حفاوة الترحاب

طلبني يوماً في مكتبه حين كان رئيساً لقسم اللغة العربية وكنت طالباً في السنة الخامسة فدخلت عليه فرحّب بي ونظر إليَ نظرة عتاب رقيقة وقال لي: د. فلان (المصري) أستاذ النحو عاتب عليك. قلت: في ماذا؟ قال يزعم أنك تعاكسه وتمتحنه لأنك سألته عن شيء لا يسأل عنه طالب متفوق ومثالي مثلك؟ وكنت سألته عن (تعلّق الجار والمجرور). قلت: يا أستاذ أنا والله سألته صادقاً وهذه الجزئية فائتة عليّ. فتفضّل رحمه الله بشرحها لي ثم طلب الدكتور المصري المتعاون وأكد له أن إبراهيم كان جاداً ولم تكن وراء سؤاله سوء نية و(عدّت) الأزمة بحكمته. وبعض المدرسين سامحهم الله يصوّر لهم ضعفهم في مادتهم أن المبرزين من الطلاب يتحرشون بهم. وذكرياتنا معه تحتاج إلى مفكرات. ومع أن الحديث اليوم لا يحتمل الطرفة إلاّ أنني ما تذكرت ذلك الموقف إلا أعاد إلى ذهني قصة أهلنا في

الشبارقة والدناقلة وهما قريتان بينهما وبين مسقط رأسي النيل الأزرق فقط والأولى أقرب إلينا موقعاً وطالما تبادلنا عبر الشاطئين الأخبار وأشياء أخرى وتربطنا بهما صلات قديمة. والحقيقة نحن نسميهما قريتين من باب العادة ولكنهما مدينتان بكل مقومات المدن وكانتا منارتي علم في شرق الجزيرة مثل رفاعة. وقد أنجبت الشبارقة والدناقلة شخصيات عظيمة كانت لها بصمات واضحة في تاريخ السودان قديمه وحديثه منذ أولاد شرف والحاج عجيب ود دفع الله تلميذ الشريف محمد الأمين الهندي ورائد زواج الكورة (الزواج الجماعي) في السودان منذ عهد التركية، إلى الشاعر الفحل الفذ إبراهيم الفكي صالح ومروراً بالشيخ يوسف ود جميل أنموذج الإدارة الأهلية ومثال النظار النادرين الذين أوتوا الحكمة ورجاحة العقل وصولاً إلى الدكتور الجزولي دفع الله الطبيب ورئيس وزراء الفترة الانتقالية. وغير هؤلاء من مئات – نعم مئات الأساتذة والأطباء والمهندسين والدبلوماسيين ورجال الإدارة والتعليم والعسكرية وغيرها. قلت كانت بين هاتين القريتين منافسة شريفة محمومة مشهورة وفي مناسبة عزاء جامعة في قرية الدناقلة وفي يوم "تفريقه" تغدى أحد أهل الشبارقة وجلس أمام أحد الصبية يغسل يديه – كما جرت به العادة – وأثناء ذلك سأل الصبي عن اسمه فقال له اسمي عيسى. فغضب الضيف ونفض يديه وثار ووجدها فرصة ينتصر فيها على منافسيه فانتصب واقفاً وصفّق تصفيقاً عالياً حتى صمت الصيوان (كأنما صبت مطرة) وقال بصوت مرتفع :يا ناس الدناقلة : أدبوا أولادكم. الجنى ده أنا بقول ليهو اسمك منو؟ قال لي :عيسى. طبعاً ظنها من أساليب الصعاليك الزهاجة. فقالوا له: والله يا حاج فلان اسمه فعلاً عيسى. ولك أن تتخيل كيف أسقط في يده فخرّ جالساً يواصل غسل يديه. فكانت حالي مع الدكتور المصري كحال عيسى المسكين مع ذلك الثائر.

أما الدكتور أبو سليم رحمه الله فعلى الرغم من أننا لم نتلمذ له مباشرة لكن للرجل فضل الأستاذية على كل من شدا شيئاً من التاريخ والثقافة السودانية. وكان أساتذتنا يجلونه ويقدرون جهوده. وقد كتبت عنه تلميذته النجيبة الأستاذة إخلاص مكاوي مديرة قسم الوثائق والمخطوطات التي ناقشت في بعض بحوثها رسالتين من دكتورعبدالله الطيب إحداهما للراحل أبي سليم والأخرى لشخصي الضعيف، فأحسنت وأفادت وأجادت

وذكرت ثناء البروفيسر عبدالله الطيب عليه حين أهداه كتابه القيم عن عالم المهدية (الحسين الزهرا) ومرّت ببعض ممازحته له بقوله (غلبت عليك عُجمتك) وكان أبو سليم نفسه يرددها على زملائه وطلابه فيقول لهم (غلبت عليّ عجميتي كما قال عبدالله الطيب) وبمناسبة العُجمة لا يفوتني هنا أن أذكر الشابِ صاحب الحضور المميز في هذه الصفحة أعني الأستاذ ياسر عبدالفتاح صاحب (الشقشقة) التي يفسد د. الباقر وآخرون اسمها أحياناً فهذا العمود على الرغم مما ينضح به من السخرية والنقد اللاذع فإن تحت ذلك اللسان المرّ لساناً آخر يقطر شهداً وقلباً كبيراً نابضاً بآمال السودانيين وآلامهم. فقد ملكني التأثر وأنا اقرأ نعي الأستاذ ياسر وتأبينه للبروفيسر أبي سليم فمرّ بذهني أيضاً نعيه وتأبينه قديماً للأستاذ محمّد توفيق صاحب الجمرات، فأكبرت فيه ذلك دون أن يمر ببالي أبداً أن ذلك الاهتمام نابع من (الحلفاوية) التي تجمع بين ثلاثتهم وإنما الذي شدني أن أصحابِ هذه الأقلام التي نضيق بنقدها أحياناً هم (ترمومتر) حقيقي لمشاعر السودانيين الغيورين يعجبهم ما يعجب أهل السودان ويسوؤهم ما يسوؤهم.

رحم الله موتانا وأحيا عزائم أحيائنا وهممهم للتكريم الحقيقي للمبدعين وهو الاحتفاء بهم أحياءً والاحتفال بأعمالهم والعمل على نشرها ليروا ما شيدوه ويطمئنوا على اهتمام الأجيال به. والخير والبركة في أخينا اللواء الخير المشرّف قائد هيئة رعاية الإبداع والمبدعين وفي أمثاله وما صنيع الأستاذ الدكتور حسن أبشر الطيب والرهط الكرام الذين تنادوا لتكريم الدكتور عون الشريف قاسم إلاّ بادرة وفاء مشكورة وبشرى خير. وحسن أبشر هو الأديب الأريب والإداري اللبيب الذي إذا قال فعل وإذا وعد وفى وإذا تسنّم تمّم. ونرجو أن يكون صنيعهم هذا هو ديدن مؤسسات العلم والثقافة الرسمية والأهلية في وطننا الحبيب.

وفي الختام فإن الأفراح والأتراح صنوان والخير والشر قرينان، وفي غمرة الأحزان تتسلل السلوى ويلوح العزاء من مجاهل الغيب لينبه الغافلين إلى أن الآخذ والمعطي هو الله الكريم المنان، فما خفت علينا بعض سحابة الحزن التي غشيتنا بفقد أبي سليم وسابقيه إلاّ بنبأ فوز احد أبناء السودان البررة وأحد أطهر رموزه الوطنية بجائزة عالمية سنية ذلكم هو الوطني المتجرّد المشير عبدالرحمن سوار الدهب – بارك الله في أيامه – الذي نال جائزة خدمة الإسلام والمسلمين من مؤسسة الملك فيصل الخيرية وهو أهلٌ لها بإجماع ليس فيه مثنوية. فهنيئاً للسودان قبل آل سوار الدهب. وليهنِ آل سوار الدهب العز الطارف والتّليد.

وَلَدْ وَلاَّ بِتْ ؟*

نسمع عن الجالية السودانية في تبوك بالسعودية أنها جالية متماسكة ومتعاونة وهذا خلق السودانيين الأصلاء أينما نزلوا . وقد سعدت مرة بمداخلة وفدٍ منهم هاتفياً عبر إذاعتنا في لقاءٍ أثاروا فيه قضايا جوهرية ومهمة . وهاتفني من تبوك الأخ الحاج عثمان محمد نصرالدين وهو شاب أحدب وأخو إخوان من أبناء جزيرة الفيل بمدني وبعد تبادل التهنئات بالعيد سألته عن العيد في تبوك فأفادني بنبرة حزينة أنهم قضوا عيداً حزيناً بسبب طفلة صغيرة مرحة حلوة ومحبوبة لدى الجميع اسمها (أم الحسن) عمرها أربع سنوات وهو عمر الحلاوة والشقاوة معاً . خرجت أم الحسن في كامل زينتها تلعب يوم العيد فأصابها رشاش من الألعابِ النارية كاد يفقدها إحدى عينيها فأدخلت معارفها في غمٍ وحزن وتقلت إلى مستشفيات المدينة المنورة نسأل الله أن يعيد عينها إلى حالتها الأولى وأحلى.

أعادتني هذه الحادثة المؤلمة إلى ألعابنا الليلية والنهارية في عهد الطفولة وتذكرت (حَرَّينا الما يجينا ود الإضينه ، وشليل وينو أكلو الدودو وشليل وين راح أكلو التمساح) وكانت ألعاباً في غاية (البساطة) والسلامة ومكوناتها من البيئة المحلية . ومن لعب البنات المعروفة والمفيدة لعبة (بنات أم لعاب أو بنات أم لَيّون) وهي عرائس تصنعها البنات ويتعلمن فيها الخياطة وتربية الصغار والعناية بهم وهي قديمة جداً لعبت بها السيدة عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – مع أترابها . أما الأولاد فمن ألعابهم النّهارية (وليست النارية) لعبة المدافع وهي منافسة قوامها طين ليِّن يشكَّل ويجوَّف ويملَّس ثم يضرب به على سطحٍ مُسْتَوٍ ، فإذا انفطر الطين وأحدث صوتاً هائلاً قالوا (ولد) وإن أحدث صوتاً ضعيفاً قالوا (بِتْ) وبالطبع يفوز صاحب الضربات الأقوى الحاصل على أولاد أكثر . وقادتني هذه

* صحيفة الخرطوم ١٠ يونيو ٢٠٠٣م.

اللعبة البريئة إلى رسوخ ثقافة المذكر فينا منذ نعومة أظفارنا . فأنت إذا كنت تنتظر نتيجة فإنك ترقب حامل البُشرى بلهفة فتقول (أها ، ولد ولاّ بِتْ ؟) وحتى عبارة بعض إخواننا المصريين (سبع ولاّ ضبع) هي من الوادي نفسه . وحتى النساء في ساعات المخاض والولادة ينتظرن بقلق شديد فإن كان المولود ذكراً سمعت الزغاريد تمزق صمت الليل ، وإن كان بنتاً قالوا (البِجِل أمُّو كلو سمح أو البطن البتجيب البت بتجيب الولد) . قالوا بُشِّر أعرابي بمولودة فقيل له : نعم المولودةُ مولودتُك ، فقال والله ما هي بنعم المولودة ؛ نُصرتها بكاء وبِرُّها سرقة . يعني لا حيلة لها في الشدائد ولا سلاح لها غير دموعها ، وأنها تسرق من زوجها _ إذا كان لئيماً — لتبر والديها . ولكن حين بُشِّر المصطفى صلى الله عليه وسلم بفاطمة قال : (ريحانة أشمها ورزقها على الله).

ولنا جَدٌّ – أطال الله عمره – مع (حِنّيته) الدافقة إلا أنه لا يضيق بشيء في الدنيا قدر ضيقه إذا سمع بأن أحداً رزق بنتاً ، حتى إن أحد أبنائه – رحمه الله – أبرقه من لندن بأنه رزق بنتاً فقال لأبنائه : يعني فرحان ؟ اكتبوا له رداً على برقيته : " بدل تجيب ليك ولد يشد ضهرك في الغربة جبتها بت ؟ أريتا كان جات عاضة لسانا ." يعني : ميتة . وهي الآن من النّابهات - رعاها الله — وقد حفظت اسم أبيها بعد أن أختاره الله . وتحامُلُ جدنا هذا على البنات يذكرني بأعرابي سئل : كم لك من الولد ؟ قال : قليل خبيث. قيل وكيف ؟ قال لا أقلّ من واحد ولا أخبث من بنت !! ورأى زياد بن أبيه على مائدته رجلاً قبيح الوجه كثير الأكل فقال له : كم عيالك ؟ قال تسع بنات . قال أين هُنَّ منك ؟ قال : أنا أجمل منهن وهُنَّ آكَلُ منّي . فقال ما أحسن ما تَلَطّفَتْ في السؤال ، وأمر له بعطاءٍ دائم .

ومع أن القسمة مكتوبة والفي النصيب يصيب لكن بعض الناس يتعبون ويجتهدون وتعتصر الأماني قلوبهم رغبة في الولد . قال أحدهم : كنت مئناثاً (يلد الإناث) فقيل لي استغفر الله إذا أتيت زوجتك ففعلت فولد لي بضعة عشر ذكراً . ومن ألطف ما سمعته في ذلك ما حكاه لي عمّنا الذي رحل قبل أيام وخلّف – رحمه الله – فراغاً لا يُسَدُّ ، الخليفة

قسم السيد رفيق آبائنا وبقية الصالحين أهل الوفاء ورعلة العهود من أبكار الطريقة اليوسفية الهندية ، رحل بصفائه ونقائه لم تغيّر فيه سنوات العمر التي ناهزت المائة ، وهو فَقْدٌ لكل من عرفه ولكنه فَقْدٌ كبير لشخصي الذي يَتَغَوَّر جرحه كلّما انفرطت حَبَّةٌ من حبات ذلك العقد النضيد لذلك الجيل الفريد . قال لي – رحمه الله – شكوت لشيخنا الخليفة الشريف عبدالرحمن ود الهندي من كثرة البنات وأبديت له رغبتي في ولد ، فقال لي: حوّلوا سريركم عن موضعه . قال فحولناه فرزقت أربعة أولاد .

وللناس في ذلك محاولات واجتهادات ولكنها لا تعدو أن تكون مصادفات وموافقات تسير وفق خُطَى القدر . وربّما لام بعض الرجال نساءهم على إنجاب البنات مع أن الواهب هو الله سبحانه ، لذلك تجد المرأة تحاول الاعتذار مرة والإقناع بالنصيب مرة أخرى ، إلا زوجة أبي حمزة الذي حين وَلَدَتْ له الأولى وبّخها ، فلما ولدت الثانية اسمعها كلاماً فاحشاً وحين ولدت الثالثة رحل من الدار وسكن في بيت مجاور فكتبت له أبياتاً قالت فيها:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا … يظلُّ في البيت الذي يلينا

لأننا لا نلد البنينا … وإنما نأخذ ما أُعطينا

فألزمته الحجة بأنها كالأرض وإنما تنبت الأرض ما يُبْذَرُ فيها ، فرقَّ لكلامها ورجع . وجاءت أخرى إلى الجانب الجذّابِ في البنت فقالت لزوجها حين لامها في بنت وَلَدَتْها:

تلومني أن لم ألِدْ غُلاما … نَجْداً هِزَبْراً بطلاً مِقداما

إلاّ أكُن وَلَدَتْه قَمْقَاما … مُواتِياً مُقَدَّماً إماما

فإنها تَقْتَنِصُ الضِّرغَاما … والمِلكَ الُمتَوَّجَ الهُمَاما

وتَأْسِرُ العُقُولَ والأحلاما

وفي دي معاها حق ! فكم من ظبية صادت أسداً ، وكم من جميلة جَنْدَلَتْ ملكاً وكم من حسناء لعبت بالعقول والقلوب .

ولا تعليل لجَزَع الناس قديماً وحديثاً من البنت إلاّ خوف العار والفقر ؛ لذلك تجد التهنئة المعهودة عندنا بالبنت : إن شاالله من المستورات . وزادني بعض أهل التجارب عندنا سبباً آخر

صلاف في نفسي هوىً شديداً حين قال لي : البت ما عندها عوجة كان حفظت عرضها وما جابت ليك نسيباً أَفْرَر . وقد صدق لأن النسيب الخائب عِبْءٌ آخر . أما حكاية (المرة كان فاس ما بتكسِّر الراس) فأظن أن نساء زماننا يستطيع أكثرهن تكسير الرؤوس بلا فؤوس .

ولعلّ الله تعالى حين اختصّ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم بالذرية من فاطمة أراد – وهو أعلم – الإشادة بالمرأة لكي لا يمضي الرجال في نسبة الفضل إلى الذكور خاصة . وأراد إنهاء الغَمّ الذي كانوا يجدونه حين يُبَشَّر أحدهم بالأنثى . وأهل الخبرة عندنا يرون أن الرجل إذا بكّر بالأنثى فتلك (بَخَاتَة) أي حُسْنُ حظ ، وهذا الاعتقاد يوافق ما ذهب إليه بعض المفسرين. فقد قال وهب بن مُنَبِّه إن الحكمة من تقديم الله تعالى ذِكْرَ الإناث على الذكور في الآية (يَهَبُ لمن يشاءُ إناثاً ويَهَبُ لمن يشاء الذُّكور) أن من يُمْنِ المرأة وحُسْنِ طالِعِها أن تلد الأنثى قبل الذكر ؛ لذلك يقول أهلنا لمن يبكّر بالبنت: (إن شا الله شايلا أخوانا) والتجربة تريك أن بِكْر البيت إذا كان بنتاً فإنها تساعد في حمل كثير من الأعباء في وقت مبكر . ولعلّ محّبة أهل تبوك الملحوظة للطفلة (أم الحسن) تريك أن طعم البنت والولد واحد خصوصاً في سن الطفولة .

فألف بعد الشر على الأمورة التي سمّاها أبوها باسم أُمِّه وتيمُّناً بأم الحسن والحسين السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، ولكن اقرأوا معي الأبيات التالية لتعرفوا معنى آخر جميلاً لاسم (أمِّ الحَسَن) ، قال الشاعر الأندلسي :

وطيورٍ كأنها خُطَبَاء	**في غصونٍ كأنهن منابرْ**
سَتَرْتَهْا الأوراقُ وهي تغنّي	**فسمعنا القِيانَ خَلْفَ الستائر**
أسمعينا يا أمَّ (حاءٍ) و(سينٍ)	**ثم (نُونٍ) لعَطْفَة الصُّدْغِ دائر**
نَوبَةً تُبْرِئُ المُنَوَّبَ حتى	**لو غدا ميِّتاً لأصبح ناشر**

لا يخاطب الشاعر بقوله (أم حاء وسين ونون) امرأة ذات حُسْنٍ كما يوحي البيت الثالث وإنما يخاطب (البُلْبُل) ذلك الطائر المغرِّد ، وهو معروف عند العامة في الأندلس بأمِّ

الحسن. ويريد من هذا الطائر المطرب المغني أن يسمعهم دوراً من الغناء يبرئُ صاحب النوائب والمصائب .فنسأل الله أن يلطف بعين (البلبل) أم الحسن لتعود إلى تغريدها داخل سرب أسرتها وأن يردّ عينها سالمة صحيحة كما ردّ عين قتادة وكما شفى عين علي رضي الله عنهما ببركات ونفحات صاحب المدينة المنورة التي أسعفوها فيها . وأن يجعلها قرة عين لوالديها. وتحيّة خاصّة لأهل تبوك الأوفياء ولأهل جزيرة الفيل ولأخي الحاج محمد نصر الدين صاحب القلب الكبير على شهامته ونبل مشاعره.

ود حاجَّة هيبة وكُتال المحرَّشين *

أولاً لا ينكر أحد قيمة الردود والتعقيبات وما تضيفه للقارئ من حقائق ومعارف وما تُضْفِيه على الصحيفة من حيوية شريطة أن تَتَّبع الأسلوب العلمي المعرفي والموضوعي وتشملها مسحة معقولة من روح الكاتب حسب طبيعة تكوينه . ولعلكم قرأتم (لَوْلَوَة عم عيسى المصحِّح) في مفكرة الأربعاء ٢٠٠٢/٩/١٨م . فاستحضِرُوها وقولوا معي (جَنَتْ على نفسها براقش) فالذي يقرأ استهلال عم عيسى بقوله : (صَارْ عينو بلا وقيعة وجارْ حَقُّو بلا شريعة أخوي روحو مَسَبِّله) يحسب أنه سيلاقي محمود ود زايد وبامسيكة البطحاني وأولاد فِتر ، فإذا بجعجعة ولا طِحْن تماماً كما قالت البعوضة للفيل : تماسك فإني أريد أن أطير . فالكلام كلام أعرابي في شَملة والفعل ما قاله عبدالملك . ومع أنني لم أَرَ عم عيسى ولم أسمع صوته ولكن ملامح صورته وأسلوبه يوحيان _ إن صدقت فراستي – بدمائة شديدة ولطف زائد لا يناسبان (الصار عينو بلا وقيعه) ومع ذلك أقول له :

أبرِقْ وأرْعِدْ يا يزيدُ فما وعيدُك لي بضَائر

وما فرغنا من تعليق الإخوان على ثناء معلم الأجيال عمنا الأستاذ مصطفى أبي شرف – حفظه الله – في ثرثرة الأمس حتى انهالت علينا لَكَمَات عمنا عيسى ، فيا أخي على الأقل بين المصطفى وعيسى عليهما صلوات الله فترة . وإنت لاحق شنو بعد أن قبضت الثمن ، لكن استغفر الله من وين ؟ فأستاذنا دقش ذات نفسه ذكر أن معتصم قرشي وصديقه استبعدا حادثة السرقة من أصلها وقالا إن دقش ما عندو ولا فرطاقة .أذكِّر القراء بأن عم عيسى قال : (لما بلغت الحَيْرة بدقش مداها دَفَرَهُ لكُتال القرشي) وعلى ذكر أستاذنا أراك أقمت بيني وبينه معركة في غير معترك وما زاد الأمر على مراجعة بين أستاذ وتلميذ . واتهمتني بالجِرْسة وأنني بعد أن قضيت وطري أصبحت أقول له (أستاذنا) والعين لا تعلو

* صحيفة الخرطوم ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢م.

على الحاجب ... الله يسامحك ، ألا تستحي من القراء المتابعين ؟ أنا لم أخاطب د . دقش منذ أن عرفته إلا بأستاذنا (راجع أول مفكرة بتاريخ ٣٠/٧ وحتى آخر مفكرة) ولن أتركها ولو رماني بجيش من المحرشين على الكُتال من أمثالك يا عم عيسى ، لأنها قناعة ، فأنا أُجِلُّهُ وأُكرمه وأتابع كتاباته بشغف وتعجبني شجاعته وانحيازه للغلابى بتفجير القضايا التي تقلق المتساهلين وتعود بالخير على المسحوقين . فالحمد لله الذي سخرك له فكفله وكفاني ما كفانا . ونحن يا عم عيسى من قوم لا يمنعنا الاختلاف من التحلّي بالنُّبل ، واختلاف الرأي عندنا لا يلغي الأستاذية . وقديماً قيل : اختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية .ثم ألم تسمع في ثقافة أهلنا أنهم إذا هاجمهم العدو كانوا يحاربونه نهاراً ويرسلون له الطعام والضيافة ليلاً . يا عم عيسى نحن الجِرْسة ما حقتنا ، وليس في قاموسنا : (اللُّضينة دُقُّو واتعَضَّرْلو) . بعدين شوف ثقافة المحسوبية التي رميتَ بها الإنقاذيين – الثقافة التي قَوَّلْتَني فيها ما لم أقل _ مفكرتكم مضبوطة بالحركات ومكتوبة بالحرف الماهل ومفكرتنا يُخْشى أن يَصُبَّ الزيت منها على قرائها من شدة العصير . ثم والله ما زلت أكتب وأعاين للصورة يا ربي دي صورة حديثه فإن كانت كذلك فليس الفارق بعيداً ولا بأس من تقوية العيار والضرب في التُّنْك ، وحين أرجع لعبارة أستاذنا دقش ووصفه لك بعم عيسى أخشى أن تكون أكبر مما في الصورة وهذا خط أحمر أتحاشى تجاوزه . لكن على كل حال تقبلت كلامك بصدر منشرح ففيه نكهة ظرف لا تَخْفَى ، خصوصاً حين رفعت (حجاب الدَّال، اختصار دكتور) لعلمي أن ذلك يريحُك ولا ينقصني – والواقع أنك رفعته قبل الإعلان عنه بكثير – ولأن التكافؤ من شرائط المواجهة على الرغم من طولة اللسان وتغريق ذمتك كثيراً . ألم تقل يا عم عيسى بعضمة لسانك لابنك محمد : (هذا الرجل ملاحظاته جميعها صحيحة ؟) فأيّنا المُتَلَوْلِوْ ؟ . الحقائق العلمية يا عم عيسى لا تسمى عَكْلَتَة ولا لَوْلَوَة فابحث عن هذه الصفات في مكان آخر وتذكرّ قولهم : (رَمَتْنِي بدائها وانسلَّت) وقولنا : (الفيك بدَّرْبُو) !!. وعلى كل حال سميناها رضينا لأنها تخصني ، ولكن أشد ما ساءني في مفكرتك المقطع الأخير لأنه يمسّ أمة من الناس لها أقدارها وسأعود إليه وأختم به.

وأراك فرحت باصطيادك خطأً واحداً هو عدم تدبيل ياء الجعليين (التدبيل عربي) ولكن خاب سَعْيُك فستجد في (مُفَكِّسَتِكُم) الأصل المكتوب بخط يدي وأرجو أن يرفع الله العمش والعشا عن الضبع لترى الياءين كالقمرين النيِّرين . أما ما اطلع عليه جنابكم فهو (غُواسة الأخ الطابع) وعلى كلٍّ ليس هذا ما أعنيه بالأخطاء التي استنجدت فيها بدكتور باقر إذا قرأت استنجادي بعين العقل ، لأن هذا ممكن الوقوع مني ومنك ومن كل من رُكِّبت في كفّه خمس أصابع (الأصابع مؤنثة) ولكن الذي أردته هو نوع الخطأ الذي وقع فيه عم عيسى في هذه المفكرة وهو استخدامك (طالما) بمعنى (ما دام) في قولك (طالما كان موقفنا ضعيفاً) ألا يعلم عم عيسى أن (طالما) عند أهلها تعني (كثيراً ما) ألم يبلغك قولهم (طالما نَهَيْتُهُ فلم يَنْتَهِ ؟) ، ألم تسمع قول زياد :

فإن تُمسِ مهجور الفِناء فطالما　　　　أقامتْ به بعد الوُفود وُفودُ ؟

فسجّل هذه وشمِّر تشميرَ أبي عمرو لاجتناء الفوائد وقل لنفسك : عَرَفْتَ فالزم . وبلغ سلامي إلى ولدنا الغالي محمد وقل له عمك القرشي معكم داخل سَلَّة (الخرطوم) وهَدَفُه فقط أن يسلم بيض (الخرطوم) في زمن الحجارة هذا . ثم أراك قربت بين موقفي من مصححي الخرطوم وموقف حسان بن ثابت ، وأنا لو فعلت بكم ما قاله حسان لابن الخطاب رضي الله عنهما حين استشاره في هجاء الحطيئة لبني العجلان لما رفعتم إليّ عيناً بغمزة حق ولا باطل لكن من أسماء الله : الستّار .

واقترحت عليّ أن أبعث موادي للصحيفة عن طريق تقنية حبوبتك هيبة (بلغها سلامي إن كانت حية ولنترحم عليها إن كانت الأخرى ، وأشهد أن حفيدها أقحمها في أمر لا ناقة لها فيه) لكن إذا أرسل كل كاتب مواده عبر تقنية حلجة هيبة (الإنترنت) فمن أين يرتزق المثقفون من أمثال عم عيسى الذي يقول : المثقف لا يهجر وطنه من أجل لقمة العيش !!! هذه ثقافته التي يتمسك بها على غير هدى ، وهي التي تقول : - وهذا الكلام لعم عيسى ومن يفهم فهمه الملتوي - : طارن الصقّار وخلّن أم رخم الله في الدار وكان

أبتك دار فلله ديار ، وشن جابرك على المرّ ؟ قال الأمـرّ منّـو ، ومجبـورة خـادم الفكـي علـى الصلاة ... وتقول مرجعيتها العربية : (وإذا نبا بك منزل فَتَحَوَّل) وتقول مرجعيتها الدينية : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ... ومـا تـدري نفـس ... وهلـم جرّا . بل لقد هاجر خير البشر – وله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى – يـا عـم عيـسى فما تصنيفك له ؟ أمثقف أم متعلم ؟؟

أما اعتراضك على كون الصحيفة أكثر شعبية فإنمـا أردت أكثـر شـعبية بـين الوسـائل المكتوبة كالمجلات والكتب . وأمـا عبـارة الاتـصال الجمـاهيري والإذاعـة والتلفزيـون الـتي حاولت تسميعها فهي مما لا تنتطح فيه عنزان . وأما كنكشة الإنقاذ في الإذاعـة والتلفزيـون فيا عم عيسى الحق أبلج والإنصاف مطلوب ، ولعلك مغبون من الجماعة ديل وعايز تَنْفَشْ فاتخذتني جسراً ولكن (نهبك طلع على شونه) . فحديثي وحديثك وحـديث غيرنـا عـبر الوسائل بأنواعها يمثل مساحة حرية لا بأس بها وثقافتنا تقول : الماسـك القلـم ... ألا تـرى هنا أن القلم أزال البلم ؟ وأراك رجعت في شرح (البلم) لمعجم الدكتور عون – أنعم به وأكرم – لكن المنهج العلمي يقتضي مراجعة الأصول ، وأصل عون وأصـلك وأصـلي هـو لسان العرب الذي أورد المعنى وزيادة وقال هـو مـن ورم الـشفتين أو ورم حيـاء الناقـة – أكرمكم الله – فإذا ورم الأول – الفم – امتنع خـروج شـيء منـه ، وإذا ورم الثـاني امتنـع دخول شيء إليه فيصبح (لا يودي لا يجيب) وهو الأبلم . فأتوا البيوت من أبوابها يا عـم عيسى وَلْلا لقيتوها ماشه ؟

أما حديثك عن الثقافة وتقويلي ما لم أقل فجناية علمية ، قلت (الثقافة عند القرشي هي التعليم والمعرفة الموسوعية) من أين لك هذا ؟ وهل سمعت كلام المثقفة التي اتصلت لتحكم على نوع ثقافتها الذي قصدته ؟ إن كلامك عن الثقافة هـشٌ لـين لا يُلتفـت إليـه وتعويلك على تعريفات جعفر بخيت وزكي نجيب عندنا ما هـو أوثـق منهـا وأقـدم حـسماً لتعريف الثقافة ؛ فقد علمنا من قول الله تعالى (فإمـا تَثْقَفَـنَّهُـمْ في الحَـرْبِ) ومـن حـديث

الهجرة (وهو غلام لَقِنٌ ثَقِفٌ) ومن حديث أم حكيم بنت عبد المطلب (إني حَصَان فما أُكَلَّم وثقَافٌ فما أُعلّم) ومن قول الشاعر :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ بينها   حتى أقوّمَ مَيْلَها وسِنَادَها

نَظَرَ المثقِفِ في كُعوب قَنَاتِه   حتى يُقِيمَ ثِقافُه مُنْآدَها

علمنا من كل ذلك أن الثقافة هي الفطنة والذكاء وثبات المعرفة بما يُحْتَاجُ إليه، وضَعْ خَطّاً تحت (ما يحتاج إليه) تجدها تشمل كل ما نزاوله ابتداءً من فنّ ربط الدابة شُرْعَةً أو شِكَالاً إلى الاستنساخ . وعلمنا كل ذلك قبل قرون طويلة وجعفر بخيت و زكي نجيب وأهلنا الطيبون المثقفون بالفطرة كانوا جميعاً في علم الغيب . وبقيت نقطتان ، وإلى لقاء إن شاء الله .

هجرة الجواميس*

منظرٌ وأبياتُ شعر ومطالبةٌ من بعض المهتمين هي التي دفعت بي إلى الخوض في أحوال الاغتراب الماثلة. أما المطالبة فبعض القراء عاتبون علينا وملحّون على أن نسخّر أقلامنا لقضايا المغتربين. وما أبينا ولكنا نخشى من النفخ في الرماد . وأما المنظر فقد اكتشفت أخيراً أن ميلي إلى مناظر الطبيعة والحياة البرية هو تعويض لما افتقدته من البيئة المفتوحة التي نشأت فيها بعد أن قضى الله علينا أن نمضي بياض النهار وسواد الليل بين الحيطان. فقد شاهدت في بعض أفلام الحياة البرية تحركات قطعان الجاموس البري في هجرتها السنوية تخوض الأوحال وتقتحم الأدغال متدافعة فَتَنْدَقُّ أعناق بعضها ويموت بعضها في الزحام فإذا نجت من ذلك كانت السباع والضواري في انتظارها. وهي بذلك في صراع أبدي يكون فيه البقاء للأقوى أو للمحظوظ في نهاية المطاف. فمر بخاطري أثناء ذلك مصطلح(الطيور المهاجرة) الذي يطلق على المغتربين فقلت والله إن هذا المنظر المذكور أنسب لحالهم وأن مصطلح (الجواميس المهاجرة) أقرب لمآلهم لفرط ما يناطحون من أجل البقاء. وقديماً كنت آسى وأحزن وأستاء لمنظر المهاجرين الكبار(الشِّياب) وبمرور الزمن أدركت أن أكثرهم مثلي هاجروا شباباً ثم طال عليهم الأمد. وكنت في أول عهد الاغترابِ كتبت أبياتاً لزميل عزيز بالسودان قلت فيها :

وقَضَيْتُ خامسةَ السّنين ومـا اشتَرْيتُ (أُلَيْفَ) طُوب

فردّ عليّ رداً جافاً ساخراً قائلاً (وقاعد تسوِّي شنو؟) ووكيلك الله لحق بي بعد ذلك بأعوام وما يزال يصارع والله أعلم كم ألفَ طُوبٍ اشترى؟ أما أبيات الشعر فما رأيت مؤهّلاً في الغربة يعمل مضطراً في غير حقل تأهيله إلا تذكرت قول ابن مُفَرِّغ:

---

* صحيفة الخرطوم ٢٠ أبريل ٢٠٠٤م

ومـا كنـتُ حجَّامـاً ولكـنْ أحلَّـني　　　بمنزلـةِ الحجَّـام بُعْـدِي عـن الأهـل

فالغربة ذُلٌّ وكُرْبة. وما جلب الغم والهم لأكثر المغتربين إلاّ مهنة (الراعي) التي جعلت أكثر حامليها زوراً يعملون حجامين وإن لم يكونوا حجامين بين أهلهم. وليس لأحد منهم حجة إلاّ (إيه رماك على المر قال الأمر منه) . ومع أن في تراثنا قناعة وتنفيراً من الغربة حتى فضلوا الموت عليها:(من النَّجْعَهْ وسُكْنَةَ الغُربة .. أفضَلْ لي دَفِنْة التُّربهْ). ولكن لعل بعض الذين ركبوا موجة الهجرة دون تعقُّل كانوا مدفوعين بجانب من التراث يدعو إلى الاغتراب أيضاً ابتداء بأبيات الإمام الشافعي المشهورة (سافر تَجِدْ عِوَضاً عمَّن تفارقه) وقول آخر (سافر ففي الأسفار خمسُ فوائد)، و(إذا نَبَا بِكَ منزلُ فَتَحَوَّلِ) و(خير البلاد ما حملك)، بل بعضها يحارب حُبَّ الوطن عَلَناً ويدعو إلى الهجرة:

حُبُّكَ الأوطانَ عَجْزٌ ظاهرٌ　　　فاغترِبْ تَلْقَ عن الأهل بَدَلْ

وبعضها يدعو إلى الاستكانة والخضوع :

إذا نلــتَ في أرضٍ معاشــاً وثــروةً　　　فلا تُكْثِرَنْ منها النِّـزَاعَ إلى الـوَطَنْ
فمــا هــي إلا بلــدةٌ مثــل بلــدةٍ　　　وخيرُهما ما كان عَوناً علـى الـزمنْ

وبالطبع فإن في مثل هذه الأشعار دعوة لا تسرّ سفيرنا في الرياض الأستاذ عثمان الدرديري ولا نائبه الأستاذ سليمان عبدالتواب ولا سعادة الوزير اللواء الهادي عبدالله فهم ممن لا يجد سانحة إلا استغلها في الدعوة إلى الهجرة العكسية.

نعم ربما صادف بعض الناس نجاحاً في غربته وهم قليل ولكن دارت الدائرة على كثيرين ممن لم يكونوا محتاجين للهجرة أصلاً ولكن جرفهم التيار والمظاهر الخادعة فـ(لا طالوا بلح الشام ولا عنب اليمن) بل تَرَدَّوا بعد العز برداء المهانة. وكم من مهاجر في هذا الزمان كان ملء السمع والبصر في وطنه فإن لَقِيتَه في المهجر استغربت كيف هاجر هذا وأمثاله خصوصاً الجيل الحديث من أبناء المشايخ والأعيان والأثرياء (أبناء العز). فمعظمهم

كان في بلده تِبْراً فأصبح تراباً وكان عوداً عطراً فعاد أشبه بدخان الطُنْدُبِ ولئن كـان المتـنبي قال: (وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ) فإنا نقول:

العِـزُّ مطلـوبٌ ومُلْـتَمَسٌ وأعـزُّهُ مـا كـان في الـوَطَنِ

ووالله ما قرأت أبيات الشاعر القديم إلا تخيلت أنه ما قالها إلاّ في السودانيين الذين أصبحوا من بين شعوبِ الدنيا هم خلفاء الخضر عليه السلام في تدويخ البلاداسمع قوله:

بكـلِّ بـلاد بـل بكـلِّ مَظِنَّـةٍ أخـو أَمَلٍ منَّـا يُحَـاوِل مَطْمَعَـا
كأنـا خُلقنـا للنَّـوى وكأنمـا حـرامٌ علـى الأيـام أن نَتجَمَّعَـا

أليس هذا هو حالنا؟

والمصيبة أن وصف مرارات الغربة لا يُقْنِعُ ولا يَـسُرُّ الـذين لم يجربـوا الاغـتراب ولا يصغي إليه الراغبون فيه، فلا يرون قائل مثل هـذا الكـلام إلا حاسـداً أو حاقـداً أو عـديم مروءة لا يريد المساعدة حتى تحملهم الأمواج إلى اللُّجة وهناك يستبين النُّصح ويبـدأ صـراع النجاة حيث لا ينفع الندم، ويدخلون في المسلـسلات الـتي لا تنتهـي كمسلـسلات أمريكـا الجنوبية المدبلجة. والناس لا يرحمون المغترب ولا يعذرونه وهو عندهم كمـا يقـول البحـارة (مجبور الريِّس يجيب الريح من قرونه) أصيب أحدهم بارتفاع ضغط الدم فاستغربتُ لأنه لا يحمل مؤهلات هذا المرض، فقال إن السبب(زعلة). فقد اجتمع في أول إجازته مـع خاصـته من إخوانه وأقاربه وأخبرهم أنه مُفْلِس وإنما جـاء بـه الـشوق واسـتدان تكـاليف الـسفر ليزورهم ويبر والديه ولا يملك شيئاً يساعد به أحداً أبداً. قال فتفرقوا ثم صـار كـل واحـد منهم يَخْتَلِسُ غفلة الآخرين ويدخل عليه قائلاً (القمرية ما بتعذر التَّقَا) أنا أوضـاعي كـذا وكذا وأريد المساعدة. فيقول يعني إنتو ما مـصدقين كلامـي فيقولـون: نحـن مـصدقين لكـن (جُحْر الضَّبعة ما بيخلا من العضُم) قال والله كدت (أطرشق) ومنذ تلك الإجـازة صـنفت في المصابين بمرض العظماء. ولا يخلو الأمر أحياناً من طولة لـسان فقـد ذكـر بعـضهم أنـه

أرسل مبلغاً لقريبه فطالت مدة وصوله وكرر السؤال عنه فلما (زهج) المرسل إليه قال له بكل (مسلخة) (والله قروشك دي لوكنت أرسلتها على ظهر نملة لكانت وصلت). وقد يتعرض بعضهم للاستنزاف فقد ذكروا أن مغترباً كافح واشترى قطعة أرض ثم أوكل من يتولى بناءها من أهله وأصبح يحول (التحويل في ضنب التحويل) حتى كلَّ وملّ فقال للوكيل يلخي بلختصار البنيان وصل وين؟ فقال يعني ارتفع من الأساسات قدر متر. فردّ عليه بجزم شديد : خلاص أعرشوه (اسقفوه). ولا يسلم المساكين من الابتزاز خصوصاً ابتزاز بني جلدتهم، فكل من يقدم خدمة أو سلعة إذا عرف أن الزبون مغترب فإنه سينبذ كل موروث الأصالة والذمة والورع في سبيل الفوز بكمشة من مال هذا المسكين كأنه (ما ضاربو حجر دُغُش) في هذا المال . أوقف أحدهم سيارة الإفراج المؤقت بعيداً ولكن البائع رآه (كَحَلُو)، ثم وقف ينتظر حتى بايع الزبون الموجود فسأله عن سعر الطماطم فأعطاه السعر مضاعفاً فلحتج المسكين يا اخي إنت هسع بعت للزول القدامي ده بي ربع القيمة. فردّ عليه ببرود: الإفراج داك ما ليهو قيمة؟).

ومن أوهام الناس عندنا أنهم يظنون كل مغترب غنياً وكل راكب سيارة إنما جلبها معه تَرَفاً وهم لا يعلمون أن من يأتي بالسيارة لا يملك سيارة في السودان، وأن هذه السيارة ستعينه على تحركات أسرته ومواصلة أرحامه وترفع عنه ابتزاز سيارات الأجرة وتوفر له وقت الإجازة القصير. وإنه لما (ضرّب) قيمة التذاكر لأسرته المباركة وتكاليف الرحلة وجد أن السفر بالبر أوفر له وإلاّ فما ضرورة ركوب البحر لساعات قد تقارب العشرين أحياناً في عبارات(بواخر) عديمة الأهلية (حدفه) عليها تشجيع الناقل الوطني (الخطوط البحرية السودانية) وقد جربتها وأرجو ألاّ أُجَرِّبَها ثانية رغم ما يشاع عن تحسن أوضاعها. ثم إذا خرج من البحر وقع في طريق لا يخلو من خطورة ووعورة ، ثم يقع المسكين في سلسلة الرسوم والجبايات المتتابعة، وبعضها همبتة صريحة، فقد استوقفنا أحد العساكر في منطقة

مقطوعة فأشفقنا عليه فاقتطعنا له شيئاً من (زُوادتنا) فرفض واعترض طريقنا مطالباً بملابس وأشياء أخرى!

ويمتد مسلسل الابتزاز حتى لمن يشاركونهم الغربة فإنك ما تدخل على صاحب متجر لسلعة سودانية إلا وجدت جشعاً وطمعاً بغيضاً حتى إن السلعة أحياناً لتباع بأضعاف ثمنها وما ذلك إلا تعويضاً لعقدة الوهم القائل بأن المغترب يدفع ولا يهتم. أو رغبة في الثراء السريع الذي بدّل (أخلاقيات) السودانيين فأصبحت فئات كثيرة منهم تَعُجُّ بها سجون الخليج خاصة بسبب التزوير والاختلاس والـمُسْكِرات وبيع الشرف وغير ذلك مما لم يكن للسودانيين به سابق عهد؛ لأن الذين اغتربوا في بادئ الأمر كانوا مؤهلين ثم جاءت أفواج أخرى في الوقت الضائع ابتدأ معها الخلل من داخل السودان حيث افلتوا بالرشوة والتزوير والغفلة من أوضاع لا تسمح لهم بمغادرة السودان ثم كان ما كان.

ومصيبة المغتربِ الكبرى أن دائرة همومه تبدأ في الاتساع كلما تقدم الزمن وكلما طال أمد اغترابه فتشمل الأبناء والزوجة إذا كانوا مقيمين معه، الأبناء تلقي بهم رياح التعليم في اغتراب آخر داخل الوطن بعيداً عن الوالدين. والسعيد من كان قريباً من بقية أسرته من جدود وحبوبات ونحوهم. أما البقية فتتناهبها الداخليات والمطارات جيئة وذهاباً. فيطير من عقل الأب ما لا يرجع إليه أبداً من هموم الغربتين المضاف إليها ضغوط العمل وهواجس (التفنيش) وشبح رسوم التعليم الخاص الذي يكتوي به أكثر المغتربين تحقيقاً لرغبات الأبناء ونزولاً قسرياً للوائح التعليم والقبول الجائرة. علاوة على الجبايات من زكاة لا تجب على أكثرهم وضرائب ورسوم وغيرها ثم هموم بقية الأسرتين في الداخل والخارج. ولا تخلو الزوجة بالتأكيد من الهموم نفسها فإن بَقِيَتْ مع الزوج تقطعت كبدها على المغتربين في الوطن من أبنائها. وإن حزمت أمتعتها وقررت العودة إلى الوطن بقي قلبها مع الزوج إن كان وحده أو كانت معه بقية من فلذات كبدها إضافة إلى ما ينتظرها هناك من (البهدلة) ووظيفة الأمومة والأبوة في وقت واحد أي معادلة معقدة هذه ؟! هذا إذا لم يطارد

المرأة شبح آخر أصبح عظيم الخطر فإن المرأة كلما تقدمت بها السن ازدادت وتيرة الغيرة عندها والرجل تزداد عنده وتيرة الحنين إلى الشباب. وربما أصابته الوحشة فيطمع فيمن يبدّد تلك الوحشة فإن فكر في الزواج وليس مستبعداً فتلك الطامة الكبرى. تعطلت سيارة أحدهم مرة فتبرع بعض زملائه في العمل بإيصاله إلى منزله وفي الطريق عرف منه أن أسرته كلها في السودان بحجة تعليم العيال. فقال له: إذن هذه فرصة ما دمت عازباً تناول معي الغداء. فقال له: لا ياخي أنا بعد الأولاد الكبار سافروا سويت لي واحدة تاني(تزوج). وهذا تطبيق للمثل القائل (كان غلبك سدّها وسِّع قدَّها).

موسم العودة إلى الجنوب

كانت لفتة بارعة من الأستاذ الوزير صديق المجتبى في نهاية حلقة (قناديل) السبت الماضي تنويهه وترحيبه بمقدم الأستاذ الكبير الطيب صالح ويِصَحْبِهِ الكرام شيخ التشكيليين الأستاذ إبراهيم الصلحي وشيخ الصحفيين الأستاذ محمد الحسن أحمد وشيخ الخطاطين الأستاذ عثمان وقيع الله ومن في معيتهم.

أما برنامج (قناديل) فإن لنا عودة إليه إن شاء الله. فإن هذه الشاعرة المبدعة المتألقة الأستاذة روضة الحاج قد وظفت أحاسيس الشعراء في حسن إدارة الحوار وجودة إعداد المادة وبراعة التقديم والتوفيق في اختيار كثير من الشخصيات. وأما الأستاذ صديق المجتبى الأديب بالوراثة والنشأة والميول والرصيد الثقافي والمعرفي فإنه درس الزراعة عن طريق الخطأ وإن كانت التخصصات العلمية غير مانعة من ارتياد ساحات الأدب فقد عرفنا أدباء مهندسين وأطباء وصيادلة، ولكن كان ربطه بين الطيب صالح وبرنامج التجاني تداعياً منطقياً وموفقاً لأن الطيب صالح يعشق الأدب العربي كله ويذوب في الأدب السوداني واختص من العرب بذي الرمة والمتنبي ومن السودانيين بالتجاني والحاردلو.

وكان حقاً مستحقاً من التلفزيون أن يغطي لحظات استقبال هذا الركب الميمون ويتابع أخباره. وكان جميلاً من صحيفتنا الغراء (الخرطوم) أن تغطي هذا الحدث في صفحتها الأولى وفي عناوينها البارزة. فهذه الكوكبة رفعت اسم السودان عالياً في المحافل الدولية فلا يذكر الأدب السوداني إلا ويتبادر إلى الذهن الطيب صالح ولا يذكر الفن التشكيلي إلا وكانت ريشة الفنان الصلحي منادية باسمه ولا يذكر جمال الخط وتجويده إلا وكان وقيع الله حاضراً في البال. وما يزال الأستاذ محمد الحسن أحمد يحمل راية المنافحة عن السودان وقضاياه في الصحافة الدولية عبر الشرق الأوسط وغيرها. ولاشك أن الساحة حُبْلَى بأمثالهم ولكنهم في صدارة لايُنَافَسُون عليها ولا يُنْفَسُ عليهم فيها حفظهم الله.

ثم لحق بهذا الركب قوم من الجنود المجهولين اعتادوا العمل وراء الكواليس وهم من الذين تقوم على أكتافهم النهضة الثقافية. فهم الذين يوصلونها إلى الناس بالجهد والسهر والمال والدعم والتشجيع في أريحية نادرة وتواضع منقطع النظير ونكران ذات يجعلهم يفضلون أن يبقوا في الظل ويكونوا في الذيل مع أنهم هم رأس الرأس وأَخَصُّ من هؤلاء الأستاذ محمود صالح عثمان صالح الرئيس الفخري والمشرف العام لمركز عبدالكريم ميرغني الثقافي الذي لحق بهذه الكوكبة أمس عائداً من لندن ليشارك في تكريم مركز عبدالكريم ميرغني –منارة الثقافة– لهؤلاء النفر الميامين. وإذا كان مركز عبدالكريم ميرغني سباقاً –كعادته– إلى دعم المبدعين وتكريمهم فقد أتت الفرصة للدولة ووزارة الثقافة في عُقْرِ دارها لتكريم حملة مشاعل التراث والثقافة. ومثلما كرم مركز عبدالكريم ميرغني الأستاذ الطيب صالح تكريماً خالداً بإنشاء جائزة الرواية باسمه فالأمل في أن تكرم الدولة الأستاذ الطيب بشيء باقٍ على غرار معهد عبدالله الطيب أو نحوه لأن الطيب أصبح رقماً لا يتجاوزه الدارسون بعد أن ترجمت أعماله إلى لغات الدنيا وأصبحت حقلاً واسعاً للأطروحات العلمية الكبرى. قالوا دخل (عتود) على مجموعة مُدّاح وقت القيلولة فنقز ما شاء الله له أن ينقز وسط الديوان فقال له أحد المادحين بخفة روحهم المعروفة: والله إنت سويت العليك. يعني الباقي على صاحب البيت بذبحه لهم. وقد فعل المركز ما عليه والباقي على الدولة.

لقد وفى الطيب صالح بوعده وعاد إلى وطنه مكرماً في توقيت حساس مبارك والناس يتنسمون عبير السلام ونفحات مولد سيد البرية والاحتفاء بالخرطوم عاصمة للثقافة. وقد كان الناس حين يطالبونه بالعودة يقول على طريقة الكاشف وعائشة الفلاتية (يا اخوانا أنا خلوني .. إنتو ما تحاولوا إبراهيم الصلحي). وكانت الأقدار والمصادفة أن عاد هو والصلحي ليعطيا الخرطوم نكهة إضافية مميزة في احتفالها عاصمة للثقافة العربية وليسجلا نجاحاً وتوفيقاً للقائمين عليها. فإذا كان الطيب صالح يرسم اللوحات السودانية بالكلمات والحبكة والتشويق، فإن الأستاذ عثمان وقيع الله يرسم الحروف بالحروف فيبدع اللوحات

التي يتدافع إليها من يقيّمون الإبداع الفني ويقفون أمامها بجلال ومهابة ويكفيه فخراً أن أنامله داعبت حروف المصحف الشريف، فَخَطَّهُ بسبعة خطوط مشرقة. أما الأستاذ محمد الحسن أحمد فإنك تتمنى ألا يتوقف وهو يحاضر في السياسة السودانية والدولية بفهم عميق وتسلسل محكم آسر جذابٍ ويكتب بأسلوب بليغ ولغة مشرقة، شهدته مرات في مدينة الرياض. وأما الأستاذ الصلحي فإنه يرسم بالريشة ما يعجز القلم أحياناً عن التعبير عنه. وأرجو أن يوفق أستاذنا شيخ المعلمين الأستاذ مأمون تميم في الاجتماع به لتنفيذ فكرة قديمة كانت تراوده تداولها مع الوزير الأستاذ مهدي إبراهيم تتعلق بمقطع من قصيدة (نبي الله المجتبى) لشاعر المديح النبوي جده الشيخ محمد ودتميم. فقد كانت الفكرة أن يعقد لهذه القصيدة سمنار بعد أن يرسمها الأستاذ الصلحي في لوحة ببنانه الـمُخَضَّب بالإبداع ويتناول بعض أهل الاختصاص معانيها ومافيها من أريج السيرة النبوية ولُغَتِها على أن يتناول شخصي الضعيف موسيقاها ووزنها وهي من نوع الدقلاشي أو المعشّر ويقارنها بأوزان الشعر العربي. وهي التي يقول مطلعها:

نبي الله المجتبى شمس الكواكبا مِنْ قامْ لو فوق هجين حامل وراكبا

والمقطع المقصود هو ختامها وفيه يقول:

صلواتي كامله .. ومحيطه وشامله.. أشجارا طائله.. وغصونا مائله.. وثِمَارا شايله..

وطيورها ثاكله .. في وكت القايله .. تعجب ظَلاّيله.. إلى أن يقول:

عدد البحار موجا وسواحلا.. عدد الرمال زِنْتَا ومكايلا.. وعيون الأرض وجميع مناهلا.. عدد الحبوب حتى الخرادِلا .. صلواتا ترفع لي قدر الحاملا.. بالرحمة العاجلة.. والستر السابله .. من ودتميم إلى .. عين المقابله .. ويد المناوله. صلى الله عليه وسلم.

وأنا أعرف حب الطيب صالح لحاج الملحي ليس لأنه شايقي، فالطيب صالح ركابي نشأ بين الشايقية وحاج الملحي جعلي مسلمابي نشأ مع الشايقية أيضاً، ولكن لأن حاج الملحي رقم كبير في تراث المديح النبوي ولكني استحلف أخي العزيز الأستاذ صديق المجتبى أن يتيح

لهذه الكوكبة الطيبة أن تجتمع برائدي المديح في أيامنا الأستاذين الشيخ عبدالله الحبر والشيخ إسماعيل محمد علي وخصوصاً ونحن في أيام نفحات مولد سيد البشر وأن يسمعاهما قصيدة ود تميم هذه (نبي الله المجتبى) فهي لوحة حقيقية سيجد فيها كل واحد منهم هواه وبُغْيَتَهُ.

وفكرة تحويل المقاطع الشعرية إلى لوحات تشكيلية كلوحات كبار الفنانين مما يستهوي الأستاذ الطيب فقد جعله إعجابه بالحاردلو يرسم في ذهنه كثيراً من اللوحات لكثير من مقاطع الحاردلو المعبرة وطالما تمنى من فرط إعجابه بها أن يتصدى لها فنان كالصلحي ليخلِّدها في لوحات تنطق بمحتواها كما نطق به الشعر ولا أستبعد أن يكون عرض الأمر على الأستاذ الصلحي لِيُعْمِلَ فيها مواهبه وريشته. وأذكر من هذه المقاطع التي تعجبه قول الحاردلو (ولم أجده في ديوانه):

اللِيلة المَعِيز ما اظِنّي مْلاقيهنْ
قاصدات البطين أَدَّنْ قليلة قِفِيهنْ
سِمْعَنْ طَنَّةَ الشادي وكِتِرْ صَنَفِيْهنْ
وعند الاصفرار جَفَلَنْ بشوف لَصَفِيهنْ

ولك أن تتخيل هذه اللوحة لهذا السربِ من الظباء على صفحة جبل وقد تَوَجَّسَتْ من صوت أتاها فَصَنَفَتْ (قطعت الحركة) ثم أجفلت وقد انعكست على جلودها اللامعة الصُّفر أشعة شمس الأصيل فزادتها بهاءً على بهاء، إنها لوحة ناطقة فعلاً تحتاج إلى ريشة بارعة تُجَسِّدُها.

هذا ومن أخيلة الطيب صالح لهذه المناظر التي تفيض بها أشعار الحاردلو استوحيت تصميم غلاف كتابي (بين امرئ القيس والحاردلو) فركبته تركيباً كنت أتمنى أن لو وجدت فناناً يشاركني الشعور بمقطع الحاردلو الذي اخترته ليجسده في الواقع أعني قوله:

الشَّمْ خَوَّخَتْ بَرَدَنْ ليالي الحَرّهْ
والبرّاق بَرَقْ من مِنَّهْ جاب القِرّهْ

شوف عيني الصقير بجناحُو كَفَتْ الفِرّهْ
تَلْقَاهـا أم خُـدود اللّيَلـهْ مَرَقَـتْ بَـرّهْ

هنيئاً لأهل السودان بمقدمكم وكما قال الإمام المهدي (اليوم تم أمر المهدية) فقد تم بمقدمكم الميمون أمر عاصمة الثقافة العربية. وكنا نريدها عودة نهائية ولكن (القحة ولا صّمة الخشم) ونرجو أن تُفْضِي أحوال السودان إلى وَضْعٍ يدفع جميع أبنائه إلى عودة طوعية وما ذلك على الله بعزيز ولا بعيد.

مواعيد عرقوب*

لا أدري هل تعيش كل المهاجر السودانية هذا الحراك الثقافي والنشاط الاجتماعي الدَّءُوب الذي يعيشه السودانيون في مدينة الرياض؟ فهم في عاصمة ثقافة طوال العام على الرغم من إهمالهم من قبل اللجنة العليا لعاصمة الثقافة العربية بالخرطوم، حتى لقد يجد أمثالي حرجاً ومشقة في تلبية كل دعوة توجَّه له. وكم تمنيت أن أجد متسعاً من الوقت لمشاركة كل جماعة وجمع فيما يجتمعون من أجله لما في ذلك من فوائد لا تخفى ولا تحصى. وأكثر ما يقلقني ويحجزني عن تلبية كل الدعوات أمران، الأول انشغالي بأمور عامة وخاصة والثاني آفة النسيان. فكما تأكدت من أن للكمبيوتر (فيروس) آمنت أيضاً بأن للذاكرة البشرية (فيروس) وقطعاً لعامل السن أثر لا ينكر، ولكن نسياني ليس طبيعياً، وقد كنت أنشدت أستاذنا البروفيسر عزالدين عمر أبياتاً تقول:

أفـــرط نســـياني إلـــى غـــايةٍ   لم يَـدَعْ النـسـيانُ لـي حِـسّاً
وكنــتُ إنْ مـا عَرَضَـتْ حــاجــةُ   مُهِمَّـــةٌ أَوْدَعْتُهَـــا الطِّرْسَـــا
فصِرْتُ أنـسى الطِّـرْسَ في راحـتي   وصِـرْتُ أنـســى أنــني أنــسى

فما كان منه إلا أن طلب مني على الفور نسخها على لوحة (سبورة) مكتبه، ويبدو أنها صادفت هوًى في نفس الشيخ!

ولعلّ الكثيرين يشاركونني الضجر من الاجتماعات المتكررة والمطوّلة، وقد ضحكت علينا الدجاجة الأوروبية حين سألت جارتها الدجاجة العربية عن سبب انخفاض إنتاجها من البيض، فأجابتها الدجاجة العربية بأن السبب هو انشغالها بكثرة الاجتماعات.

ومع أن كل الناس يضيقون بعدم الالتزام بالمواعيد إلا أن قلة من السودانيين تلتزم بذلك. وقد ضايقت أحد الإخوة الرياضيين مرة حين قلت له: ناس الكورة ما عندهم مواعيد. فقال

* صحيفة الخرطوم ١٢يناير ٢٠٠٥م.

لي غاضباً (السودانيين كلهم ما عندهم مواعيد) ويبدو أن لأكثرنا نسباً مع (عرقوب) الذي يضرب به المثل في التسويف، فيقولون:

كانت مواعيدُ عُرْقُوبٍ لهُ مثلاً   ومـا مواعيـــدُهُ إلا الأَبَاطِيــــلُ

واعد أحد السودانيين صديقه قائلاً: انتظرني لغاية الساعة حداشر الساعة واحدة كان ما جيتك إنت الساعة خمسة أمِشْ!!.

ويبدو أننا محتاجون إلى التبليغ عن أنفسنا في دائرة (المرور/الحركة) فقد وعد أحدهم صاحبه بتسليمه مبلغاً عند العاشرة فلم يلتزم بوعده، فما كان من الآخر إلا أن توجه لفتح بلاغ في قسم الحركة (المرور) فقيل له: هل صدمك أو صدمته بسيارة؟ فقال: كلانا لا يملك سيارة، فقيل له: طيب لِمَ تريدُ فتح بلاغ عليه، قال لأنه وعدني ولم يَفِ بوعده، فقيل له طيب دي ما قضية جنائية لا دخل لها بالحركة (المرور). فقال لا أنا جيت لقسم الحركة (المرور) لأن (الحركة) العملها دي ما كويسة!

ذكرت كل ما تقدم لأن رابطة الصحفيين الرياضيين بالرياض دعتني مشكورة لحضور اجتماع جمعيتها العمومية ربما لكوني صحفياً بالمودة، أحب (الصَّالِحِيَّة ولست منهم وأرجو أن أنال بهم شفاعة). ونظرت في دعوتهم التي وصلت إليَّ عن طريق الفاكس وعلق في ذهني أنها يوم الجمعة مساءً، ولمعرفتي بنفسي وبتمكن آفة النسيان مني وضعت الدعوة في سيارتي في مكان لا تخطئه العين ولكني لم استخدم السيارة منذ مساء الخميس وأمامي على الحائط وعند رأسي مذكرات لا تكاد تحصى ليس فيها إشارة إلى اجتماع الصحفيين ولكن بقدرة قادر تذكرتهم بعد الثامنة مساءً وما كنت أشك في أن اجتماعهم سيكون عند التاسعة وأن نصابهم سيكتمل حوالي العاشرة وسيبدأون نحو الحادية عشرة فلملمت نفسي وصغيرتي تلاحقني ببقية أسئلة عن المادة التي ستختبر فيها غداً فأجبتها وخرجت. وعند دخولي إلى السيارة نظرت في بطاقة الدعوة فتبين لي أن الاجتماع في تمام السابعة والنصف، وهو توقيت غريب في الرياض التي تبدأ فيها مناسبات السودانيين (من حداشر وفوق).

وعزمت على مواصلة المشوار خوفاً من قول أهلنا (بعد ما في الكراع تبقى في الوَشْ). فوصلت الفندق على استحياء ولسوء الطالع كان أول من لقيته في الاستقبال الأستاذ حسين حسن حسين وهُوَ مَنْ هُوَ في مجلس الرابطة وقد أَصَرَّ على اصطحابي إلى المقاعد الأمامية فاستحلفته أن يتركني بعد أن اعتذرت له وطَيَّبَ خاطري، فانزويتُ في كرسي وسط الحضور وفسد تخطيطي فقد كنت عازماً على تقليد صاحبنا الذي سمع بوفاة والد زميله في الحي وكانت الدنيا ظلاماً وبرداً فلم يخرج للفاتحة وتشييع الجثمان، وفي الصباح الباكر حمل ترامس الشاي ودخل الصيوان فلما رأى زميله بادره بالتحية: كيف أصبحتوا؟ فقال له يا خوي خت الترامس دي وأدينا الفاتحة في أبونا! ثم ما لبث قليلاً حتى رحّب مذيع الربط بحضور شخصي الضعيف على الملأ بالمايكرفون فقلت في نفسي (الفضيحة والسترة متباريات) ثم أكمل البقية أخونا المستشار أحمد يوسف قنصل السفارة بالرياض حين أنشد في كلمته المرتجلة أبياتاً لود ضحوية قال إنها ستسر إبراهيم القرشي وبدأ يتفحص مكاني بين الحضور فوجّه إليّ الأنظار وظن أنه سرني وما علم أنه قد ضرني بكشف جلوسي في المؤخرة الدال على حضوري متأخراً. والمستشار أحمد يوسف هو خير خلف لسلفه الأستاذ خالد أحمد علي الذي عاد إلى السودان مُخَلِّفاً أطيب الآثار ولا نشك في أن أحمد يوسف الدبلوماسي المتمرس وشيخ العرب سيضيف إليها سجلاً حافلاً وأن (أحمد سيملأ محل أب أحمد). وقد بدت بشائر جهوده باعترافه بمعاناة المغتربين وبما أذاعه من طوافه على القنصليات هنا مقارناً بينها وبين قنصليته وأنه رفع إلى المسؤولين في الخرطوم يطلب منهم إعادة النظر في الضرائب والجبايات الأخرى. وأن الإخوة في رابطة الصحفيين يتبنون اقتراحاً وجيهاً سعدت به كثيراً وهو أن تلزم الخارجية السودانية جهاز العاملين بالخارج بألا يتعرض بأدنى مساءلة ضريبية أو نحوها لأي سوداني عائد إلى السودان في عزاء وهذا تقدير محمود لظرف يمر بنا جميعاً ويكفي صاحب العزاء مصيبة الفقد التي جربنا مضاعفتها بمصيبة (الجُبَاة) الذين تُجَرِّدُ اللوائح أكثرهم من معاني الإنسانية. ونرجو أن تكون الثقة هي رائدنا

ولابد أن الجهة التي قدمت الاقتراح قدمت ضمانات مقترحة تمنع الإخوة في الجهاز من اللجوء إلى المصاحف الكريمة الموجودة بجانب كثيرين منهم.

ولا يفوتني هنا أن أبعث المواساة القلبية الصادقة للصحفي النشط الأستاذ الفاضل هواري الذي صادف يوم اجتماع الصحفيين يوم وصول جثمان ابنه الذي اختطفته المنية في ريعان شبابه وهو يدرس بجامعات روسيا. نسأل الله تعالى أن يتقبله وأن يلزم الأسرة الصبر وأن يعوضهم خيراً في إخوته.

هذا وأسعدني في ذلك اللقاء وجود أخوات مهيرة من الصحافيات فقد اعتدنا اجتماعات (العُزَّاب) مراعاة لتقاليد هذا البلد المضياف. ويبدو أن الأخ القنصل لاحقته إحداهن بالأسئلة فأنشد أبيات ود ضحوية التي خَصَّني بها وهي قوله:

ما بَـابَى المـسـيكين والفقـير لـي فقـــرُو
مـا عَـوّاس قُوالــه مـا رفيقـي بَعَقْــــرُو
بنــزِل لُجّـة الـــوادي البِتَلِّــبْ صـــــقرو
وقلــبي مِكَجِّــنْ النــاس الــسَّوا وبِتْنَقْــرُو

وفي أبيات هذا الأديب الشعبي المبدع قِيَمٌ كم نحن محتاجون إليها الآن وفي كل زمان. وقد أَغْضَبَتْ هذه الأبيات جاري فقال (الصحفيين ما بتاعين قُوالات). فقلت: يكفي أخواتنا هؤلاء فخراً أنهن واسَيْنَنا في (الطَّشِيش وبلاوي الاغتراب) وشارَكْنَنا بجدارة في قول الهمباتي وأظنه ود ضحوية:

ناس قَدَرَ الله قاعـدين في البيـوت مـا بْخَتْـرُو
مـن كُبِّـي وكَشِـفْ حَــال الحـريم مـا بْفُتْـرُو
أخـــير أَخَتِـرْ بــرَايْ أَسَـــدَ الهَـشِـيمَةْ بَنْتْــرُو
صـــاحبي إنْ زلَّ مـــا بَفْـــشَاهُ حاشَـــى بَـــسُتْرُو

ولْيَحْمَدْ أَخُونا رَبّه أن السيد القنصل لم يُنْشِدْ قولَ الآخر:

واحـدين في البيـوت متـل الكـلاب الـشّول
قاعـدين لـي مَنَاقَلْـة الحـديث والقــــول
وواحدين في الغروب يا شَمَّة ماخـدين حـول
وواحـدين فـوق دَوَادِيْـبهن بيَرْمُـو الـزّول

وقد كان الطَّشيش والغربة من أجل أخوات شمة وشغبة ومهيرة حتى قال الآخر:

الجري والطَّشِيش وكلُّ التعب على شَانِنْ

لكن التحية اليوم لأخوات مهيرة اللائي استَحْلَيْن الطَّشيش والتعب معنا ومن أجلنا وبارك الله فيهن وفي المساواة الراشدة.

ولا أنسى في هذا الاتجاه أن أذكر بالخير أخانا (ابن الضَّفَّتين) ضفة النيل الأزرق الشرقية حيث تقع بلدة الشبارقة وضفته الغربية حيث تقع منطقتنا أعني الأستاذ الحاج أحمد عجيب الذي تحدث في لقاء الصحفيين (المحضور) وهو يبشر بصبر أصحاب الرسالات بمشروع مستشفى الشبارقة الكبير الذي سيخدم منطقة الشبارقة وطريق مدني القضارف والذي كان حُلُماً في الخيال وفِكْرةً في الأذهان ومخططاً في الأوراق فأصبح واقعاً ماثلاً تَبَنَّتْهُ جامعة الجزيرة وضمته إلى رحابها ورفدته بكلية تمريض تمنح البكالوريوس لتؤكد على رسالة المرأة التي حَمَلَتْهَا في شرق النيل الأزرق مدينة رفاعة وحفيدات بابكر بدري وشاركتهن الشبارقة ببناتها وحفيدات الناظر ود جميل اللاتي كُنَّ من رائدات تعليم المرأة في تلك المنطقة، فالتحية له ولهنّ.

وأنا من هذا المنبر على مبدأ (العندو بليلة بعاشي بيها) أتبرع لهذا الصرح بمائة نسخة من كتابي (بين امرئ القيس والحاردلو) وبمثلها من كتاب قطب القرآن الشريف محمد الأمين الهندي وبخمسين نسخة من كتابي (السهل الممتنع في شعر البرعي الكردفاني) يكون ريعها

على ضآلته خالصاً لهذا الصرح العملاق عملاً بقول أهلنا (اليكَا بجرُّوُهْ أهلو). ودامت أمسيات الخير برياض الخير.

فاكس إلى أستاذنا د. إبراهيم دقش مع التحيات الطيبات:

ما كنت أجامِلُك حين ألَّقبُك بأستاذي وأستاذ الأجيال؛ فقد قَلَّدْتَنِي وشاحاً وتاجاً بدررك الغوالي التي رَصَّعْتَ بها (عابر سبيلك) بأسلوب هو الأستاذية عينها. واسمح لي بأن أزين بها صدر ما تبقى من نسخ الكتابِ التي لم تكتمل طباعتها بعد. ولك مني مجدداً الود المقيم في القلب السليم وشكر التلميذ المخلص للأستاذ الكبير.

هَلاّ هَلاّ عَلَى الجِرْدَنْ لُو

(هلاّ هلاّ على الجد والجد هالله هالله عليهو) تعمدت أن أنوّع في كتابة هذه العبارة حتى يستوعبها القارئ. وهي العبارة المشهورة التي نقولها في الحث على الأمور الجادة. سألني أمس البروفيسر عجوبة عن أصلها وذكر أنه كان يسمعها كثيراً من والده. ولما هممت بالإجابة طلب مني أن أكتب عنها. وعجبت للمصادفة لأنني كنت أقرأ وقتها (الأعمال الشعرية الكاملة) للدبلوماسي الأستاذ سيد أحمد الحردلو (هكذا يكتبها هو لعله يريد الجِرّدن له) وأنا أُعدّ دراسة مختصرة عن بعض الأمور التي استوقفتني في ديوانه. ووجه العجب أن الرجلين من أدباء الشايقية والكلام عنهما هنا جاء في سياق ألفاظ عامية.

أما قولنا (هلاّ هلاّ على الجد..) فالأصل فيها كما أرى هو (الله الله على الجد) وهو أسلوب إغراء وحث وحضّ معروف. أبدلت (ألف لام) لفظ الجلالة إلى (هاء) فأصبحت (هَلاّ هَلاّ) بتفخيم اللامات وتشديدها. والعربِ تبدل الهمزة وألف لام التعريف هاءً كما في قولهم: (أراق الماء وهراق الماء) و(السلام وهسَّلام) أنشد الزمخشري:

عَرَضْنَا فقُلْنا (هَسّلامُ) عليكُمُ　　فَأَنْكَرَهَا ضَيْقُ الْمَجمِّ غَيُورُ

وهذا أسلوبِ معروف في عاميتنا في كلمات مثل (جيت هَسَّع) والمراد (جئت الساعة) أي الآن. فإذا رقّقنا اللامات من (هلاّ هلاّ). دلّت على الحسرة والعجب كقولنا (هلاّ هلاّ يا فلان بقيت تَالِتِن) (أصبحت ثالثهن؟) قالها لي ضاحكاً بروفيسر عون الشريف (الله يمسيه بالخير) حين نلت جائزة الدولة في الأدب بالمشاركة مع الأستاذة بثينة خضر. وهذا الإبدال معروف في العربية وأخواتها من اللغات السامية. ففي العِبْرِيَّة (لغة اليهود) تقابل (الهاء) ألف لام التعريف في العربية تماماً فيقولون (ها أرث) يعني (الأرض). بل تزيد اللغة العربية إبدالاً آخر فتجعل (أم) مكان (ال) التعريف ومنها الحديث المرفوع (ليس من أمْبر أمصيامُ في أم سَفَر) أي (ليس من البر الصيام في السفر). والمشهور من هذه اللغة في

عاميتنا السودانية لفظة (أم بارح) نريد (البارح) أي الليل الفائت. ولعلّ الـبروف عجوبـة يسمع أخواننا السعوديين إذا رغّبته في أمر يقول لك باستعجال (هَلاّ هَلاّ) تماماً كمـا نقـول وهي هي. وهكذا يطول الكلام.

أما الدبلوماسي الأديب الشاعر سيد أحمد الحردلو (أتم الله عليه نعمة الصحة والعافية) فقد أهدى إليّ أعماله الشعرية الكاملة بكلمات معبرة مؤثرة جعلني فيهـا ناقـداً وباحثـاً مبـدعاً وصديقاً وما أنا إلا تلميذ لأمثاله فله شكري وامتناني. وكانت نسخة من هذا الديوان قبـل ذلك قد وصلت إليّ مهداة من مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بأمدرمان وهو الجهـة الـتي تولّت نشر الديوان فأخرجته في صورة مشرقة مشرفة تليق بالمركز والقائمين عليه وبالحردلو وبالشعر السوداني. ومهما قلنا في حق هذا المركز والقائمين عليه من كلمات الثناء فسنظل قاصرين وذلك لعظم الرسالة التي تصدوا لها بإخلاص في خدمة الثقافة السودانية وستذكر الأجيال صنيعهم هذا وسيذكرهم الله فيمن عنده وكفى.

قدم للديوان الأستاذ الكبير الطيب صالح -وَهَدّكَ مـن ناقـد -ولكـن الـذي اسـتوقفني في تقديم الأستاذ الطيب أمر كان قد استوقفني حين قرأت أشعار الحاردلو مفرقـة وهـو تَعَمُّـدُهُ استخدام بعض الكلمات العامية أو المولدة وإصراره على تكرارها نحو لفظة (سِتّي) بمعنى (سيدتي) ولفظة (يشيل) التي أشار إليها مقـدم الـديوان وبتتبـع سـريع لقـصائد الـديوان وجدت مادة (شال - يشيل) وردت في نحو عشرين موضعاً و(شـال) في العربيـة الفـصحى تعني (رفع) نحو شالت العقرب بِذَنَبِها أي رفعته. ولكن هذه المادة في العامية الـسودانية لهـا نحو خمسة عشر معنى سوى معنى (الرفع). واستخدم منها شاعرنا ثلاثة معان كقوله: سأشيل عذابي في صدري، وقوله: في السَّفْح شال الفستقُ، أو قوله: وشالني سحابةً وأمطـرا. وهلـم جرا. أما في عاميتنا فنحن نقول: (السحاب شال) إذا اجتمعت السحب وتراكمت و(الحنـة شالت) إذ اسودَّت. و(شايل يمين) إذا كان ملتزماً بحلف أو قسم و(شيل الـصلاة) في المـديح هو تكرار المطلع و (العَصَاة) وكذلك الشيالين أو الكورس في الأغاني. و(شال) بمعنى أخذ

ومنه قولنا (دار أبوك كان خِرْبَتْ شيل ليك مِنَّها شَلِيَّة). و(شيل معاي) بمعنى (أحمل) و(شال راسُو) بمعنى (قطعه). وشالوه في الصالح العام أي (فصلوه). وفلان جمل الشيل وعدّال الميل وشيّال التقيلة أم حيل. و(يشيل ويخت) مع فلان يحاوله ويفاكره و(شال حالو) معناه فضحه و(شيّلني وأشيّلك) في تبادل المنافع. و(شيل المحصول) قبض ثمنه قبل حصاده. و(البرق شال) ومنه قولهم (طِريتْ برقَ الفُويطْر الشَّال) و(البهيمة شايل) إذا حملت وخفّ لبنها. ويبقى معنيان طريفان لم يذكرهما قاموس الدكتور عون، أحدهما شايل بمعنى (ذاهب): شايل السوق أي ذاهب إليه. والنكتة في ذلك مشهورة، فقد سأل أحد الأفندية أعرابياً عن وجهته: فقال له (شايل السوق) أي (ماشي السوق) فقال له برباطابية (أعمل حسابك ما يقع منك). وحكي أن عجوزاً طرشاء رأت أخرى أشد طرشاً فقالت لها: هوي يا فلانة ما شايلة السوق؟ فأجابتها الأخرى لا، شايلة السوق. فقالت لها: خلاص أمشي أنا كنت قايلاك شايلة السوق. والمعنى الآخر (الشجرة شالت الجنى) إذا أثمرت بل بقي معنى ثالث لم يذكره القاموس وهو (شال الجرح) بمعنى فسد. ومعلوم أن أهلنا الشايقية أهل فخامة وتأنّق منذ القدم وهم أهل فروسية معروفون باقتناء المراكب الفارهة من خيل وحمير ونحوها، وحمير (كورتي) مشهورة عند الطيب صالح في رواية (ضو البيت) ولا أدري كيف خدمت المصادفة هذا الاتجاه فجاءت أفخم السيارات وهي المارسيدس ذات صلة بالشايقية فواجهة المارسيدس الأمامية ذات خطوط أفقية لذلك يسمي بعض الناس سيارة المارسيدس بالشايقي، للشبه بين هذه الواجهة وبين شلوخ الشايقية. بل إن الشايقية عرفوا لفظة (الشبح) قبل أن يصنع الألمان المارسيدس فكانوا يسمون الحصان الأصيل بالشبح قال الدكتور عبدالله الطيب حكاية عن الدكتور مندور المهدي عليهما رحمة الله إن قوماً من الشايقية رحلوا جهة الصعيد في إحدى السنوات المجدبة ولم يعجب رحيلهم هذا بعض إخوانهم الذين فضلوا البقاء فقال بعض هؤلاء يخاطب من رحلوا:

التمرُ شال قَدَعْ الجريد   واشَقَاوْةَ الشَال الصَّعيدْ

يشمت عليهم ويخبرهم أن النخيل أثمر حتى تثنت سبائطه. والشقي هو من ترك محصوله وشال الصعيد أي ذهب ناحية الصعيد. فرد عليه بعض الراحلين قائلاً:

قُمْنا بالفَرّاخ والسِّلاح وقمنا بالشَّبَح ألفي الـمُرَاحْ

والفرّاخ جمع فرخ يريد الشباب من عبيدهم. والشبح كما فسره البروفيسر هو الفرس الأصيل والمراح هو القطيع من الحيوانات وهو معروف. والشاهد في (شايل) الأولى و(شايل) الثانية وهما برسمٍ واحد ومعنى مختلف.

وقد كان الشيخ عبدالرحيم البرعي عليه رحمة الله حقاً أحد أساطين البلاغة والمعرفة بالعامية السودانية فترحّم عليه أخي القارئ الكريم واقرأ قوله وقد جمع أربعة من هذه المعاني في ختام واحدة من قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال:

كالـــــــــــسحب شـــــــــــايل
صلوات على الهـادي اللـي حمولنـا شـايل
البرعـــي فـــاز واللّـــي أمـــداحو شـــايل
يلقُـــوا بهـــا عيـــشةً دارَه وشـــايل

ومن قراءتك لما استعرضناه من معاني (شايل) فيما سبق تستطيع الوقوف على هذا الجناس البديع في الكلمات الأربع عند الشيخ عليه رحمة الله. والنماذج من مثل هذا الإبداع لا تحصى في ديوانه. أما الكلمة الأخرى التي يراوح فيها الحردلو بين الفصحى والمولّد فهي كلمة (سِتّي) و(سيدتي) وقد تكررت مادة (السيّد وسيدتي والسّادة) في ديوانه عشرات المرات بما يوحي بدلالات لا تخفى بين السطور وقفت عندها في الدراسة المشار إليها ولكنه يصِرُّ على استخدام (سِتي) بهذه الصورة في مواضع كثيرة من ديوانه وهي شائعة عندنا وما أكثر ما نسمي ستنا وست الجيل وست البنات وست الحسن وست النفور وست النساء. وأنكر لفظة (ستي) قدماء اللغويين كابن الأعرابي وابن الأنباري ووردت في الفصيح من شعر البهاء زهير من شعراء المائة الهجرية السابعة في قوله:

بنفســي من أُسَمِّيها بــــسِتِّي   فيرمُقُني النُّحاةُ بعين مَقْتِ
ولكن غادة ملكت جهاتي فلا لحنٌ إذا ما قُلَت سِتِّي

يعني يسخط عليه النحويون حين يناديها بسِتّي، فيقول لهم أنا أعني أنها ملكت علي جهاتي السِّت، فليس في هذا لحن.

وتبقى في ديوان الحاردلو مادة غنية صالحة للدراسة من وجوه لا تكاد تحصى لا تحتملها المفكرة، منها مغازلته لنزار قباني في قصائد تحمل تواريخ متأخرة بعد انفكاكه من المدرسة النزارية في هوامشه التي طلّق فيها نزاراً ومدرسته في أعقاب نكسة حزيران. ومنها تعلُّقه كغيره من السودانيين بالحجاز وبالمصطفى صلى الله عليه وسلم ويظهر ذلك في قصيدته عن مكة المكرمة وقصيدة (يا سيدي يا رسول الله) علاوة على أثر القرآن الواضح في أسلوبه ولغته وصوره بما يدل على أن بذرة التدين والصلاح لا تخلو منها نفس سودانية مهما حلقت في سماوات حرية التعبير ومهما تعاقبت عليها نكبات الدهر وغشيتها سحُب الضيق وأثقلتها عقابيل السياسة ونواصل إن شاء الله.

مع العثيمين وروضة الحاج

الأستاذ الدكتور عبدالله الصالح العثيمين أستاذ التاريخ بجامعة الملك سعود وعضو مجلس الشورى لأكثر من دورة وأمين عام جائزة الملك فيصل العالمية سعودي من الطراز الأول، نجديٌّ ضاربةٌ أصولُه في ثرى المجد وبجبوحة الشرف والعلم وأرومة العرب، وهو من دوحة العثامين الباسقة التي من ثمارها الشيخ العلامة ابن عثيمين رحمه الله ومنها زميلنا الباحث الصبور أستاذ اللغة العربية بجامعة أم القرى الدكتور عبدالرحمن بن سليمان العثيمين ويكفيها فخراً هؤلاء الثلاثة وقد أنجبت كثيرين غيرهم.

والدكتور عبدالله العثيمين شاعر مُجَوِّد وله دواوين بالعربيتين الفصحى والنبطية كما قال مرة أستاذنا الدكتور عبدالقادر محمود، وله أيضاً نحو خمسة عشر مصنفاً في مجال تخصصه. وهو إنسان اجتماعي من الدرجة الأولى صقلته دراسة تاريخ الأمم، أتقن تاريخ العرب والإسلام ثم ارتحل إلى الغربيين في عُقْر دارهم ووقف على علومهم وآثارهم، ذهب متسلحاً بأصالة المسلمين والعرب وعاد متزوداً بعلوم الغربيين ومعارفهم يعرف ثقافتهم ويحسن مقارعتهم. مسحه كل ذلك بمسحة إنسانية ما كانت تنقصه فالعلماء عنده علماءُ بعِلْمهم لا بجنسهم ولا سِنْخِهم ولا سِحَنِهم. علاقاته حميمة راقية مع كل من تجمعه به ظروف العمل أو الظروف العابرة ولكن الحقيقة أن للسودانيين في قلبه مودة خاصة. عرف السودان منذ المرحلة المتوسطة وعرف السودانيين في الغربة في بريطانيا والغربة محك يكشف معادن الرجال، وكان أول عربي رآه في أدنبرة هو الراحل البروفيسر الشيخ حسن الفاتح قريب الله. كما عرف أستاذيّ الجليلين الدكتور الحبر يوسف نور الدايم والدكتور إبراهيم الزين صغيرون، وزامل طائفة منهم في جامعة الملك سعود. يشارك السودانيين في مناسباتهم في رياض الخير وفي كل مشاركة له حديث تشرئب له أعناق الحاضرين لحلاوته وطلاوته وصدقه. وهو محدث لبق طريف قال مرة (في الاحتفاء بالمشير سوار الذهب حين نال جائزة

الملك فيصل) إن الأقدار جعلت اسم أسرته مصغراً (العُثَيْمين) واسم بلدته مصغراً (عُنَيْزَة) واسم الحارة التي ولد فيها مصغراً (جُدَيلة) وكان يعجبه اسم جد أستاذنا إبراهيم الزين (صغيرون) لأنه مصغر أيضاً وهذا من أساليب التصغير الذي تعرفه عاميتنا دون غيرها. ولكنا نعلم أن من أغراض التصغير عند العرب التعظيم؛ وعليه قول شاعرهم:

وكلُّ أناسٍ سوف تَدْخُل بينهم   دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأنامِلُ

فإذا اصفرّت الأنامل وجمد الدم فيها من الهول فتلك داهية كبرى وليست (دويهية). بل من أغراض التصغير التحسين والتمليح، فالرجل يقول لابنه (يا بُنَيّ)، والأم تقول لولدها (يا وليدي)، والمرأة تقول لصاحبتها (يا أخَيْتي)، وكل ذلك إنما هو من باب التَّحَبُّب إلى المخاطب. ولنا في المصغّرات التي ذكرها العُثَيمين شاهد حي ماثل على أن التصغير يكون للتعظيم حقاً فما أعظم أسرته وما أعظم بلدته وما أعظم الحي الذي درج فيه مثله ومنها كلها استمدّ الدكتور عبدالله عظمته وإنسانيته.

وبعد زيارته الأخيرة للسودان دبّج الدكتور العُثَيمين ثلاث مقالات بصحيفة الجزيرة سمّاها (للسودانيين في القلب مودة)، وقد سرني جداً حديثه عن أهله في السودان فقد كان يعرف بعضهم وحين عرفهم في أرضهم ازداد قرباً منهم ومعرفة بهم.

وسرّني أيضاً حديثه عن الشاعرة المتميزة الأستاذة روضة الحاج التي تجيد فن الشعر نظماً ورواية وفهماً مثلما تجيد الحديث عنه. أما جودة شعرها فتشهد عليها دواوينها وتكفيها شهادة العثيمين فهو شاعر مجرّب ومُحَكِّم مُتَمَرِّس. وأما روايتها وفهمها للشعر وحديثها عنه فتشهد عليه الحوارات التي تديرها والبرامج التي تقدمها وعلى رأسها (القناديل).

ولا أقول سبقني الشيخ الدكتور إلى الحديث عنها ولكن تزامن حديثه عنها مع قراءتي لديوانيها (عِشٌ للقصيد) و(للحلم جناح واحد) اللذين أهدتنيهما مؤخراً ويحمل أحدهما إهداءً شاعرياً لا يخلو من تواضع تقول فيه (... بحياء تلميذ يخشى ألا يكون قد أحسن أهدي إليك سِفْري هذا عسى أن تجد فيه بعضاً مما يمنحُ جمالاً...) أما الإهداء الثاني فقد دلّ على

روح الإعلامية المتوثّبة التي تحترم نفسها ولغتها ومستمعيها وكأنها أحسّت بما يقلقني ويؤذيني حقاً وهو أخطاء الطباعة فكتبت إليّ في إهدائها: (بكل أخطاء الطباعة أُهْدِيكَهُ أستاذنا الفاضل...) وسأعود للتعقيب على ذلك.

استمعت إلى روضة قبل ذلك في عجالات، وهي تمتاز بالحضور الواعي وبنوع من فن الإلقاء هو ضرب من الشعر بصورة أو أخرى. واستمعت إليها قبل سنوات وهي تقدم وتعقّب على حلقات بإذاعة أم درمان كنت أعددتها بصوتي عن كتابي (عادات سودانية)، وفي صوتها رنة أسى ومسحة حزن أثيرة بعيلة لم أجد لها تسميةً تناسبها ولكني أجد لها تفسيراً في رثائها للمذيعة الراحلة ليلى المغربي رحمها الله. وقد كان أخي حاج أحمد صالح عليه رحمة الله أديباً ذوّاقة خبيراً بالأصوات. فكنتُ إذا ترنّمت ببعض الشعر يقول لي (صوتك بيعجبني .. فيه قُنَانّهْ) وكلكم يعرف شاي اللبن المقنّن. واللبن عندنا هو الحليب وهو عند أهل الخليج (الروب). وأحسب القرآن والأعشى يؤيدان الاستخدام السوداني، أما القرآن فقول الله تعالى: (من بين فرث ودم لبناً خالصاً) وأما الأعشى ففي قوله:

ومن كلِّ بيضاءَ رُعْبُوبَةٍ لها بَشَرٌ نَاصِعٌ كاللَّبَن

لم أقف على شعر روضة مكتوباً إلا في الديوانين المشار إليهما. وكانت فرصة طيبة أبحرت فيها مع مشاعرها الصادقة وأحاسيسها النبيلة ولغتها الرصينة (المشعة) وصورها المعبّرة الـمُوحِية وموسيقاها العذبة التي تغلب عليها فخامة بحر الكامل.

وكانت أول صورة بليغة وقعت عليها عيني فأحسست بلسعتها في لساني وجناني وبدني معاً هي قولها في أول مقطع من ديوانها (للحلم جناح واحد):

ونثرتَه ... مِلْح العتابِ المرِّ.. ثانيةً على جُرحي

وقد جعلت للعتاب ملحاً مثل (ماء الملام) عند أبي تمام في القصة المشهورة عند النقّاد. وما أشد لسعة الملح على الجرح. وقد كان أبو تمام قال:

لا تَسْقِنِي ماءَ الـمَلاَمِ فإنني صَبٌّ قد استَعْذَبْتُ ماءَ بُكَائي

فبعث إليه أحد الساخرين بإبريق يطلب منه شربة من (ماء الملام) هذا. فقال له أبو تمام - وكان ذكياً حاضر الجواب-: سأبعث إليك بما طلبت بعد أن تبعث إليّ بريشتين من (جَناح الذُّلّ) في قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) فأسكته ودمغه. والطريف أن الشاعرة استخدمت هذه الصورة أيضاً فقالت:

عودتني منك انخفاض جناح ذل راحم

أقتات منه الكبرياء تسامياً...

تحاول روضة التعبير عن شيءٍ غامض غامر يلفّ مشاعرها ويملك حياتها ويجعلك تائهاً حائراً وتستدرجك معها حتى تكاد تمسك به ولكنّه فجأة يفلت منكما معاً. وقد جذبني مقطع جذب الدكتور العثيمين قبلي هو قولها:

ماذا الذي قد كان في وُسْعِي

ضَنِنْتُ بِهِ عليك

أسقطتُ كلَّ الناس في كلِّ المدينة

واختزلتُ عيونَهم في مقلتيك

وتَخِذْتُ منك مدينةً أهْوِي إليك

في كلّ يوم تَجْرحُ القلبَ العميد

فاختبئ بالجرح أُخْفِيه وأهْمِسُ لا عليك.

هذه غاية الدلال لهذا الفارس المختفي حتى ليحسّ القارئ بالضيق يُطْبِقُ على صدره من فرط تدليلها له وهو مع ذلك سادِرٌ في قسوته.

وفي الديوانين عموماً إبداع لا يخفى وفيهما مواضع لوقفات نقدية غنية (لها وعليها) لا تستوعبها هذه العجالة ولا تحتملها طبيعة المفكرة سنجد لها موضعاً إن شاء الله خصوصاً الأثر الديني في شعرها وأصالة الرمز ووضوحه عندها وبراعة تصويرها ودقّة تعابيرها.

وقد استوقفني أمر يحتاج إلى مزيد استقراء لشعرها وهو أشبه بالشعور بالغُبن أجده في استخدامها (ضباط المطار - محضر الإقرار - المخفر العربي) ويدعم زعمي هذا استخدامها الفعل (صادر) ومشتقاته في أكثر من ثمانية مواضع من ديوانيها فهل هو ضعف الأنثى ورقّة عاطفتها أم هو الشعور بالهزيمة أمام الحقوق العربية السليبة أم أن وراء الأكمة ما وراءها؟

وأعجبني صدقها في قولها:

سافر معي أو .. ثُرْ.. ومرني بالبقاء

احتاج أحياناً لبعض بداوة

تُقصي التحدي عن دمي

وتعيدني قسراً إلى خِدْرِ النِّساء.

ولا أسمّي هذا استسلاماً ولا هو اعتراف منها بأنها تركب رأسها أحياناً ولكنه تصديق لما ذهب إليه علماء النفس من أن المرأة مهما علا شأنها وقويت شوكة شخصيتها لا تستغني عن عنفوان الرجل ولا أقول عُنْفَه. والأمر عندي في النهاية عودة صادقة إلى رحاب الأنوثة الوادعة المتكئة على الفطرة.. فما بال بعض أخواتنا يُكَابِرْنَ؟

ولا يخلو أي عمل جليل جميل من هنّات ومن توقع المدح صرفاً في كل ما يكتب قدح بنفسه في نفسه، وسنسجّل ما عنّ لنا.

هـذا ولبعض أصدقائنا من ذوي الألوان الصارخة والباهتة رأي في شعر روضة ولنا في ذلك مقال. ولكن لا يحسن أن أختم قبل أن أذكر قصيدة مطوّلة عصماء بعث بها إليَّ شاعرها الأستاذ صلاح الغول، يذكر فيها (روضة) بخير كثير يقول في آخرها:

روضةُ الشِّعر هذه السمراء من غَشَاها ثم لم يفتتن

لا أزكّيها ولا أمدحُها إنها بالحقِّ صوتُ الوطنِ

الذي يعلو، ألا فانتبهوا واسمعوا خَنْسَةَ هذا الزمنِ

أدام الله الروابط السامية بين الشعوب بأمثال الدكتور العُثَيمين، له التحية ولروضة ولكم.

(مارس شهر الكوارث)*

للناس في النسيان مواقف وطرائف ونوادر. وبعض الناس يخلطون الكذب بالنسيان، وهذه إحدى الخلطات (الشاطرة) لأن الكذب والنسيان إذا اجتمعا جاء صاحبهما بالهوائل. لذا قالوا: (إذا كنت كَذُوباً فكن ذَكُوراً). قيل كان بعض القُصّاص منهمكاً يحكي للناس قصة يوسف عليه السلام، فقال لهم: وكان اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا، فقالوا له ولكن يوسف لم يأكله الذئب! فقال لهم: هذا إذن اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف!!.

والصلة بين النسيان وشهر مارس والامتحانات قديمة وظل مارس هو شهر امتحانات الشهادة وشهر الامتحانات النهائية في جامعة الخرطوم ردحاً من الزمن . وكنا في أواخر السبعينات نعرف الاختبارات مرة واحدة في مارس من كل عام تماماً كبيضة الديك في شعر بشّار بن بُرد. وقد أراد الله لقبيلة المهاجرين ألا تنسى وأن تفجع بهموم الامتحانات مرات عديدة في العام الدراسي الواحد؛ فالشتات الذي فرضته الأقدار على المهاجرين ابتلاهم بمتابعة الامتحانات في بلاد الهجرة أولاً ثم متابعتها في الوطن ثانية لأن أبناء أسر المهاجرين المكلومة أصبحوا في شتات عجيب بعضهم في المهجر مع الأب والأم أو مع الأب وحده أو مع الأم وحدها وبعضهم في الوطن مع الحبوبات والأهل أو في الداخليات. وقد يكون بعضهم في مهاجر دراسية أخرى فيظل الأب في شد وجذب العام كله مع الممتحنين هنا وهناك وهنالك. (ويُقال المغتربين ناس راحات؟؟!).

وكانت الاختبارات في جامعة الخرطوم كابوساً يجثم على صدور الطلاب في (مارس شهر الكوارث)، وكان الطلابِ يخافون الاختبارات خوف الموت، لأن أكثرهم يقضي السنة كلها بين الونسة و (الخلط) و(دَكّ) المحاضرات والأنشطة الجانبية و(جلد) النوم في داخليات

* صحيفة الخرطوم ٩ مارس ٢٠٠٤م.

كانت الحياة فيها أفضل من كثير من فنادق اليوم، وجزى الله حكومات ذلك الزمـان وأهلنـا خيراً. أما الآن فقد جاءت سياسة التوسع في التعليم الجـامعي بإيجابياتهـا وسـلبياتها، وهـي سياسة متفائلة ولكنها سبقت أوانها لحاجتها إلى الإمكانات الهائلة التي لم تـترك الحـرب لهـا سبيلاً ونرجو أن يكون في صدق الوطنية والسلام والبترول ما يعيد الأمور إلى نصابها. ومن إيجابيات تلك السياسة توسيع فرص التعليم الجامعي واستيعاب أكـبر عـدد مـن الطـلاب داخل وطنهم فرفعت بعض الحرمان وخففـت الكلفـة الباهظـة وكفـت الكـثيرين شـرور الضياع والانحلال وتبدل المفاهيم والتعرض لكثير من الضغوط والإملاءات التي ينتج عنها غسل الأدمغة ونحوه. وإن كنا لا نرى التعليم الجامعي بالخارج شراً كله. أما السلبيات فحدث ولا حرج وأقلها عدم الاستقرار الذي سلب الطلاب كثيراً من وقت التحـصيل وأرهقهـم بتشتيت فكرهم بين الركض وراء المأوى والمأكل والمصروفات والتحصيل وأضر بالجامعات فأضعف بنيتها وأرهق الأهالي بمصروفات لا قبل لهم بها ووضع أثقل العبء على شـرائح بعينها كشريحة المغتربين الذين يـدفع أقلـهم دخـلاً ضـريبة لا يـدفعها بعـض كبـار أغنيـاء السودان ناهيك عن تدهور القيم والمثل وما لحق سمعة الـشهادات الـسودانية واضـمحلال محصلة المخرج التعليمي إلى غير ذلك مما لا تحـصيه هـذه العجالـة. قلـت: في ذلـك الـزمن المترف لا يتنبه بعض الطلاب إلا في اللحظات الحرجة بعد إعـلان موعـد المـسيرة الكـبرى التي جرت العادة بتسييرها في آخر ليالي فبراير وأول ليلة في مـارس. يقودهـا أقـدم طـلاب الجامعـة وأكثـرهم (كَرْلَـسَة ورَكْلَـسَة) وإهمـالاً وتعرضـاً (للطـشة) الرسـوب والفـصل. وشعارهم (تلافِي ما يُمكن تَلاَفِيْهِ). وكـان شـبح الـرَّاءَين والـدال مخيفـا جـداَ -أعـني راء الرسوبِ والريسيت (الإعادة) ودال الدِّسْمِسْ (الفـصل أو الرَّفْـت).وفي جامعـة الخرطـوم كانت الدرجة الواحدة كفيلة بتـصنيفك في أصـحاب الـراءات. وكانـت صـرامة الأسـاتذة تضايقنا كثيراً، ولكننا لما زاملناهم (طبعاً زمالة بحسب الوظيفة أما من حيث المكانـة فَـسَنَظَلُّ أمامَهم كعُشْبٍ فِي أُصُولِ نخلٍ طِـوَال) أقـول لمـا شـاركناهم الوظيفـة نفـسها وجـدنا تلـك

الصَّرامة هي ميزتهم التي أكبرناها فيهم، فلو دخلت المجاملات والتّساهل في مجال العلم فَسَد الطَّالِب والمطلوب.

في مارس من تلك الأيام كانت تحدث الهوائل من جَرَّاء التوتُّر والنسيان. دخل علينا أحد الزملاء مرةً يضحك ولا يكاد يتماسك وكلما سئل استغرق في الضحك ودموعه بلَّلَتْ خدوده وهو يشير إلى الحمامات –أكرم الله القارئ– فلما خرجنا إلى حيث يشير وجدنا أحد الزملاء على مقعد الحمام مُعْطِياً وجهه الحائط وَقَفَاهُ إلى الباب وجلابيته فوق رأسه والباب مفتوح شارع وهو في حالة مخاض متعسِّر لا يشعر بما حوله. فقضينا بقية اليوم في ضحك وفوضى لا توصف من جراء ذلك التَّصرف. وكان قائد الضحك والتهكم رئيس اتحاد الطلاب في واحدة من دوراته. وعسى أن يقع هذا الموضوع في يده، وكان لا يشرب الشاي ولا القهوة ولا يدخّن ولا يُتَنْبِك وكان هذا يغيظني فقد كنت كيفاً –خصوصاً للشاي– فكنت أحتاج (المناشطة) وكانت غرفتنا هي البوفيه المجاني ومَقَرٌّ الونسة ومحطة مناسِبة (للبريكات) وهي فترات الراحة أثناء الكَسِر (المذاكرة). وكان يؤلف بين مرتادي هذه الغرفة أو أكثرهم مقاطعة الجامعة ليلاً إلا للضرورة القصوى. وكان صديقنا ذلك يباهي بأنّ دماغه لا يحتاج إلى المساندة والتّنشِيط بالمكيِّفات، وكان في الاعتزاز بنفسه أشبه بقتَادَة بن دِعَامَةَ السَّدُوسيّ الذي كان صاحبَ عِلْمٍ بالقرآن والحديث والفقه واللغة. فقال مرةً: "ما نسيتُ شيئاً قط، ثم قال: يا غلام ناولني نَعْلي. فقال له الغلام: نعلُك في رجليك يا مولاي". الله أكبر. وكنا حين نضحك على مقالب النسيان التي تحدث نتحفظ جداً مخافةَ أن نقع في مثلها، أما صديقنا هذا فكان لا يتوقع الهفوات، حتى كذبته شواهد الامتحان. ففي أحد الأيام ولسوءِ حَظِّهِ ضَبَطْتُه مُتَلَبِّساً (نُصَّ النَّهار سَكَّةْ عِمَيْ) فما تَمَلَّكْتُ نفسي فصحت حتى اجتمع كل من سمع وأحاطوا بنا فإذا بأخينا قد لَطَخَ معجون الأسنان على (طَبْلَة دولابه) وهو يحملها يظنُّها فرشاة أسنانه، وكان أيضاً يضع المُصْلاّية (السجادة) على كتفه باعتبارها

(البشكير) والمضحك أكثر أنه واقف وكأن شيئاً لم يكن وهو يقـول: (مـالْكُم؟) وفي عينيـه بَقيَّة نعاس. ولما تقدمتُ نحوه وكشفت اللّثَامَ عن فِعْلَتِهِ لم يملك إلا الضحك والشَّتيمة.

نضّر الله الصِّبا وأيامه، فقد عرفنا الآن لِمَ يبكي الناس والشعراء علـى الماضـي؟! ومـا أصدق القائل: ما بكت الناس شيئاً مثلما بكت الشبابِ، ولم تُوَفِّهِ حَقَّهُ. وإنك لتجد نفسك مستعداً لبذل الغالي والمرتخص في سبيل لحظة واحدة تجمعك اليوم بكثيرين من أبطال هذه الأحداث ممن كانت تلك الأحداث آخرَ العَهْدِ بهـم. ولعـلّ كـثيرين مثلـي تعتريهـم هـذه العاطفة العاصفة، على الرغم من أننا كنا في غاية الضِّيق من زحمة الدراسة وكدّها والتطلع إلى المستقبل. ولكن صدق أهل التجاربِ حين قالوا: "ما بكيت من زمن إلا بكيت عليـه" ولو خيّر أحدنا في الرجوع إلى تلك العهود الخوالي لاختار ذلك طائعاً. ولكن هيهات.

وعوداً إلى النسيان قال لي بعضهم: عندنا امرأة اشتهرت بالنسيان الشَّديد فأرادت يوماً أن تَتَدَخَّن فأعدّتْ الحفرة وأشعلت النار وخلعت ثيابها وادَّهَنَت وجلست فوق الحفرة، ثـم نسيت وظنت أنها جالسة على مقعد الحمّام – أكرمكم الله– ولم تَنْتَبِهْ إلا على (الشَّطْشَطَة) وصوت شيء يطفئ النار من تحتها، ولك أن تتخيل بعد ذلك ما حدث.

فاكس : أستاذي د. دقش

الشكر الجزيل لشخصك الجليـل علـى تنويهـك الجميـل بهـديتي المتواضـعة كتـاب (السهل الممتنع ، خواطر وصور بلاغية في شعر البرعي الكردفـاني) وكـم سـعدنا بمتابعـة حجتكم المبرورة ولكن آلمنا أن لم نكن من حجاج هذا العام حتى نتباهى ونتجمـل ونـدعي أننا (أولاد حجة) على الرغم مـن صـعوبة الوصـول إلـيكم وأنـتم في رحـاب الـضيافتين العُظميين ضيافة الرحمن وضيافة آل سعود كما آلمنا أن لم نكن بالسودان إذن لأتينـاكم علـى أفره (أب أربعة) لكن معوضة يا حاج إبراهيم . تقبـل الله حجتـك وزادك قبـولاً في الـدنيا والآخرة .

كلام حبوبات*

بعض القراء لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، إن كتب الناس في التاريخ والتراث قالوا: (كلام حبوبات)، وإن كتبوا في الأدب قالوا: (ترف فكري) وإن كتبوا في العلم الحديث قالوا أكاديميات توجع الدماغ. ذكرني ذلك بمهاترات طلابِ جامعة الخرطوم على أيامنا واستخفاف بعضهم بتخصصات بعض؛ فالقانونيون يسمونهم (بتاعين العرضحالات)، وطلابِ الزراعة (بتاعين الجرجير)، وطلاب الطب (بتاعين الضفادع والفيران) وهكذا. ولن تجد مسلحة في نفوس بعض القراء إلا إذا كتبت في المستديرة وأبطالها أو الغناء وأساطينه وأسطواناته أو إذا نشرت غسيل الآخرين وهاترت هذا وانتقصت ذاك أو جرّدت حسامك على الحكم القائم وأخرجت كل عيوبه ومراراتك. ولن يلتفت الكاتب صاحب الرسالة إلى كل ذلك بل يمضي في طريقه مستهدياً بالكلب ينبح والقافلة تسير متعزياً بأن (آفة العلم النسيان، ونكده الكذب وهُجْنته نشره عند غير أهله).
ولعلّ علماء النفس والاجتماع والتربية يقيمون وزناً كبيراً لكلام (الحبوبات) وأثره في التنشئة بزرع القيم والمثل وتوسيع الآفاق والمدارك وتقوية أواصر اللُّحمة العائلية. ولكن قبل الخوض في هذا لماذا يريد الرجل من المرأة أن تكون شابة على الدوام ويجعلها ويجعل كلامها من سقط المتاع إذا تقدّمت بها السِّن؟ لعلّ من فادح ظلمنا للمرأة أننا نهيم بالتغزل فيها والتقرب إليها حين تكون غصناً يانعاً وننصرف عنها حين تحمل الثمر. أليست لدى المرأة متعة للرجل سوى تلك المتعة. أليس في عقل المرأة وفكرها متعة وفائدة أم أننا نسير على هدى سخرية الجاحظ الذي لا يعتدُّ بشهادة المرأة ومعلم الصبيان.
نعم الشباب ربيع العمر ولكنه ربيع جسدي لا يخلو من طيش. فما أكثر ما يقضي الزوجان الشابان حياتهما خناقاً وعراكاً فيما يستحق وما لا يستحق فإذا تجاوزا هذه الفورة وتقدما في

* صحيفة الخرطوم ٩ أبريل ٢٠٠٥م.

السن قليلاً استقرت الحياة وصار كل شيء هادئاً هانئاً. لذلك قالوا (إن العَوَانَ لا تُعَلَّمُ الخِمْرَةَ)، يريدون بذلك المرأة التي اكتسبت خبرة في خاص الحياة وعامّها.

وللإنسان قيمة في كل مرحلة من مراحل حياته؛ فالمرأة حين تكون طفلة فهي كالريحانة تُشَمُّ وتُضَمُّ فإذا نضجت صارت ثمرة وبعض الثمار يزداد طيباً كلما ازداد نضجاً، بل بعضها يزداد طيباً حين يجف. وصناع المدام يرون أن النبيذ كلما تقادم عهده تعتق وازداد طيباً. لذا فمن القسوة أن يقول أحدهم في مواصفات الزوجة:

فإن أتوْكَ وقالوا إنّها نَصَفٌ   فإنّ أحْسَنَ نِصْفَيْها الذي ذَهَبَا

والنَّصَف هي (نص عُمر). قيل لبعض الخبثاء سمعنا أنك تزوجت إن شاالله تكون صغيرة. فقال: والله ما صغيرة لكن استعمال مغترب (أهي سيارة يا بعيد؟).

هذا لمن أراد أن يؤسس حياة جديدة وهي نظرة جسدية فانية لأن نصف المرأة الأول إذا كانت فيه المتعة التي تتولد منها الثمرة التي تحفظ جنس البشر فإن في النصف الباقي الخبرة التي تغذي هذه الثمرة وهذا أشبه بشاة عائشة رضي الله عنها حين قالت للمصطفى عليه الصلاة والسلام: لم يَبْقَ إلا كَتِفُهَا. فقال: بَلْ بَقِيَتْ كُلُّهَا إلا كَتِفَهَا. فالذاهب من عمر المرأة غير مأسوف عليه عند العقلاء قياساً بالباقي النافع من عمرها.

ولم أجد أحداً من كتابنا وشعرائنا مجّد المرأة بعد سن الشباب إلا بعض أبيات يغنيها الأستاذ مبارك حسن بركات لود الرَّضي يقول في بعضها مُثَمِّناً خِبْرَتَهَا في حُسْنِ إدارة دَفَّةِ البيت:

حاوية من الأنوثة معاني   ومهما أبقى مُرْ بَالْعَاني

وهي بعيدة عن النكد تساعد زوجها على الصلاح والاستقامة:

مِنَّها قَطْ خِلاف ما حَصَلْ لي   بس إزعاجا لَيْ قوم صَلّي

وقد عبّر ببلاغة عن خلو أسلوبها في الحياة من الإزعاج مطلقاً. بل فيها خصال هي رأسمال الحياة المستقرة السعيدة وضمان استمرارها:

مي العَزَّايَةْ دايماً سَـــادَّهْ   مي الغَبْشَهْ المغبّره حَـــادَّه
مي اللهفانه بي وَرَا الماده   دي اللي شبابا دِيما مُوَادّه

أما عقول النساء فالمشهور أنها تتجلّى وتُبْـدِعُ في الحيلـة والمكـر والـدهاء، والـتراث قديمـه وحديثه ينضح بذلك. أما في الحكمة والرأي والمشورة فالغالب عندنا تَسْفِيْهُ رأي المرأة حتـى قالوا في الشورى الضعيفة: (شورة مره)، أي لا قيمـة لهـا ولا تعويـل عليهـا. ولكـن تراثنـا السوداني والتراث القديم يثبتان للمـرأة نـصيباً مـن الحكمـة ورجاحـة العقـل؛ فقـد ذكـر القرطبي في تفسيره أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أمر المعتمـرين يـوم الحديبيـة حـين حبسهم الكفار أن ينحروا ويحلوا، ففعلوا بعد تَوَقُّفٍ كان منهم أغضب الرسول، فقالت له أم المؤمنين أم سلمة: لو نَحَرْتَ يا رسولَ الله لنحروا، فنحر رسول الله هَدْيَهُ ونحروا بنحره.

وكان المحلّق أحد المغمورين في الجاهلية وكان بائساً وله أخوات ثلاث عوانس، ولا يملك إلا ناقة يعيش بلبنها، وبُرْدَيْن نَفِيسَيْن وَرِثَهُمَا من أبيه. فمرّ بهم الأعشى الشاعر في زمان كـان فيه بيت واحد من الشعر يرفع قبيلة ويَحُطُّ أخرى، فجاءته عمته وأشارت عليه بأن يستدين زِقَّ خَمْرٍ من أحد التّجار ويدفعه مع الناقة والبردين إلى الشاعر فعساه إذا اعتلج (اشـتغل) الخمر والكبد والسنام في جوفه أن يمدحه بأبيات تغيّر مجرى حياتـه. ففعـل بعـد تـردّد. ولما وصلت الهدية إلى الأعشى قال لرسوله لئن اعتلج الخمر والسنام والكبد في جـوفي لأقـولن فيه شعراً لم أقل مثله قط (وما أظن الكبد والسنام إلا (نَيّة) على الطريقة السودانية وهـذا ما سيكشفه كتاب العادات الثاني الذي طال احتجابه لظروف خارجة عن الإرادة). وبالفعل مدحه بأبيات جاء فيها:

تُشَبُّ لمقرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها وباتَ على النّارِ النّدَى والمَحَلّقُ

فلم تمض أيام حتى زوج أخواته العوانس الثلاث واقتنى ثروة جعلته بين من يشار إليهم بالبنان.

بل إن الأعشى نفسه نجا من الموت بسبب نصيحة عجوز أخرى، فقد ذكروا أنه هجا علقمة بن علاثة سيِّد بني عامر وزعيمهم بقوله:

علقم ما أنت إلى عـــامِـــر النَّاقِضِ الأوتار والوَاتِرِ

بل هجا القبيلة كلها بقوله:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتُكُم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا

أي جائعات طاويات البطون. فغضب علقمة وأهدر دم الأعشى الذي ساقته الأقدار في واحدة من سفراته حين أخطأ دليله وقائده فنزل به في حي بني عامر فأوثقوه وسلموه لعلقمة فدخل على أمه وقال لها: لقد أمكنني الله من هذا الأعمى وسأقتله شر قتلة فقالت له: يا بُنَيَّ لقد كنت أرجوك لقومك عامة.. يعني (خاتاك لأكبر من دي) إنما الرأي أن تكسوه وتمنحه وتُسَيِّره إلى بلاده، فإنه لا يمحو عنك ما قال إلا هذا. فنزل على رأي أمه وأكرمه وأطلقه، فمدحه الأعشى بأبيات غسلت الهجاء وسارت بين العرب منها قوله:

علقمُ يا خيرَ بني عامـــــر للضيف والصَّاحب والزَّائرِ

الضاحِكِ السِّنِّ على هَمِّه والغافِـــــر العَثْرة للعاثِـــــرِ

وفي التراث السوداني أيضاً عظيمات صاحبات رأي، فقد ذكروا أن الملك نمر لما انحاز من وجه الأتراك متوجهاً إلى الحبشة اعترضته بعض القبائل فقاتله بعضها وتركت له الطريق أخرى فلما مرّ بدار العطيش بلد غالب ود بشير الغُول الحَمَلِي أراد أن يمنعه فقالت له عمته: احذر أن تعترض طريقه بل عليك إكرامه لأن الملوك إخوان الملوك. فرجع عن رأيه وأخلى حِلَّتَهُ وأنزل بها الملك نمر وجماعته وذبح أمام كل بيت ناقة حتى شبعت الكلاب من أكباد الإبل فحفظها له الملك نمر والجعليون وحفظ دماء قبيلته.

هذا وقد كانت لنا عمّة هي بمثابة (الحبوبة) للأسرة كلها، وكانت حكيمة عاقلة محبوبة، وهي زوجة الوالد وكنا أبناء علات (ضرائر) ولكن ما أحسسنا يوماً أنها ضرة لأمهاتنا. شاركت في تربيتنا مشاركة حقيقية نقضي من أوقات الأنس معها أكثر مما نقضيه مع أمهاتنا، وكانت خبيرة الأسرة وحكيمتها عليها رحمة الله. فكان الطفل إذا بكى تقول (خلّوه بوسّع)، وكنا نعجب لصبرها. فوجدت ابن قتيبة يذكر خبراً يؤيد ما ذهبت إليه عمتنا، قال أُتي عبدالملك بن مروان برجل من الخوارج ليقتل أمامه فأُدخل على عبدالملك ابنٌ له صغير وهو يبكي،

فقال الخارجي: دعه يا عبدالملك فإن ذلك أرحبُ لِشِدْقِهِ وأَصَحُّ لدِماغِهِ وأبعدُ لصوتِه وأحرى ألا تأبى عليه عينُه إذا حَفَزَتْهُ طاعةُ الله فاستدعى عَبْرَتَهَا. فأعجب عبدالملك بكلام الخارجي، وقال له متعجباً: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ فقال الخارجي: ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيءٌ. فأمر عبدالملك بحبسِه وصفح عن قتله. فانظر ثبات هذا الخارجي وشجاعته وعقله رغم السيف المسلَّط على عنقه، وانظر إلى أدب الخليفة وتقديره للعقل والمعرفة والشجاعة. وتأمل خبرة عمتنا رحمها الله فإن قولها (خلوه بوسِّع) قاعدة في التنشئة صَدَّقَهَا كلامُ هذا الخارجي الذي زعم أن البكاء يُوَسِّعُ الأشداق ويُوَسِّعُ مدى الصوت ويصحِّحُ الدِّماغ وينفي القسوة والغِلْظة. ويبقى رأي الطب بفروعه في المسألة.

أخيراً ليس كلام (الحبوبات) كله تخريفاً. والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها. فدعوا تثبيط الهمم وأرونا ما عندكم ولا تكونوا ممن قيل فيهم «لا بِجُرُّ ولا بخلّي البِجُر يَجُرْ أو لا بجدّع ولا بجيب الحجار».

سوار الدَّهب اسم على مسمّى*

أنفس المعادن الذهب وأنفس الحلي الأساور لذلك قال الله تعالى في صفة الجنة (يُحَلّونَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ من ذَهَب) وتكرر ذلك في القرآن في أربعة مواضع. بل كانت غاية التحدي الذي صرّح به الكفار أن تُلْقَى على الرسول أَسْوِرةٌ من ذهب تكون برهاناً على رسالته. ومن عظماء الرجال الذين مروا على تاريخ السودان السيد الفخم والإنسان الشهم الكامل الأخلاق والفهم المشير عبدالرحمن سوار الدهب الذي عرفه السودان والعالم بزهده في الكرسي الذي جاءه يُجَرِّرُ أذياله.

كنت أعرف هذا عن المشير كغيري من الناس من غير تجربة شخصية حتى أسعدتني الأيام بالتجريب فكنت كما قال الآخر:

كانت مُسَاءلةُ الرُّكبانِ تُخْبِرُني   عن أحمدَ بنِ سعيدٍ أَحْسَنَ الخَبَرِ
حتّى التَقَيْنَا فلا واللهِ ما سَمِعَتْ   أُذْني بِأَحْسَنَ مِمّا قد رَأَى بَصَري

كنت لقيت المشير مرات أولها حين جاء مشرِّفاً للسودان مُكَرَّماً بجائزة الملك فيصل العالمية التي شَرُفَتْ به مثلما شَرُفَ بها وكان أهلَها ومَحَلَّها. ولقيته مرة أخرى وقد جاء مشاركاً في مهرجان الجنادرية ملتزماً بجدولها ممثلاً لبلده حقاً، في بيت السودانيين منزل سفيرنا الأستاذ عثمان الدرديري بالرياض وحظيت معه بوقت طيب فوجدته حلو الحديث متنوع المداخل شامل المعرفة لطيف العبارة ودود المشاعر لين الجانب عُجِنَ بطينة التواضع وغَذِي لِبَانَ الصَّفاء وضُمِّخ بعبير الوفاء. يَتَلَفَّع بالطيبة السودانية الأصيلة ويتدثر بأصالة السلف وثقافة الخلف. رزقه الله المهابة ومزجها له بمحبة الناس حببهم فيه وحببه إليهم.

فلجأني ابنه الودود أخي المستشار أحمد سوار الدهب عبر الهاتف بأنهم بمعية الوالد المشير وأنهم داخل مجمعنا السكني وأنهم في طريقهم إلى دار شخصي الضعيف زائرين

---

* صحيفة الخرطوم ٢ أبريل ٢٠٠٥م.

وكان بمعيته ابنه الأكبر الدكتور محمد وكريمته الدكتورة. لقد أكرمني المشير بما لا أقوى على القيام بمِعْشَارِ عُشْرِ العُشْرِ من واجب شكره ولا مُكَافِئَ له على ذلك إلا ربِ المكافأة، وعلى الرغم من أنها كثيرة على مثلي ولكنها غير غريبة على مثله بل تصب في بحر تواضعه الزاخر وإلا فمن أكون أنا حتى يضعني سعادته في جدول ارتباطاته المزدحم. ولكنها قسمة رب العباد.

خرجنا مرة في دعوة إلى أحد أحياء ودمدني، ثم أُلْغِيَتْ المناسبة لسبب ما فقررنا أن نحولها زيارة لأحد أصدقاء الوالد وهو عمنا حاج حسن بجيّ العشير وكنا فوق العشرين شخصاً فوالله على تقدم سنه أخذ يخدمنا حافياً يدخل ويخرج وهو يردد: (الـ الله بدي في زول بجمي؟) فكان حالي في ذلك اليوم كحال صديق الوالد هذا. وقلت للمشير يومها: كانت لنا رحم واشجة في بعض نواحي الجزيرة قطعتنا عنها الإرادة والدنيا وبُعد الشقة فقررنا وَصْلَهُم فلما نزلنا عندهم وقف أحدهم مشدوهاً ونادى على زوجته يا فلانة جيبي واحد من أولادك نضبحو للجماعة ديل. وبقدر ما سرتني الزيارة عتبت على أخي أحمد سوار الدهب فلو أنه أخبرني قبل ساعة فقط لكنت جمعت بعض الإخوة من الزملاء الجيران ليشاركوني هذا التكريم ناهيك عن أشقائي الذين سيكونون أسعد الناس بهذا الشرف. ولكنه لم يفعل ولن يستطيع حتى لو أراد وأنا أول من يجد له العذر لأنني متخرج في نفس مدرسته تكفينا الإشارة وبعض العبارة ونتقيد بمدلول النظرة ولا نتجاوز التوجيهات مقدار شعرة.

هذا ونحن في منزل ابنه أحمد في طريقنا إلى عزاء دخل علينا ابنه الأكبر الدكتور محمد سوار الدهب فأكبّ على يد أبيه يقبلها فأدخل علي سروراً ما أحسست به منذ زمن وأعادني في لمح البصر من قلب الرياض إلى قلب غرفة والدي عليه رحمة الله بقرية قنب حاج علي حيث صحبته أربعين سنة من عمره الذي امتد إلى نحو مائة وعشرين سنة ما أعرف أنني أو أحد إخواني أو أحفاده أو أقاربنا بل غالب أهل بلدنا نسلم عليه بغير تقبيل يده وما أذكر في حياته أنني أو أحد إخواني نجلس في حضرته على كرسي أو سرير إلا أن يكون أحدنا مريضاً عاجزاً فيعوده الوالد ويجلس معه ويقرأ عليه شيئاً من كتاب الله. ولا

أذكر أنه مر علينا يوم لا ندخل فيه للسلام عليه مرتين صباحاً ومساءً كباراً وصغاراً ذكوراً وإناثاً هذا سوى ما يستدعي دخولنا عليه لأمور حياتنا اليومية.

وامتداداً للفتات المشير البارعة الدالة على كرم أخلاقه ووفائه تلك اللفتة الرائعة ولمسة الوفاء النادرة حين عرف أن أبناء صديقه القديم الذي توفي حديثاً وهو المرحوم حاج أحمد صالح موجودون بالرياض فصمم على وضعهم في جدوله والوصول إليهم في دارهم لتعزيتهم وقد كان. وهناك عرفت عمق الصلة التي تربطه بذلك الرجل الذي كان صاحب (كنتين/ دكان) في ثانوية خورطقت في الخمسينات فبقيت الصلة بينهما حية مزدهرة نصف قرن من الزمان. يعرف المشير أبناء صديقه هذا وأين يعملون والمهاجر منهم والمقيم سألهم عن والدتهم وأوصاهم بضرورة المحافظة على تلك الصلة الوثيقة. وكان مما حكاه من الذكريات أن المرحوم حاج أحمد نقصت عنده سلعة مهمة في دكانه ذلك فعنّفه بعض الأساتذة من الخواجات على ذلك وكان الناظر وقتذاك المرحوم النصري حمزة الذي يقول عنه المشير إنه كان أنموذجاً نادراً للمدرسين والإداريين بشهادة الإنجليز الذين كانوا يرون أنه لا نظير له لا في المعارف السودانية ولا البريطانية. ذكر المشير أن المشكلة بين حاج أحمد والخواجة وصلت إلى الناظر النصري فدخل عليه حاج أحمد وظل واقفاً فقال له الناظر إما أن تجلس وإما أن أقوم أنا. ثم قال له: أنت الآن ألا تعرف عدداً من طلاب هذه المدرسة؟ قال: بلى. قال: دع عنك الخواجة وعليك بهؤلاء الطلاب فهم الذين سيصبحون حكاماً لهذا البلد. ثم ذهب به إلى الخواجة ووبخه أمام حاج أحمد. وقد صدق المرحوم النصري فقد كانت لحاج أحمد صداقات باقية مع طلابه منها صداقته مع الرئيس سوار الذهب نفسه ومع اللواء عمر محمد الطيب والفريق عبدالماجد حامد خليل وغيرهم. ذكر سعادة المشير هذه القصة حين أصر إبراهيم أحد أبناء المرحوم على الجلوس أرضاً، فاستدركت أن أحد روافد هذه العظمة وذلك التواضع هي بعض إشراقات شخصيات الحياة العامة التي صحبها المشير ورضع لبان تجاربها من أمثال النصري حمزة ولكن قبل ذلك كان أساسه بيت الدين العريق

الذي نشأ فيه المشير وفيه سلسلة من الصالحين متصلة كابراً عن كابر آخرها والده الذي تشرب آداب السلف فعبّ منها المشير حتى الثمالة.

هذا وبعد أداء واجب العزاء مع أبناء المرحوم حاج أحمد صالح أصرّ علينا أخونا الأستاذ ذو النورين أن (نُوَزِّرَهُمْ) ونصحبهم لتلبية دعوة أحد الإخوة السعوديين الذي تلقى المشير ببشاشة نادرة وهو يحمل البخور خارج أسوار داره والركب ما يزال عند أبواب السيارات ثم بعد الضيافة بدأ الأنس الذي تلمس فيه متابعة بعض الإخوة السعوديين لأخبار السودان بشغف عجيب وهم يكنون للمشير تقديراً كبيراً ويحملون له تبجيلاً يظهر في عيونهم. قال أحد المستشارين حين بدأوا بتعريف أنفسهم: المشير سوار الدهب غني عن التعريف ويكفيه فخراً أنه الرئيس الوحيد في العالم الذي تخلى عن كرسي الرئاسة طائعاً مختاراً.

وسألوا عن اتفاقية السلام وأخبار دارفور فأجابهم سعادته بحنكة الساسة ولباقة الرؤساء. وكانت المجموعة السعودية الموجودة من المهتمين بأمر الدعوة وتحفيظ القرآن ومرّ ذكر الجهود المبذولة في التحفيظ وقال أحد الحضور إنه سمع خبراً سره سروراً عظيماً وهو أن قراراً صدر في السودان يقضي بتعيين حملة القرآن على درجة خريجي الجامعات. فأكدت له الخبر الذي سمعته من الرئيس البشير في احتفال في مدينة القضارف أواخر التسعينات فأثنوا ثناءً عظيماً على هذا التقدير لكتاب الله والتكريم لحملته. وأمّن المشير على كلامي وبدأ في ذكر محاسن العهود التي سبقته وذكر أن الرئيس نميري كانت له أيضاً إشراقات وجهود مشكورة في الاهتمام بالقرآن وحفّاظه. وهذا يبرز جانباً آخر في شخصية هذا السوداني الفريد المشير المنصف الذي ظل خير سفير لوطنه. لم أسمعه يقدح في رئيس ولا ينتقد أحداً بل يتحدث وهو مملوء تفاؤلاً وتطلعاً ويعطي سامعيه صورة مُشَرِّفَة عن السودان والسودانيين.

هذا الرجل من طينة بشرية فريدة هي التي حنّ إليها الخليفة إبراهيم الفكي صالح شقيق المرحوم الذي مرّ ذكره في قوله:

يا حليل الكرام الزَّوَّدونا نصائح القوم الهُمَمَلم المُنْجِدِين الصَّايح

القابض على جَمْرة ودادهم رابح الفوز لي اليمَاسي المرشدين ويصَابِح

وما قصدت إلى إشهار شيء مما مضى كما قد يتراءى لبعض مسطحي العقول ولكن الرجل مدرسة وكتاب مفتوح أحببت أن يشاركني القراء الاطلاع على بعض صفحاته. فاللهم احفظه ووفقه وبارك في ذريته وأجزه عن السودانيين وعني خاصة خير ما جزيت والداً عن ولد.

رَجْعُ الصَّدَى*

الناس يعتقدون أن للشعراء شياطين يعينونهم على قول الشعر كما يعتقدون أن للشعر أوقاتاً خاصة هي أوقات الهدأة بعد الهجعة وإن كان هذا الوقت يتعارض مع أشياء أخرى ولكن قبل الخوض في هذين الأمرين أرجو أن أشكر الإخوة في هيئة تحرير صفحة (البانوراما) على أن منحوا زاويتنا الناشئة (رجع الصدى) إجازة مفتوحة تتناسب وظروف الاختبارات التي هَبَّتْ رياحها هذه الأيام. ولكن هناك مقالة أخيرة تضمنها (ماكوك) رجع الصدى قبل أن ينفصل عن (مركبة) البانوراما أنشرها بنصها كاملاً وهي تقول:

بتر الإخوة في الصفحة أو في الصحيفة أبيات الأستاذ صلاح الغول التي أوردتها السبت الماضي لما فيها من تحية لهذه الصحيفة الغراء ولما تضمنته من إشادة ووفاء لكتّابها والمشاركين فيها. ولما في القصيدة أيضاً من تمكن في فن النظم ومعرفة بأساليب الشعر الذي لا ينقاد بسهولة في مثل هذه المناسبات إلا لشاعر مطبوع. وليس هذا إطراءً فأنا لا أعرف الشاعر الكريم وتسعدني معرفته. وقد طرأت على خاطري أسباب وجيهة أسوّغ بها لما حدث وأكثرها وجاهة ربما كان ضيق الحيز المخصص لزاويتنا المتواضعة. ولكن إن كان الأمر كذلك فإن الإخوة في الإخراج ما كان يضرهم أن يثبتوا بيتاً إضافياً واحداً هو البيت الرابع من هذه الرباعيات، فلما رجعت إليه وجدته يقول: (أوفانْتَقِدْهُ إذا رأيت ودع زُبيرَ ومَنْطِقَهْ) فقلت في نفسي: الجماعة خافوا من الزبير سعيد ومن قلمه الزَّلْق ومن لسانه الطَّلْق لأن الشاعر قال (ودَعْ زبير ومنطقه) فإن فهموها بمعنى (سيبك مِنُّو) فهي حقاً مزعجة ولا ترضي الزبير ولا نرضاها له، ولكن من عرف فنون العربية أراح واستراح (ولا ندعي ذلك). فأنت لو سمعت شاعراً يقول:

خاط لي عَمْرو قَبَاْ   ليت عينيه سواء

قل لمن يعرف هذا   أمديحٌ أم هجاء

---

* صحيفة الخرطوم ٥ يناير ٢٠٠٥م.

فماذا يكون جوابك لو علمت أن عَمْراً الترزي هذا كان (كريم عين) أي: أعْوَر فهل يريد الشاعر أن تستوي عيناه في الصلاح أم في الفساد؟ والعرب يقولون لمن يحسن شيئاً (ثكِلَتْهُ أمُّه ما أَحْسَنَ حديثَهُ، وما أَشْجَعَه) وهم لا يريدون له الموت. والرسول الكريم يقول: (فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَدَاك) ومعناه المباشر لصقت بالتراب وهو ذم ولكنه غير مراد في الحديث الشريف وإنما هي أساليب حَثّ وإغراء. وحتى في عاميتنا نقول خلّيك من أصناف الأكل.. شفت جابو كم فنان فكلمة (خليك) هنا ليست ذماً. وعليها قول علي رضي الله عنه: (دعوا عنكم عثمان فوالله ما كان أشرَّنا).

فمراد الشاعر صلاح هو المدح كما علمت منه أراد (أما الزبير فلا تسأل عن منطقه العذب أو هكذا) فإن كان هذا هو السبب فقد بطل العجب ونرجو ألا تكون ثمة أسباب أخرى ولشاعرنا العُتْبَى ومن حقه علينا إكمال الأبيات التي تقول:

حَـيِّ المجـالسَ واقفـاً فـإلى المفكـرة اسـتدر
وإلى مـدارات الثقافـة ذاك نَهْـرٌ مُنْهَمِـر
وبواحـة المغتربـين قِـفْ لا بالـشواهد فـاعتبر
فالـصالحية لم تـزل خلـف الـشواهد تنتظـر
الـصالحية ذلـك الـرَّحِمُ الـذي لم يَعْقُـم
بجنودهـا مـن قـد عَلِمْـتِ فـداءَهم لـك بالـدم
ببُروفِّهـا وبـابن عبـدالعال عبـدالمنعم
بـروابط الخـير الـتي لـسواه قـط لاتنتمـي
فبـاسمهم وبحـس أبـروف العريـق الثـائر
ذاك الـذي في داخلـي وبـه تَجِـيشُ مـشاعري
أهـديك باقـاتِ التهـاني للعبـور الظَّـافر
نِعمـتْ عكـاظُ وسـوقُها للمـشتري والتـاجر

انتهى ما جاء في زاوية (رجع الصدى) وكنت أوردت هذه الأبيات من باب الثناء على شعر الأخ صلاح الغول وليس من باب الثناء على من تضمنت الأبيات ذكرهم ولو كان في الأمر ما يستحق الثناء عليهم أو يدعو إليه ما ترددت في ذكره فقد علمونا في دروس النقد ألا يحملنا الهوى على عدم الإنصاف بل علمتنا ذلك قوانين السماء (لا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألاَّ تَعْدِلُوا) وسنظل وفيين لكل السودانيين دون وصاية من أحد ودون مصادرة رأي. ولكننا قطعاً سننحاز إلى ما يرضي الله ويخدم الوطن وشعارنا أبيات الشيخ عبدالله عبدالرحمن الضرير عليه رحمة الله والتي أنشدها في افتتاح نادي الخريجين عام ١٩٣١م وجاء فيها:

بــــني وطــــني وكلُّكـــم خَــبيرٌ	بمــا في الخُلْــفِ مــن سُــوء المـآل
دعــوا حُــبَّ الظهــورِ فــذاك داءٌ	بنــا يــودي علــى قَــرْنِ الــزَّوال
وشُــدُّوا مــن تــآزركم وكونــوا	رجــالاً تبتغــي حُــسْنَ الفَعَــال
أســـائلكم أُصَــيْحابي سُــؤالاً	وإن جَــلّ المقــامُ عــن الــسُّؤال
وأنـــتم في الــبلاد منــارُ هَــدْيٍ	وأنـــتم للـــبلاد لِـــسَانُ حـــال
لمـــاذا نقطَــعُ الأوقـــات لهـــواً	ونُفْنِــي العمــرَ في قِيــلٍ وقــال
وهــل تُبْنَــى الــشُّعوبُ بــلا اتحـادٍ	وهل تُغْنِي الـيمينُ عـن الـشّمال
يهــدّم بَعْــضُنا بعــضاً ويغــدُو	علــــى أبنــــاءِ مِلَّتِـــهِ يُمَـــالي
إذا مــا العلــمُ لم يُلْهِــمْ نفوســاً	تُقَاهَــا فهــو مَدْرَجَــةُ الــضَّلال
وخوضُـــوا في شـــؤونٍ نافعـــاتٍ	وهُبُّـــوا للرياضـــةِ في اعتـــدال
فـــإني لا أقـــول لكـــم دَعُوهـــا	ولكـــنْ لا أرَى لكـــمُ التَّغَـــالي

هذه الروح التي تضمنتها هذه الأبيات قبل أكثر من سبعين عاماً نحن أحوج ما نكون إليها الآن في وقت تتجه فيه سهام الفتنة إلى بلادنا من كل صوب. وقد مثل هذه الروح بكل الشفافية حفل الهيئة الطوعية لدعم التعليم العالي الذي أقيم بالرياض مساء الجمعة الماضية تكريماً

لسفير السودان الرسمي والشعبي الأستاذ عثمان الدرديري المبارك الذي ينغِّصُ علينا الفرح بتكريمه الفزع من توديعه وقد كان حفلاً نوعياً نموذجياً بكل المقاييس بحضوره المميز الذي شمل وجوه الجالية السودانية من أساتذة الجامعات وأساطين المهن الطبية ورموز المجتمع ولكونه أسس لبادرة كريمة هي بادرة الاحتفاء والوفاء لأهل العطاء وهم في مواقع عملهم قبل أن يتركوها وهي البادرة التي طالما نادينا بها وهي (تكريم الأحياء قبل أن يرحلوا وتكريم الفرسان قبل أن يترجلوا).

وقد شرف الحفل وزير الداخلية الأسبق الفريق عباس أبو شامة الذي شرفني بعضوية كيان أبناء الريف الشمالي والبروفيسر محمد عثمان مالك نائب مدير جامعة الخرطوم الأسبق والذي مازحني بعد إلقاء قصيدتي بأن (حقي رايح) مع ممدوحي هذا الزمن وأنني لو كنت في العصر العباسي لامتلأت جيوبي. وخطب في الجمع البهيج البروفيسر المهندس عبدالله الصادق رئيس الهيئة الطوعية وتحدث الطبيب البروفيسر عبدالرحمن ثمينا والطبيب البروفيسر عوض أبو زيد والأستاذ الكبير البروفيسر معتصم خليل والشاب المرح الدكتور عمر الأصم وكلهم كان في غاية الإحسان ونهاية الاعتراف بالقصور عن إحصاء إنجازات المحتفى به ودوره في خدمة الجالية وتنمية العلاقات السودانية السعودية. وكان مسك الختام كلمة السيد السفير المعبرة المؤثرة. وقد أدار فقرات الحفل الدكتور كرار التهامي بلباقته المعهودة وكياسته المشهودة. هذا وقد افتقدنا نائب قبطان الهيئة الدكتور سيف الإسلام سعد عمر الذي لزم السرير الأبيض لعملية عاجلة نسأل الله له عاجل الشفاء فقد كان أحرص الناس على هذه الليلة بل لعله صاحب فكرتها.

وأثناء فقرة تقديم الهدايا والدروع شالت الهاشمية أستاذ الأجيال الدكتور أحمد الخليفة - والكريم طروب- فلخص الموقف كله في بيت شعر واحد مُعَبِّرٍ دلّ على أصالة الختمية وبيت الخليفة الحسن.

أما العبد الضعيف فقد أنشد قصيدة أصالة عن نفسه ونيابة عن الهيئة الطوعية كانت محل تعليقات أهمها ما ذكرته في مفتتح هذه المقالة وهو شيطان الشعر وتوقيت هجومه. وكنت قد ذكرت أنني شرعت في هذه الأبيات عند الثانية صباحاً من فجر يوم الاحتفال ولما كان الحضور الزاهي معظمه من كبار القدر والسنّ فقد أثارهم هذا التوقيت المريب الذي أجمعوا على أنه وقت (الحكومة) الذي لا يجوز فيه ممارسة أي نشاطات أخرى على الرغم من أن بيئة الشقق المغلقة هذه تجعل وقت الحكومة مفتوحاً دائماً. أما شيطان الشعر فما أكثر ما تحدثت عنه العرب وذكره السودانيون. ومن عادة الناس أنهم ينسبون كل شيء مُتْقَنٍ إلى الجن حتى قال أبو العلاء المعري:

وقد كان أربابُ الصِّناعاتِ كُلَّما رَأَوْا حَسَناً عَدُّوْهُ من صَنْعَةِ الجِنِّ

وقديماً قال الراحل المقيم الدكتور عبدالله الطيب: (وأكثر الشعر على أرجح الأقوال من نفس الشيطان وعلى هذا يجوز لقارئ أن يحرف كلام العقاد رحمه الله فيصير:

الشعرُ من نفس الشيطانِ مُقْتَبَسٌ والشاعرُ الفَذُّ بين الناسِ شَيْطَانُ).

والعرب كانت تنسب الجن إلى وادي عبقر. وكان لكل شاعر منهم اسم جني ورد في شعره منهم مِسْحَلٌ وجُهَنَّام والشِّنِقْنَاق والشَّيْصُبَان. وكان (تنكوير) هو عظيم شياطين الهند و(دركاذاب) هو عظيم شياطين الشام. أما عظيم شياطين أهل السودان فهو (شَمْهَرُوش). ومن اعتداد السودانيين بأشيائهم أنهم يعتقدون أن شيطانهم هذا كان رئيس الجن وقاضيهم منذ أيام النبي صلى الله عليه وسلم، قال أحدهم:

جاني شمهروش قال لي ماقُتَّ غنَّاي
كل ما ألَقِّنَكْ بي غناي بقيت نَسَّاي

ومن عجيب ما سمعته أن الشاعر الشعبي (القطيرة) دخل على الشريف يوسف الهندي فشكا له من ملازمة القرين له وهو شيطان الشعر. وطلب من الشريف أن يجادعه فابتدأ الشريف قائلاً:

جبيد الفِرَكْ والسَّلْب

فقال القطيرة: عدم تمجيدي فيه سَبَّبْ لي فَرَّة قَلْب

فقال الشريف: بَكْرَة هندري السِّيدها مَكَنْ الزَّرْب

فقال القطيرة: ما ني مبالي مِنّو عليهو ناوي الحَرْب.

فقال له الشريف خلاص شلناهو منك ستة أيام، اليوم الواحد ما بستحمله؟ فذهب عنه وفي اليوم السابع يحمل الشاهي والبن ومعه الشبابِ فيغنون الليل كله حتى يصبحوا. هذا وقد كتبت عن شيطان الشعر فصلاً طويلاً ممتعاً في كتابي المخطوط (عجائب الموافقات بين التراث العربي والسوداني). أرجو أن يرى النور قريباً. والتحية لسفيرنا الإنسان عثمان والتحية للهيئة الطوعية الوفية.

خُذْهَا في كُمَّك لا تغُمَّك*

في واحدة من (مداعبات) أستاذنا الدكتور إبراهيم دقش في عموده الذائع (عابر سبيل) مرّ ذكر سرقة الأحذية – أكرمكم الله– ولم يمضِ وقت طويل على مطالعتي للحادثة حتى وقعت حادثة مشابهة لما رواه زعيم الإعلاميين والرباطاب ولشخصية مهمة أيضاً وفي مكان لا يتوقع فيه حدوث شيء كهذا. فقد كانت الهيئة القومية الطوعية لدعم التعليم العالي استهلت موسمها الثقافي بسفارتنا العامرة بالرياض، فوضعوني سامحهم الله في فوهة المدفع وجرّبوا فيّ (شيل التمساح) فقدموني في محاضرة افتتاحية وأرغموني على المواصلة في المحاضرة التالية باستدراج تلميذي اللبق (المأمون) ودبلوماسية الأستاذ يوسف برقو وصبره وإصراره وديناميكيته التي لو توافرت (لِرَبْعِهِ) المشاركين في مفاوضات دارفور لتوصلنا إلى نتيجة. فقلمت تنويراً عن كتابي الذي صدر أخيراً وهو (المقارنة بين امرئ القيس والحاردلو) وقد اجتهدت في (الزوغان) عن الحديث المباشر عن الكتاب ومادته لسببين: الأول أن الكتاب أصبح بأيدي الحاضرين وانتهت مهمتي وأصبحت الكلمة للقراء فلا داعي لأن أحكي (الفيلم) قبل مشاهدته. والسبب الثاني أن معظم المشاركين في هذا النشاط يأتون يوم الخميس للمحاضرة عقب صلاة العصر وهم صائمون مما يجعل الحديث عن المرأة وعن مغامرات الشاعرين الواردة في الكتاب مما قد يفضي إلى (تفطير) بعض الصائمين، خصوصاً (العُزاب) أو تجريح صيام البقية.

وقبل الدخول إلى موضوع (سرقة الأحذية) لابد من الإشادة بهذه الندوة الأسبوعية التي تهتم السفارة بشأنها ويحضرها أعضاء البعثة وعلى رأسهم السفير ومستشاروه ويتعهد إفطارها الجماعي نائب السفير الأديب الأستاذ سليمان عبدالتوابِ وكأن الدعوة في داره، تعاونه طائفة بشوشة من منسوبي السفارة، ويدير حلقات نقاشها تلميذنا النجيب الشيخ

* صحيفة الخرطوم ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٤م.

الأستاذ مأمون الحاج، ويتفانى في تصويرها وإخراجها الأستاذ عوض حسين حتى أغراني صبره وحسن متابعته أن أدعو الأخ السفير والسفارة وقادة الهيئة الطوعية وفي مقدمتهم الدكتور عبدالله الصادق والدكتور سيف الإسلام، وأقترح على الجميع توسيع دائرتها ومكانها ونقلها كاملة لتبث عبر قناتينا الفضائيتين فإنها أفضل من كثير مما يبث عبر الفضاء وليكن ذلك برنامجاً منوعاً ثابتاً تقدمه السفارة بالتعاون مع تلفزيون السودان أو قناة النيل الأزرق خصوصاً مع استقبالنا حدثاً ثقافياً كبيراً هو (الخرطوم عاصمة الثقافة). هذه الندوة تؤمها نخبة مميزة فاضلة من المثقفين والمهتمين بالشأن الثقافي من هذا المنبر الذي أطل علينا محمود العود بعد فترة نقاهة –أعني صحيفة الخرطوم- أدعو المهتمين بشدة إلى ارتياد هذه الندوة وإلى توسيع نطاقها لأنها تظاهرة ثقافية جادة ونواة لعمل مسؤول يبرز الوجه المشرق للسودانيين وسفارتهم ويذكر إخواننا في اللجنة القومية العليا لعاصمة الثقافة أننا في الصورة وأننا لسنا كماً مهملاً، وأننا لسنا حَصَلَةَ دنانير وريالات، بل نحن أصحاب رسالة وأن إهمالنا في حدث كهذا غير مُسَوَّغٍ ولا مهضوم وأننا برغم ذلك كوّنا لجنتنا لعاصمة الثقافة ولن أستبق جهة الاختصاص في الإعلان عنها ولكنها لجنة قومية تقبل كل مشاركة سودانية ناضجة وتهيب بكل سوداني أن يلقي بدلوه وسنقابل الإهمال بالاهتمام الشخصي والجماعي لأن الهدف السودان. ويكفينا التزام (الجنتلمان) الشفهي الذي بلغنا إياه أخونا المتفاني في خدمة الجالية الدكتور حسين حملي عن رئيس جهاز المغتربين الأستاذ تاج الدين المهدي.

وأعود معتذراً للقراء إلى سرقة الأحذية وأقول كانت المحاضرة الثالثة للأستاذ الزائر الأديب بحق والطبيب بجدارة والإنسان بامتياز البروفيسر حسن أبو عايشة والذي وضع نقطة الوقف التام (فل ستوب) للاغتراب وعاد مديراً ورئيساً لجامعة الرباط بالخرطوم، فحدثنا حديث العاشقين عن هذه الجامعة الفتية التابعة لوزارة الداخلية وعن مشروعاتها الطموحة وعن الدعم السخي الموفّر لها حتى ذكرني قول الشاعر:

فَتَكَفَّلَ الأيتامَ عن آبائهم حتَّى وَدِدْنا أننا أيتامُ

فتمنينا أن نعود طلاباً فيها (بس بشرط تخفيض المصروفات). ثم حدثنا عن العودة ودعا إليها بإلحاح وعرض علينا شروط العودة والمقومات الثلاثة للبقاء في السودان وهي (البيت + الزوجة + النَّقَّاط) كما لقّنها لسعادته (صبي ميكانيكي) حسب روايته فتأمل تواضع العظماء وأدبِ الإصغاء عند العلماء وأخذ الحكمة مِنْ كائن مَنْ كان. قال له الصبي: البيت للمأوى والزوجة للضبط والربط والنقّاط (مصدر الدخل) هو عصب الحياة، أو كما قال. وبمناسبة النقّاط قلت للبروف كنا نعرف أنك تجيد العربية كإجادتك علم أمراض الكُلى ولكنك في فترة وجيزة أضفت لغة رابعة هي لغة (الراندوك) أو الشماسة. هذه اللغة ذات المفردات العجيبة التي تناولتها هنا مرة فطالبني الكثيرون بالتأليف فيها فوعدتهم خيراً إذا شاء الله وتوافرت المادة أو تيسرت العودة إلى منابع تلك اللُّغة. ولا أدري كيف تتيسر العودة وقد عمدنا إلى منظومة (صبي الميكانيكي) [البيت والزوجة والنقّاط] فاخترنا الحبة الوسطى وواسطة العقد ثم انفرطت المنظومة.

المهم بعد حديث البروف الشائق والنقاش المثمر المسؤول ارتفع أذان المغرب وحان وقت الإفطار والصلاة ثم كانت الحادثة (اللطيفة). قلت يومها لبعض الإخوة رأيت مركوباً جديداً (أكرمكم الله) نسخة من مركوبي نصف العمر ومقاسه (الخالق الناطق) فتعمدت أن أضع مركوبي ملاصقاً له أملاً في (تدقيس) صاحبه فعساه (يضربِ لخمة) فليفح مركوبي و(يكسح) وأكسب جوزاً جديداً ولو (شَدَّهْ) ولكن صاحبنا طلع (تفتيحهْ) فدقق وبحلق رغم (غَبَش المغربية) و(ظبط) مركوبه (وشَتَّت). فقال لي صاحبي (إنت في مركوبك ولاَّ جزمة البروف أبو عايشة لطشوها ياهو داك ماشي حفيان) فأعادني هذا الخبر إلى موضوع (عابر سبيل) وإلى كتابي (عادات سودانية) الذي تضمن مقالاً مطولاً عن (سرقة الأحذية في المساجد). فقلت إذا كانت النفوس تضعف حتى تقع مثل هذه الحوادث في المسجدين المقدسين في مكة والمدينة حتى قال أهلنا (جينا لي مكة تَغْنِينَا قَلَّعَتْ طواقينا) فلا عجب أن

تقع في مساجد السودان أو سفارته ولكن الطريف في الأمر أن الحكاية لم تكن (لَطْشهْ) لكن ما تمنيته لمركوبي تحقق في حذاء البروف، فقد لفح أحدهم حذاء أبي عايشة و(فرتق) وخلّف حذاءً يبدو أن الشيخ البروف أنكره (وحَرِدَه). ولولا أن أستاذنا يرأس جامعة عسكرية قوامها الضبط والربط لخشيت لمعرفتي بزهده وورعه أن يفعل ما فعله بعض السلف. فقد دخل أحدهم مسجداً وخلع نعله ووضعه جانباً ولما فرغ من صلاته بحث عنه فلم يجده فقال: غفر الله لمن سرقه وقضى بقية حياته لا ينتعل. ولما سئل عن ذلك، قال: أكره أن أتخذ نعلاً فيأخذها أحدهم فيأثم. قلت: ولو أن كل من تسرق نعله يفعل ما فعله هذا الشيخ لأفلس لصوص الأحذية.

والعبرة هنا في خبر البروف أن من فوائد العودة أنها تجعل العائد من المغتربين يعرف أشياءه جيداً من الحذاء إلى العملة ويحرص عليها كحرص المقيمين، فالعائدون أصبحوا مواطنين عاديين لا تفوت عليهم حيل (البلطجية) وقد أصبحوا (مفتحين) وتركوا التطنيش والتغافل فالدقون اتلاحقت والكتوف اتساوت والحكاية (قارصة) لا كسابق عهدهم حين (يلطش) منهم شيء (فيطنشوا) على أمل تعويضه بعد العودة بانتهاء العطلة. ثم انتهت الأزمة بسلام بعد ساعة حين رجع بعض من بقي بالسفارة لصلاة العشاء فاكتشف أحدهم عند الوضوء أن حذاءه تبدل دون قصد فعاد حذاء البروف سالماً، فالعاقبة للبروف الآخر يا حاج دقش وما أظن.

والحق أن متاعب الناس مع (النعال) كثيرة لذلك يحرص عليها بعض الناس حتى ضربوا بذلك المثل. قال أبو حازم وهو يعظ الناس: فليتق الله أحدكم على دينه كما يتقي على نعله يعني (يضّارف على دينه كمضارفته على نعله). وإنها لتشغل كثيراً من المصلين عن الخشوع في الصلاة أو الانتباه للدروس في المساجد وقد تكلم عنها الدكتور طه حسين في كتابه (الأيام) وذكر كثيراً من طرائف طلاب الأزهر عنها. وللمصريين في ذلك مثل مشهور ذكره أحمد تيمور في أمثال العامة، وهو قولهم عن النعل (خُدْها في كُمَّكْ لا تغُمَّكْ). يعني ضع نعلك وسط ملابسك حتى لا تسرق فيصيبك الغم والحزن. يقولون ذلك في نعل

مغربية غليظة اسمها (البُلْغَة) فكيف إذا كانت نعلاً أسبانية أو إيطالية لطيفة الصنع أنيقة كما جاء في عابر سبيل؟ قلت للبروف: ذكر لي أستاذ علم النبات الأديب الدكتور حسن مصطفى أن زميلاً له اسمه فاروق حسن اليماني روى له متاعب أهل بلده من هذه الظاهرة فكانوا يقولون (لأن تَؤُمَّك خيرٌ من أن تَغُمَّك) يعني أن تجعلها إماماً لك أثناء الصلاة فتضعها أمامك وذلك أدعى للاطمئنان، خير لك من أن تسرق فيصيبك الغم وهو بمعنى المثل المصري المتقدم.

ولمحاربة هذه الظاهرة هناك ثلاث وصفات، الأولى: يمكن لمن أراد أن يتمسك بالسنة أن يصلي بنعله فإنها إذا كانت طاهرة نظيفة فالصلاة بها جائزة. فقد صلّى الرسول الكريم في نعله. وكان بكر بن عبد الله المزني تكون نعله بين يديه فإذا قام إلى الصلاة لبسها. ولكن أهل السودان لفرط ظرفهم وذوقهم ولشيوع المذهب المالكي بينهم يكرهون الصلاة في النّعل، فقد كان إمامهم مالك رحمه الله إذا دخل سور المدينة المنورة خلع نعليه لا يلبسهما أبداً مؤملاً أن تطأ قدمه موطئ قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام. وهذا تأويل بعيد وبديع وأدب نادر.

وقطعاً أنت لا تستطيع الصلاة في كل نعل؛ فلا يصلح لذلك "الشَّقَيَّانَهْ" و"حاجّهْ كافرهْ" و"تموت تخلّي" وهذه ضروب من الأحذية قديمة لم يسمع بها الكثيرون مادتها الأساسية الجلود الرديئة أو المطاط (خنزير اللساتك) وقد بدأ الناس يعودون إليها موضة أو تقليعة أو احتياجاً وهي على كل حال مضمونة "وضد السرقة". فيمكن اللجوء إليها وهي الوصفة الثانية.

أما الوصفة الأخيرة لمعالجة هذه الظاهرة فقد رأيت بعض الحذاق وأهل الحرص قد فوّتوا الفرصة على لصوص الأحذية وذلك أنهم يضعون (فردة) من الحذاء في جانب من باب المسجد ويضعون الأخرى في جانب آخر. واللّص مع العجلة والخوف والارتباك إنما يبحث عن (جوز) مكتمل فعليكم بهذه الوصفات المجربة وإن أغضبت اللصوص وأبقوا عشرة على نعلاتكم وأكرمكم الله أولاً وأخيراً.

امرأة مختلفة جداً*

في احتفاء المرأة بعيدها في الشهر الماضي قرأت عموداً في صحيفة الخرطوم (الثلاثاء ٨ مارس ٢٠٠٥م) بعنوان «امرأة مختلفة» للأستاذة مشاعر عثمان. وانتظرت طويلاً أملاً في أن تثني الكاتبة وتواصل خواطرها حتى أتبين شيئاً من طريقة تفكيرها ومَنْ على شاكِلَتِها من النساء، ولكنها لم تعد. وكنت وعدت بالتعقيب على خواطرها تلك في (رجع الصدى) ثم وجدت المساحة ضيقة فلجأت إلى المفكرة.

أرسلت الأستاذة مشاعر نفسها على سجيتها وبلغة جيدة وأسلوب مشرق وجرأة محببة وحسن قصد استهلت بمقطع لنزار قباني يقول:

(علَّمني حبُّكِ سيدتي أن أتصرَّف كالصبيان....)

ثم قالت: وهذا اعترافاً «هكذا» من الشاعر الكبير الراحل المقيم داخل كل امرأة.. نزار قباني بأن المرأة تجعله يتصرف كالصبيّ الصغير وأراهن على أن كل رجال الدنيا يتصرفون كنزار ويفعلون فعل الصبيان أمام حسناواتهم ولكنهم يمارسون عنف الكبرياء ويمتطون صهوة جياد الأنفة بدافع (الرجالة) ورغم أن حديثي هذا غير معمّم ولكن غالبيتهم يترجلون على المرأة بغنج...) إلى آخر حديثها الذي بدأ ثائراً ثم هدأ.

ويبدو أن الأمور فيها اختلاط. أولاً لم يقل رجل من الرجل إنه لا يرسل نفسه على سجيتها مع امرأته والفطرة السليمة تملي عليه ذلك بل وتوجبه عليه نصوص الشرع. غير أن مربط الفرس وبيت القصيد هو أين يكون هذا المرح والتبسُّط والدعابة والصبيانية ومتى يكون ومع من يكون؟ نحن نقدر لنزار قباني شاعريته وخصوبة خياله ولا نعترض على أن يملك أي شاعر من الشعراء قلوب نساء الدنيا ولكن إذا عرضنا الأسئلة السابقة على شعر نزار أتتنا الإجابة محبطة تثير فينا الغيرة ويحزننا جداً أن يقيم شاعر مثله في قلب امرأة واحدة من نسائنا.

* صحيفة الخرطوم ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م.

ولكن قبل الخوض في نماذج من شعر نزار (الراحل المقيم داخل كل امرأة) هل كان إرثنا الثقافي الجنسي والاجتماعي مفتقراً إلى (وصفات) القباني في العلاقات الخاصة؟ لقد قال تراثنا ما لم يقل نزار مثقال حبة من خردل منه ولكنه قيل بأسلوب آخر وبطريقة مغايرة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ينبغي للرجل أن يكون مع أهله «زوجته» مثل الصبي فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلاً). وكان الحجاج بن يوسف الذي اشتهر بالبطش والشدة متزوجاً بأربع نسوة فقيل له: أيمازح الأمير أهله «زوجته»؟ قال: ما ترونني إلا شيطاناً. والله ربما قبَّلت أُخْمُصَ إحداهنّ) والأخمص هو باطن القدم. بل وجدت أفعالاً يجيز الفقهاء أن يمارسها الرجال مع نسائهم وفي كتب التفسير كالقرطبي لو أنني ذكرتها هنا لصودرت الصحيفة.

أليست هذه هي الصبيانية التي أرادها صاحبنا نزار بالنَّص. ولكن مع من كانت؟ إنها ليست مع العشيقات. ثم هل كانت هذه الصبيانية ديدناً ومنهج حياة؟ لا إن لها أوقاتاً معينة لأن الحياة ليست عبثاً ولهواً كلها كالذي تطفح به أشعار نزار. فحين عبرت القوات المصرية خط بارليف اليهودي في سنة ١٩٧٣م احتفل نزار بذلك الحدث على طريقته الخاصة في منظر أشبه بمصارعة ثيران على حلبة سرير كما قال بعض النقاد. فقال لعشيقته:

حين استمعنا معاً لبيان العبور
ألاَحَظْتِ كيف احتضنتُك مثل المجانين
كيف اعتصرتُك مثل المجانين
كيف رفعتُك ثم رميتُك ثم رفعتُك ثم رميتك
ألاحظت كيف اندفعت إليك
ألاحظت كيف التحمنا وكيف لهثنا وكيف عَرِقْنَا
وكيف بعثنا كأنَّا نمارس فعل الغرام لأول مرة

وما أكثر ما يدعو نزار صويحباته إلى الصراع العنيف حتى لا يوصفن أويوصف بالبرود لذلك تسيل أشعاره (عرقاً) لدرجة الغرق، قال في بعضها:

سِيلي عَرَقاً موتي غَرَقاً كي لا يُرْوَى عنّي أني كنتُ أغازلُ شجرة

وحتى هذه الحالة التي يستجديها استجداءً من صويحباته ويراها ظاهرة صحية في أحوال أهل الغرام كانت وما تزال أمراً طبيعياً عند الناس دون الإعلان عنها. قالوا دخلت إحدى نساء الأعيان على زوجة أحد الأمراء فوجدتها في خباء لها مع زوجها فجلست تنتظرها فسمعت شخيراً ونخيراً وحركة وجلبة ثم خرجت صاحبة الدار وجبينها يتفصّد عرقاً و(نفسها قايم) فعرفت الزائرة ما كان يدور فعاتبت صديقتها قائلة: أما تستحين من الخدم والحشم وهم يروحون ويجيئون وأنت بهذه الحالة؟ فأجابتها بكل جرأة: (الرجال كالخيل لا يشربون إلا بالصفير). هنا الفرق الكبير بين معرفة جنسية فطرية وبين أدب وأدب. وكانت العرب لا تكره تفاحش المرأة مع زوجها و(العروب) عندهم هي المرأة المتحببة إلى زوجها والتي تظهر له من الكلام ما حقه الإخفاء (وهي أقوال وأفعال لها مسمياتها عندنا) قال الفرزدق:

يَأْنسْنَ عند بُعُولِهِنَّ إذا خَلَوْا وإذا هُمُ خرجُوا فهُنَّ خِفَارُ

يعني (يأخذن راحتهن) مع أزواجهن ويلزمن الحشمة إذا خرجن للناس. بل ورد في بعض الحديث: خيرُ النِّساءِ المُتَبَذِّلَةُ لزوجِها الخَفِرَةُ في قَوْمِها.

نحن لا نفتقر إلى الثقافة الجنسية ولكنا نميل إلى الحديث عنها بأسلوب لا يخدش الحياء فالتهذيب جميل. وقد أفاض القرآن الكريم والسنة المطهرة في الحديث عن العلاقات الخاصة ولكنها وردت بألفاظ شريفة وبأساليب عفيفة. فقال عن الفعل الجنسي (الجماع) وعن الممارسة (الملامسة) وسماها (الغشيان) وسمى الرحم (المستودع والقرار المكين) وسمى المني (ماءً) وسمى الحيض (قُرءاً) وسمى انقطاعه (طهراً). وقال الرسول الكريم (لا يقعْ أحَدُكم على امرأتِهِ كالبهيمة) يريد الملاطفة والمقدمات. وقال للمرأة التي زعمت أن زوجها ليس معه إلا مثل هُدْبَة الثوب وأرادت أن تُطَلَّقَ منه وتعود لزوجها الأول (كَلاّ حتى تَذُوقي عُسَيْلَتَهُ ويَذُوقَ عُسَيْلَتَك) بل إن اللغة العربية تعرف للفظ الجنس المشهور ثلاثة وثلاثين

لفظاً يصل بها المتحدث إلى مراده ببراعة لا كما نراه من ألفاظ نزار المباشرة التي مهما غُلِّفَتْ بأساليب البيان فإنه يترك مفتاح النص معلقاً على بابه كما في قوله:

شَهْوتي سيفٌ حِجَازيٌّ ... ونَهْدَاك كأرضِ الرُّوم..

من مات على أسوارها كَفَّر عن كلِّ الخطايا..

وأنا من حسن حظّي أنني عاصَرْتُ نَهْدَيْك..

وقَدَّمْتُ ولائي لهما مثلَ ملايين الرَّعايا..

كل رجل في الدنيا يمكنه أن يقول أكثر من هذا لزوجته في خلوته أما على الملأ ومع العشيقات فتلك هي الفوضى وليست الحرية والمساواة بأي حال.

لقد قامت قيامة بعض الناس على الطيب صالح في سرده الواقعي لمغامرات (بت مجدوب) وذكريات صباها مع زوجها وذلك جانب أفردنا له دراسة لا نريد فض ختامها قبل أن تنضج ولكن الفرق كبير بين الجرأة المحببة وحسن القصد وإرسال النفوس والشخوص على طبيعتها وبين الخبث والحيوانية وفساد الطَّوِيَّة وسوء النية.

وقد تحدث الدكتور عبدالله الطيب عليه رحمة الله في (المرشد) عن الزمن وتطور الأخلاق ومرّ بألفاظ الفحش وذكر أن محلها الأدب شعره ونثره ولكنه أراد صراحة لا تبلغ حد الشذوذ والتحدي فتكون ثورة من النوع الفاسق المخمور أو الضاحك المستهتر إلى درجة الكلبية، والذي نراه في أكثر شعر نزار فيه قصد واضح إلى تحدي الشعور الأخلاقي والمقاييس الاجتماعية.

وقد كنت مرة قدمت محاضرة عن الشعر السوداني في أحد الصالونات الأدبية العامرة بالرياض وهي (أَحَدِيَّة) الدكتور راشد المبارك التي قاربت العشرين عاماً من النشاط الثقافي المتصل. وقرأت قصيدة شاعرنا الكبير السفير سيد أحمد الحردلو (متعه الله بالصحة والعافية) التي انقلب فيها على نزار أيام نكسة حزيران وسفه حلمه وكشف عواره فأخرج لنا صاحب الندوة في إحدى مداخلاته كتاباً صنفه في الرد على نزار، وقال بعد مداخلة

طويلة (حتى لا يذهب بعض الحاضرين إلى أن الشاعر السوداني قد ظلم نزاراً فأنا أقول إن نزار الذي يعده بعض الناس نصيراً للمرأة ومحرراً لها هو أكثر من نزل بالمرأة إلى الحضيض وفسق بها وبصق في وجهها).

نحن كما قدمت نقر لنزار بالشاعرية المحلِّقة ولكنا نقر له أيضاً بإفساد نساء الدنيا حين جعل المرأة جسداً فقط. وحتى في جانب (المرأة الجسد) نحن لسنا بحاجة إلى أخذ القدوة من نزار فالتراث ناضح بالثقافة التي لا يجدها أهل الأهواء إلا عنده.

ويبقى أن ننبه المرأة في عيدها إلى أنها ينبغي لها أن تطالب الرجل باحترام عقلها قبل احترام جسدها. لأن احترام الجسد غريزة إشباعها لا يحتاج إلى مجهود أما احترام العقل فيحتاج من المرأة إلى (شغل) نحن لا نريد للمرأة أن تكون قطار ليل يترجل عنه كل راكب حين يصل إلى محطته. وستخسر أخواتنا الرهان إذا ظَنَنَّ أن حرية المرأة ومساواتها هي عن طريق مناهج المدرسة القبانية المتمثلة في الطرق العنيف على باب الخاص والمكشوف المتعري. وإنما يحترم الرجل المرأة إذا وجد فيها العقل الناضج والسلوك المسؤول أما الجرأة الزائدة وتجاوز الخطوط الحمراء للذوق والحشمة والأدب فهي أمور لاشك ترضي الرجل ولكنها ترضيه في زمن مخصوص ومكان مخصوص مع شخص مخصوص.

السودان بعيونٍ خُضْرٍ

كل عام وأنتم والسودان بخير وتحية سداسية بمناسبة الاستقلال والسلام وعيد الفداء والحج والعام الميلادي والسابعة بمناسبة العام الهجري قبل الزحمة عملاً بقول صاحبي القديم الذي وصل في أول وفود الحجاج فتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم اغفر لي قبل أن يَزْحَمَكَ النَّاسُ!

أما أصحابِ العيون الخضر فهم (الخواجات) كما تعلمون وقد أمضوا في السودان عقوداً من الزمن خرجوا فيها بحصيلة من الذكريات لا تستوعبها المجلدات قرأنا منها مثلاً (السيف والنار) لسلاطين باشا و(حرب النهر) لتشرشل وغيرها ولكني لم أستمتع بكتاب منها كما استمتعت (بحكايات كانتربري السودانية) التي حررها دونالد هولي وفي نسختها العربية التي ترجمها الأستاذ محمد أحمد الخضر التوم ونشرها مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي. ولكن قبل الخوض في تلك الحكايات دعوني أهنئ الأستاذ الخضر على الترجمة الرائعة ذات الروح السودانية البارعة والمعرفة اللغوية الضليعة بالعربية والإنجليزية لا كتلك الترجمات التي حوت من المضحكات ما لا تستوعبه هذه العجالة وسأقف عندها لاحقاً.

أما مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بأم درمان فالحديث عنه هو حديث عن النموذج الواعد لمؤسسات الثقافة السودانية وذلك لما يتبناه هذا الصرح الشاب من مشروعات ثقافية جليلة تتمثل أول ما تتمثل في طباعة الكتب المنتقاة بعناية والوثائق النادرة ذات القيمة التاريخية العالية خصوصاً وثائق فترة الحكم الإنجليزي وصدر الاستقلال، وهي مؤلفات ومصادر أسست لكثير من التجاربِ في التعليم والحكم والإدارة وشؤون المجتمع التي سابت وشابت وترهلت فيما بعد. إضافة إلى أخذ هذا المركز بأيدي الشباب المبدعين والكتاب والشعراء الذين جعل ضيق ذات اليد ظلام الأدراج قبوراً وأدت أعمالهم القيمة. علاوة

على المحاضرات والندوات والأنشطة المختلفة التي تضطلع بها هذه المنارة الثقافية وفوق كل ذلك أسس هذا المركز لجائزة إبداع قيمة في مجال أدبي مهم هو مجال الرواية حملت اسم مبدع سوداني وعربي وعالمي علم هو الأستاذ الطيب صالح.

وقطعاً هناك مراكز ومؤسسات اجتماعية أخرى تقوم بأدوار مشابهة ولكن صلتي بالمركز من خلال أحد أساطينه وأعمدته من المشرفين عليه من آل عثمان صالح وهو الأستاذ محمود صالح عثمان صالح –حفظه الله– أكدت لي أن هذا المركز يقوم فعلاً بما تقوم به وزارة ثقافة كما قال الأستاذ الأديب محمد المكي إبراهيم.

أما الأستاذ محمود صالح عثمان صالح الذي قدمني له مشكوراً الأستاذ الطيب صالح ولم أسعد برؤيته حتى هذه اللحظة فهو كالطيب صالح يضايقه الثناء ويزعجه المدح ولكنني استميحه العذر في أن أسجل للتاريخ أنني لم أر قارئاً نهماً مستوعباً مثله وهو أكثر من رأيت من السودانيين غيرة على الثقافة وشغفاً بها ومعرفة لها وتعمقاً فيها وعوناً للمشتغلين بها. وقف على مسودة كتاب لي عن الشريف محمد الأمين الهندي فطلب مني أن أوقف طباعته لأن لديه معلومات مهمة ثم صور لي ما معه وبعثه من مصر على الفاكس واتصل بالبروفيسر (أوفاهي) رئيس قسم التاريخ بجامعة بيرجن بالنرويج والدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك بماليزيا ثم أرسل لي حصيلة اتصالاته مشفوعة بطلبه طباعة ألفي نسخة من الكتاب المذكور لمركز عبدالكريم ميرغني وكان يهاتفني من بلجيكا ومصر والمغرب وغيرها مرات عديدة يومياً من هاتفه الخاص. إضافة إلى أشياء أخرى أخشى أن أضايقه بها فهل في وسع البشر أن يكافئوا مثل هذا الصنيع؟ إن أقصى ما يمكن أن أقوله في الأستاذ محمود إنه قال وصدق وفعل وتّمم وكَذَّبِ قول أبي الطيب:

وما كلُّ هاوٍ للجميل بفاعلٍ ولا كُلُّ فَعَّالٍ لَهُ بِمُتَمِّمِ

وإذا قال أهلنا (الجواب يكفيك عنوانه) فلاشك أن الأستاذ محمود هو مرآة صادقة لآل عثمان صالح الذين لم نتشرف بلقائهم وعلى رأسهم الأستاذ كمال عبدالكريم وعماد

وفيصل وبقية العقد الفريد. ولاشك أن مركزاً بهذا التوجه يقف وراءه رجال بهذا الحجم سيستمر عطاؤه بإذن الله ليبعث ميت التراث منذ أيام (محمود عزت المفتي) الذي جمع المختار من شعر شعراء العامية في كتاب وصفه الراحل البروفيسر علي المك مستعيراً عبارة الشاعر لانجستون هيوز بأنه (كتاب نادر ندرة أسنان الدجاج).

ونعود إلى واحدة من ثمار هذا المركز وهي (حكايات كانتربري السودانية) وسأبدأها ببعض طرائف الخواجات في أم درمان عسى أن أخفف عن الأمدرمانيين بعض لسعات سياط أستاذنا مختار عجوبة الملهبة، ولعلني أرى أن معه بعض الحق في أننا في عام الخرطوم عاصمة الثقافة لسنا بحاجة إلى من يجيء ليشاركنا متحدثاً عن ثقافة بلده، تلك الثقافة التي نعرف عنها الكثير والتي تجد منا كل ترحيب وعناية في كل زمان ومكان إلا في المكان المحدد وهو الخرطوم وإلا في الزمان الذي نحن فيه وهو عام ٢٠٠٥م. فينبغي أن تكون الجهود منصبة على إطلاع غير السودانيين على ثقافتنا المجهولة لغيرنا وليس على الثقافات الأخرى إلا ما كان واشج الصلة بالثقافة المحتفى بها. كما أرى ضرورة الاقتصاد في الكرنفالات والمظاهر الاحتفالية التي هي كزغاريد إشهار عقد الزواج تذهب ولكن يبقى العقد. ومن هنا تأتي أهمية الدور الذي يضطلع به مركز عبدالكريم ميرغني في نشر الثقافة المكتوبة التي يعود بها المشاركون في جعبتهم إلى أقطارهم فتبقى بعد أن يتلف شريط الذكريات المرئية. وإذا كنا متفقين على أن أم درمان هي العاصمة الوطنية فإننا لن نختلف في حب عاصمة الوطن التي أصبحت رمزاً للسودان ولفظاً مرادفاً لاسمه حتى إذا ردد المرحوم أحمد المصطفى (أنا أم درمان) أو قال المرحوم صالحين (هنا أم درمان) لا ينصرف الذهن إلا إلى السودان الوطن.

وأبدأ بحكاية قد تكون مسموعة لأهل أم درمان قال (إيليوت بلفور) في حكاية مفتش المركز وهي من أمتع (حكايات كانتربري السودانية) متحدثاً عن (برمبل بيه) ضابط البحرية الملكية البريطانية الذي كان يعد ملكاً غير متوج على مدينة أم درمان حكمها بيد من حديد وكان الناس يقدرونه رغم قسوته لأنهم كانوا يعلمون أنه نذر نفسه لتحسين

أحوال الرعية. وكان (برمبل) ومعاونوه يقومون بجولات يومية في أحياء أم درمان للتأكد من النظافة والتقيد بلوائح المباني وأوضاع الأسواق والنظر في أحوال المواطنين. قال بلفور: أما تفتيش السوق فكان له يوم خاص... وكان الهدف الرئيسي من ذلك هو القبض على الجزارين المخالفين فقد كانت الأوامر تقضي بأن يقوم كل جزار بوضع اللحم على التربيزة (الطاولة) وتغطيته بفوطة بيضاء حتى لا يكون مكشوفاً للتلوث بالذباب. لم يكن الجزارون بالطبع يفعلون ذلك وبالطبع كان (برمبل) مصراً أن يفعلوا ذلك فكان أحياناً أثناء جولتنا في إحدى ضواحي المدينة يعلن فجأة أننا سنذهب إلى السوق الآن فتسرع بنا الخيول إلى هناك لندخل السوق من اتجاه غير متوقع وكان دائماً ما يقع في قبضتنا بعض الجزارين المخالفين. وأثناء جولتنا بالقرب من السوق في أحد الأيام مررنا بمجموعة من النسوة اللاتي بمجرد مشاهدتهن لنا أطلقن زغاريد متواصلة وتكرر ذلك لثلاثة أسابيع متتالية. وفي المرة الرابعة أوقف (برمبل) الحصان ونادى: يا عوض الكريم فأسرع إليه الباشجاويش عوض الكريم بزيه الرسمي الكامل وسيفه يحدث صوتاً على خاصرة الفرس فقال (برمبل): ألق القبض على هؤلاء النسوة وخذهن إلى المركز. قال بلفور: بدا لي كموظف جديد في الخدمة أن هذا التصرف جائر وليس فيه مراعاة لمشاعر الآخرين وبعد الإفطار على أي حال كنت في مكتب (برمبل) عندما أحضرت النسوة أمامه فسألهن لماذا أحدثن تلك الضجة؟ فجاءت الإجابة: يا سعادة البيه، إنت عارف عادات البلد نحن زغردنا عشان نرحب بيك ونوريك نحن مبسوطين من حكمكم العادل الكريم. فقال لهن إذا لم تقلن الحقيقة سأرمي بكن في السجن إلى أن تعترفن. تلت ذلك ضحكات مرتبكة، ثم قالت إحداهن: في الحقيقة سعادتك الجزارين أعطوا كل واحدة مننا خمسة قروش وقالوا لينا أول ما نشوفكم جايين نزغرت عشان هم يعرفوا من بدري ويغطوا اللحم بالفوط قبل وصولكم. قال (بلفور) معجباً بدهاء رئيسه: لربما يحط الذباب على اللحم ولكن ليس على (برمبل) أبداً؟

ولكن لأن (إيليوت بلفور) كان موظفاً جديداً لم تكن له حنكة (برمبل) ولا دهاؤه ولكنه بصدق الإنجليز حكى المقلب الذي شربه من بعض اللصوص أثناء وجوده في أم درمان قال "أحيلت إليَّ أول قضية ميدانية وكانت أول تجربة لي، وبما أن لغتي العربية كانت لا تزال ضعيفة فقد سُمح بأن يكون معي شرطي له بعض الإلمام باللغة الإنجليزية. وبعد الاستماع إلى عدد من الشهود بكل ما كان في إفاداتهم من لف ودوران حكمت ببراءة المتهم المدعى عليه بسرقة سجادة. لربما كان لغيري رأي مخالف أما بالنسبة لي فعلى الأقل أصبح لدي شك معقول بأن الرجل غير مذنب، لذلك وبكل جرأة قلت له: إنت مش مذنب" فقال ما بتكلم إنجليزي. هنا التفت إلى الشرطي قائلاً: أخبره أنه غير مذنب فنقل له ما قلته بالضبط. ثم قال الرجل شيئاً جعل الشرطي يبتسم ابتسامة عريضة، فسألته ماذا قال؟ فأجاب الشرطي: يقول لك هل معنى ذلك أن احتفظ بالسجادة؟

وكتاب (حكايات كانتربري السودانية) مليء بالتجارب والعبر والطرائف والدروس أكثرها إيجابي وفيها السلبي ولكنه كما قال أستاذنا دكتور إبراهيم دقش إن (أي تلخيص لهذا الكتاب يفسده وأي عرض له يظلمه والحل هو قراءته من الغلاف إلى الغلاف كما فعلت أنا واستمتعت به حقاً) وكذلك فَعَل العبد الضعيف. ولحسن الطالع علمت من الأستاذ محمود صالح أن المركز عاكف على إعداد الطبعة الثانية من هذا الكتاب الطريف بعد أن نفدت طبعته الأولى. ومع ذلك أرجو من صحيفتنا الغراء أن تخصص لي مساحة استعرض فيها بعض (حكايات كانتربري السودانية) بأسلوب يسلط بعض الضوء على هذا الكتاب الذي لا ينبغي أن يقرأ قراءة عابرة بل لابد أن تتناوله الأقلام بشيء من التحليل يستوضح المواقف ويستجلي العبر ويستنبط الدروس ويسبر أغوار النفوس وقد تناولت ذلك في سبع حلقات سميتها (السودان بعيون خُضْر). فترقبوها من الأسبوع القادم أن بارك الله في الأيام. ودمتم.

من الكوثر سلام

بعد عشرة أشهر من الانقطاع القهري عن الأحبة قراء (الخرطوم) أعود وكأني أمضيت عشرات السنين بعيداً عنكم، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته. وقد ظل الإخوة في إدارة صحيفتكم العامرة (الخرطوم) ينقلون إليّ سؤال القراء وتتبعهم لأخبار شخصي الضعيف وقد نشروا خبراً طمأنوا فيه المتابعين فلهم ولكم الشكر.. هذا ولم تنقطع حبال الودّ فقد ظلّت أصوات الأحبة تترى عبر الأثير فكان يأتيني صوت ابني وتلميذي النجيب الشيخ الأستاذ مأمون الحاج وقد كان يحل مشكلاتي التي لا تنقضي بالرياض وظل يتابع مشكلاتي بالسودان يعينه ود القبائل الكاهلي الحُر أخي سعادة القنصل الأستاذ أحمد يوسف ويوم شكرهم ما يجي. كما كانت تأتيني رسائل الموبايل من أخي الأستاذ محمد يوسف الخدام فاضحك لنكاته التي لولا معرفتي بأنه من مداومي الصلاة على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لقلت هي من نكات الجماعة إياهم فأقضي الليل فرفرة وقرقرة بالفاء والقاف. ثم استغفر مصلياً على الحبيب ذاكراً الأثر: روحوا عن القلوب ساعة وساعة فإنها تصدأ.

وأستعيد طرائف أبناء الخليفة أحمد الخدام بالرياض وقد أرسلت لهم نظارتي التي أصابها حادث فأصلحوها وأرسلوا لي رسالة تقول (النضارة جاهزة والعايزا يجيبها) ونرجو أن يكون طلاقنا للرياض (طلاق الهجعة ال مافيه رجعه) ويأتيني الصوت الذي لا يخفى عليّ صوت أخي علي الحاج عجيب من الجوف الذي ما انفك يتابعني عبر (مبارزة الحروف) ذلك البرنامج النلجح وهو وإن كان دورنا فيه محدوداً إلا أننا نأمل أن تلقاكم في برامج ترضيكم عنّا.

ويأتيني صوت فداسي الرقيق الحاني من أخي الودود محمد حسن خضر ينقل إلي تعليقات أبنائه على ما يسمعونه أو يقرأونه عن عمهم.. ولم ينقطع عني صوت أخويَّ

وزميليَّ الحبيبين الدكتور عمر الأمين والدكتور الحسين الخزينة بسؤالهما المتواصل فأحسّ بأن الدنيا بخير. ولئن أتعبت أحداً من ورائي فهو ابني وابن أختي الجعلي بدر الدين الذي خلفته أمانة عند كل من يعرفني فهو حلقة الوصل التي ما زالت تربطني بأحباب العمر رفقاء دربِ الغربة الشائك.

وانقطع عني صوتٌ يأتيني دافئاً من أمريكا هو صوت الشاعر الفنان الفرجوني وفجأة جاءني الصوت من داخل السودان عبر جهود علي ود عجيب واجتهدت في الاجتماع بالرجل الذي جاء ومعه ثلة من كلاب الصيد الأصيلة ويبدو أنه الآن في بطانة مرتع العشّام (يطارد بالكتيوي البي الهويد قفّن) وكم أتمنى أن أصحبه في رحلة من هذا النوع ولكن كيف ذلك وقد تربع على أصهب من جمال دامر المجذوب ومن أم عروزة وقفّى.

ثم تأتيني رسائل الشعراء وقد قلت الشعر في من يستحق ومن قد لا يستحق وما كنت أظن أن يقال في ولكن هذا صلاح الغول يقول:

هممت بإرسال التحايا مشفقاً ... وقد أوجست نفسي وكادت تصدني
فقلت لها يا نفسُ إن الذي له ... أبثُّ تحياتي حفيٌّ بها غني
ودودٌ أبيُّ النّفس عفٌّ مجامل ... عزيز على نفسي وإن لم يعزني

ما عاش من لا يعزك يا أبا صلاح يا بلبلنا الصدّاح، ويتلوه الشاعر المبدع الدكتور عبد المنعم المكي، الصامت إلاّ إذا حركته وقد فعلت فأتحفني بقوله:

فقدناك ذا فضل فقدناك نحريرا ولكن ... وخلّفت نجداً بعد نأيك ديجورا
عزائي أن بدرك طالع ... ينير سما الخرطوم لا غرو مشهورا
يطلّ علينا في الثلاثاء مشرقاً ... فتلقى فؤادي إذ يوافيك مسرورا

ولعبد المنعم نفس شعري وإحكام صنعة من عبد الله الطيب لا تخفى، وأراه أيضاً سيخلف نجداً ديجوراً، وقاتل الله الجهل بالرجال فمثل عبد المنعم وحسين الخزينة أساتذة

جامعة لا يفرط فيهم حريص ولكنها سكة مأهولة وطريق مسلوك. ويأتيني صوت يتفقد أحوالي تفقد الأم عيالها وأشهد أنني لم أجد وقفة شهامة ومروءة وأريحية مثلما وجدت من صاحب ذلك الصوت أخي وأستاذي محمود صالح عثمان صالح الأب الروحي لمركز عبد الكريم ميرغني منارة الثقافة بالعاصمة المثلثة، الذي لا أملك إلا أن أفعل معه ما فعله بعض البسطاء حين غمره أحدهم بفضله فقال له: والله أنا ما بقدر أكافيك إلا أكتلك وأرسلك لي الله يكافيك. فجزاه الله خيراً وجزى أستاذنا الطيب صالح مثل ذلك لسؤاله عنا ولأنه عرفني رجلاً عند مثله تطيب المعرفة.

ثم بعد أيها الأحبة وأنتم تشدون الرحال إلى الديار هل سمعتم بإذاعة الكوثر إذاعة تعظيم الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم؟ اسمحوا لي أن أؤكد لكم حقيقة كنا نعرفها ونحسها ونلمسها في السودانيين سوى الشجاعة والكرم والأمانة فهم من أكثر شعوب الإسلام محبةً لرسول الإسلام، كنا نرى ذلك في الجلاليب البيضاء والعمائم المشرقة التي يعج بها باب السلام بمثوى الرسول الإمام بطيبة دار الكرام على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ولكن تبين بالدليل وبرهنت المواقف أن السودانيين لا يتقلمهم مسلم في الدنيا في محبة الحبيب المصطفى(ﷺ)، فقد خرجت شعوب الدنيا في هَبَّة عاصفة رداً على تطاول الغرب على رسول الإسلام وقد بالغ السودانيون في ذلك فخرجوا في مواكب عفوية ومنظمة احتجاجاً على تجريح سيد ولد آدم، ولكن فعل السودانيُّون شيئاً لم يفعله غيرهم حيث أسسوا إذاعة تعظيم الحبيب إذاعة الكوثر ووظيفتها تعظيم المصطفى صلى الله عليه وسلم تتصدى لأعدائه وتنشر سيرته وسنته ومدائحه بين أوليائه، إذاعة تعمل أربعاً وعشرين ساعةً لا تعرف الحديث إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته وأخلاقه ودينه وشرعه وسنته. تدير هذه الإذاعة الشابة كوكبة شابة دخلت عليهم في مقر منظمة المبرة فوجدت شباباً يتحرون النقاء في كل شي حتى أن المبنى الذي يقيمون فيه لا يدخلونه إلاّ حفاة وبإمكانك أن تصلي في كل شبر منه إلاّ المرافق. تظهر أثرة شيخهم خالد أحمد

المصطفى في أنه كتب العديد من المدائح النبوية العذبة زوّد بها الشباب المطربين ولكنه لم يمهر واحدة منها باسمه كعادة رواة المديح فانشغلت وكنت أود العودة إليه لأمازحه بأن، ذكر الراوي أو شاعر المدحة حق أدبي لابد منه يؤمن الملكية الفكرية للنص وأعلم أنه إنما قصد نكران الذات أدباً مع الحبيب الممدوح ولكن أخي شيخ خالد أما رأيت الشاعر المادح محمد حسن ود حاجة قد مهر مدائحه باسمه واسم أبيه واسم أمه قائلاً:

راوي محـــــــمـــــــد الأوزان أمي انا حاجة في النسوان

أبوي حسن اسمه في الانســـــــان عليه الرحمة والرضـــــوان

ففيها تخليد وترحم وتبرك بجريان الاسم في سيرة الممدوح، أم أن لها عذرا ونحن نلوم؟

وفيهم الشاب شيخ محمد عطا الذي أحسب أن الله حين ابتلاه بشيء عوّضه أشياء أقلها الذكاء والعقل الوافر. وفيهم الاستاذة شريفة الزبير التي ما وجدت انطباق اسم أنثى على أوصافها وأخلاقها وتعاملها مثلما وجدت فيها. وفيهم مديرهم أبوبكر الصديق الذي يعمل أكثر مما يتكلم وإذا تكلم كان كلامه عملاً، وفي هذه الإذاعة نخبةُ من المذيعين والمذيعات يبعثون الدفء والاطمئنان في نفوس المستمعين يعينهم طاقم فني متمكن وجهاز إداري متمرس أخشى أن أذكر الأسماء فأنسى بعضها وكلهم جدير بالذكر وخليق بالتحية وقمين بالتقدير وحري بالإشادة. يفيضون إتقاناً لعملهم يزينهم أدب ورقة خطاب وحسن جواب، أصحاب دأب وتفان جعلوا العمل عبادة. وهل يرضى منهم الناس أو يرضون هم لأنفسهم بأقل من ذلك وهم يعملون في إذاعة تعظيم الرسول القدوة والأسوة والهادي والدليل والنبراس صلى الله عليه وسلم. تواصلت معهم شرائح المجتمع على اختلافها صغارها والكبار نساؤها والرجال في مدن السودان قريبها والبعيد حتى أثرت على سوق أشرطة الكاسيت فقد أراحت سائقي عربات الأجرة من شراء الأشرطة يضعون المؤشر على ٩٢ إف إم فتأتيهم ثرة غنية بالمدائح النبوية والسيرة العطرة وأخبار الصحابة. فيها السهرات المنوعة والأصوات المتعددة نسائية ورجالية وفيها المدائح بالآلات التقليدية والحديثة باللغة

الفصيحة أو العامية الصريحة وبالرطانة وبكثير من لغات الدنيا. عازمون على تعميم بثها وعلى توأمتها بقناة فضائية للرسالة نفسها. وهي بلا شك الإذاعة الأولى من نوعها في العالم الإسلامي وسيكون لها شأن إذا ركزت برامجها وجمعت بين القديم والجديد فأخذت من القديم بمقدار ونهلت من الحديث بمعيار واستمعت بإصغاء للناصحين المخلصين. فاستمعوا إليها إخوتي إن عدتم في عطلاتكم إلى الديار وادعوا لها بالثبات والازدهار وتوطيد الأركان بحول العزيز المنان ولها ولأهلها ولكم من الله التحيات الزاكيات.

الحمير وحرب التحرير

في واحدة من لطائف وإبداعات مركز عبدالكريم ميرغني التي يغمرني بها أستاذي الأديب محمود صالح عثمان صالح كنت أقرأ كتاب الدبلوماسي العريق الأديب السفير أحمد دياب (خواطر وذكريات دبلوماسية). فقرأت خبراً طريفاً يقول إن تنزانيا وجهت دعوة لنائب رئيس الجمهورية اللواء الباقر لزيارة تنزانيا سنة ١٩٧٣ وكان ضمن برنامج الزيارة الذي أعدته الخارجية التنزانية أن يزور اللواء الباقر قبر الشيخ عبيد كرومي نائب الرئيس التنزاني المشهور بأنه قضى على الأسرة الحاكمة العربية في جزيرة زنجبار وأباد الرموز العربية في تلك الجزيرة سنة ١٩٦٣ مما أحدث غضبة عربية عارمة واستياء في كل الدول العربية. وفي زيارة نائب الرئيس السوداني لقبرٍ فَعَلَ صاحبُهُ كلَّ هذه الفظائع حرج وأي حرج، وكان القائم بأعمال السفارة وقتها المستشار أحمد دياب مؤلف الكتاب الذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت وكادت رئاسة الوزراء السودانية تلغي الزيارة إذا تمسك الجانب التنزاني بالزيارة المزمعة لنائب الرئيس لقبر كرومي.

يقول المؤلف إنه كان يعاونه وقتذاك المستشار أحمد عبدالوهاب جبارة الله (السفير الآن ورئيس بعثة المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بالخليج)، فجلسا يتدارسان كيفية الخروج من هذا المأزق. قال: وفجأة صاح الأخ أحمد عبدالوهاب (وجدتها)، فاندهشت وسألته، فقال: إن المخرج هو أن ننقل إلى الجانب التنزاني بأن نائب الرئيس السوداني من أتباع المذهب الوهابي الذين يحرمون زيارة القبور. قال دياب: فكدت أطير من الفرح وأبديت إعجابي وتقديري لتلك الفكرة. وكانت الخرطوم والخارجية التنزانية في انتظار الموافقة على البرنامج النهائي للزيارة، فاتصلت بمدير المراسم ونقلت له الفكرة المذهلة. قال فأعرب عن أسفه الشديد لعدم علمهم بذلك ووافق فوراً على إلغاء ذلك البند من الزيارة التي تمت وكانت من أنجح الزيارات بين السودان وتنزانيا.

قلت: وفور فراغي من قراءة الكتاب اتصلت بالدبلوماسي الفخم المرح الأستاذ أحمد عبدالوهاب الذي كنت قد تشرفت بمعرفته ضمن شخصيات سودانية مشرفة جمعنا بهم سفيرنا الودود سعادة الأستاذ عثمان الدرديري. فلما قصصت عليه ما قرأت كانت سعادته لا توصف، فقد رجعت به إلى أكثر من ثلاثين عاماً. فأصر على اقتناء الكتاب فأخبرته أنه النسخة الوحيدة بالمملكة السعودية حسب علمي حتى الآن فطلب إعارته للاطلاع عليه وإرجاعه وسألني عن كيفية الحصول عليه وفي أثناء حديثنا عرفت أنه في طريقه إلى القاهرة في زيارة خاطفة فقلت له (وجدتها) فهنالك في مصر أعرفك على شخصية نادرة سخية كريمة وستجد عنده هذا الكتاب وغيره. ثم أعرته الكتاب فقرأه في زمن قياسي وأعاده إليَّ مع مذكرة تقول: (أشكرك على إعارتي كتاب الأخ السفير أحمد دياب وهآنذا أرده لك.. برغم ما قيل: أحمقان.. معير الكتاب وراده.. مع مودتي الدائمة) وهذه من أخلاق الدبلوماسيين ولطفهم ونبلهم وتطلعهم وسعة اطلاعهم، وقد دعاني سعادته لمناسبتين دبلوماسيتين فلبيت واحدة منهما كانت لوداع أخينا السفير عثمان الدرديري عرفت فيها مقدار المعاناة من البروتوكولات عند كبار الدبلوماسيين. المهم سافر الأخ السفير إلى القاهرة وقابل شخصاً يسرك جداً أن تقابله هو الأستاذ محمود صالح فزوده بوجبات دسمة من إصدارات مركز عبدالكريم ميرغني وانبسط الرجلان بعضهما من بعض وبشرني السفير أحمد عبر رسائل المحمول بأنه يحمل لي إصدارات قيمة فقلت له لقد نالنا من البر جانب. وكانت الإصدارة التي حملها لي مشكوراً هي مختارات الطيب صالح بمجلداتها الثمانية (وكان التاسع عندي سلفاً) وكانت تحفة نادرة لكاتب نادر وهدية نادرة من رجل نادر حملها رجل نادر فلهم الشكر أجمعين، وإن كان الشكر لا يكفي مع العظماء القلائل أمثال أستاذنا محمود صالح الذي أصبحت معه مثل الشاعر زهير مع هرم بن سنان أزيده مدحاً ويزيدني تفضلاً وعطاءً، مع الشبه الشديد بينه وبين هرم بن سنان حمّال الأثقال والفارق الكبير بيني وبين زهير الشاعر المفلق.

هذا، وتتميز كتب الذكريات بالطرافة والمتعة لأن كاتبها عادة ما يرسل نفسه على سجيتها ويستعيد شريط الأحداث سارة أو مؤلمة وغالباً ما يجد القارئ نفسه في كثير مما يسرده الكاتب بالإضافة إلى أن فيها فيضاً من الخبرة يستفيد منه الذين يشاركون الكاتب في مجاله ومحيط ثقافته الوظيفية علاوة على أن فيها غير قليل من الحقائق الغائبة التي قد لا يعرفها إلا الكاتب وهي بذلك سجل تاريخي مهم جداً بل هي مصدر تاريخي قد تجد فيه أموراً لا يتاح لك الاطلاع عليها إلا في سجلات خاصة غير خاضعة للنشر. فقد تحدث المؤلف السفير دياب عن دور السودان وتأثيره في الدول الأفريقية وهو من واقع تجربته يثمن دور السودان القيادي في أفريقيا بل يذهب إلى أن الوضع الطبيعي للسودان هو أن يكون أفريقياً فيضمن بذلك أن يكون في أول القائمة لأن انحيازه إلى الدول العربية يعطيه ذيل القائمة بلا منافس وهذه من أفكار الأخ السفير الجريئة ولله دره. ومن الأدوار التي لعبها السودان حسب تجربة الكاتب أن زيارة المهندس يحيى عبدالمجيد كانت سبباً في إنشاء وزارة الري التنزانية وأن السودان وافق على انتداب خمسين مهندساً سودانياً معونة فنية لإنشاء تلك الوزارة. بل قبل ذلك وعلى أيام الرئيس أزهري عليه رحمة الله وقد كانت حبال الود موصولة بينه وبين الرئيس الزامبي كاوندا وحين زار الأخير ورش السكة الحديد بعطبرة وأعجبه تطورها ودورها طلب من الرئيس أزهري إرسال فريق من السكك الحديدية إلى زامبيا وبالفعل قام السودان بإرسال عدد من المهندسين وأكثر من ألف عامل في مختلف التخصصات برئاسة المهندس أحمد الأمين العجباني عليه رحمة الله. وفي أيام السفير دياب اضطلع السودان بتوفير عدد كبير من مدرسي اللغة العربية حسب رغبة الشيخ عبود جومبي شاركوا في تدريس اللغة العربية في زنجبار.

ومن الطرائف في مجال تعاون السودان مع الدول الأفريقية ما ذكره المؤلف من أن السودان في الستينات كان مثلاً أعلى لكثير من دول أفريقيا التي كانت ما تزال ترزح تحت نير الاستعمار لذلك كان هو قبلتهم في كفاحهم من أجل التحرر. قال وفي مرة من المرات

طلبت منه حركة (أمبيلا) التحريرية في أنجولا أن يقوم السودان بتوفير (٣٠٠ حمار) لحركة التحرير (نعم ثلاثمائة حمار -أكرمكم الله-) للاستعانة بها في حرب التحرير. وعندما نقل السفير ذلك إلى الخرطوم طلبوا منه متهكمين غير مصدقين أن يحاول تأكيد المعلومة وإبلاغهم بالعلاقة بين الحمير والتحرير. قال فاتصلت بممثل الحركة الذي أفادني بكل بساطة بأن الحمير حيوانات تتحمل الجوع والعطش وطبيعة أنجولا القاسية لاستعمالها في نقل الأسلحة والذخائر والمؤن في حرب العصابات ضد البرتغاليين. فلما نقلت المعلومة قامت الخرطوم بإرسال العدد المطلوب ومعه كميات من الذخائر والأسلحة الخفيفة إلى دار السلام بطريقة سرية على البواخر التابعة لشركة الملاحة السودانية.

بل في مناسبة أخرى طلب ممثل حركة (إسوابو) بناميبيا أن يمدهم السودان بعدد من الخيول للاستعانة بها في حرب التحرير، وسارعت الخرطوم بالموافقة على ذلك وكان في صحبتها الجوكي المشهور (زقبير) الذي زاغ متعجلاً للاستمتاع بمدينة دار السلام ولكن حصل موقف حرج كاد أن يكشف الخطة كلها أترككم تطالعونه في الكتاب.

والكتاب على جمال أسلوبه وغزارة مادته فيه صدق نادر، فقد تحدث السفير عن طيش الشباب وعن المواقف المحرجة بكل وضوح وصراحة ومن ذلك اعترافه بأنه لم يكن يصلي في ذلك الزمان، وشاءت المقادير أن ينزل ضيفاً على السفارة في كينيا قطب الأنصار المعروف الأمير عبدالله عبدالرحمن نقدالله عليه رحمة الله، فاستضافه السفير الكاتب في داره قال، وبعد الغداء طلب مني (مصلاية) فأخبرته بأنني لا أملك مصلاية. قال ففتح حقيبة يده وأخرج مصلاته ثم التفت إليّ وسألني عن القبلة ولكن قبل أن أرد عليه أضاف قائلاً: أنت ما عندك مصلاية معقول تعرف القبلة. قال، فشعرت بحرج ما بعده حرج وقررت منذ ذلك اليوم أن أشتري مصلاية وأن أعرف القبلة وأن أصلي صلواتي الخمس. والحقيقة أن كثيراً من أفراد ذلك الجيل وكثيراً من الأفندية إلى زماننا هذا يتصفون برقة الدين إلا من رحم ربك.

وبعضهم حين أتيحت له ظروف الاغتراب خصوصاً إلى السعودية فوجد نفسه في رحاب النور أصبح بروتستانتياً أكثر من البابا، ثبتهم الله.

هذا، ومن ألطف شخصيات الكتاب والدة الكاتب عليها رحمة الله، فحين رأت أسراباً من سيارات الجيش في كينيا سألت السفير محمد ميرغني رحمه الله (نَعنَّوا ما عندهم جنوب) ولعلّ مشكلة الجنوب كانت على أشدها في ذلك الوقت وحال الحاجة أشبه بالذي جلس إلى التلفزيون فسمع بالحروب في جنوب لبنان وفي جنوب السودان وفي جنوب أمريكا. فقال (الجنوبيين ديل في أي مكان عاملين مشاكل). وحين اتصل بها الأستاذ جمال محمد أحمد عليه رحمة الله وهو وزير الخارجية يطلب ابنها وكان نائماً فعرّفها بنفسه فقالت له ما بصحيهو لو تبقى النميري.

ولمست في كاتب الذكريات حماساً ظاهراً للهوية السودانية يتمثل في تمسكه الشديد بارتداء الزي السوداني في معظم أوقاته وأعجبني جداً قوله في زينا القومي للنساء والرجال بأنه زي مميز للشخصية السودانية وليس الشخصية العربية ولا الشخصية الأفريقية. ولذلك ما كررت حتى بُحَّ صوتي أن الأشياء السودانية مهما ظهرت فيها الصبغة العربية أو الصبغة الإفريقية هي في نهاية الأمر (سودانية وبس). هذا وقد أوقعته الجلابية في غير قليل من الحرج بسبب مهابة لابسها في نفوس بعض الأفارقة. وموقفه هذا أشبه بموقف أحد الزملاء هنا وكان مصراً على لبس الجلابية ردحاً من الزمان وفي كل مكان ولكنه فجأة تغلبت عليه سخرية الشارع فنزعها وتفرنج عنها طائعاً. وقد أصاب. وقد حكى لي أخونا الأستاذ أحمد يوسف قنصل سفارتنا بالرياض شيئاً من طرائف الجلابية عند الدبلوماسيين فتكونت مادة طريفة أرجو أن أتحفكم بها لاحقاً. ولعلّ تعصّب الأخ السفير للهوية السودانية انتقل إلى أبنائه الصغار حتى أوقعه في حرج شديد مرة مع السفير الليبي حين دعا صغاره ليعرفهم على هذا الفتى العربي الصغير فما كان من ذلك الصغير إلا أن قال أنا ما عربي أنا سوداني.

هذا وقد أعجبني أن ينقل الأخ السفير دياب بعض كتاباتي المتواضعة دون أن يدري فقد أرسل قصاصة لزميل له شديد التولّه بالباذنجان المصقع يطلعه فيها على تهجم أحد الكُتّابِ على محبوبه الباذنجان فلما قرأت المادة وجدتها من موضوع لي نشر في جريدة الخرطوم أو مجلة شقيش وهو من موضوعات كتابِ العادات الذي صدر بعد ذلك.

وبمناسبة الطعام يذكر السفير دياب كثيراً من الطرائف والمواقف عن الرئيس السابق نميري حفظه الله وعن عصره الذي كان شاهد عيان واعياً عليه ومن طرائفه أن الرئيس بعد أن بويع أميراً للمؤمنين سألوه في رومانيا عن مدى شرعية أكل الخرفان الرومانية والمعروف أن الرومان يضربونها بالبنادق ولا يذبحونها، فقال لطبيبه الخاص الدكتور مصطفى كامل، يا مصطفى يضربوها بالبندقية أو بالمدفع دي حاجة تخصهم ولكن نحن سوف نأكلها يعني عاوزنا نموت بالجوع.

قدم للكتاب أديبنا الرائع الأستاذ الطيب صالح ولخص تقديمه في قوله: إن هذا الكتاب مفيد وممتع حقاً ومن عناصر جاذبيته أن الكاتب يخلط بحذق بين الخاص والعام والجد والدعابة والتاريخ والحياة المعاشة (المعيشة) وفيه ميزة كبرى وهي أنه يقاوم الإغراء الذي يستسلم له كثير من كتابِ السير الشخصية فلا يقحم نفسه إقحاماً في سرده للأحداث.

ولا توجد في الكتاب مرارات أو عنتريات أو تصفية حسابات بل هو سجل أمين لحياة خصبة مثمرة.

شكراً للسفيرين الأحمدين وللأستاذ محمود صالح ولمركز عبدالكريم ميرغني ولكم.

الأبَاها مَملَّحَهْ *

الحديث عن السياسة لا يناسب طبيعة المفكرة ولا مساحتها ولا طبيعتنا. ولكن من لا يهتم لأمر (السودانيين) فليس منهم. وفرحتنا بالحرب التي وضعت أوزارهـا أو أوشكت لا تعدلها فرحة. تلك الحرب التي انقدحت شرارتها عـام رأينـا النـور وخرجنـا إلى الحياة في عام خمسة وخمسين. وتلك الفرحـة الـتي جعلـت المحـتفلين بهـا في الخرطـوم أمـس يصوغون ميثاق شرف سيكون النكوص عنه كفـراً صـريحاً بـالوطن والوطنيـة. والمـضي في تنفيذ هذا المتاح والممكن المتفق عليه هو ضرورة يمليها مبدأ (ما لا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْـرَكُ جُلُّـه) وهو الضمانة للوحدة الوطنية التي جاءت بعد مخاض عسير أليم إلا أن يكون لأهلنا الساسة الخارجين عن هذا الإجماع عصا موسى يجلبون بها سلاماً منتظراً أو يكـون وراء الكـواليس عسكري يخطط ليعيدنا -لا سمح الله- إلى نقطة البداية الـتي سـتكون -إن حـدث ذلـك- نقطة النهاية للسلام وللسودان.

ولعلّ أول اختبار يواجه اتفاقية السلام والتي من أهم مبادئها مبدأ الاعتراف بالآخر وقبوله، هذا الحدث المتزامن معها وهو الاحتفال بالخرطوم عاصمة الثقافة (العربية). فعلـى الـرغم من أن هذا الترشيح لهذه العاصمة جاء من كيان جامع يعترف بالـسودان قطـراً مـن أقطـاره وعلى الرغم من أن العربية هي لغة هذا القطر الرسمية المكتوبـة وهـي لـسان الأغلبيـة - فصيحة أو دارجة- وعلى الرغم من أنها لغة العقيـدة للأكثريـة فقـد دار لغـط في بعـض الأوساط وعمد بعـض الكتّـاب تلميحـاً وتـصريحاً إلى إثـارة عـدم الرضـا بـإطلاق كلمـة (العربية) في عنوان هذا الحدث الثقافي. هذا اعتراض سمج ممجوج لا يصدر عن غيور علـى وطنه في هذا التوقيت الدقيق الذي نحاول فيه تضميد جراحنا وهو أمر لا ينبغـي أن يـصدر عمن له مسكة من عقل أو أدنى نظر في حركة التراث والثقافة السودانية وهـو في الوقـت

* صحيفة الخرطوم ٥ يناير ٢٠٠٥م.

نفسه أمر قد تجاوزه الزمن وكذبه الواقع السوداني منذ أن قال أحد المتصوفة في عهد الفونج (مِنْ عُقُولْنا ما نَشَدُوا النَّاس من أُصُولْنَا) وهذه لمحة وعي مبكرة بالواقع الثقافي السوداني تُعْلِي من شأن الفكر والثقافة لا العرق ولا اللسان، لأن موروثنا مجتمعاً عَلَّمَنَا أن الإنسان بعمله لا بأصله. (ولا يفوت إخوتنا المهتمين بأمر العامية والمطلعين على لهجات الخليج أن كلمة «نَشَدُوا» بمعنى «سألوا عن الشيء» الدارجة في عامية أهل الخليج هي عامية سودانية قديمة منذ أيام السلطنة الزرقاء كما ترى).

ومع كل ذلك لابد من وقفة حوار مع أصحاب هذا الاتجاه ولكن بعد أن نقف قليلاً مع عنوان هذه المفكرة، فقد ذكر الأستاذ غازي سليمان المحامي في كلمته في احتفال السلام بالخرطوم أمس الأول أن الشريف زين العابدين الهندي قال له (نحن جبناها ليكم مملحة أبيتوها) يشير الشريف إلى مبادرته التي كانت فاتحة الخير وقامت لها قيامة بعض قصار النظر وهو يقصد المثل المعروف (تاباها مَمَلَّحَة قَرِيضَة ما تَلْقَاها) هذا حين كانت الكِسرة هي طعام أهلنا العزيز تُعْرَضُ على الأحمق بإدامها (بملاحها) فيرفضها حَرَداً أو طمعاً فتذهب فيعود باحثاً عنها فلا يجدها ولو بدون ملاح (قروض). وهو مثل يضرب في تفويت الشيء في أوانه وسانحته ثم يعود الإنسان باحثاً عنه فلا يجد أيسر شيء منه. وهذا كما قال سيف الدولة الحمداني لجلسائه وفيهم المتنبي الشاعر، قال لهم ابسطُوا أكمامكم، وصار ينثر عليهم بعض الدنانير فاستنكف المتنبي ولم يبسط كُمَّهُ، فنثر الأمير بقية الكيس بين غلمانه وخدامه فلما رأى المتنبي أن الفرصة ستفوته قام يدافع الغلمان ليحصل على بعض الدنانير فغمز الحمداني بعض الغلمان فعبثوا به حتى انتشرت عمامته وسقط طيلسانه (شاله/ملفحته) وهذا إعمال الرأي بعد فوات الأوان الذي جله فيه في الأثر (نعوذُ بالله من الرَّأي الدِّبري). والمشهود به أن الشريف زين العابدين من أوائل من أصغوا إلى صوت الحكمة والعقل ونداء الوطن لأنه مثقل بهموم أمته. وإذا كانت الوطنية هي رائد الناس وكانت قلوبهم على أهلهم فإن رفض التصالح حين تواتي فرصته لا يصدر إلا عن غرض وهوى. وقديماً

قال أهلنا (البيابى الصلح لابد ينغلب) وأنا لا أجد حرجاً حين أكرر الإشادة بهذا الموقف الوطني النبيل للشريف وقد ذكرته في مفكرتين سابقتين حين اقتضت مناسبة الحديث والذي بيني وبين الشريف أكبر من السياسة ولكن ليس أكبر من الوطن ولا حبه بل هو هو. وليس في إعادة ذكر هذا الموقف شماتة ولا تبكيت لأناس وقفوا من الشريف موقفاً عصبوا فيه أعينهم عن المصلحة العليا للأمة ولكني أعيده للتذكير والاعتبار لأن المرحلة الراهنة أدق من المرحلة التي بادر فيها الشريف. والناس الآن في منعطف خطير إذا تجاوزه الركب فسيكون اللحاق به عسيراً. قال أحد أجدادنا (المكاجرين = المناكفين) لرفيقه حين كان الناس يجلسون في (ضُل العصر) يُزَيِّن (يحلق) بعضهم رأس بعض: تعال يا فلان زَيّن لي راسي (أحلق لي) فقال له رفيقه طيب بس جيب ليك موية وصابون ويلْ راسك. فقال المكاجر يا خي صابون شنو وموية شنو تعال أحلق ساكت. فقال له صاحبه: يا خوي الزيانة بلا موية وصابون حارة فقال المكاجر: يا خي راسك ولا راسي، احلق بس. فما كان من أخينا إلاّ أن أحدّ شفرته وقصد بها مفرق رأس صاحبه فوقعت عليه الموس كالجمرة فهبط صاحبنا المكاجر برأسه إلى أسفل، وقال لرفيقه: قلت أحسن أيلْ راسي؟ وإنما ينأى العقلاء بفضل بصائرهم وبعد نظرهم عن الوقوع في مثل هذه المواقف. ولا ينقص العقل والبصيرة أكثر الذين خالفوا الشريف الرأي ولكن شتان بين زاهد في نفسه عاشق لوطنه متشبع بالمجد التليد حتى الثمالة وبين منتفع يريد المجد على حساب الأماجد. قيل لأحدهم: أتُحِبُّ أن تُصْلَبَ لمصلحة الأُمّة؟ فقال لا بل أحبُّ أن تُصْلَبَ الأُمَّةُ لمصْلَحَتي.

وعوداً على بدء كنت قلت إن عاصمة الثقافة العربية هي محكّ واختبار لاتفاقية السلام التي تنادي بمبدأ الاعتراف بالآخر وقبوله. فحوار الثقافات هو الطريق إلى بناء جسور الثقة التي ينادي بها المتصالحون. ولكني أسأل سؤالاً قد يبدو ساذجاً لهواة الغموض وذوي الغرض والهوى والصائدين في الماء العكر والذين يحاولون صب الزيت على النار المشتعلة أو قل الذين نفدت أسلحتهم في مقاومة الحكم القائم بخيره وشره فلم يجدوا إلا أن يفسدوا عليه

برامجه بشعارات سخيفة في زمن نحن أحوج ما نكون فيه إلى وحدة الصف وجمع الشمل. وسؤالي هو: إذا تنادت الدول الإفريقية لتنصيب الخرطوم عاصمة للثقافة الإفريقية فهل سيعترض على ذلك عاقل؟! لا، بل إنه من دواعي سرورنا أن نكون أصحاب ثقافتين. ولكن هب أن هذا التنصيب قد حصل فما الوعاء الثقافي الذي نخاطب به أهلنا الأفارقة؟ من الذي يعبّر عنا ويوصل ثقافتنا إلى بني جلدتنا؟ أهي الإنجليزية والفرنسية ولغات المستعمر التي لا يلم بها الأميون من أهلنا حملة مشاعل الثقافة وعناصر التراث ومفرداته أم تريدون ثقافة للصفوة؟ وكنت نهار توقيع الاتفاقية أستمع عبر الفضاء السوداني إلى المهندس فاروق جات كوث وهو من مثقفي قبيلة الدينكا وهو خير من يتحدث عن التراث والثقافة. ولكني سألت نفسي وأسألكم عن هذا الجنوبي الذي يحسن العربية فهماً وعبارة وهو يحسن الإنجليزية تحدثاً وكتابة ويجيد لغة قومه الدينكا. فهذا المهندس الرائع إذا أراد أن يحدث قومه السودانيين من حلفا إلى نمولي ومن الفاشر إلى كسلا فبأي اللغات يخاطبهم ليكون كلامه مفهوماً لجميع سكان هذه الرقعة العريضة؟ نحن لا ننادي بهيمنة الثقافة الغالبة أو اللغة السائدة ولكن نريد التفريق بين استعلاء العربية المزعوم وبين مكابرة الذين يرفضونها وهم يتحدثون بها. نحن نقول في غياب اللغات المكتوبة والوعاء الثقافي الجامع الشامل تبقى العربية -فصحى وعامية، هي الخيار الأنسب للحراك الثقافي في المرحلة الراهنة شئنا أم أبينا. إلا أن يراد بنا اللجوء إلى الخيار الأعرج باطِّرَاحِ ما عندنا واجتلابِ لغة من خارج الأسوار لا تحسنها إلا الصفوة ولا يعرفها أصحابُ الفعل الثقافي الحقيقي وصانعوه.

ولا نعني بخيار العربية الاستعلاء وإقصاء الآخر ولكنا نريد لغة نفهمها كلنا ويفهمها الآخرون نعرض بها التنوع والثراء والتعدد الذي ينعم به التراث السوداني والثقافة السودانية على اختلاف مكوناتهما. أو دعونا نعرض الشق الناضج الذي عندنا نُسَكِّن به الجوع حتى يستوي الشق الآخر على أي نار تريدون. ولماذا يضير السودانيين إذا احتفلوا مع

العرب ومع الأفارقة.

نحن ننادي بنشر اللغات السودانية في الجامعات والمعاهد العلمية مثلما يدرِّس معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية اللغة اليابانية والصينية والهوسا والسواحيلي وغيرها. علموا أبناءنا لغة النوبا والنوبيين ولغة البجة واللغات النيلية والفوراوية ليكونوا أقدر على فهم تراثهم وأجدر بإدارة حوار الثقافات التلقائي. ولعل العقل يقضي بأن تلأخذ الثقافة التي لها وعاء بيد الثقافات الأخرى التي لا وعاء لها أو لا وعاء واسعاً لها في عفوية كتلك التي ولدت عربي جوبا أو سماحة النفس التي مكنت إبراهيم دينق من أداء أغاني النعام آدم والشايقية أداء لا تنقصه المهارة ولا طلاقة اللسان.

قلنا مراراً ونقول تكراراً إن الذي يريد تصنيف السودان في النطاق العربي فقط واهم مخطئ والذي يريد حصر السودان في المحيط الإفريقي واهم مخطئ أيضاً. نحن نتاج ثقافتين متمازجتين وكفى. وقد استوعبت ذاكرة التراث السوداني هذا الهجين منذ أن وجد مروراً بعهود السودان السياسية وأدواره الاجتماعية المختلفة مؤكدة هذه الثنائية التي لا تقبل الفصل منذ علوة والمقرة والفونج إلى فجر الاستقلال حين صدح وردي بكلمات السراج:

حينَ خَطَّ الـمَجْدُ في الأرضِ دُرُوبَا   عـــــرباً نحـــنُ حَمَلْنَاهَا وَنُوبَـــــا.

وبمناسبة ذكر فنان السودان العملاق حزّ في نفسي أن تردد أغنيات وردي في افتتاحيات عاصمة الثقافة وبرامجها وفي احتفالية الاستقلال بصوت غيره وهو حي يرزق وتسجيلاته القديمة باقية تزيدها الأيام ألقاً ولئن كان وردي هو المعلم قبل الفنان فإنه قطعاً يسره أن يترسم أبناؤه الفنانون خطاه ولكن رضا وردي بذلك لا يغرينا بتجريده من حقه التاريخي في مناسبة تاريخية. وأخشى أن يؤخذ هذا من قبيل أساليب إقصاء الآخر التي يرددها بعض المهتمين بالشأن الثقافي هذه الأيام والتي نرجو ألا تكون حقيقة ماثلة في هذا الحدث الذي هو للسودانيين كلهم دون تمييز ولثقافاتهم كلها دون احتكار. فمن محكات السلام الجادة أننا

في مرحلة تسامح تحتاج إلى سعة صدر لقبول الآخرين وتملي على أصحاب القرار والقيادة أن يمكنوا لإرادة الجماعة وأن يفسحوا المجال لإعطاء الثقافات حرية الحركة وأن يكون الولاء للسودان وثقافته وأن يوفر المثبطون والمشككون حبرهم وأوراقهم وأن يمسك المعوقون ألسنتهم وأن يتركوا هذا الحدث التاريخي والفرصة النادرة تحرك مياه بركة ثقافتنا الراكدة ليكون هذا الحراك ضربة البداية لفعل ثقافي مستمر يستفيد منه كل أهل السودان. ودعونا من القضايا الانصرافية فالتحدي كبير ولنلتفت إلى تجويد ما عندنا وعرضه على الدنيا بصورة تشرفنا وتصحح صورتنا المشوَّهة وتسمع صوتنا الخافت إلى عالم لا يعرف عنا إلا البامبو السوداني والزول.

مَرَارهْ في خشْمْ سَكَارهْ*

صدق أهلنا حين قالوا ((الكلام مولود وقتو)) فقد كنت غارقاً في مفكرة الخميس الماضي للصحفي المهاجر الكاتب الأستاذ فيصل محمد صالح حبيبنا الذي افتقدناه في صحيفة الخرطوم ولكنه ما زال باراً بقرائه يخرج بهم من حرافة الحلو مر إلى حداقة الشطة وتوابعها من مُسَيِّلات اللُّعاب ومجريات الدموع المُجْهِشَات المُبْكِيات وهو يتحدث عن الزميل القديم والكاتب والشاعر محمد محمد خير (تورنتو – كندا) الذي كان آخر عهدي به أواخر السبعينات بجامعة الخرطوم ومن عجيب المصادفة أن يرنّ جرس الهاتف في تلك اللحظة التي كنت أقرأ فيها غزل فيصل مع محمد خير في سيدات الطعام : الشَّيَّة والمرارة والسنكيت فوجدت على الخط الأخ الأستاذ الباحث برير محمد توم رجل يكبرنا سناً وعقلاً وعلماً معرفتي به حديثة ولكن (الجواب يكفيك عنوانو) . كنت أعطيته إضبارة مقالات وكتابات تخصني فأمطرني – جزاه الله خيراً – وابلاً من المدح والثناء ورفعني فوق الثريا حتى خلته يتحدث عن غيري وأنا أستمع إلى ما كتبه وأستغفر على طريقة عمنا أبو شرف ولكن بيت القصيد أنه قال لي : أقول لك كما قال الفكي لامرأة توسلت إليه أن يدعو لبناتها بأولاد الحلال، فقال لها : إن شاالله ربنا يجعل بناتك مرارة في خَشُم سَكَارَه. وهي دعوة إن استجيبت فهي أمان من البورة والتعنيس بلا شك . فعجبت لاتفاق ما اقرأ مع ما أسمع . والفُقَرَا مع ما يتهمون به من عدم الإلمام بثقافة المرارة وأخواتها إلاّ أنهم (إذا لم يضوقوا الموت فقد شقوا المقابر) . واسألوني عنهم فإنهم أبرع خلق الله في تذوق مثل هذه الطيبات لأنها ربّما صادفتهم (فَنّة في الدهر) فتكون من باب (فصادف قلباً خالياً فتمكّنا) ألم يقل المثل : عواره عواره أَكْل الفكي للمرارة ، يَدَلِّيهَا بي ريقُو ولَلاً بي موية إبريقو ؟) يعني لا يحسن بالفكي أكل المرارة لأنها ليست من طعامه وإنما هي طعام

* صحيفة الخرطوم ١٧ يونيو ٢٠٠٣م.

الذين يحسنون أكلها فيدلّونها بالعرقي والمريسة فتنزل سائغة ويسهل هضمها. قال لي أحدهم– وكان ذوّاقاً للمطايب – يا أخي لقد ضيقوا واسعاً ، الفكي ده حجر ؟ ما يشرب بيره خالية من الكحول !! وكان شديد الضيق من حكاية " المؤمن حلوي " فقلت له : في أحد لقاءات التلفزيون القديمة في الثمانينات طلب الأستاذ حسن أبشر من الأستاذ أحمد المصطفى – رحمه الله – أداء مقطع من أغاني عبدالوهاب فذكر الأستاذ أحمد أن أحدهم كان يعترض عليه في ذلك ويقول له : أنت حينما تغني لعبدالوهاب كمن يطعّم المرارة بالسُّكر . وهذه طبعاً خلطة متنافرة ، فقال لي مولانا : الشطة في موضعها أطعم من السكر في موضعه . ألم أقل لكم إن الفقرا خبراء ؟ وهذا أمر يحكمه أهل المزاج والقعدات.

وتتجلى خبرة صاحبي هذا في أنه كان يطرب جداً حين أنشده من (الممزوج) وهو ضرب من الدوبيت – التسمية من عندي – فيه فن عجيب وقدرة فائقة على مزج الألوان في التصوير فكان مما يطربه قول الشاعر :

وين يا جريعة العسل اللذيذ مَشْنُونِك

كبدة نوق مَسَاري ومَطَّرِك ليمونك

يعني طاعمة مثل كبدة النوق ذات الأسنمة العالية (كناية عن أنها سمينة) التي مطّرت بالليمون . ويطربه قول صاحب المسدار يخاطب جمله (القمري) :

عشانا الليلة يا قمري البقولن قوق   كبدة نوق مع العسل اللذيذ في الضوق

وكنت أحتار أيطرب للمشبه أم للمشبه به ؟ حتى أنشدته يوماً قول ود الفرّاش :

بَرَاطْم الدُّون تقول كبدة حَمَلَّنْ .

يشبه شفاه محبوبته (الدُّون لِحِق) بكبدة الحملان ، وقد جوّد ود الفرّاش لما في كبدة الحملان من الرِّخَص والطّراوة والطعم واللون والملاسة، فقام مولانا وقعد فقلت له : يا مولانا أأطربك المشبه أم المشبه به ؟ فقال لي على الفور : الاتنين يا حاج !!

وأعود إلى (السفسفة) وأقول للأستاذ فيصل الحمدلله الذي وفقني في كتاب العادات الثاني إلى مقالة في (الباسم والكوارع وأخواتها) أودعتها أطايب الكلام في مطايب الطعام سترضي الصديق القديم محمد محمد خير ولعلها تفتح شهيتك المرهقة مثلما فتحت مقالة (دخان الطلح)في الكتاب الأول شهية صديقنا الحميم دهب خيري فأعلن على الملأ أنه بعد قراءة تلك المقالة شعر بتحسُّن ملموس . رغم أنه زاغ ونسب العبارة إلى صديق على طريقة (رَمَتْنِي بدائِها وانسَلّت) أو (الفيك بدّربُو) . وقد كنت شرعت مع صحيفة (الخرطوم) في نشر حلقات من الكتاب الثاني ولكنهم (ما انستروا في عرضها) فأوقفتها وإذا وعد أخي كمال حسن بخيت بالعناية بها فسأحيلها على جريدة (الأضواء) ترحيباً بها وبشيخ الصحافة الأستاذ محمد الحسن أحمد .

ثم تواردت الخواطر لأن ذكرى محمد خير أعادت إلى الذاكرة جماعة ممن كان آخر العهد بهم أواخر السبعينات منهم الأستاذان عبدالعظيم محمد سيد أحمد وعبدالعال محمد أحمد شابان عصاميان جمعا بين الدراسة ومزاولة مهنة أخرى . وآخر صورة لمحمد خير في ذاكرتي هي حين مرّ بنا عصراً في داخلية كسلا في البركس – مهموماً كأنما يحمل صخرة أطلس وطلب حبَّاية صداع . ويجمعني به وبعبد العظيم جماعة (هواة الكلمة) وهي جماعة أدبية محضة مولعة بطرائف الشعر والأدب والنكتة وروائع الغناء ، كانت تطوف بمضارب سكن الطلاب والطالبات وكانت تُتْحِفُ وتمتع . وليت أخي د . عبدالله محمد أحمد رئيس قسم اللغة العربية بآداب جامعة الخرطوم الآن والذي كان رائد الجماعة ، ليته يوحي لطلابه بإعادة نشاطها فقد كانت مفيدة ومسلية .

أما عبدالعال محمد أحمد الأستاذ المكافح الذي كان متزوجاً وطالباً بالجامعة ومدرساً للغة الإنجليزية بمدارس الجريف ، فكان يأخذني معه في " فزعات " إذا أحسّ بزنقة في بعض فصوله النهائية (الثوالث) رأيته آخر مرة سنة ثمانين وما رأيته بعدها إلا – الأسبوع الماضي – حين جاءني صوته من المنصّة دافئاً هادئاً يتلو آيات من الذكر الحكيم يفتتح بها الاحتفال

وسنفعل بإذن الله . وقد تحدث سعادة نائب السفير الوزير المفوض الأستاذ سليمان عبدالتواب والبروفيسر عزالدين واستعمل (الفيتو) فأجادا وأفادا وكلاهما أعطاني أضعاف حقي وما لا أستحق فثوابهما على الله . كما تحدث الزميلان الحسينان د . الحسين النور ود حسين الخزينة عن عبدالله الطيب فحال حديثهما دون الزيادة في هذا الباب . فلأهل الهفوف من ههنا شكر السوداني الممتن لأبناء السودان الأصلاء الذين يحملون أفراح الوطن وأتراحه في حدقات العيون أينما حلّوا .

ثم أختم بالعودة إلى صاحب فيصل ومحمد خير الذي تجري دموعه فرحاً حين يرى الشيّة والكبدة النيّة وهو يذكرني بأخ لي كان يتضايق من قريب لنا إذا رأى سراويس المرارة والشية بأنواعها يطلق ضحكة عالية بلا مناسبة (يتضاير) لها أخي حرجاً وكان يدخل في (أضافرينو) حين يراه يبدأ في حلّ أزرار البنطلون ، حتى طيبت خاطره وقلت له الشغلة دي قديمة ولا حيلة لك فيها ألم تسمع قول الأول :

ذو دُرْبة طَبٌّ إذا برزتْ له   بُشَرُ الطعام بدا بحلِّ المئزر

وهو من النوع الذي حين أرادوا إشغاله عن كثرة الأكل قالوا له : احكِ لنا قصة سيدنا يوسف فقال لهم : (وَلَدٌ وراح من أبوهُ). وكان من الذين يأكلون بالعين والفم واليد والرأس والرجل ولو سئل عن اسمه ما ذكره ولو طلع عليه ولده الغائب ما عرفه .كأنه لم يسمع بطاووس اليماني الزاهد الذي رأى مرةً روّاساً (بائع رؤوس مشوية) يخرج رأساً من التّنُّور (الفرن) فأغمي عليه مع أنه كان يصلي الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة . أين هذا أخي فيصل ممن (سمنوا وأسمنوا بَرَاذِينهم وأهزلوا دينهم ونسوا أن وراءهم عقبة كأداء لا يجوزها إلا المُخِفُّ) . هل تصدق أن هذه العبارة قالها مجنون هو صباح الموسوس من أهل البصرة ؟ ولذلك ما قالوا خذوا الحكمة من أفواههم . أخيراً قال لي خبير بالأطعمة مثل محمد خير قرأ مفكرتك هذه : إن أكل الفسيخ مع فحل بصل في العشاء هو طعام العزابة والمحرومين من طيبات الليل ! واللّهم لا شماتة .

كردفان الغرَّا أُم خيراً برَّا *

هذه العبارة لاطفني بها يماني عجوز في الحجاز ، ولد في الأبيّض وقضى شبابه وشطراً من كهولته هناك . وقال لي : بعد أن طوّفت في الآفاق وعرفت البلاد وأهلها أتمنىَّ أن أقضي بقية عمري في تلك الربوع وأنشدني :

بلادٌ بها نِيطَتْ عليّ تَمَائمي　　　وأوَّلُ أرضٍ مَسّ جلدي تُرَابُها

حرّك هذه الذكرى البرنامج الممتع (أيام لها إيقاع) في حلقاته التي استضاف فيها نخبة من أبناء كردفان . وبيني وبين كردفان مودة قديمة نابعة من عشقي ثلاثة أشياء وجدتها في تلك الربوع الحبيبة : طيبة إنسان كردفان الذي يلقاك لأول مرة فيحتويك كأنك من بقية أهله ، وطبيعة كردفان الشاعرية خصوصاً تلالها ورباها حين يعانقها الخريف ، ونقاء اللسان العربي فيها؛ فما زلت شديد الاعتقاد ومن واقع التجربة والمعايشة أكاد أجزم بأن لسان بوادي البطانة وكردفان هو أقرب ألسنة الدنيا إلى العربية الأم ، وسأمثل على ذلك . وقد كوفئت على هذه المودة بأن جزم أحدهم ويصم بالعشرة بأنني من أبناء كردفان. ففي محادثة مع أحد أعلام إذاعتنا – إن لم يكن الإذاعي المخضرم وزينة شبابِ منطقتنا الأستاذ معتصم فضل فلا أستبعد أن يكون الإداري البارع المهذب سعادة العقيد (م) عبد السلام حسن مدير الإذاعة التنفيذي – قال لي أحدهما إنه استضاف شخصاً في مكتبه وجرت سيرتي المتواضعة فأكدّ له الضيف أن شخصي الضعيف من أبناء كردفان ، فقلت له هذا شرف لا أدعيه وفخر لا أردّه . وليس الأمر جديداً ولا خاصّاً بكردفان فقد كان أحد أبناء عمومتي يصرّ على أنني أشبه الهدندوة والبني عامر وكان في صغري لا يناديني إلا بذلك. وكانت إحدى أمهاتي – زوجة الوالد – امرأة جليلة القدر من أسرة الشيخ سعدابي المشهورة في حي

* صحيفة الخرطوم ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٢م.

المدنيين بودمدني ، كانت تناديني – رحمها الله – بالجنوبي وتنادي شقيقي الأكبر بود النوبة ما كانت تترك ذلك أبداً وكانت شديدة الشغف بالألقاب. وتشاددت مرةً مع زميلي الدكتور المقدّم الجعلي فحلف بالطلاق أنني جعلي ولم يسترح من وسوسة وقوع الطلاق عليه حتى قابل أحد معارفنا فأفاده بأن أم والدنا جعلية من المشايخة. وقلت لبعضهم يا أخي أنا الجعليين عندي فيهم عِرق واحد بس فقال لي : على الطلاق العرق ده ياهو النافعك. وقال لي البروفيسر الطبيب الشايقي المحب للتراث الدكتور كمبال : تعجبني كتاباتك عامة ولكن أعجبتني معرفتك بدواخل لهجة أهلي الشايقية فهل أنت شايقي؟ وأخيراً فإن أستاذي العلاّمة البحّاثة التراثي الأول الأستاذ الطبيب محمد الطيب حين أهداني آخر مرة كتابه القيم (المسيد) لم ينس أن يضيف لقب (الكاهلي) إلى آخر اسمي في الإهداء. وأنا سعيد بهذه الانتماءات التي تضاف إلى انتمائي إلى الجزيرة أصلاً ومولداً ونشأة وتاريخاً. وربما رسّخ في نفسي حب كردفان تلك السيرة العطرة لأولى زوجات والدي – رحمهم الله – وكانت كردفانية نادرة النظير تجسدت فيها مقولة المرأة العظيمة وراء الرجل العظيم ، وأعجبني قولهم عنها إنها في غياب الوالد (كانت تعرف ضيف الضبيحة من ضيف الموجود) وده كلام كبير. ويكفي أن ألخص جلائل أعمالها في أن الوالد وقف على قبرها بعد دفنها وصفّق للمشيعين وأشهدهم أنه وهب لهذه المرأة نصف أجر خلوته التي لم تبت يوماً خالية من ضيف من عابر سبيل أو صاحب حاجة أو مادح وغيره. وكان أسفنا كبيراً على أنها لم تخلّف ذرية . قال لي أحد المسلّطين : أبوك تزوّج أربعة بعد بت مريم الكردفانية إنت مالك واقف على فَدْ واحدة فأنشدته بيت صلحي رافع الراية :

واحدةٌ أَعْجَزَنِي أمرها   فكيفَ لو قُمْتُ على أَرْبَعِ؟

نعود إلى كردفان والجلابه وأولاد البحر والمودة التي بينهم والرحلة المتبادلة منهم إلى كردفان ومن الكردفانيين إلى دار الصباح من أجل المنافع. والمنافسة التي يعزوها بعضهم إلى التسابق إلى قلوب الحسان وغيرة أهل البلد من الجلابة لأن أكثرهم تجار، وكان أحد مثقفيهم كثيراً ما يناوشني بالمثل القائل (أحمر أضان ماليهو أمان) ويقول لي أنتم المقصودون بهذا ، فأقول له بل المقصود الأتراك والإنجليز ، فيرفض ويتعنّت فأغيظه بالمثل الآخر (اليجِي من الغَرِبْ ما بْسُرّ القَلِب).

قلت : والجلاَّبة محبوبون لثرائهم ولما يجلبونه من المنافع خصوصاً المتعلق منها بالملبس والزينة أو بالكيف كالسكر والشاهي والبن ؛ قالوا تعوّد أحد شيوخهم استضافة التجار في داره، وكانت منزلهم المعهود ، وكان يهش للقائهم ويفرح به ويجدون عنده إكراماً وراحة تعود عليه بمنافع كثيرة منهم ، فرأى مرة مراكب فارهة من الحمير العالية والسروج الجميلة والفراء الضافية والخَرَجَة (جمع خُرج) المنتفخة والثيابِ النظيفة والهيئة الحسنة فخرج إليهم مهرولاً حافياً وأمسك بلجام حمار مقدمهم وقاده نحو الخلوة (الديوان) وفي أثناء المطايبة والسلام والطبطبة وقعت يده دون قصد على الخُرج فَطَن ورنَّ ما بداخله فبردت يد الشيخ وتغيرت نبرة ترحيبه وانطفأت حرارة الاستقبال فلحظها الضيف وبادر الشيخ قائلاً : نَعَلْ ما في عوجة يا شيخنا؟ فقال له شيخ البلد بغيظ (حرّم العوجة لمستها بي إيدي) لأنهم لم يكونوا تجاراً بل كانوا مُدّاحاً، والذي لمسه لم يكن السكر والشاهي وإنما كان طارات المدّاح . وخفّة روح المداح مشهورة وفيهم ظرف كامل وحلاوة لسان ؛ نزلوا مرة على رجل وقالوا له : الناس قالوا لينا بتحب المصطفى شديد ، فقال لهم : ما يخافوا الله ! يبْهَتوني؟ وهذه الفئة من المبدعين – فئة المداح – لم تعط حقها ولا شيئاً منه مع عظم الرسالة التي يضطلعون بها وهم أصحابِ تراث إنساني ناصع وإرث سوداني خالص ، وحسناً فعلت وزارة الثقافة حين كرمت بعضهم في ليالي الإسراء والمعراج المنصرمة وهو تكريم في محلّه لحملة مشعل من

مشاعل الثقافة والتراث السوداني الثَّرّ الذي يـراه بعـض الجهلـة (مـن مخلفـات الرجعيـة البائدة) كما يقول بروفيسر عبد الله الطيـب – رفعـه الله – ومـع سـروري البـالغ بتكـريم أعلامهم ساءني ألا يكون من بين المكرمين المـادح البـارع الحـافظ الـصَّيِّت صـاحب الأداء المتميز الشاب المتواضع إسماعيل محمد علي ، وهو علم بارز ورقم كبير في تجاوزه نظر ، وهو صاحب حضور إعلامي واجتماعي كـبير وأشـرطته تمـلأ الـدنيا وتـشرح النفـوس. ورجـع الحديث إلى مداخلات الأساتذة في (أيام لها إيقاع) وقد ذكروا كردفـان وجـرى ذكـر مـا دبّـو الكبير الذي وصفه سلاطين باشا في (السيف والنار) بأنه كان صـديقه القـديم وكـان مـن أقدر شيوخ العرب في السودان وقد قابل الموت على يد حمدان أبي عنجـة بـشجاعة فائقـة وكان يضحك ويُشهد الجموع على تلقيه الموت بشجاعة الأبطال . قال سلاطين إن الخليفـة التعايشي أسف على موته كثيراً وقال له إنه لو عاش لكانت فيـه منفعـة كـبيرة ؛ ولكتـاب سلاطين حديث قد نعود إليه.

أما اللغة عند عرب كردفان فهي العربية القديمة الأصيلة الصليبية ، قـالوا : استـضاف أحـد الكردفانيين عابر سبيل وقدم له طعاماً ، فلما شبع الضيف مسح فمه بيديه وقال : الحمد لي منعم! (يعني بالمنعم الله تعالى) فغضب المضيف وعنّف الضيف قائلاً : (منعم أنطاك غلـة؟) ظنه يحمد ويشكر منعم منصور أحد مشاهير زعمائهم. ويبدو أن المضيف من جماعـة شـاعر دار حامد الذي قال عن منعم : (منعم حج وجي ، أريت كان ملجي ، البابور ربّـع بـي ، بحـر المالح كرّم بي) ولا يخلو الزعماء من الحسد ولا يسلمون من ألسنة الناس. والشاهد هنا قول صاحبنا : (أنطاك) بمعنى أعطاك وهي شائعة في بوادي كردفان ،وقد يسخر بعـض الكردافـة من الجلابة ويصفونهم بالجبن فيقولون (الجلابي كان لقيتـا وحيـدا ينطيـك وليـدا) وكـان حمدان الكردفاني يردّد لنا هذه العبارة ويفخر ويتبجّح بأنه في دار الغرب كان يكْتُـل الـدُّود

(الأسد) وحيدا – وَحْدَه – فهلجت مرة بقرة شُوش (نافرة) تَخُصّ غفير الترعة فصلحت زوجته وبناته فخرج الجماعة مفزوعين وخرج حمدان متقرقب بفِتْقَة (نصف توب) فمـا أن هاجمته البقرة حتى فرَّ في وجهها فلحقت به وأخذت القرقاب في قرونها . وكان شقيقنا حاج عبدالرحيم – حفظه الله – فيه فراسة عرب وجسارة كواهلة وتربية بقارة فتوجهـت البقـرة نحوه فركز رجلاً في الأرض وهوى عليها بضربة ملتفاً من طريقها فتكومت لا تحرك سـاكناً . وتناول حمدان ثوبه من الجماعة بيد واحدة وستر بالأخرى ما انكشف ولم نـسمع منـه بعـد ذلك أنه (كان يكتل الدود وحيدا) . وقال ود سعد في مدح الإمام المهدي :

ربي أنطاك وديا ينطيك   حافظك ناصرك ومغطّيك

وود سعد – رحمه الله – جعلي شمالي وهذه ليست لغته ولكنه لاطف المهدي فمدحه بلهجة أنصاره . وهي لغة يمنية قديمة يقول أصحابها : (اللهم لا مانع لما أنطيت) وهي عراقية أيضاً وعليها قول المعري :

لمنّ جيرةْ سيمُوا النّوالَ ولم يَنْطُوا   يُظَلِّلُهُمْ ما كان يُنْبِتُهُ الخَطّ

وقد قرئ بها في القرآن في حرف شاذ (إنا أنطيناك الكـوثر) واللغويـون يـسمونها الاستنطاء وهي لغة الأزد وقيس والأنصار ومنها بقية صالحة في العراق اليوم. ومـا وجـدت عربياً في العالم العربي المعاصر يعرف (المال) بمعنى (البهائم) إلا في كردفان يقولـون : المـال سرب ، وذلك إذا خرجت البهائم ليلاً. والعرب يقولون هذا نبات يستطيبه المال ، وأكثر مـا تطلق عندهم على الإبل.

وقد عاشت بيننا في الجزيرة مجموعات من البقـارة والزريقـات والمـسيرية وغيرهـم وكنا نعجب من لغتهم حتى وجدناها هي الأصل وعرفنا أنها العربية القديمة . كنـت أسمـع راعياً عندنا وقد سأله الوالد عن البقرة الفلانية متى ولدت؟ فَقَال (حَدَرْ نَهَار اليـوم) فمـا

عرفت فصلحة تلك العبارة التي تعني (قبل الظهر) إلا بعد سنين. وفي ديوان الشيخ عبد الرحيم البرعي الكردفاني ثروة لغوية غنية ليت الدارسين يلتفتون إليها. – ومن هؤلاء الذين عاشوا بيننا عرفنا نظامهم الاجتماعي الدقيق المتمثل في (مجالس البرامكة) التي كانت بمثابة أندية ثقافية واجتماعية وجمعيات خيرية تعاونية كان ينبغي تطويرها والحفاظ عليها. وقد أعود مرة أخرى لنشأة هذه الجماعة وأشعارهم في مدح (البرمكي الحريف) والشاي أبو شعيرة الهني شراب الملوك ، أو أشعارهم في ذم (الكمكلي) اللّعين.

كتاب في محل سمك*

التقنيات التثقيفية الحديثة نافست الكتاب الذي كان في صدارة روافد الثقافة ومع ذلك يظل الكتاب أنيساً خفيف الحمل وجليساً خفيف الظل وصديقاً يمكن الرجوع إليه في كل وقت وله خصوصية الالتصاق بالقارئ في كل الظروف وله خاصية الانتشار بين القراء على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم . وفي تأليف الكتب طرائف ومآسٍ ؛ فقد كانت الأستاذة الكبيرة الأديبة بخيته أمين – مشكورة – قدمت كتابي (عادات سودانية) في عمودها الذائع المقروء (جرة قلم) بصحيفة (الرأي العام) وخصصت آخر العمود لتقديم كتاب آخر قدر الله أن مؤلفه انتقل إلى الدار الآخرة – عليه رحمة الله – فرن جرس الهاتف وكنت قريباً منه فجاءني صوت متردد حزين وسألني : منزل د . القرشي ؟ فقلت له : مرحباً معاك إبراهيم القرشي فردّ بدهشة كاد صداها يخرج من السماعة قائلاً :إنت إبراهيم ؟ قلت : نعم .فقال يا سبحان الله ! قلت له : خير إن شاء الله ؟وعرفته فانفجر بصوت لم أميزه حتى الآن وهو خليط من الضحك والبكاء والفرحة والأسى وقال لي : يا أخي ناس (الرأي العام) مالُم معاك ؟ أثنوا على كتابك ونعوك وترحموا عليك في وقت واحد ، والله أنا متّصل وما مصلّق وما عارف أقول شنو ! فاستدركت أن الرجل تصفح العمود على عجل وقفز من أوله إلى آخره وكانت النتيجة هذه (الربكة) وأعماركم طويلة إن شاء الله .

وقبل أشهر اتصلت بي قارئة مثقفة من جدة بادرتني باستفهام إنكاري عريض وذلك أنها سمعت بالكتاب فقلّبت مكتبات جدة رأساً على عقب فلم تجده ثم وجدته أخيراً ومصادفة في محل سمك (مطعم) فكيف هان على الموزع وضع كتاب بهذا الجمال والقيمة في مطعم ؟ قلت في نفسي السمك غذاء والكتاب غذاء مع اختلاف الأوعية والنوعية ، وبعد مناقشتها فيما سألت عنه حملت استنكارها لشقيقي (عبد الله) الذي تولى توزيع

* صحيفة الخرطوم ٣ سبتمبر ٢٠٠٢م.

الكتابِ في جدة وقلت له : (شرطت عينّا) مع الزبائن ، أقصد القراء ، وحكيت له ما حصل فأفادني أنه تعمّد ألاّ يضع الكتاب إلاّ في سوبر ماركت أو محل ثياب وعطور أو مطعم أو حتى ملحمة ، ولم يتعامل مع مكتبة إلاّ مكتبة السفارة بجدة وفلسفته في ذلك أن المغتربين أصبحت لهم ثلاثة هموم : الأكل والملابس خاصة أو هدايا، ثم السفر الذي يجعلهم يمرون بالسفارة إلزامياً لتسديد الالتزامات . قلت لأبي الصديق يا أخي أفسدت علينا المفهوم القديم السائد بأن القاهرة تكتب وبيروت تطبع والخرطوم تقرأ .. وأكثر المغتربين بخير . والحق أنني سعيد بنفاد الطبعة الأولى إلاّ قليلاً ، ولذلك لم أحفل بالدعاية للكتاب لثقتي بمحتواه وبوعي القراء ، ومع ذلك أعددت على حسابي تنويراً تلفزيونياً ، مقدِّراً أن الكتابِ مشروع ثقافي ورامياً إلى شكر كل من كاتبني أو كتب في الصحف مثمناً الكتاب ولكن التنوير ذهب ضحية الرؤى الإخراجية فلإخواننا المخرجون في التلفزيون لهم أحياناً رؤى إخراجية لا يفهمها غيرهم وأخونا وأستاذنا الإذاعي المخضرم الأستاذ عبد المطلب الفحل (جداً) له مواقف من هذه الرؤى الإخراجية وكان يحدثني عنها وبعد حديثه بأيام بعثت بذلك التنوير إلى التلفزيون فشاهدت في عرضه العجب من انعدام الربط والاقتباس المخل لولا أن جبر كسرهم الأستاذ الواعد طارق جويلي الذي شجع الإبداع الثقافي وعزف عن إغراءات شركات السياحة والطيران . ثم جمعتنا الإرادة ببعثة تلفزيونية في منزل سعادة السفير صاحب الحس الاجتماعي الدبلوماسي الأستاذ عثمان الدرديري بمنزله بالعاصمة السعودية ومعنا أساتذة أجلاء في كل فن وطاقم السفارة وسجلوا معنا حلقة كاملة برؤية إخراجية خاصة وذلك قبل أشهر عديدة وحتى تاريخ هذه المفكرة لم تبثّ الحلقة ويبدو أن تلك (الرؤية) أصبحت (رؤيا) أو أنها ما تزال تطبخ على نار هادئة .

وكنت سطرت شكراً في هذه المفكرة لمن كتبوا عن الكتاب أعوّض به ما سكت عنه أهل التلفزيون ولكن المساحة لم تسعف وعسى أن أفرد ذلك في مفكرة أخرى أو في موضع آخر من الصحيفة ولكني أعجل بشكر الطيبين – بالتثنية – الأستاذين عميد الأدب وشيخ

الأدباء أستاذنا البروفيسر عبدالله الطيب نفّس الله كربته وردّ غيبته وعجّل إلى الساحة أوبته و عميد الرواية العربية وتاج رأس السودانيين الأديب الكبير الأستاذ الطيب صالح وأجدها سانحة طيبة لأهنئه وأهنئ السودانيين والعرب باستمرار التثمين العالمي لإنتاجه وبخريف الجوائز المنهمر عليه وهو أهل ذلك وأكثر فقد فتح لأدبنا آفاق العالمية وقديماً قال الأستاذ يوسف مصطفى التني (ليس في جعل أدبنا سودانياً ما يمنعه أن يكون عربياً... أو أن يكون عالمياً متى توافر فيه عنصر الإنسانية) كأنه تنبّأ بالحفر المحلي العميق الذي مارسه الطيب صالح كما قال أخونا الأستاذ أحمد عبد المكرّم في رؤاه .فمحلية الطيب صالح هي القاعدة المتينة التي قام عليها أدبه وأوصلته إلى ميدان الإنسانية الواسع . قلت جمعنا بالأستاذ الطيب سفيرنا في الرياض بمنزله العامر قبل أشهر وحين قدمني له السيد السفير قال الأستاذ : صاحب الكتاب ؟ ومع أن نسخة الكتاب الأولى ضلت طريقها إليه بلندن ولم تصل إليه النسخة الثانية إلاّ قبل ليلة من لقائنا غير المرتقب إلاّ أنه وقف على الكتاب وأثنى عليه ويراه مدخلاً غير مسبوق وقد علق فيما علق على موضوع الدخان وذكر أن الدخان في أشعار العرب كالحارث بن حلزة وأضرابه متى ما ارتبط بالنساء فالمراد به دخاننا هذا ولولا أننا في تلك الجلسة النادرة كنا أحوج للاستماع مِنّا للحديث لذكرت له أن أستاذي دهب خيري قال على لسان صديقه إنه حين قرأ مقالة الدخان (شعر بتحسُّن ملموس) وأن أحد الشباب لقي أخي (الزين) وقال له (أنا اشتريت كتاب أخوك عشان الدخان) وأن أستاذي محمد سعيد شلّي وصفني بدهاء مغلّف حين افتتحت الكتابِ بمقالة الدخان . المهم أن الأستاذ شرّق بنا وغرّبِ في أمتع رحلة تراثية .وذكر كثيراً من موضوعات التراث التي يمكن أن يشملها موضوع الكتابِ كالرحط فأخبرته أنه من موضوعات الجزء الثاني . وكانت جلسة لا تنسى زادها جمالاً وجود نخبة من عقول السودانيين المهاجرة رد الله غربتها كالدكتور إبراهيم الخواض والدكتور آدم ومقدم الجعليين المرح زميلنا الدكتور إسماعيل خضر الذي ودعّ وفد (سوداتل) الذي حضر معنا تلك الجلسة العامرة بنكتة السعودي الذي تردّد على

شركة الهاتف مرات عديدة فلما لم تنجز مهمته قال للموظف إذا عجزتم عنها حولوني على (سوداتل) وعلى الرغم من قصد النكتة لكنها عبارة مُسْعِدة تبرز وجه سوداتل المشرق الطَّموح . وعلى كثرة المعجبين بالكتاب لم أتَلقَّ إلاَّ اعتراضين عليه الأول واجهني به صاحبه في معرض كتابٍ والآخر نُقل إليّ . أما المعترض الأول فكان من أبناء الجزيرة ممن طالت لحيته على حساب عقله ، ولا يحسب متسرع أنني أزري باللحية فهي من سنن الدين وسَمْتِ الصالحين ولكنها متى كانت غَشاً للجهل كانت ذميمة لا شك في ذلك . قال صاحبنا: أنت ذكرت في كتابك أشياء محرّمه كالمريسة !! وهل عرف أهل السودان شراباً أكثر شيوعاً من المريسة ولكن هل ينكر أحد ممن يتعاطاها حرمتها ؟ إلا مولاّنا الفكي الذي لاموه في شربها فقال لهم : كتاب الله ده هِفزناه (حفظناه) من البقرة إلى النيس (الناس) آية بقُول مريسة هرام (حرام) ما لاقانا . ولولا اختلاف الوضعين والزمانين لقلت إن الشاعر صالح عبد القادر يرحمه الله كان محقاً حين سخط على رجال الدين وانضمامهم للإنجليز وكان من مؤيدي تيار الوحدة فقال : مجارياً السَّيد الحِمْيري :

ألا يا هند قولي أو أجيزي رجال الشرع أضحوا كالمعيز
ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول الإنجليز

أما الاعتراض الآخر فقد سمعت بأن دكتورة باحثة زعلانة عليّ شديد لأنها كانت نشرت بحثاً بينت فيه أضرار الدخان وأنا ساعٍ في الحصول على ذلك البحث مع يقيني التام بأن السودانية لن تدع الدخان حتى تدع الإبل الحنين .

قهوة المتمّة*

الحمدلله الذي مَنَّ علينا بتجاوز مرحلـة (البلاقيـك مِـشَمّر لاقِيهُـو عِرْيـان) وهـي مرحلة الحرب التي قضت على الأخضر واليابس ، ونرجو أن نسير سيراً حثيثاً في اتجاه (اليَابَى الصُّلُح لا بُدْ يِنْغَلِبْ) وليس في الدنيا عاقل تمد له يد المصالحة فيردها لأن الصلح خير . وقد رأينا كيف انفرجت أسارير الدنيا لبشائر السلام التي لاحت في الأفق وهو أمـر يُـسَرُّ بـه كل من تهمه مصلحة السودان والسودانيين . لكن سيظل الناس قـسمين : قـسم يطلـق عنـان التفاؤل وآخر يستعمل الحزم ولا يستبق النتائج . وكلنا نود أن لو طويت هذه الصفحة البائـسة الكئيبة من تاريخنا حتى ندخل في عصر جديد تسود فيه روح الوطنية الصادقة الـتي هـي مفتـاح الحل لأزمة السودان . فلو خلصت النيات وصدقت المواطنة ما احتاج أبناء السودان بما لهـم مـن عقول وكفاءات لمن يدير لهم دفة الحوار تلك الإدارة التي لا تخلو من غرض مهما أحسنا الظـن ، ومع ذلك فليس من الحكمة أن نـرفض الوسـاطة فنكـون مثـل (الـساعدوه في قـبر أبـوه دسّ المحافير) . ولكننا نريد الوطنية المتجردة التي ستتبعها الديمقراطية طائعة لأن صدق المواطنة يجعلـك تحب وتكره لأخيك ما تحب وتكره لنفسك فيتساوى أبناء الوطن في الحقوق والواجبـات وتلـك هي ديمقراطية الإسلام التي لا تحتاج إلى اجتلابِ المصطلحات ولا انتهاج الميكافلّية .

أقول ذلك وأنا أقلب صفحات مسودة كتابِ (عادات سودانية) الجزء الثاني فوجدت فيه موضوعاً سميته (من عجيب الموافقات) جمعت فيه نحو ثـلاث عـشرة حادثـة وقعـت في التراث السوداني ووجدت لكل منها نظيراً ومماثلاً في التراث العربي القـديم حـذو القُـذَّة بالقُذَّة . ومن ضمن تلك الموافقات (أن يمسِّك إنسان لسانه للناس) أعني أن يقسم إنسان أن يفعل شيئاً ويلزمه ذلك القسم أمام الملأ فيسعى للوفاء به مهما كلفه الأمر . ومـن ذلـك ما نُقِل أو أُشيع عن جون قرنق وأنه أقسم أن يشرب القهوة مع بنـات المتمّـة أو أنـه يحلـم

---

* صحيفة الخرطوم ٢٨ أغسطس ٢٠٠٢م.

بذلك ويحدّث به نفسه . لكن الرجل وبعضمة لسانه نفى هذه الشائعة كما جاء في مجلة المجلة اللندنية ونقله أيضاً أخونا الأستاذ فيصل محمد صالح _ الله يمسّيه بالخير _ في (صباح خميسه) وعلى كل حال تملي علينا المرحلة الراهنة أن نعمل بالقول السّائر (المؤمن صديق) إلى أن يثبت غير ذلك لا سمح الله . وقد كنت قبل قراءة نفي هذا الخبر أشفق على زعيم الحركة من استحالة الوفاء فقد اختار معقل الجعليين وهم في قبائل السودان علم في رأسه نار في الشجاعة والنجدة وحماية الذّمار . وسليلات هؤلاء و صاحبات القهوة المشار إليهن قد شهد التاريخ على أنهن حين داهمهّن الغزاة بعد أن فني رجال القبيلة في مرحلة من مراحل التاريخ كُنّ يربطنّ أنفسهن جماعات ويرمين بأنفسهن في النيل مفضلات لجج البحار على العار . وما قلتُ البحار جرياً وراء السجع ولكنني أستند إلى الاستخدام الشائع عندنا في تسمية النيل بالبحر ويشجعني على ذلك قول البحتري :

وما كان مالي غير حَسْوة طائر　　　أضيف إلى بحرٍ بمصر عميق

وهو يعني نيل مصر وهو نيلنا ، ولو كان أراد أن يقول (نيل) مكان (بحر) لقالها دون أن يُخلّ بوزن أو معنى . المهم أن مصدر إشفاقي على الرجل أن الغازي وقتها لن يجد من يشرب معه القهوة لأن العرائس قد وهبن النيل أنفسهن فداء للشرف والعرض .

هذا وقد قرأنا في التراث العربي عمّن أقسم أن تدوس رجله أرض بني فلان وأن يضع قدمه على رأس زعيمهم . ولكن أهل الخير مصحوبون بالتوفيق والحكمة دائماً .فقد أصلحوا بين الفئتين وجلبوا لصاحب القسم تراباً من تلك الأرض وجُزّة من شعر ذلك الزعيم فداس عليهما المُقْسِمُ وانتهى الأمر . ولا تستغرب هذه الحنكة والحكمة ولا ذلك الإلهام ففي تراثنا السوداني نظائر فقد أقسم أحدهم في ساعة غضب أن يدخل في بيته كل ما خلق الله فوقع وأوقع من معه في الحيرة فما كان من أحد المشايخ إلاّ أن قال لهم : بسيطة ، أدخلوا مصحفاً في بيته وضعوه على سريره فإن الله تعالى يقول (ما فرطنا في الكتاب من

شيءٍ) . وليس الأمر عويصاً فيما نحن بصدده ونرجو أن يشرب جون قرنق – إذا كان قال ذلك – القهوة في المتمّة مواطناً سودانياً وضيفاً على شركائه في المواطنة هناك.

وليس هذا الأمر جديداً في التراث السوداني عموماً ولا جديداً على الجعليين خصوصاً فقد ذكر ثقاة الرواة أن ود أبِ سن زعيم الشكرية كان على خلاف مع السعداب رهط الملك نمر وحلف ألاّ يَشُقّ السعداب البطانة بل حلف أن يدخل شندي ويرد مشرع دنقر فقال شاعر الأربابِ سعد :

يالأرباب سعد ليش الرقاد والنوم	وإن طار الحديث اتعتّى داك الكوم
ود أب سن بقول برد دنقر ويشوف العوم	إجوك من فريق بَطْحَا وعيال التوم

فأخذ الفحل عمّ الملك نمر إبل الملك وشقّ بها البطانة وكتب لود أب سن :

نحن جينا إنت وينك	وفوتي ها البتشوفو عينك
حِلْ طلاقَك ووفّ دينك	إبلي رَتَعَنْ في دعينَك

قال الراوي :

فما كان من ود أب سن إلاّ أن نزل مشرع شندي وشاف العوم وحلّ طلاقه وكادت تقع الحربِ بين السعداب والشكرية لولا أن توسّط أهل الله ورفعوا البلية التي كانت ستُفني القبيلتين لأن الهزيمة غير منظورة من أحد الفريقين قطعاً .

وقد يفي بعض الحالفين بما حلف به رغم الهزيمة ، فقد ذكر الراوي أيضاً أن الشكرية والركابية كانوا متجاورين في البطانة وكان زعيم الشكرية عوض الكريم (أبو علي) وله من الأبناء علي وحسان ورانفي ومحمد فقتل الركابية محمد ود أبو علي بسبب ناقة وهذا يذكرك بحربِ البسوس وهي الناقة التي أوقدت نار الحرب بين قبائل العربِ في الجاهلية .وبعد مدة وجيزة قتل الشكرية أحد الركابية في ثأر ولدهم وابن زعيمهم فقامت قيامة القبائل وتوسّط الشيخ محمد الهميم ود عبد الصادق فقال للركابية قتيلكم قتل بثأر ود أب علي وهو رجل في رجل فلا تعملوا لكم فتنة تحيط بأولكم وآخركم فغضبوا منه وأسمعوه

كلاماً جارحاً ورفضوا الصُّلح وتوجهوا لملك سنار فأرسل معهم قوة عظيمة بقيادة خميس شيخ فور وهو فارس مشهور وتخاصم الركابية وجيش سنار في (عنيبة الموز) زوجة حسان ود أب علي وأيهم يأخذها وكانت فائقة الجمال فأقسم كرنك أب دوف وهو أحد فرسان الركابية ألا ينام أحد غيره على سريرها ، فقالوا له أجعل لها صداقاً فقال صداقها إبلها الدُّبس . وهي الإبل ذوات اللون الأحمر المشرب بسواد . جعل صداقها من مالها يعني (من دِقْنُو وفَتِّلُو) ودارت بين الفريقين حرب ضروس عرفت بحرب (الروَّقت) يعني كانت الركائب كثيرة في تلك الحرب تسير في ريقان أي صفوف . ولما اشتد القتال وكادت الدائرة تدور على الركابية وأعوانهم رأى كرنك صاحب القسم أن الهزيمة في طريقها إليهم وإن لم يبر بقسمه فسيخرج من أرض المعركة بهزيمتين، فتوجه من فوره نحو منزل حسان ود أب علي فلما رأى حسان غريمه كرنك متجهاً نحو منزله هجم عليه وقطع رجله من أصلها فسقط كرنك مغشياً عليه ، فلما أفاق تناول رجله المقطوعة ورمى بها في سرير (عنيبة الموز) ليبرّ بقسمه ثم مات.

هذه بطولات نادرة مات أصحابها في غير شيءٍ كما قال الراوي ، ومن هنا تتجلى قيمة استقراء التاريخ لأخذ العبر فإن دماء أولئك الأبطال ما تزال تجري في عروق أحفادهم ومن الخير لأهل السودان ألاّ يجعلوا بأسهم بينهم وأن يوجهوا هذه البطولات لعدوّ خارجي . فاسألوا الله وألحوا في هذه الأيام أن يجمع شمل السودانيين وأن يوحّد كلمتهم لوئام ينهض بجسد هذه الأمة المكلومة .

فاكس:

أستاذنا الدكتور إبراهيم دقش مع الود والتقدير :

بعيداً عن أسلوب (يضيّقها وغيره كان أشطر) أحيلك على مفكرة الثلاثاء ٨/١٣. إذا جمعت أعداد (الخرطوم) للأسابيع الماضية ودققت فيها تبيّن لك ما قلت وما قيل لك . ولا عدمناك .أما عم عيسى المصحح فجهده مقدر والكمال لله وله العتبى حتى يرضى وأُذكر نفسي وأذكره بقول الحسن : رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي وفي رواية : أهدى إلينا مساوينا

. ولفائدة القراء قال الدكتور : (الفطام للرضيع لا للصبي) قلت : الله تعالى يقول : (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) . ونظر أعرابي إلى إمرأة حسناء اسمها الذلفاء تحمل صبياً يبكي وكلما بكى قبّلته فأنشأ يقول :

يا ليتني كنتُ صَبياً مُرْضَعَا تحمِلُني الذَّلْفَاءُ حَولاً أكْتَعَا

إذا بكيتُ قبّلتني أربعا فلا أزالُ الدَّهرَ أبكي أجْمَعَا

قال ابن منظور : الصبي من لدن يولد إلى أن يفطم " لسان العرب / صبا " . ثم إن البيت الوارد في آخر محطة في هوامش الأحد ٨/١١ يقرأ هكذا :

ولي كَبِدٌ مَقْرُوحةٌ من يَبيعُني بها كَبِداً ليستْ بذاتِ قُرُوحِ .

والبيت من البحر الطويل الثالث ، ولا علمناكم .

قَلْب أم قلب*

كنا نرى أهلنا يبكون شوقاً إلى أرض الحجاز ويتحرقون لهفة إلى رؤية بيت الله العتيق والكعبة المشرفة وتنفطر أكبادهم بالأماني ويقتلهم حب البرعي اليماني لزيارة المصطفى ﷺ.ولكنا ما كنا نظن أننا سنحيا إلى زمن يبكي فيه الناس شوقاً إلى رؤية السودان ويحنون إليه وهم بأرض الحجاز أليس هذا هو (قلب أم قلب الأرنب سكّت الكلب).

إنه حال كثير من المغتربين الذين حال بحر المالح بينهم وبين العودة إلى الوطن والحديث هنا عن شريحة لا يستهان بها من المغتربين الذين باعوا النفس والنفيس ورهنوا الغالي والرخيص للوصول إلى أرض الغربة يحدوهم الوهم إلى البيت الفخم والرصيد الضخم والزوجة الوضيئة المطيعة والزاملة الوطيئة السريعة ثم ارتطموا بالصخر وتلاطمت بهم أمواج البحر فلا طالوا بلح الشام ولا عنب اليمن. هذا واقع يكتوي به كثير من المغتربين ولكن أهلنا في السودان لو تحول شعر رؤوسهم إلى آذان فإنهم لن يصدقوا ذلك خصوصاً أصحاب الحاجات وجباة الضرائب والزكوات. ولئن قالوا (صاحب الحاجة أَرْعَن) فما أظن جهاز المغتربين كذلك. كنا نأسى ونحزن حين يودعنا مسافر من السودان متجه إلى غيره وأصبحنا نأسى حين يودعنا زميل في الغربة عائد إلى أرض الوطن، كان الناس يهنئ بعضهم بعضاً بعودة الغائب إلى وطنه فأصبحت العودة إلى الوطن أمراً مفزعاً كحال المغتربة التي أقسمت لصاحبتها بكل عظيم أنها لم تسمع بوفاة والدها فلما لم تصدقها قالت لها (إن شاء الله يا يُمَّةْ كان سمعت بخبر أبوك ده يبقى لي بخروج نهائي) وقالوا إنها صدقتها.

قدمت هذه المقدمة الكئيبة لأن كل ما احتوته ينطبق عليَّ وعلى أمة من الناس ممن أعرف ومن لا أعرف لكن (الما عارف يقول عدس) وستر الله سابل وغطاؤه شامل. ولأنني حين خرجت إلى الحياة وجدت أبي يرحمه الله قد جاوز السبعين عاماً وهو على أعتابِ

* صحيفة الخرطوم٥ أكتوبر ٢٠٠٤م.

الثمانين ثم أكرمني الله بصحبته نحو أربعين عاماً، فنشأت محباً لكل كبير أجلّ صاحب الشيبة ولو كان أعيا من باقل وأخرق من حمامة أو أحمق من (أبو الدقيق) أو أسفه من أبي نـواس. أما إذا جمع ذلك الكبير مع السنّ علماً وأدباً وأخلاقاً وتجربة فهذا مالا أقوى علـى مفارقتـه متأثراً بالمثل الشايع "الشدر الكبار فيه الصمغ" لذلك كانت أبقى صداقاتي وأعودها عليّ بالنفع ما كانت مع هذا الضرب النفيس من البشر ولا أنسى جماعة مـن المـوجهين بـوزارة المعارف وهم الأساتذة المـشايخ مـأمون تمـيم، والجيلانـي أحمـد يوسـف والأمـين نورالـدين الجزولي وعبدالجليل وصالح جمعني بهم قطار التعاقد إلى هذا البلـد المـضياف وأنـا حـديث التخرج في الجامعة ولم تمض أيام حتى جمعنا قطار الحج إلى بيت الله العتيق ومنذ ذلك الوقت لم أصحب خيراً مـنهم حتـى تركـت المعـارف إلى الجامعـة ثـم داهمـتهم الـسن القانونيـة والسعودة فأعادتهم سالمين إلى ديارهم فخلفوني وراءهم كاليتيم أكافح الغربة وحدي. وإن لم أنج من رشاش محبتهم فقد قال أحدهم لزوجته: إبراهيم ده زميل فلان ابن أختـك، ولكنهـا لكثرة ما رأتني مع هؤلاء المشايخ وسمعت بسيرتي عندهم ظنت أنني (دُفْعتهم) فـردت علـى زوجها مستنكرة: إبراهيم الجابو شنو يا يابا لي عمر ود أختي. ود أختي جاهل وصغيّر. وابـن أختها دفعتي في الثانوي فصلنا واحد ودفعتي في الجامعة وغرفتنا واحدة.

ثم جمعتني ظروف العمل بالجامعة بشيخين جليلين وعالمين نادرين كنت ألقى أحـدهما كثيراً ولكن لغلبة روح المرح والدعابة عليه شغلني عن اكتشاف الجانب الثمين فيه والـذي لم أقف عليه إلا حين حمّ المقدور ووقع المحذور. أما الآخر فكنت ألقاه لماماً ولكن حين ألقـاه أتزود منه بزاد السنين ثم فوجئت بعودته محفوفاً بتوفيق الله إلى أرض الوطن.

وما ندمت على شيء ما ندمت على فراقهما، لا لحلاوة المعـشر ولا لكـرم الطبـاع ولا لأصالة المعدن فحسب بل لأن كليهما كان ضليعاً وضالعاً في أمر أنا أحوج الناس إليـه. أمـا الأول وهو البروفيسر سر الختم الحسن عمر أستاذ القراءات القرآنية بجامعـة الملـك سـعود بالرياض الذي كان متخصصاً في علم أخذته أنا نظرياً وأتقنه هو شفاهة وتلقيناً وما علمت

بتخصصه في ذلك إلا قبل سفره بأسابيع ولو كنت علمت ذلك لما فاتني شرف التلمذة عليه والتخرج به. وقد يقول بعض القراء (ده ما عنده شغله) وليس هذا شأن أمثال هؤلاء وليس أمثال هؤلاء من يثمنون جهد عالم كالشريف محمد الأمين الهندي رحل من وسط الجزيرة إلى الأزهر على حمار أكرمكم الله. ولو كانوا ممن يقدر هذا لعلموا مقدار أسفي على ما فاتني من علم ومعرفة على يدي هذا الشيخ الذي أغبطه على ما هو فيه الآن من الاستقرار في الوطن بعدما ألقى عصاه واستقر به النوى فهو -حفظه الله- المسافر الذي قرت عينه بالإياب. وحين سألت عنه آخر من أتوقع أخباره عنده أخبرني أنه اتصل به فقيل له (نايم في الضُّل والسرير ملايتو تهبهب) فقلت هنيئاً له وربنا يوعدنا وقدله يا مولاي حافي حالق. ثم هاتفته ولم أوفق فتركت له رسالة على هاتفه النقّال. ومن حسنات الغربة القليلة أنه لو بقي في (ود الفضل شرق رفاعة) وبقيت في قنب جنوب مدني لما وصل إلينا الجوال أو النقال إلا بعد أجيال فله مني عبر آلاف الأميال وجد الواله ومحبة الابن البار وأطيب المنى.

أما العالم الجليل الآخر فهو البروفيسر حسن أبو عايشة أستاذ أمراض الكلى بكلية الطب جامعة الملك سعود الذي لم أر أُبوة ولا أخوة ولا دماثة ولا مروّة كما رأيت عنده ومع أن هذا من أكبر أسباب أسفي على فراقه إلا أنني أسفت على شيء آخر افتقدته بسفره لن يتصوره القراء وهو أن هذا العالم العلم الشهير الجديد بكل حب وتقدير يخلع (الأبرول) الأبيض ويجلس تلميذاً أمام أحد مشايخ الشام المشهود لهم بالعلم و الفضل يدرس النحو واللغة والأدبِ نعم يدرس الألفيات والمتون والنصوص بل ألف بعد ذلك مختارات أدبية تضاهي مختارات السلف تقع في نحو خمسمائة وخمسين صفحة سماها (دليل المتمثل وروضة المتأمل) وسأعرض لاحقاً إن شاء الله بعض روائعها على قراء الخرطوم. وموضع أسفي أن هذه الحلقة التي هي من صميم تخصصي وأبعد ما تكون من صميم تخصص أبي عايشة كانت تعقد منذ ثماني عشرة سنة (١٤٠٧ – ١٤٢٤) وأنا طيلة هذه المدة أطوف في الحي الذي تقام فيه، ومكتب البروفيسر الصباغ شيخ هذه الحلقة على بعد خمسة أمتار من مكتبي في

الجامعة. وما علمت بأمر هذه الحلقة إلا من كتابِ البروفيسر أبي عايشة الذي ذكرته آنفاً وقد ترك لي قبل سفره نسخة منه عليها توقيعه. فهنيئاً لجامعة الرباط بالسودان التي احتضنته مديراً لها وما أحسب أن الزمان يجود بنظير لأبي عايشة في علو الهمة والتواضع وحسن الخلق والضلاعة في العلم وما أصدق من قال:

يلومُونَني في سالمٍ وألُومُهُم وجِلْدَةُ بينَ العينِ والأَنْفِ سالمُ

فهل يلام أحد مثلي في حب كبار القدر الذين لا يمنعهم صغر قدر أمثالي من أن يقبلوا صداقتهم.

وامتداداً لحديث (الشدر الكبار فيهو الصمغ) ومواصلة لحب كبار القدر فإن الدكتور الرقيق محمد المعتصم عبدالباقي وإخوته الأبرار أمتعونا بدعوة كريمة جمعتنا أمسية الجمعة الماضية بأحد رواد العلم في السودان والدهم أستاذ الأجيال الشيخ عبدالباقي محمد عبدالباقي الذي هيأت له الأقدار ثم كفاءته المشهودة بأن يتسلم نظارة أعرق مدارس السودان وهي حنتوب وخورطقت ووادي سيدنا والخرطوم القديمة وغيرها من المناصب التي أتاحت له أن تتخرج به وتتلمذ له شخصيات كانت لها بصماتها الجلية الجليلة في الحياة السودانية. جمعونا في حفل بهيج كان حفلاً للكبار أدار بعض فقراته الصغار من أحفاد الشيخ فأبدعوا في استدراج المدعوين للحديث والمشاركة بأسلوب ظننته في بدايته أسئلة تقليدية ينتظرون الإجابة عليها ثم فهمت بِأَخَرَة أنها دعوة ذكية للمشاركة في الحديث والدردشة فتحدث لفيف من الأساتذة ختموا بالأخ السفير عثمان الدرديري وتحدث قبله الدكتور عبدالحميد قرناص الذي يبدو أنه هجر مهنة الصيدلة أو تنازل عنها لشقيقه الدكتور عبدالرءوف قرناص وتحول هو بقدرة قادر إلى اختصاصي في أشجار غابات السافنا وعلى رأسها أشجار الطلح. بل طمع في الخلافة حين تجاوز ذلك إلى تخصص آخر هو الفصحى والعامية وأصول القبائل في السودان. ثم ختمت تلك الجلسة النادرة بكلمة المحتفى به الوالد الشيخ عبدالباقي محمد عبدالباقي بارك الله في أيامه وأنا من هذه الصفحة أناشده باسم الأجيال ألا يحرمنا من ذكرياته وخبرته وتجاربه كما أناشد الشيخين البروفيسر

أبو عايشة والبروفيسر سرالختم وأضرابهم من الشخصيات ذات التاريخ الغني مثل أستاذنا البروفيسر محمد عثمان مالك نائب مدير جامعة الخرطوم الأسبق وقد كان ضمن الحضور في دعوة آل عبدالباقي فليتهم جميعاً يسجلون صفحات تاريخ حياتهم الناصعة لتكون نبراساً للأجيال وإن صعبت عليهم الكتابة فإنا نضرع إليهم بأن يلجأوا للتسجيل الصوتي وسنكون جميعاً رهن إشارتهم لتفريغ نفائسهم وتبويبها وإخراجها في كتب تكون رصيداً للأجيال ورافداً للمكتبة السودانية كما فعل شيخهم رائد التعليم الأستاذ بابكر بدري عليه رحمة الله الذي سطر سفراً نادراً غنياً ممتعاً هو أنموذج للسيرة الذاتية لا يشبع منه المطالع. ونهيب بأبنائهم البررة وأعوانهم المخلصين أن يعينوهم على ذلك فيجمعوا بين الحسنيين البر بآبائهم والبر بأبناء الوطن حفظهم الله جميعاً وأثابهم عن أمتهم كل خير.

قصيدتان من تحت البطانية*

البروفيسر عزالدين عمرموسى أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الملك سعود ورائد الملتقى الثقافي بالرياض وأحد أبرز الآباء الروحيين للجالية السودانية شيبها وشبابها ، ما أردت بهذا تعريفه فهو علم في رأسه نار ولا أردت كيل الثناء له ولكن السُّنة والأثر يوصيان بإنزال الناس منازلهم . هذا الرجل العالم رصّع صدر توتي وشمبات والسودان والرياض وجامعات المملكة بوسام من طراز عزيز نادر بنيله جائزة الملك فيصل العالمية في التاريخ الإسلامي . تنامت إلينا البشرى بهذا الحدث الفريد ونحن نتأهب لعمرة العشر الأواخر من رمضان ، فتركنا كل شيء لحين العودة من العمرة بعون الله ولكن عدنا ومعنا (النزلة الآسيوية) وقاكم الله شرها . وهي توأم الملاريا بلا جدال ، يعرف ذلك كل من جرّبها ، إذ يتقلّب صاحبها بين رجفة البرد (أم هلاّ هلا _ بتفخيم اللام) ونار الحمّى وأطياف الهلوسة وأنهار العَرَق ، وألزمتني الدار فاتصلت بالبروفيسر وهنأته عبر الهاتف من تحت البطانية ولم أتمكن من الوصول إلى داره العامرة مع أن داره من داري (فركة لسِّتِك أو كفر – على وزن فركة قدم) فبعثت إليه من تحت البطانية نيابة عني الأبيات التي طالعتموها في هذه الصحيفة الأسبوع الماضي والأبيات على تواضعها – وصفت بالحرارة ولعلّها قد نالها من حرارة الحمّى شيء ولا تستغربوا فالمرض مما يرقق المشاعر ، وكان سيدنا أبوهريرة رضي الله عنه يحب الحمّى لأنها تمحّص الذنوب وكان يقول : المرض لا يدخله رياء ولا سمعة .فنرجو أن يَخْلُص لله ما قلناه في حق البروف وأن يدخل في هذا الباب .

وبعض الناس يحسبون كتابة الشعر عبارة عن ورقة وقلم وجلسة قصيرة ولكن الشعر الذي يكون وليد مثل تلك العجالة يكون الحكم عليه سهلاً كحال أحدهم وقد عرض عليه بعض المتشاعرين شعراً ضعيفاً فقال له : يا بنيّ لو عُرض كلامك هذا على عنز لأبته . وقال آخر : يا بنيّ وَارِ كَلاَمَكَ هذا كما تواري الهِرّة خُرْءَهَا . وزار الأصمعي الكوفة –

* صحيفة الخرطوم ١١ يناير ٢٠٠٣م.

وهو من أهل البصرة – فعرض عليه بعضهم شعراً ركيكاً فبكى وقال : لو كنت في البصرة لما تجرأ عليّ أمثال هذا .

والشعر يواتي في بعض الساعات بلا استدعاء أو مطالبة ويستعصي في ساعات أخرى رغم المطالبة حتى يكون الشاعر كالنلحت في الصخر فيمضي عليه الوقت الطويل وقلع ضرس أهون عليه من وضع كلمة في قافية كما قال الفرزدق . ويسمون حالة الاستعصاء هذه بالإجبال (الانقطاع) كما قالت بنت حسان رضي الله عنه لأبيها : أأجبلت يا أبه ؟ قال نعم فأكملت له البيت وكانوا أهل بيت شعراء . والشاعر في هذه الحالة يغلي ويتقطع فالذي يواتيه لا يعجبه والذي يعجبه لا يواتي . وهي ساعات يطرح فيها المطبوع من الشعراء القلم إلى حين . وأذكر أنني انفعلت غاية الانفعال بفوز البروفيسر عبدالله الطيب – رفعه الله – بهذه الجائزة نفسها ، رغم أنها جاءته بعد أوانها بكثير . فشرعت أتلقى ما يهبط عليّ من أبيات في تهنئته ومضيت في القصيدة إلى نحو عشرين بيتاً ارتضيتها _ إذ ليس كل ما يواتي من النظم يُرْتَضَىَ – ثم حصلت وعكته الصحية التي صدمت الدنيا ومن وقتها أعياني أن أضيف إليها ولو بيتاً واحداً لتبدُّل نشوة الفرح بمسحة الحزن والأسى . وكذلك أجبلت في رثاء والدي – عليه رحمة الله – أشهراً عديدة ثم فتح عليّ بعد ذلك .

وتعتري الشعراء أحوال عجيبة وأطوار غريبة ساعة الإلهام ، فأمير الشعراء أحمد شوقي قيل كان يتمدَّد وبطنه إلى الأرض جاعلاً من حنكه مقعداً لرأسه وعيناه شاخصتان في مستوى الأفق وهكذا يأتيه الشعر . وكان المتنبي يشعل شمعة ثم يأخذ يتجول في الدار جيئة وذهاباً حتى يفرغ من أبياته . وبعض الشعراء يرتاد أماكن الخضرة والمياه . وكان عمنا الشاعر إبراهيم الفكي صالح (الدناقلة شرق مدني) يبكي فتجحظ عيونه فتبتل الأوراق بدموعه ساعة النظم ؛ حكى لي ذلك صديقه ورفيقه وراويته عمنا الراوية الحصيف والمادح الظريف الشيخ محمد صالح عبدالجبار – عليه رحمة الله – وهو كنز في التراث عاجلته المنية على حين غفلة منّا . وليست هذه الأحوال وقفاً على الشعراء فهذا حال المبدعين في فنون

أخرى فقد روي عن بتهوفن أنه ألف مقطوعاته الموسيقية الخالدة في العراء تحت قصف الرعد ودوي الريح ولمع البروق .

ويزعم بعض الشعراء أن لهم جناً وشياطين يفيضون عليهم الشعر ويلهمونهم؛ فشيطان المخبل السعدي اسمه (عمرو) وشيطان عبيد بن الأبرص اسمه (هبيد) وسمى الفرزدق شيطانه (الهُجَيْم) واشتهر منهم (مِسحل) جني الأعشى وتابعه الذي قال فيه :

دعوتُ خليلي مِسْحَلاً ودَعَوا له　　　جِهنّامَ جَدْعاً للهَجِينِ المُذَمّمِ

والناس ينسبون كل صنع بديع وكل كلام معجب للجن حتى قال المعري :

وقد كان أربابُ الصِّناعات كُلَّما　　　رَأَوا حَسَناً عَدُّوهُ من صِنعْةِ الجِنّ

بل جعلوا جنهم وشياطينهم ذكوراً وإناثاً قال أحدهم :

إني وكلُّ شاعرٍ من البَشَر　　　شيطانُه أُنثى وشيطاني ذَكَر

أمّا محدِّثكم – إن جاز له أن يحشر نفسه بين القوم – أعني الشعراء – فصاحبي مشاكس معاكس مزعج لا يأتيني إلاّ في الظلام الدامس وإلاّ حين أضَع رأسي على الوسادة . وكثيراً ما أحتاط بما أكتب عليه فلا يأتيني إلاّ يوم لا أحتاط له ، ولعلّ لصاحبي نسباً في حِيْتَان أهل أيلة (إذْ تَأْتِيهم حِيتَانُهُم يومَ سَبْتِهم شُرّعاً ، ويومَ لا يَسْبِتُون لا تَأْتِيهم) ويكلفني بذلك نهوضاً وتحركاً وكركبة ربما أيقظت بعض من حولي . ولا أنسى أواخر السبعينات (١٩٧٩) وقبل تخرجنا في الجامعة بعام حينما كنا في رحلة علمية إلى ربوع كردفان بصحبة أستاذنا البارع العالم الصارم محمد الواثق صاحب ديوان (أم درمان تُحْتَضَر) – متعه الله بالصحة – فما يزال يغذي الأجيال بإبداعاته في قاعات آداب جامعة الخرطوم وغيرها . ومعنا زميلنا الأديب الأريب والشاعر الرقيق عبدالله محمد أحمد رئيس قسم اللغة العربية حالياً وزميلنا الآن وفي ذلك الزمان الأديب المحدّث الدكتور عمر محمد أحمد الأمين وكوكبة من الزملاء وفقهم الله جميعاً . استضافنا أهل بارة الكرماء في دار قاضي البلدة فما أتاني هاتف الشعر إلاّ وغطيط (شخير) الزملاء يمزّق هدأة الليل الساجي فما أسعفني إلاّ بطارية (كشّافة)

صغيرة كنت احتفظ بها أضأتها تحت البطانية وبدأت أكتب الأبيات التي ألقيتها في ليلة أدبية بهيجة ودعنا فيها (بارة) وحفاوة أهلها أذكر منها :

بارة في الغرب كواسطة　　في عقـــد الدرّ المكـــــنون

وختمتها مطالباً الركب وقائله بأن يخلّفوني وراءهم لما وجدته من الفوائد والأنس والمتعة في ربوع كردفان الغرّاء ، فقلت في آخرها :

يا شيخ الواثق أستاذي　　من سفر الخرطوم اعفوني

فالـــدار أمانٌ وســـلامٌ　　وعطـــاءٌ ليس بِمَمْـــنُونِ

وهي طويلة جادة مازحة ، قال لي أحد الزملاء هذه القصيدة تشبه غناء الأستاذ الكابلي فلو قدمتها له ، قلت له وهل يرضى فنان كبير كالكابلي بأن يغني لطالب مثلي ؟ قال لي : جرِّب . فشفعتها بخطابِ رقيق ثم أحجمت عن تقديمها له وما تزال حتى اليوم بين أوراقي القديمة ترقد في أحضان ذلك الخطاب .

وبذلك قد أكون صاحب أوّل قصيدتين _ إن جازت التسمية – ولدتا تحت بطانيتين . فالتهنئة مرة أخرى للبروفيسر عزالدين ونرجو أن تكون القصيدة دافئة فعلاً رغم قول الراقصة السودانية (الحالة دي ما مَدَخَّنَه) والتهنئة أيضاً لصحيفة الخرطوم لأن البروف من أعمدة كُتّاب أعمدتها ، وعميد كُتّاب مقالاتها وعُمدة قرائها والمهتمين بها .

فاكسات من بلدي يا حبّوبْ*

تأثرت تأثراً بالغاً حين تسلّمت الفاكس الأول من الدبلوماسي الشاعر الأديب سيد أحمد الحاردلو وهو تحت رحمة المرض ووطأة اليأس وأكبرت فيه شكره الناس على نوايا لم تثمر بعد بكلمات رقيقات : بسم الله الرحمن الرحيم الخرطوم في ٢٥/ أغسطس ٢٠٠٣/، الأساتذة الأعزاء د. إبراهيم القرشي عثمان ، وميرغني عبدالله مالك، لكما التحية والإعزاز ، وألف شكر على اهتمامكم بأمر علاجي ، وعبركما أتمنى عليكما نقل تحياتي وشكري إلى كل الإخوة الذين تداعوا معكم من أجل استرداد عافيتي بمشيئة الله ، وأتمنى أن نلتقي في ساعة خير جميعاً في الوطن الذي تحبون. ومرة أخرى شكري على كل شيء . المخلص / سيد أحمد الحردلو ، أخوكم .

وازددت تأثراً حين تسلمت فاكسه الثاني وبخط يده أيضاً وهو ما يزال في غرفة العناية الفائقة ونصه: الدكتور القرشي، للسفير كمال داود . بسم الله الرحمن الرحيم، الدوحة في ٢٠ أبريل /٢٠٠٤م، سعادة الصديق العزيز السفير كمال أحمد داود، رئيس لجنة علاج الحردلو ، الرياض . تحياتي ، أود عبركم أن أتقدم لصاحب السمو الملكي الأمير بندر بن سلطان سفير المملكة العربية السعودية في واشنطن .. بكل ما في الكون من شكر وعرفان واحترام لوقفته النبيلة والإنسانية معي إبان مرضي، والتي ساهمت في علاجي حيث تمت عملية نقل الكلى لي- بحمدالله وتوفيقه-ويسعدني أن أنقل لسموه أنني الآن أتماثل للشفاء وسأغادر مؤسسة حمد الطبية بعد أسبوع بمشيئة الله.

* كذلك أود أن أعبر إليكم وعبركم عن عظيم شكري وامتناني إلى لجنة الحردلو وجمعيتها العمومية متمثلة في الجالية السودانية بالمملكة ، لما قدموه من دعم مادي ومعنوي ، ولمشاعرهم الشفيفة واتصالاتهم الهاتفية والتي تواصلت إلى السودان ثم إلى قطر ، وكم كنت أتمنى أن أعددهم فرداً فرداً غير أن المجال لا يسمح.

* صحيفة الخرطوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٣م.

* فلكم ولهم ولسجاياهم وما سجاياهم سوى الحُسن والإحسان والحسنى ، كل الشكر، وكل الحب، فهم حقاً سفراء السودان للجمال والحب والأصالة السودانية الصادقة.
* رعاكم ورعاهم الله- جلت قدرته – وسلمتم وسلموا . سيد أحمد الحردلو ، أخوكم.

أفلا يستحق الوفاء من هو على سرير المرض والأجهزة حوله وعلى جسده كالنبال على هدف الرماية ومع ذلك يخفق قلبه بذكر من وقفوا معه وقفة هو أهل لها فينطق لسانه بالشكر وتنطلق يده بتسطيره. ليس ذلك بغريب على الحاردلو الشاعر، فالشعراء أبصر بمواطن الوفاء من الهدهد بمواقع الماء. وهو يعلم أن الأثر يقول من لا يشكر الناس لا يشكر الله وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه. وقديماً قال صاحبه :

فلو كان يَستغني عن الشُّكْرِ ماجدٌ لكثرةِ مالٍ أو علوٍّ مَكَانِ
لما نَدَبَ الله العبادَ لشُكْرِهِ وقال اشكرُوا لي أيُّها الثَّقَلانِ

أما شكرك أيها العزيز للدبلوماسي الأمير بندر بن سلطان سفير المملكة بواشنطن فماذا نحن السودانيين خاصة قائلون لآل سعود وفيهم بندر بن سلطان ؟ وكيف لنا أن نوفيهم معشار العشر مما أسدوه لنا؟ قال المشير سوار الدهب: حين تسلّمتُ السلطة اجتمعت بوكلاء الوزارات للاطلاع على ما تحت أيديهم من موارد لتسيير أمور البلاد فما كان فيهم أحد أسمعني كلمة مطمئنة أبداً فلا بد والحالة هذه أن تظلم الدنيا في عينيه. قال فما كان إلا أن دخل عليّ السفير السعودي يقريني سلام خادم الحرمين ويقول له نحن رهن إشارتك أرسل طلباتك. والله هذه ولا في الأحلام ولا خاتم سليمان ولا شبيك لبيك وما أراها إلاّ ليلة القدر. قال فأرسلوا طائرة لوفد الوكلاء المفوضين بشرح الحالة الاقتصادية وحين تأخر وصول الوفد انتظرهم جلالة الملك واستقبلهم في غير الوقت المخصص لاستقبالات مقامه السامي، ثم أعطاهم حتى أرضاهم. والمشير سوار الدهب يرى هذه مِنّة في عنقه للملك فهد والحق أنها منة في أعناق السودانيين قاطبة. ولم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة ما دامت الروابط الأزلية هي هي . وهذا دأب آل البيت السعودي كلهم ودأب

الشعب السعودي.أما آل الأمير سلطان بن عبدالعزيز ومنهم الأمير بندر بن سلطان فحدث ولا حرج . ولئن كان بندر هو السباق إلى دعم علاج الحاردلو فإنه السبق ابن السبق وسلالة السباقين إلى كل خير. ومن الظلم والهضم أن أتحدث عن مآثر آل سعود وسلطان وآل سلطان في مساحة كهذه. أأ تحدث عن الجمعيات الخيرية أم عن المستشفيات والمدارس والمراكز العلمية والموسوعات أم عن الهبات والمبرات أم عن المواقف والكلمات الخالدات ذلك ما يحتاج إلى أسفار وموسوعات. ولكني أسوق هنا مشهداً رأيته بأم عيني يريك أن الكرم في هذه الأسرة فطرة وجبلة ، فقبل عشرين عاماً وفي حفل بالقاعدة العسكرية بالخرج جنوب الرياض وقف صبي دون الثانية عشرة من العمر ينشد شعراً يمجد فيه آل سعود فوالله لقد رأيت الأمير سلطان يهتز كاهتزاز الصارم الذكر والتفت يمنة ويسرة وأدخل يديه في جيوبه ولما لم يعثر على ما أراد نزع ساعته من معصمه وأحاط بها معصم ذلك الصبي ولن يكون ذلك آخر نفحاته. هذا أبو بندر والشبل من الأسد. وأولئك أهل بيت تقوم نساؤه بجلائل أعمال تنوء بها الفحول فكيف برجاله؟ ولهذا حديث آخر إن شاء الله.

أما إخوانك في اللجنة القومية ومن تداعى معهم من الجالية السودانية بالسعودية ، ولا يقل عنهم إخوانك من الجالية القطرية ومن جاورها فتكفيهم عافيتك وعودتك سالماً بإذن الله لتشارك في نقش لوحات حب الوطن الكبير فكلّ لوحة منها لا تحمل توقيعك ستبقى في انتظار ذلك التوقيع. وأما أهلك في السودان فما قصروا ولن يقصروا ولئن حبسهم حابس العين بصيرة واليد قصيرة فلقد حملوك في حدقات العيون حباً كبيراً واستودعوك قلوبهم وخالص دعواتهم. وإن كان لا بد من كلمة تحرك كوامن أصدقائي اللدودين وبني جلدتي الغيورين فقد آليت على نفسي أن أكون سودانياً فوق الجغرافيا والأعراق والسياسة وقديماً كان شيخنا الشريف يوسف الهندي معروفاً بالشجاعة النادرة ورغم عدائه السافر للإنجليز كان يدعو لهم بالهداية في مدائحه النبوية قائلاً:

يا سيدي الرسول حكّامْنا ديل عادلين   أهـديهُم إلى الإســـــلام في يومـــــين

أما نحن فحكامنا ديل مسلمين أصلاً والحمدلله ولا أراني محابياً إذا قلت إن دولتهم خير من غيرها إذا ما أنصفت وهذا بيت القصيد ومربط الفرس ومع أن الحكمة تقول الكامل من عدت سقطاته فإن أكثر العاتبين عليهم يرددون قول الشاعر:

وإذا تكونُ كَرِيهةٌ أُدْعَى لهَا   وإذا يُحَاسُ الحَيْسُ يُدْعَي جُنْدُبُ

وإن أكثر الحادبين عليهم يريدون لهم أنصاراً كسالف الأنصار يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع. وهذه القلة هي العلة لأنها من طبع البشر فإن عملوا على تقليصها فذلكم الفلاح ومثلما شرعت الدولة في تكريم المبدعين دون تمييز فإنا نطمح إلى أن تتولى علاج المرضى والأعلام خاصة دون تمييز من بابِ الوفاء لأهل العطاء بعيداً عن قاعدة (الولاءات لا الكفاءات) فإذا كانت مؤسسة عربية تكفّلت بعلاج سوداني خبير مصاب بالسرطان ولو كلفها ذلك الملايين أفتراه أدخل لهم بخبرته تلك الملايين أم أنه الوفاء من بعض الأوفياء في هذه المؤسسة. نحن بحاجة إلى السمو فوق الصَّغائر وغسل الضغائن بماء الوطنية الزلال. فإن أسلافنا كانوا يقولون(إذا أنت أكرمت الكريم ملكته) وتراثنا السوداني الأصيل يقول (الحسنة مَعَطَتْ شارب الأسد) وقد كان يحيى الفضلي (والعهدة في هذه الرواية على أخي الأستاذ الأديب أزهري بخيت) كان لا يخفي خلافه مع السيد علي الميرغني وكان الأزهري يخفف حدة ذلك بالحكمة وحين تصافى الفرقاء عليهم الرحمة جميعاً نادى السيد علي على الفضلي قائلاً: إنت بالذات بتقابلنا بياتو وجه يا يحيى؟ فرد يحيى على الفور: يا مولانا الزول لو كفر عديل والله هداه وتاب واستغفر ما بتقبلوه. فقال صاحب القلب الكبير ضاحكاً : والله نقبلوا ونبوس راسو كمان. متى نكون كباراً كما كان كبارنا. إننا إذا لم نسع الناس بالأموال والجاه وسعناهم بالودّ فليكن التقاط زمام المبادرة في الشدائد رائد وطنيتنا. وهذا لا يمنع أن يكون لإخواننا المغتربين مساهمتهم الثابتة بآلية معلومة تعين في مثل هذه الظروف وتدعم جهد الدولة، فإن الدول مهما كانت غنية فإنها لا تستغني عن الجهد الشّعبي و(الحصاية بِتَسْنِد الزِّير) إضافة إلى ما في ذلك من استشعار روح التكافل بين

الدولة والمواطن. ولا يفوتني هنا أن أشيد كل الإشادة وأثمن تثميناً عالياً روح الجماعة ورابطة التكافل وآصرة التعاون ووشيجة التواصل التي ألمسها شخصياً في أهل شمالنا الحبيب خاصة فقد أرتنا الغربة أن السوداني أينما كان هو أخو السوداني أينما وجد لا ينظر إليه إلاّ بمنظار السودانية المطلقة وهذه أصالة فينا يشهد بها الغريب قبل القريب ولكن تحت هذه المظلة الوارفة يتميز أهل شمال السودان خاصة بتكافل منقطع النظير، منظم ومدروس ومثمر يظهر في جمعياتهم التي يراها المنتسب إليها بيته الثاني وناديه الأثير ووطنه الصغير. ولا نعدم أمثلة من ذلك عند أبناء بقية أقاليم السودان ولكنها ليست بالمستوى المتميز المطرد الذي ظهرت آثاره عند الشماليين خاصة إنجازات باهرة في الوطن وتكافلاً رائعاً خارجه. ومع أن أهلي في الجزيرة هم مضرب المثل في التكاتف والتكافل بالداخل حتى أصبح إقليمهم البوتقة التي انصهرت فيها كل أقاليم السودان دون تمييز إلاّ أن مهاجريهم لم يحملوا معهم روح الجماعة إلى الخارج وأرجو أن أكون مخطئاً في ذلك.

وإذا كانت للمرض يد تشكر فالشكر ليد عرفتنا برجل في حجم السفير الدكتور كمال داود يصل إلينا في بيوتنا لتوزيع رقاع الدعوة للاجتماعات مع أنه يعرف هواتفنا وفاكساتنا ولكنها الخلطة الشاطرة (السودانية + الشمالية + الدبلوماسية). ولا تقل عنه بقية الكوكبة الكريمة في اللجنة القومية الذين لا تحس وأنت بينهم إلاّ بالسودانية الخالصة والوطنية المحضة فليتها تتطور إلى لجنة ثابتة وبآلية ثابتة . وإنها لجديرة بإنجاز الكثير.

أما أنت أيها الشاعر الرهيف الشفيف العفيف – ومن عجيب المصادفة أن يسبقك في نفس الدرب الأستاذ وردي – متعكما الله بالصحة– فلعمري إن نغمة (يا بلدي يا حبوب) لتنتزعنا مما نحن فيه كانتزاع الرضيع من الثدي ثم تهدهدنا وتحلق بنا فنسبح في فضاءات الذكريات وتعود بنا إلى أيام ندفع بقية أعمارنا لو أتيح لنا أن يعود يوم واحد منها فنعيشه . ووالله ما قرأت صوفيتك المتبتلة في قصيدة الحبيب المصطفى (سيد الجميع) إلاّ اقشعرّ بدني

وتفاءلت لك بخير كثير فقد طرقت باب من يقبل الجميع . وما أعذب قولـك حـين تناجيـه صلى الله عليه وسلم قائلاً:

نأتيـــك كَــي نَرْتـــاحَ في مقامِـــك النَّبيـــل
نأتيـــك هــــل تَقْبَلُنَـــا في ظلِّـــك الظَّليـــل
يــــا ســـيدي وسَـــنَدي وحُبِّـــيَ الجميـــل
هآنـــذا أطْـــرُقُ بابَـــك المفتـــوحَ للجميـــع
هآنـــذا أجِـــيءُ خاشِـــعاً وجَـــسَدي وجيـــع
فـــأغثني يــــا مــــلاذَ الحَـــائِرين يــــا شَـــفيع
فـــإنني لـــيس لــــديَّ غَيْـــر سَـــيِّدِ الجَميـــع.

ألا ترى أن الله قد نفعك به يا سيدي. نسأله أن يتم عليك نعمته. قال لي الأخ الحبيب كمال داود هذه القصيدة تستحق أن تكون من أوراد آخر الليل وقد صدق. لقد أعطيتَ يا شـاعر البلد فَخُذْ وأَنْفَقْتَ فَحُزْ وصدقتَ فَفُزْ ولتهنئك العافية أيها الشاعر الفذ والأديب الجهبـذ وهنيئاً لشعراء السودان بعودة البلبل الغريد إلى السرب وهنيئاً للسودان بسلامة عضو من جسده قبل التهنئة لك بسلامة عضو من جسدك ومع ذلك وقبله وبعده سـلامتك وسـلامة الوطن الغالي.

عُلُوجُ الصحَّاف*

في كلمته الرائعة في قريتنا المتواضعة (قنب حاج علي) جنوب مدني قال سعادة والي ولاية الجزيرة الفريق الركن عبدالرحمن سر الختم إنه لا يريد أن يصف الأمريكان وغيرهم من غزاة العراق بما وصفهم به وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحَّاف مع أنهم أهل لتلك الصفات وأكثر فأستأذنكم في كلمة خاصة ثم أعود إلى علوج الصحاف، فقد منحتني الأقدار في غمرة تلك الأحداث المريرة زيارة خاطفة إلى أرض الوطن لتسلُّم جائزة الشهيد الزبير للإبداع والتميز العلمي مع وسام العلم والآدابِ والفنون الذهبي من السيِّد رئيس الجمهورية ، فأكد لي احتفاء الناس رسميين وشعبيين بهذه الجائزة أن (العزّ أهل) وأن الفرح في الغربة أشبه بالحزن لأنك تفرح وحدك أو مع قلة قليلة ممن يهتمون لمثل هذه الأمور . وفي مهرجان الفرح الكبير الذي أقامه أهلي الطيبون (مساء الخميس ١٠أبريل ٢٠٠٣م) كان الأمر مختلفاً تماماً فقد توافد الأهل من كل فج تحدوهم أناشيد أهل الله وأنغام المادحين وتتقدم مسيرتهم جموع السادة الأشراف والمشايخ والأحبابِ ويتوسطهم والي ولاية الجزيرة الشامخ وطاقم حكومته وأساتذة الجامعات والأطباء والمهندسون والمعلمون والمحامون ومن شئت من شرائح المجتمع . وكنت سعيداً بأن كان بين الحضور شيوخ التعليم وآباؤه الروحيون من أمثال الشيخ الأستاذ مأمون تميم والشيخ الأستاذ الجيلاني أحمد يوسف وأهله وزادني حبوراً حضور رمز الوفاء والتواضع الأستاذ أحمد البدوي المدير العام السابق لمشروع الجزيرة والرهد ووزير الزراعة بسنار مدير المشاريع المروية بوزارة الزراعة الآن والذي وصل من بورتسودان فوجد خبر الاحتفال في الخرطوم فواصل السير حتى وافانا في الوقت المحدد فأي ودّ وأي وفاء بعد هذا ؟ وقدوم هذه الحشود إلى دار والدنا الخليفة القرشي عليه رحمة الله مفخرة تضاف إلى مفاخرها فهي – ولا فخر –

* صحيفة الخرطوم ٣٠ أبريل ٢٠٠٣م.

منزل الكرام منذ القدم فقد كانت محط رحال أمير الأشراف الزعيم السوداني الشريف يوسف الهندي وظلت المنزل المعتاد لخلفائه من بعده الخليفة الشريف عبدالرحمن عليه الرحمة والرضوان والخليفة الشريف الصديق أطال الله عمره والشريف عمر والشريف عبدالرحيم رحمهما الله وبقية إخوانهم ، وهي أيضاً منزل الساسة من أبناء الشريف الهندي كان يدخلها ساعة الهجعة الشهيد المناضل الشريف حسين الهندي وشقيقه الشريف زين العابدين متعه الله بالصحة ولم تنقطع عنها نفحات بقية الأشراف الذين شرّفونا بحضور تلك الليلة . فخطب في ذلك الجمع المشهود سعادة معتمد جنوب الجزيرة الأستاذ مبارك حامد فأحسن وأتقن ثم تلاه سعادة والي الجزيرة فأبدع وأمتع وقد أعجبه الحضور الحاشد المتنوع فربط ربطاً بارعاً بين مجيء هذه الوفود وبين مجموعة القيم والمثل التي تناولها كِتَابُ الـمُحْتَفَى به ثم ربط بين الأصول العربية التي يؤصل لها الكتاب وتساءل عن العرب وأين هم الآن مما يجري في العراق فنكأ جرحاً واريته وضرب على وتر تحاشيته وقد كنت مشحوناً بالأسى لافتقادي بعض الأعزاء في تلك الليلة وأولهم والدي عليه رحمة الله الذي بشرني قبل رحيله وما بانت فحوى بشارته إلا في تلك الليلة . ومنهم أخي (حسن) عليه رحمة الله الذي افتقدته قبل عام وكنت أدخره لمثل هذا اليوم ومنهم خالي (المهدي حاج يوسف) وهو آخرهم رحيلاً وله في مثل هذه الليلة وظيفة روحية عظيمة ، فأعرضت عن كل هذا إبقاءً على رباطة جأشي وحفاظاً على ذلك الجو المفعم بالبهجة إلى أن أثاره السيِّد الوالي بذكاء القادة وفطنة الروّاد فأطار الفرحة من أفواهنا إلى حين . وتحدث حديث العارف الخبير عن جحافل ومجنزرات الصهاينة والاستعمار التي داست على هامات العربِ ومرغت أنوفهم بالترابِ . ومع ذلك فإن بعض الناس تشغلهم الصغائر عن الكبائر وتلهيهم الأعراض عن الجواهر فالصغير والكبير يسألني منذ عودتي إلى مقر عملي عن معاني كلمات الصحّاف والهاتف لم يصمت عن السؤال عن معنى العلوج والأوغاد . وسيصرفني شرحهما عن متابعة خطبة السيِّد الوالي المرتجلة التي أراها برنامج حكومة وطنية مصغرة وخطة تنمية

شاملة وفيها من البشائر والرؤى الواقعية ما لا ينقضي وسأتركها على أمل أن يأذن سيادته بنشرها وما أظن صحيفة الخرطوم إلا مرحبة بذلك لما في الكلمة من محطات أساسيات وعبر مهمات ولا أقول ذلك مجاملة لشخص الوالي (فالناس أعقل من أن يمدحوا أحداً حتى يروا عنده آثار إحسان). فهنيئاً للمؤسسة العسكرية التي تخرج أمثال الفريق عبدالرحمن الذي اكتسب من العسكرية الجد والحزم وحسن الإدارة ومن السياسة براعة الربط بين الأحداث ومن المدنية دقة التنظيم ومن الإقليمية صفاء الروح وحب الوطن وحب الخير لأبنائه ومن الرياضة سعة الأفق وخفة الروح وقبل ذلك كله اكتسب من العلم حبه وتقدير المشتغلين به فقد ذكر السيِّد معتمد جنوبِ الجزيرة أنه حين قدّم بطاقة الدعوة للسيِّد الوالي وقرأ الأسطر المتواضعة التي كتبتها له التفت بسرعة إلى مدير مكتبه وطلب منه أن يلغي كل ارتباطاته لأنه سيلبي هذه الدعوة وهذه لفتة كريمة لا تصدر إلا من حادي ركب وراعي مسيرة يجل العلم ويكرّم طلابه ويعلم أنه الخير لأبناء ولايته ووطنه .

أما علوج الصحّاف وأوغاده فالعلج هو الرجل من كُفّار العجم والعلج حمار الوحش والعلج الرجل الغليظ الشديد ذو الخشونة والقسوة . والكلمة عربية قديمة ليست من ابتداع الصحّاف . وأهل الشام والعراق منذ القدم يصفون بها جيرانهم من الأعاجم . روي أن أبا الطيب المتنبي صحب الأمير سيف الدولة في غزوة فهجمت عليهما قوة من الروم فأسرعوا راجعين لينضموا إلى جيشهم فأطلق المتنبي جواده مع الريح حتى افترّت عمامته فتعلق طرفها بشجرة فارتفع صوته وهو يزجر وينهر ويقول : فك عمامتي أيها العلج ... فك .. فضحك سيف الدولة حين لحق به وأخبره بأن الممسك به غصن شجرة وليس علجاً من العلوج فخجل المتنبي . والحقيقة (الخوف يفِكْ الجُباره) ففي إحدى قرانا الواقعة على النيل الأزرق غرق رجل ولم يُعْثَر على جثته وأشيع أنه جاور الجن في الأعماق وأنه يخرج كل ليلة ويعود إلى القرية ليقضي بعض أوطاره ، فما بقي في القرية أحد ينام خارج بيته . وذات ليلة نام أحدهم خارج بيته في الحوش (نومة مغربية) على أمل أن يدخل البيت بعد (

العِشْوية) ثم (جرّت) النومة فصحا آخر الليل مفزوعاً والقرية صامتة صمت المقابر فحمل عنقريبه بسرعة واتجه به إلى الداخل ومرّ بالراكوبة (البرندة الشعبية) فانشبكت واحدة من أرجل العنقريب بواحدة من شِعب الراكوبة فأخذ الرجل يقاوم (يناتل) ويجذب العنقريب ويقول : اللّحوي فك ... ياخي فك العنقريب ، فصحت زوجته وقالت له : هي يا يابا لحوي شنو دي شعبة الراكوبة فخجل خجلة المتنبي .

وكلمة علج معروفة عندنا وهي من الشتائم المشهورة يقولون : (يا عِلْق) بالقاف فنضع القاف مكان الجيم مثل (الحقنة الشرجية) التي حولناها إلى (شرقية) مثل (العلوق) لطعام الدابة – وهو في الفصحى (العلوج والعلوك) وقد يكون أثراً من آثار اللهجة المصرية .

أما الأوغاد فمفردهم وغد وهو الأحمق الدنيء الذليل الرَّذْل والوَغْد الذي يخدم بطعام بطنه والوغد الذي ليس له حظ من الخير .

ولئن رأى بعض الناس أن ما فعله الصحّاف حتى وصف بنجم حرب الخليج الثالثة إنما هو خداع وزيف مثل الذي فعله أحمد سعيد من إذاعة القاهرة في حرب سبعة وستين حين أسقط الطائرات ودكَّ المدرعات وحرر القدس من استديوهات القاهرة وبعد ستة أيام بكت العرب الجولان وسيناء والضفة مثلما بكت العرب بغداد الرشيد بعد أسبوعين فماذا عسى أن يفعل الصحّاف وسعيد في أمة نخر السوس عظامها وأصبح أغلى أمانيها النصر ولو كان كاذباً . ولا ندافع عن الصحّاف ولكنه عسكري أقدم المصطلحات عنده أن (الحرب خدعة) ولو كانت وراء الصحّاف أمة لعاد ما قام به بالنفع لأن رفع المعنويات أساس الحرب ولكن كان الصحّاف ينفخ في قربة مقدودة ويطرق في حديد بارد ويؤذن في مالطا .

ودعونا من الحكّام فإنهم يذهبون ويجيئون ولكن كيف تقابل الشعوب العربية شعب العراق ؟ لم يبق شعب في الدنيا أبرد دماً منّا ، أصبحنا حقل تجارب للأسلحة الجديدة المقاومة لمختلف الأحوال الجوية . ماذا بقي لنا من النخوة والرجولة والعزة والشرف و الكرامة ونحن تلاحقنا صحاةً ونياماً صورة الصبي العراقي إسماعيل عباس (١٢سنة) وقد فقد ذراعيه

وأبويه وأخاه وسبعة من أفراد أسرته . وتلاحقنا صورة الفتاة العراقية الحاصلة على الدكتوراه لتوها فكانت هدية الأمريكان لها رصاصة في صدرها . أي إسلام وأي عروبة ينتمي إليها من يدعو الله أن يعز الأمريكان . نحن نقدر المرارات التي تجرعتها بعض الشعوب من نظم الحكم الظالم الغاشم ولكن الحكام يذهبون وتبقى الشعوب والمواقف .

والآن هل ارتاح المتقاعسون الشامتون بأن صارت العراق الولاية الحادية والخمسين الأمريكية بوصول جارنر ؟ هل سيقف مسلسل سلخ الأراضي وسقوط المدن ابتداءً بالجولان والضفة وشبعا ومروراً بكابل وقروزني وبغداد ؟ هل ما زلنا ننتظر الفاروق والمعتصم وصلاح الدين ليحررونا ونحن (مرطبين) ندير مفاتيح الفضائيات شرقاً وغرباً . انتبهوا فإن أهلنا قالوا (أخوك كان زينوه بِلْ راسك) والزيانة هي الحلاقة بالموس (صلعة) ولن ينجينا من الصلعة الإجبارية إلا ما نجا به الأولون وسترُ ربّك .

المُدَّاح ومُلْحق العُلُوج*

طالت مفكرة (علوج الصحَّاف) وأشكر التحرير والقراء على صبرهم عليها وبلغني أنها كان لها وقع وتأثير . ولها بقية أعادتني إلى الحديث عنها مرة أخرى ومنحتني فرصة للوفاء بوعد كنت قطعته للقراء بإتحافهم بكلمة عن مادحي الرسولﷺ ونحن هذه الأيام مع نفحات ذكرى مولده ﷺ – أعاده الله على المسلمين وعلى السودان بوحدة الصف فإنها الخير كله . وبالمصادفة المحضة كنت أستمع إلى تسجيل صوتي للمادحَيْن المبدعَيْن إسماعيل محمد علي وعبدالله الحبر – حفظهما الله – يؤديان قصيدتين للشاعر الفحل الشيخ حياتي رحمه الله إحداهما (بشكر الجيدين) التي قال فيها عن الصحابة : (شقوها العلوج بالضرب اتنين اتنين) والأخرى (من سوح مريودي) وفيها يقول عن الصحابة أيضاً : (صحبو النوادر أُسُداً تبادر كم عِلجاً هادر فَتُو الله قادر) فتذكرت علوج الصحَّاف الذين يسميهم الجاحظ (علوج الجبل) نسبة إلى بلاد الجبل . ثم تداعت إلى ذهني قصة ميسون بنت بحدل الكلبية مطلقة معاوية بن أبي سفيان وأم ولده يزيد التي كان سبب طلاقها كلمة (العلج) وذلك أن ميسون كانت بدوية النشأة ملّت حياة القصور والحواضر واشتاقت إلى حياة البادية فسمعها معاوية وهي تنشد أبياتاً آخر الليل منها قولها :

ولبس عَباءةٍ وَتَقَرَّ عيني ... أحبُ إليّ من لبس الشُّفوف

وخِرقٍ من بني عمي نحيفٍ ... أحبُّ إليّ من علجٍ عليف

فغضب معاوية لأنها وصفته بالعلج المعلوف وكان ﷺ بدين الجسم فقال لها : (كُنتِ فَبِنْتِ) يعني كنت زوجتي والآن طلقتك طلاقاً بائناً (وهذا ما يعرف عندنا بطلاق الهجعة الما فيهو رجعه) فقالت له : (ما سُرِرْنا إذ كنا ولا أسِفْنَا إذ بِنّا) وافترقا بسبب (العلج) إلى الأبد .

* صحيفة الخرطوم ٢٢ مايو ٢٠٠٣م.

وقد أحسن كل الإحسان زميلنا الأديب الشاعر الدكتور عبدالمنعم المكي الذي أتحفني اليوم وقبل كتابة هذه المفكرة بآخر ما جادت به قريحته من (رباعيات للوطن) والتي أرجو من أديبنا وحادي صفحات الثقافة بجريدة الخرطوم الأستاذ أحمد عبدالمكرّم أن يجد لها مكاناً في مداراته الثقافية فإنها جديرة بالنشر كجدارة قراء الخرطوم بها . يقول في إحداها :

علوجٌ جُمِّعتْ من كــل فـــجّ	يسومون الأذى أرضـاً أصـيله
إذا بغدادُ قد سـقطت فمــاذا	بقــاه عواصـم أخرى ذليلـه
وما كانت لتسقط لـو حفظنـا	مواثِقَنا التي أضحت عليــله
يقول الفاجـرُ المحتـلُّ هـــزءاً	سنينُ بقــائنا فيهــا قليلـــه

كما أحسن من قال إن التاريخ يعيد نفسه ؛ فلئن ضاق الصحَّاف وزير صدّام بالأوغاد والسفلة فقد سبقه إلى هذا الضيق وزير مثله هو الطغرائي صاحب لامية العجم ووزير السلطان محمود السلجوقي صاحب الموصل الذي حلّ به ما حلّ بالصحَّاف في بلد الصحَّاف فقال قبل نحو تسعمائة سنة :

ما كنتُ أحْسَبُ أن يمتدَّ بي زمني	حتى أرى دولةَ الأوغاد والسَّفَلِ

فكما امتد به الزمان ورأى فقد امتد بنا الزمان ورأينا ولله عاقبة الأمور .

وأعود إلى مادحي الرسول ﷺ وأقول وأعيد إن هذه الفئة من المبدعين مهضومة الحقوق . وأقول وأعيد إن المديح النبوي عندنا تراث أصيل وأدب جميل وفن نبيل ، بلغ فيه فحول شعرائنا شأواً لا يُدَانَى وأبدعوا نماذج وأنماطاً من الأدبِ البكر الفريد النادر قلَّ أن يقوم لها نموذج عربي معاصر في بابها ؛ لا في الإجادة ولا في غزارة الصور ولا في تشقيق المعاني ولا في صدق التعبير عن محبة المصطفى التي يحتكرها السودانيون دون منازع .

وما قصّر هؤلاء الفحول – جزاهم الله عن دينه خيراً – في تبيين سُبُلِ الهدى وإحياء معالمها للناس ... ومع ذلك فإن في بعض أهل زماننا – خصوصاً الشباب – نُفُوراً وتَجَافياً عن سماع المديح ، رغم ما فيه من المتعة الروحية التي لو تذوَّقوها لاكتفوا بها عن الاستمتاع بغيره من ضُرُوبِ السَّماع . ففيه من تهذيب النفوس وإصلاحها طاقة لا تَعْدِلها أي طاقة

تبذل في أساليب الدعوة والإرشاد على اختلافها . وما انتشر الهُدَى في السودان بأكثر من انتشاره عن طريق المديح ، حتى إنك لتجد الأُمِّيَّ الذي اعتاد سماع المديح يعرف من أمور الدين والسِّيرة ما يجهله كثير من المثقفين من المعاصرين . وقد أحسن الدكتور عبدالله الطيب – عافاه الله – حين لحظ هذا النفور وعلّق عليه في (المُرْشِد) قائلاً : (حلقات الذكر ومجالس المديح لا يرتادها المعاصرون إما عن ضَعْفِ دينٍ وإما عن فرط تَشَدُّدٍ فيه ، وإما عن جهل تام وعدم سماع بشيء اسمه الأذكار أو المديح النبوي ... ومن جَهِل شيئاً عاداه ... وربما خُيِّل إلى بعضهم أنه ليس بشعر إنما هو أوراد عبادة مما كان يعكف عليه جيل الرجعية أو الماضي المنقرض ، ويا بؤسَ للجهل ضَرَّاراً لأقوامِ) .

صَدَقَ أستاذُنا وبَرَّ ، فليس أحد من المسلمين يسوؤه مدح الرسول ﷺ أو يعنِّف عليه قائلاً . ومن ذا يساويه في الفضل ؟ ، إن الشعراء – كما قال بعض المتقدمين – ليمدحُون الرجلَ من أوساط الناس فَيُفْرِطُون ويُفَرِّطُون فَيَغْلُون وما يرفع الناس إليهم العيونَ ولا يرتقبون ، فكيف يُلاَمُ أحدٌ على مدحِ مَنِ الإفراطُ في مدحِهِ غيرُ تَفْرِيط ؟

وقال بعض السلف : لا ينفكُّ أحد من إنعام النبي ﷺ لأن الله عزّ وجلّ بعثه رحمة للناس كافة ... والثناء عليه فرض لا يتم الإسلام إلا به) . فَمَدْحُهُ ﷺ ثناءٌ عليه ، وتَبَرُّكٌ به ، ونشرٌ لسيرتِه وهَدْيِهِ .

وأَعْجَبُ لنا كيف نذوب هياماً في مدح النساء (أليس الغناء مدحاً لهن ؟) وهن فتنة من أعلاهن إلى أسفلهن ، ونَسْتَنْكِفُ عن مدح مَنْ في مَدْحِهِ النَّجَاةُ . أمرُنا عجيب! سُوقُ الحَقِّ عندنا كاسِدةٌ ، نمزِّق دينَنَا لِنُرقِّع به دنيانا ، نقيم الحفلات الغنائية تُكلِّفنا العِرْضَ والعَرَضَ وكلَّ غالٍ ومُرْتَخَصٍ ويختلط فيها الحابِل بالنَّابل وتكون سبيلاً للآثام كبائرِها واللَّمم ، ثم إذا أقام أحدنا ليلة دينية شكا جيرانه من ضجيج مكبرات الصوت ، كَبُرَ مقتاً عند الله أن تزعجَك أصواتُ عباد الرّحمن ولا يزعجك ضجيج الشيطان .

وانظر – رحمك الله – إلى انقلاب الموازين وتأمَّل مقدارَ (الزِّيارة) التي (تُهْدَى) إلى المادح إذا (أحيا ليلة) ، وقارنها بما (يتعاقد) عليه الفنان من (أُجْرة) إذا (أمات ليلة)

ساهرة . – ولست ضد الغناء إذا كان فناً وأدباً وإبداعاً – وكان والدنا عليه رحمة الله يقول : إكرام المُدَّاح من إكرام الممدوح ﷺ، وحكى لنا قصة ذلك الرجل الذي كلَّما هَمَّ بتقديم ما عنده للمدّاح رَدَّه في جيبه حياءً وخجلاً حتى دخل بيته وأتى بكل ما عنده حتى (مَصَاغ) زوجته ، وقدمه لهم ، فعل ذلك وهو يبكي ، فلما سئل عن ذلك قال : كلما هَمَمْتُ بإعطائهم ما معي أرى يَدَ الرسولِ ﷺ تمتدُّ إليَّ بيني وبينهم فاسْتَقِلّ ما عندي واستحي أن أضعه فيها !! (راجع كتابنا السهل الممتنع)

وفي قصة محكية عن ثقاتنا أن مادحاً مبدعاً كان يمدح وأحد المحبين يستمع له ويبكي فأفرغ كل ما في جيبه ثم خلع عمامته وأهداها للمادح ثم خلع ثوبه ثم العراقي ولم يبق إلا لباس الوسط فأوقف أحد العقلاء المديح قائلاً للمادح : علي الطلاق كان ما وقفت إلا يقلع ليك سروالو – أكرمكم الله – كل ذلك إكراماً للممدوح والمادح .

ولا تستغرب أن تصل المتعة بالسماع والسعي إلى المكافأة إلى هذا الحدّ فإن هذا يحدث في سماع الأغاني فكيف بمدح الحبيب ﷺ ؟ أما سمعت عن صاحب الجاريتين المغنيتين وكانت إحداهما محسنة مجودة والأخرى متخلفة باردة فإذا غنت الأولى طرب صاحبهما وهاج حتى يشقّق ثوبه فإذا غنت الأخرى (فدر وبرد) وجلس يخيط الثوبِ الذي شققه طرباً .

والمُدّاح فوق ما يقدمونه من المتعة الروحية بمدح المصطفى ﷺ فإنهم أصحاب ذوق رفيع وظرف مشهور وخفة روح محبوبة ونكتة لطيفة وبديهة حاضرة ؛ فقد فرغوا مرة من المديح في إحدى الليالي على مشارف الفجر وفي أثناء دعاء الختام صاح ديكٌ في الدار فقال المادح وهو يدعو على الفور (اللهم اجعل قبره في بطون المُدّاح) .

وكان أكثر الرواة والمادحين إنما يتفرغون للمديح بعد الفراغ من أشغال الخريف والزراعة وما كانوا متبطلين كما يشاع عنهم ، وكان أحدهم أعمى يقضي شهوراً من العام يطوف على البلدان فيلقى غاية الإكرام خصوصاً في ألوان الشراب والطعام فرجع مرة إلى بلده وهو مرهق من السفر فنام قبل العشاء فجاءه أهل بيته بالموجود من الطعام وأيقظوه

فأنزل يده في الطعام وما يزال النوم غالباً عليه فوجد الطعام بارداً (كسـرة بي موية) فقـال لمرافقه وقائده : نحن وين آخوي ؟ فردّ عليه : نحن في أهلنا يابا ! فقال له بألم : الله ينعـل أبـو أهلنا !! وكل عام وأنتم بخير .

بين
(صلوا يا أمم) و(ست البيت) *

أسمع بالفنان الجيلي الشيخ ولا أعرفه ولم أره ولم أسمع له إلاّ تَوَسُّلِيّة شيخ البرعي (مصر المؤمنة) في اللقاء الماتع الذي قدمه الأستاذ الطيب عبدالماجد مع الشيخ بارك الله في أيامه . إلى أن بعث لي ابن أخي (الهندي) تسجيلاً صوتياً لهذا الشاب البارع في شريط سماه بقصيدة الشيخ قدورة العويصة الإيقاع(صلوا يا أمم) ولما نظرت إلى محتويات الشريط وجدته يحوي أربع قصائد أخريات هُنّ أيضاً من الوعر الذي يحتاج إلى مادح متمكن وهي حربية الشيخ أحمد ود سليمان (صاحب اللوا المعقود) ورائعتان لود أبِ شريعة هما (برزن شموسو) و(نعم وطوبى لمن) بالإضافة إلى (مصر المؤمنة) فقلت لمن معي والله هذا الشابِ (الغنّاي) تجرأ ودخل بحراً هو ليس من تماسيحه، وما إن شرعت في الاستماع حتى بدأت أتراجع وأقول ما شاء الله وأستغفر لقد ظلمت هذا الشاب الموهوب –حفظه الله- ويبدو أنه ذو جذور ضاربة ونشأة راسخة في أجواء المديح فقد أبدع وأجاد وجوّد في تناغم إيقاع وانضباط زمن وصوت ندي ريان وتقعيد للألفاظ وتوضيح جعلني أفطن لبعض الألفاظ الفائتة عليّ التي يلوكها بعض أهل الأداء فلا أتبيَّنُها، مع موسيقى مصاحبة ذات هارموني وانسجام وتناغم ، بالإضافة إلى كورس منسجم ومجوّد في غاية الإتقان . لم ألحظ عليه ذرة من النشاز كالذي حكاه شيخ المادحين الأمين القرشي قال: كانوا مدعوين لتسجيل مديح في بيت أحد الأعيان وحين فرغوا من التسجيل نهض صاحب الدعوة للقيام بواجب الضيافة من عشاء ونحوه ، أما هم فقد بدأوا يعيدون الشريط ويستمعون لما سجلوه وكان أحد زملائهم جاء متأخراً وصادف استماعهم للتسجيل فقال لهم: والله تسجيلكم رائع لكن أب صوتاً خمير الخرب التسجيل ده منو؟ فبادره أحد المدّاح بسرعة قائلاً: يا زول اسكت

* صحيفة الخرطوم ٢٧ يناير ٢٠٠٤م.

اسكت ده سيد العيزومة . وإذا كان الخواجات يقولون (من يدفع للعازف له الحق في اختيار اللحن) فإن من يعشي المدّاح له الحق في المشاركة في المديح ولو كان أَطْرَقَ أَشْتَرَ مُنْكَرَ الصوت .

المهم حين أكملت الاستماع لذلك الشريط (الفلتة) فزعت إلى أخي "باشة الحُفّاظ" دالحسين النور ليذكرني بعض تفاصيل رسالة أحمد ود سعد "باشة المدّاح" حين اطلع على باكورة إنتاج الشيخ حياتي فوجه رسالة للشيخ أحمد ود اب شريعة وكان زميله في صدارة فحول المدّاح قائلاً: قولوا لي ولدنا أحمد (انعدل جاك مزاحم) فقلت أوجه الرسالة نفسها لفرسان ساحة المديح النبوي عبدالله الحبر وإسماعيل محمد علي وأضرابهم وأقول ليهم (جاكم مزاحم) . وإن كنت أرى أثرهما واضحاً على الجيلي ولا غرو فهما أيضاً تلاميذ مدرسة عريقة في الإيقاع وأداء المديح آخر رموزها الفرسان الثلاثة الشريف زين العابدين والأمين القرشي وعلي الشاعر وكوكبتهم حفظهم الله جميعاً .

لم يفارقني ذلك الشريط ومن فرط إعجابي به وزعته لبعض أهل الذوق وأجمعوا على الإشادة به وجاءتني تعليقات طريفة . قال لي أحدهم: العايز تقطّع مصارينو سمّعوا الشريط ده. أمّا أطرف التعليقات فكانت من زميلي مقدّم كدباس الدكتور إسماعيل الذي أهداه ابني (الذوّاقة) نسخة فلما استمع لها شَدَّتْهُ وأَذْهَلَتْهُ حتى إنه خرج ليُحْضِرَ أولاده من المدارس فصار كلما انتهت مدحة يقول أسمع البعدها حتى قلقت زوجته من تأخيرهم وخشيت أن يكون أصابهم مكروه . المقدّم أراد أن يبادلنا الهدية فبعث لنا شريط غُنا لفنان الحقيبة الكبير مبارك حسن بركات وأرفقه بتعليق طريف قائلاً: (اهديتوني خير وأهديتكم شر لكن اسمعوا أغنية ست البيت في الشريط ده) فاستمعت إليها ووجدتها فعلاً تستاهل فهي في غاية الطرافة والروعة لفتتني إلى أمر مهم جداً ومهمل جداً سأذكره ودعوني اقتطف لكم شيئاً منها من "بيت الكلاوي" ولكن قبل ذلك كله أقول إن الغناء ليس شراً كله والناس مختلفون فيه منذ القدم بين محرم ومبيح ومتوقف وقد ورد في الأثر أن الرسول ﷺ قال إن

الأنصار قوم يحبون الطرب وأباح لهم الدف لإشهار الزواج. والغناء شعر وقد قال الإمام الشافعي (الشعر كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح).

أما ود الرضي شاعر أغنية (ست البيت) فقد أنصف وأحسن وأبدع حيث قال في مطلع قصيدته:

أريدا براها ترتاح روحي كل ما اطراها ست البيت

ووصفها بأوصاف حسّية ومعنوية رائعة فهي قوامّة على بيتها طائعة لزوجها شفوقه عليه بارعة في توفير جو البيت السعيد بعيدة عن النِّقة والقلاقل :

مِنَّها قط خلاف ما حصل لي بس إزعاجا لي قوم صلِّي

ثم قال :

مي العزّاية دايماً سادَّة مي الغَبْشَة المغبّره حادَّه

مي اللهفانه بي ورا الماده دي اللي شبابا ديما مُوَادَّه

فهي لا بكّاية ولا شكّاية ولا غبشا ولا لهفانة ولا مادية وهذه من أعظم آفات النساء وهي فوق اضطلاعها بواجبات بيتها شايفة شبابها ومتجيهة وعابدة روحا: (ما سابت الشباب لي بناتا) إلى أن دخل في الغريق وجاء ببيت القصيد حين قال :

ما قالت بقيت حَبّوبه وتَرَكَتْ (بوختا) المحبوبه

لو جات من رياحا هَبُوبه تَحْيي عُرَوقَك الـمَهَبُوبه

وهذا يعيدنا إلى مربع (دخان الطلح) ويذكرنا بود أب شوارب الشاعر القديم المبدع في حنينه إلى ماضي شبابه في قوله:

حليل الكرفهن يحيي العروق الماتن

بطراهن جميعهن والليالي الفاتن

وقبل هذين الشطرين شطران عجيبان لن أحرج بهما التحرير في صحيفتنا الغالية ولكني حين أنشدتهما الأستاذ الطيب صالح رغم وقاره هلل وكبّر حتى ملأ أرجاء الفندق

قائلاً : الله الله . وازداد عجبه وإعجابه حين ذكرته أن الشاعر ركابي مثله. وما رأيت متذوقاً للدوبيت ملماً بنفائسه كالطيب صالح.

ولكن اللفتة البارعة في أغنية (ست البيت) أنها تؤسس لأدبِ أهمله الناس جداً وهو (شعر الثناء على الزوجات وربات البيوت) فالكل يلهج بالمرأة الشابة حتى إذا ما تزوجت بحث الناس عن غيرها كأن الزواج هو نهاية المطاف. مع أن الشابة هي ثمرة قد دنا قطافها ولكنها حين تدخل عش الزوجية فقد بدأت مرحلة العطاء الحقيقي ومرحلة قطف الثمار. فالملاحظ أن هذه المرحلة على خصوبتها لا يطرقها الأدباء كثيراً على الرغم من أن (الشجر الكبار فيه الصمغ) ربما بدافع الغيرة والأنانية كأن المرأة في مرحلة الشبابِ هي ملك مشاع أما بعد الزواج فقد أصبحت ملكية خاصة .

هذا، وبيني وبين أخي الدكتور المقدّم تشابه لافت للنظر في المظهر والمخبر حتى إن زملاءنا وطلابنا لا يفرقون بيننا فنحن زملاء دراسة وتخصص وعمل ونشترك في كثير من الهوايات والميول وحتى في بعض الأمراض كالخفقان والعرق الذي يجعل جبهتينا (عز الشتا) كالزير القناوي .والطريف في إهدائه لي أغنية (ست البيت) هو قناعته بأن ست بيته تشبه ست بيتي أيضاً في الشقاوة وخدمة البيت التي تهد الحيل . ومن نعم الله على الرجل أن تكون زوجته (مرة ضيوف) . والحق أن ما ذكره هو حالهما. ولكنهما تقابلان ذلك بأصالة السودانيات وفوق ذلك تتميزان برحابة صدر وسماحة خلق تمتص الحدة و(الحر) الذي يميز شخصينا الضعيفين تماماً كما قال شاعر ست البيت :

حاوْيَةْ من الأُنوثةْ معاني   ومهما أبْقَى مُرْ بَالْعَاني

ونعتذر للدخول في الخصوصيات التي لاتأباها طبيعة المفكرة – لكني أقول لشباب المبدعين: هذا القديم مديحاً وغناءً تراث عزيز نادر وفن يستعصي إلا على من ماشاه واقتفاه أما القفز فوقه فهو أشبه بمن يطعِّم المرارة بالسُكّر لأن لكل طعمه . وليكن الإبداع حقيقة كما فعل الجيلي الشيخ في الشريط المذكور فقد التزم بالقديم شكلاً ومضموناً ولكنه قدّمه في طبق عصري شهي جذّاب تجد فيه القديم تاماً بنكهته ، وتجد فيه الجيلي الشيخ بمواهبه وبراعته، فألف تحية .

صَادَات لصاحب الثرثرة*

كان لنا شيخان يلتقيان في المناسبات والولائم ويحرصان على أن تضمهما مائدة واحدة ، ما رأيتهما في سُفرتين مفترقتين أبداً ، ولم يفلح أحد في التفريق بينهما إلاّ الذي فرّق بين ندماني جُذيمة . وكانت بينهما – رحمهما الله – حميمية عجيبة أثناء المؤاكلة لا تكون حتى بين مُخْلِصِي العُشّاق ؛ فما يرى أحدهما أكلة نفيسة إلاّ خطفها ووضعها أمام صاحبه الذي لا يتردد هو الآخر في مبادلته المشاعر ووضع أطيب ما في المائدة أمام الآخر وهكذا يستمران وشركاؤهما في المائدة مبهوتون حائرون يتفرجون . قدمت بهذا مخافة أن يذهب أحد إلى أننا نصنع صنيعهما ونتقارض الثناء ؛ أعني صاحب الثرثرة معلم الأجيال الأستاذ مصطفى أبو شرف وشخصي الضعيف ، وحاشى لله ، فثنائي عليه يد سالفة ودينٌ مستحق فجيلنا وما يليه عالة على ذلك الجيل وعيال لذلك الرَّعيل . أمّا ثناؤه على شخصي فبيني وبينه ما بين الثرى والثريا ، وإن جريان اسمي فقط على لسانه وقلمه لهو مفخرة لا تضاهيها مفخرة .

وقد ناشدني العم الأديب والأستاذ الأريب أبو شرف أن أقتحم بابه المقروء (ثرثرة قلم) (انظر ثرثرة قلم بتاريخ ٢٠٠٢/٩/١٦ وتاريخ ٢٠٠٢/١١/٥) فأقول للأستاذ إن أبواب أمثالكم لا تقتحم ، بل تطرق بكل أدبٍ ، ينقرها الطارق نقراً خفيفاً كنقر الإيقاع ويقف أمامها كالصُّوفيّ المتبتّل يردّد مع شاعر الحقيبة (قَدْلَهْ يا مولاي حَافي حَالِقْ) فأنتم الشجر الكبار (الفيهو الصمغ) نتفيأ ظلالكم ونجتني ثماركم يا صنّاع الاستقلال وأكتوبر وأجيال الوطنية والثقافة الأصيلة . وما تأخرت في الاستجابة إلاّ من فرط المهابة . ثم أن عمودكم كان طَرَفاً وكان طَرْقُه سهلاً ولكنه توغّل حين احتضنته الصحيفة فجعلته من ضلوعها بين الحنايا ومن قلبها في سويدائه فنأى عنيّ وأنا من هُوَاة الأطراف ليست لأنها منازل الأشراف

* صحيفة الخرطوم ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢م.

ولكن لسهولة (الزوغة) إذا لزم الأمر . فلا تحسبوا أن ابنكم (طنّش) أو (ضرب الصاد) . وقد تعمّدت استخدام مصطلح (ضرب الصّاد) لعلمي أنك أريحي مرهف تهتز لجيّد الأشعار والإبداع خصوصاً إبداعات خليل فرح وجيله النادر ، فقد جاء (ضرب الصّاد) في أغنيته التي أهداها للبلبل الصدّاح الفنان إبراهيم عبد الجليل – عليهم رحمة الله – وفيها يقول :

يا شبيه الصّيد يا اب عيوناً صـــاد إنت ليه يالخير مِنّي ضارِب صادْ

كل يوم يا بَدْري أنا ليكَ بالمِرصاد وَدْعِي ما حَمَّدْ والشَّرَك ما صَـادْ

انظر هذا الجناس التام البديع في كلمة (صاد) ثم تأمل جمال تشبيههم لعين المحبوب بحرف (الصاد) يريدون رأس حرف الصاد وهو كثير جاء في نموذج أقدم من هذا لشاعر العيلفون بابكر مضوي وهو من شعراء أواخر القرن قبل الماضي كان عاشقاً يشبهونه بالمحلق وعروة بن حزام العذري ، فقد ذهبت روحه ضحية للغرام .يقول ود مضوي :

قَبْلْـــتَ صـــــاد مِتْقَبِّــل العينيهو صـــــاد

قَبَــل الفريــق أقطــع قُــصاد أَلْقَــى الفريــك قبْـل الحـصاد

وقد بالغ ود مضوي ليس في تشبيه العين بحرف الصاد ولا في الجناس في 'صاد' فقط ولكن انظر إلى المقابلة وجناس الاشتقاق والترصيع في قوله : ' قبّلت ' بمعنى رجعت و (مُتْقَبِّل) بمعنى متّجه و (قَبَل) بمعنى (في اتجاه) و (قبْل الحصاد) . ثم انظر إلى قوله (الفريق) و (الفريك) و (أَلْقَى) بمعنى ألحق و (الفريك) الذي أراد به البنات الصغيرات (الصغيرون الدابو نَيْ) تقبل الله صومكم وشفى الأستاذ وردي ليُغرِّد بالقمر بوبا . وهذا إبداع وتحف فنية زيادة الشرح تفسدها واترك تذوقها لك ولأمثالك .

ثم جاء شاعر آخر لم يشبّه العين بالصاد وإنما شبّه الحاجب بالصاد فقد ذكر صاحب كتاب المسيد – حفظه الله – أن إبراهيم ود دليل كان خطاطاً مشهوراً من أهالي المتمّة ، كان

يخط المصاحف وراتب الإمام المهدي خطاً بديعاً أصبح مضرب المثل حتى قال الشاعر ود الطاش :

احتـرتَ حَـــارْ بَيَّ الـدَّليـــل   كُسْ لي لماكْ ما لقيت دليل
كاتلاني عِندي عليك دليل   حاجبيكِ صــــــاد وَد الدَّلـيل

وهذا إبداع في إبداع في إبداع جمع فيه الشاعر بين الجناس التام في كلمة (دليل) والصّاد التي نحن بصددها .

وقد حيّرني شيخ البرعي الكردفاني – حفظه الله – وهو جهبذ السهل الممتنع وصاحب تشرّب وتشبع عجيب بالتراث السوداني يعينه على ذلك طبع أصيل وحسٌّ مرهف . وقد جاءت عنده مُربّعة في مدح الرسول صلي الله عليه وسلم قال فيها :

إنت مَدْحَك نازِل في صاد   إنت وجهك ما وَلّى صَاد
إنت سهمك للكفر صاد   إنت فمَّك وَصَفَوهُ صَاد

انظر هذا الفن البديع ؛ (صاد) الأولى هي سورة (ص~) من سور القرآن الكريم و(صاد) الثانية اسم فاعل بمعنى مُعْرِض أو راجع وهي التي جاءت في أبيات ود مضوي في قوله (قبِّلتَ صاد) وفي اجتهادي المتواضع أن (ضرب الصَّاد) مأخوذ من (الصُّدود) وهو اختصار له ، إن لم نوسّعه ونجعله أيضاً اختصاراً (للصّهينة) لأن (صَهْيَن) عندنا بالمعنى نفسه وكله من الطّناش والتغافل وعدم الاهتمام ، وكله مبدوء بالصَّاد . و(صاد) الثالثة من الصّيد وهي الواردة في أبيات خليل فرح في قوله (الشَّرك ماصاد) وأمّا الرابعة (تشبيه الفم بالصّاد) فهي موضع الحيرة ؛ فالمشهور أن العين والحاجب هما الموصوفان بأنهما يشبهان الصّاد . أمّا الفم فالوارد في الأثر في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان ضليع الفم ، وهو العظيم الواسع ، وهو ممدوح في الرجال . وربما أراد الشيخ البرعي هنا رأس حرف الصاد كما ذكر لي بعض الفضلاء وهو غير بعيد وفيه جمال . وربما أشار إلى أنه صادق ينطق بالحق والصواب .

أمّا (صاد) بمعنى راجع التي وردت عند الشيخ البرعي وود مضوي فهي دارجة شائعة في بعض مناطق السودان ؛ يقول بعضهم : (جينا صادين) يعني (راجعين) قال الشاعر : (بعد المِرْوق الصَّدَّة حَارَّة) يعني الرجعة بعد الخروج صعبة .جاء خالنا حاج الفضل – وهو من المشهورين عندنا بسرعة البديهة – جاء من البِلدات (جمع بلاد وهي المزرعة المطرية) فرأته عجوز لنا كان لها غرض في رجوعه فقالت له : هوي يا الفضل ماك صاد ؟ تعني ماك راجع إلى الزراعة ؟ فأجابها بسرعة : لا .... ضاد !! ذهبت هي إلى (صاد) بمعنى راجع وذهب هو إلى الضّاد الحرف (أخو الصّاد) .

وبمناسبة (الطناش) و (ضربِ الصاد) التحية لأخي الزبير سعيد الذي وصفته بالشجاعة فاستحقها وهو أهلها ، ثم انتزع مني صفة أخرى هو جدير بها وهي اللّباقة. ولأبي شرف ولكم جميعاً التحية والمحبة وشهركم مبارك .

سوداني يحكي عربي؟ !!*

في ليلة بهيجة بالرياض تقاسم فيها أبناء مدني (الصالحية) وأبناء مروي شرف اللقاء بأديب السودان وقاصّ العرب الأستاذ الطيب صالح ، حظينا بحضور قسمها الأول وحرمتنا ظروف قاهرة مع عدم العلم المسبق ببرنامج أبناء مروي من حضور قسمها الآخر معهم وقد زاده ألقاً مشاركة شاعر الشايقية المبدع الأستاذ حمّيد . فلإخواننا أبناء مروي العتبى حتى يرضوا و (الجايّات أكتر من الرايحات) . وفي تلك الليلة التي شرّق فيها الطيب صالح والمشاركون وغرّبوا جرى ذكر الإبداع والتراث والهوية فلمست ضيقاً من بعض المعلقين على طغيان الحس العربي في تلك الجلسة حتى احتج بعضهم على تسمية الخرطوم (عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٥) فأزعجني ذلك التقوقع والقعود والتعقيد الذي ينطبق عليه قول العامة (ساعدوه في قبر أبوه دسّ المحافير) لأنها فرصة نادرة أتتنا في دارنا تماماً كما يقول المثل الآخر (يا ضبعة عشاك جاك في جحرك) فنحن أمة مجهولة الهوية لدى الآخرين وعاصمة الثقافة سانحة لتقديم أنفسنا ؛ فالطيب صالح قدمه إعلام غير سوداني ، العباسي والتجاني يوسف بشير وأضرابهما لم يجدوا من يقدمهم ، ولو كان عبدالله الطيب مصرياً لصنع منه الإعلام أسطورة . ولو أردتم أمثلة على جهل كثير من الناس بنا في القديم والحديث لاجتمعت لكم في ذلك مجلدات . فاثنان في أقرب أقطار الدنيا للسودان أولهما أمير شعراء العصر أحمد شوقي وثانيهما صاحب مطبعة مشهورة (يعني صاحب مصنع ثقافة يا عم عيسى) الأول لا يصدق أن السودانيين ينظمون الشعر والثاني لا يصدق أنهم يتحدثون العربية . بل إن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين قدّم له الدكتور عبدالله الطيب كتابه (المرشد) ليكتب مقدمته (بتوصية من الخواجات) أذهله أن يكون في السودان من يحسن مثل هذا !!كان ذلك في الماضي وما زال مسلسل الجهل بنا مستمراً ؛ فقد استقل زميلنا سيارة إلى المدينة المنورة برفقة بعض الشوام ، وكان الزميل يتجاذب

---

* صحيفة الخرطوم ٢٩ يناير ٢٠٠٣م.

أطراف الحديث مع السائق السعودي ، وأحد الشاميين يستمع إليهما باهتمام فانتهز الفرصة في أول محطة نزلوا فيها فقال للزميل : ما جنسيتك ؟ قال له : سوداني ، فردّ عليه : عجيب سوداني وتحكي عربي ؟! فقال له الزميل : بل أنا أُدرّس اللغة العربية لأبناء هذا البلد الكريم . فما انتهى عجب الشامي ولا انقضى أسى زميلنا العزيز ولا عجبه . وركب أحد المعلمين سيارة أجرة فسأله السائق العربي المسلم عن عمله فقال مدرس قرآن فبادره مستغرباً : (السودان فِيْهْ مسلمين ؟!) ولعلّ لأستاذنا عبدالعزيز جبورة – عافاه الله – بقية يتحفكم بها بعد أن منّ الله عليه بالشفاء .

نحن أمة أكثر تاريخها كتبه الأجانب وتخبطوا ومالوا عن الجادة واتبعوا الهوى والغرض . وبعض تاريخنا وأدبنا الشعبي كتبه لنا المصريون مثل عزالدين إسماعيل وحتى الحاردلو أمير شعراء الدوبيت في السودان درسه لنا عبدالمجيد عابدين . ونحن لا ننتقص من قدر هؤلاء بل نشكرهم ، ولكنا نلوم أنفسنا ، فما قمنا به ليس كافياً لبلورة هويتنا ، وفي دوّامة التقوقع والانطواء والتمسك بالفقاقيع قد يتناول شأننا من لا يحسنه ؛ فهذا سعد ميخائيل أحد قدامى الموظفين المصريين بالسودان قضى في السودان أكثر من ثلاثين سنة فكتب عن سودان ما قبل الثلاثينات من القرن الماضي ومرّ بشيء من العادات فذكر المرارة (أخت أم فِتْفِتْ) ومع ثنائه عليها ووصفها بأنها لذيذة إلى حدٍّ بعيد أخطأ في صفتها حيث قال : (والمرارة عبارة عن أمعاء الخروف تنظف جيداً ثم تقطع قطعاً صغيرة ويضاف إليها الليمون والبصل والشطة بمقادير كبيرة ويأكلونها دون أن تطبخ في النار) نسي صاحبنا التوم والفلفل وهما من أهم بهارات المرارة وخلط بين المرارة والكمونية فليس للأمعاء نصيب في المرارة .

والباحثون عن الهوية السودانية في أيامنا هذي مصابون بقصر النظر وداء السفسطة . اقرأوا المحجوب في مجلة الفجر سنة ١٩٣٥م واقرأوا معه في المجلة نفسها يوسف مصطفى التني وقفوا على ديوان الأخير واقرأوا رائعته (في الفؤاد ترعاه العناية) القصيدة التي تمثل

دستور الهوية السودانية . وقديماً احتجّ علي عبداللطيف – ذو الأصول الدينكاوية – على سليمان كشة لما قدّم ديوان (نسمات الربيع) فقال في مقدمته (شعب عربي كريم) فقال له علي عبداللطيف كان ينبغي أن تقول (شعب سوداني كريم) إذ لا فرق بين عربي وجنوبي ، قال سليمان فأكبرت ذلك منه . أما الذين ينظرون إلى الواقع بمنظار اللغة واللون فمصابون بالنستولوجيا ويعانون عجز الذات عن التكيف مع الواقع والمستجدات . وإذا كانت العودة إلى الماضي واستلهام التراث تفسر في ضوء هذه العلة الثقافية فإن هذا كُساح وشلل ولكن الرجوع إلى التراث هو بغرض إعادة بناء الثقة وتثبيت القاعدة التي يبدأ منها الانطلاق الصحيح . وحتى أعود بكم إلى جو المفكرة أسوق مثالاً في اللغة ونكتة في اللون . ولكن قبل ذلك كلنا يعلم أن اللغة هي وسيلة التعبير عن الهوية والعربية لغة عالمية وهي لغة السواد الأعظم من أهل السودان وهي لغة الدولة الرسمية ولغة العقيدة للمتحدثين بها ولغيرهم من المسلمين ، واستناداً إلى عبدالله الطيب – رفعه الله – فإن العرب في السودان أقدم وجوداً منهم في جزيرة العرب ، ولكن كل هذا لا يهم فإن في جنوب السودان وحده ثمانين لغة استناداً إلى فرانسيس دينق . ولغات النوبيين والبجا والفور وغيرهم على تعددها ليست لغات مكتوبة ؛ فبأي لغة نخاطب الدنيا والسودان مصنّف في البلدان العربية ومنضمّ إلى جامعتها منذ استقلاله ؟ وما الذي جدّ حين جعلت الخرطوم عاصمة للثقافة العربية ؟ إن التنظير غير الواعي يقف عقبة كؤُوداً في طريق التغلغل الطبيعي المناسب للغات والتحول الداخلي السلس للمجتمع . اقرأوا شعر الفراش شاعر بربر لتروا أثر اللهجة البجاوية ، وانظروا إلى المسيرية ودينكا نقوك في أبيي لتروا رحابة الصدر في التمازج الثقافي والعرقي . استمعوا إلى الحمري في كردفان وهو يقول لمحبوبته : (جلدك خُدرة التمك اب حبالاً شرّن) . من أين أتى بلفظة (التمك) أي البطيخ ولفظة (التمك) نوبية دنقلاوية . واستمع إلى أهل الجزيرة قاطبة وهم يستخدمون كلمة (التقنت والماروق) والمئات من ألفاظ الزراعة

الشمالية النوبية ، بل رحلت الكلمتان إلى البطانة واستقرتا مع غيرهما في ديوان الحاردلو وغيره في غير موضع اسمع قول الحاردلو :

لخلوخةً تقوم مَسَايَسَة ومفروقة   بين التقنتين دفق البصير ماروقه

يصفها باللين والنضارة كالقصبة التي يرعاها تربال خبير . بل جرت الكلمتان في أمثالهم فهُم إذا عاتبوا أحداً قالوا : (يا عديم الذوق يا حمار الماروق) وإذا رأوا شخصاً أملس سميناً قالوا (زي بصلة التقنت) وكلمة نوبية أخرى شائعة جداً تريك رحابة صدر اللغات في الأخذ والعطاء دون حساسيّات وهى كلمة (جِرّق) وهو ثور الساقية استعملت في معظم أنحاء السودان فالشيخ إبراهيم البولاد وهو ركابي قال عنه صاحب الطبقات إنه بلغ من ورعه أنه لا يأكل طعام بعض الناس (لأن جَرَارِقَهم مَغَصُوبة) ومن أمثال كردفان (جرّق مارك السوج) يضرب للرجل الذي يركن إلى الهدوء والعزلة .وجاءت في أشعار العبدلاب والشكرية والكواهلة وقال طه الضرير وهو بطحاني :

السجن البنسِّي الزول تملّي رفيقو   نحن جَرَارْقُو والحَار فيهو كُلُّو نَطِيقُو

بل دخلت في معجم المديح فقال أحدهم في الشيخ المكاشفي (جرارقو تسوق) يعني قيام الليل . أرأيت هذه المساحة الواسعة التي انداحت فيها كلمة (جرِّق) دون وصاية ؟! ولولا المساحة وخوفي على الإخوة النوبيين من (كبر الرأس) ومصير صاحبنا لأطلت ، فقد حكى لي عالم التراث أستاذنا الطيب محمد الطيب أن صبياً ظلمه أعمامه في ميراث فوجهته أمه إلى كاتب العرضحالات ليكتب له عريضة يقدمها للقاضي فجلس الكاتب المتمرس وكتب العريضة بمزاج وقال للصبي : اسمع ما كتبته لك ثم تلا عليه المكتوب فاندفع الصبي يبكي بكاءً مرّاً فقال له : يا ولدي مالك بتبكي ؟ فقال الصبي : والله أنا ما كنت عارف روحي مظلوم قدر ده !! فعلى رسلكم إخوتي ودعوا الأمور لقوانين الطبيعة.

أما اللون فلا ينبغي أن يكون موضوع خلاف بين العقلاء لأنهم ليسوا سبباً في وجوده وهم لا يملكون تبديله . فهو من قسمة الخالق الذي من رحمته وعدله أنه لم يجعل اللون معياراً للتفاضل بين الناس بل جعل المعيار التقوى والعمل (مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُه لم يسرِعْ به

نَسَبُه) وفي سلحة الفكر والعمل يكون التنافس . ولكن قالوا تـزوج رجـل أسـود بـامرأة بيضاء فانجبت بنات في غاية الجمال واعتدال اللـون فجـاءه ابـن أختـه يتمنـى القـرب منـه ويطلب يد إحدى بناته فانتهره بغضب شديد قائلاً : يا ود الزرقا أنـا أنـضّف وإنـت عـايز توسّخ تاني ؟! .

فدعونا نهتبل سانحة الخرطوم عاصمة الثقافة العربيـة لنعـرّف النـاس مـا عنـدنا مـن عربـي وإفريقي وليعمد كل صاحب فكر وقلم إلى إضافة لون إلى مائدة الثقافة يؤكـد أن للـسودان طعمـاً خاصاً غير الطعم العربي أو الإفريقي هو الطعم السوداني أو هو الطعمان معاً.

سَنَهْ يا أُم خالدِ !!*

قال أحدهم (العرب لا يقرأون وإذا قرأوا لا يفهمون وإذا فهموا لا يعملون). قلت هذا أشبه بحال كيسان النحوي قيل كان من أهل البصرة وكان موسوساً (أسلاكه لاطشة) فكان يكتب في ألواحه غير ما يسمع وينقل في دفتره غير ما كتب ويملي على الناس غير ما نقل (وإنما الموسوس من يجلس في حلقة مثله) وقد كنت كتبت في مفكرة الثلاثاء الماضي (الشماسة وقسمة الثروة) أن كلمة(سنه) التي كانت شائعة في معاكسات الشماسة هي من أصل حبشي وأنني وجدتها في خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأنها جاءت في سياق ممازحته لبنت صغيرة ولكن نَدَّ عنّي مكانها. فبلغني أن جماعة من قراء المفكرة استبعدوا أن يكون الرسول الكريم قال ذلك. وهم مشكورون من وجوه ، أولها متابعتهم لما نكتب، وثانيها حرصهم على عقولهم واحترامهم لها فلا يدخلونها ما لا يعقل وثالثها نقدهم الذي يدل على أنهم يقرأون بعقل ورابعها أن الكاتب إذا علم أن له رصيداً من القراء الواعين كهؤلاء فإنه يزداد حرصاً على أن يقدّم لهم ما يرضيهم ويرضيه وآخرها غيرتهم على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وتحوُّبهم من أن ينسب إليه ما ليس من قوله. لكن نقول لهم لا اجتهاد مع النص. ونوصيهم بعدم التعجل إلى النكير ونذكرهم بأننا إذا كنا نتحرى الصدق ونتجنب التَّزَيُّدَ في تراثنا وهو مرويات شفوية أفلا نتحرى الصدق ونتجنب التزيد فيما نرويه عن الصادق المصدوق الذي يقول: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار). ثم هاكم الخبر بتفصيله من أقربِ مصدر وأيسره على القراء وهو لسان العرب (مادة سنا جـ ١٤ ص ٤٠٦): قال :(وفي الحديث عن أم خالد بنت خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتي بثيابِ فيها خميصة سوداء فقال ائتوني بأم خالد قالت فأُتي بي رسول الله صلى الله عليه وسلم محمولة وأنا صغيرة فأخذ الخميصة بيده ثم ألبسنيها ثم قال أبلي وأَخلِقي، ثم نظر إلى عَلَم فيها أصفر وأخضر فجعل يقول يا أم خالد:

---

* صحيفة الخرطوم ٦ أبريل ٢٠٠٤م.

سَنَا سَنَا !! قيل سنا بالحبشية حسن، وهي لغة... وفي رواية سَنَهْ سَنَهْ، وفي رواية أخـرى: سَـنَاه سَنَاهْ) هذا نصّ الحديث (عشان تآمنوا كما قال الفلاتي) . وسأشرح الخميصة في حديثي عن تقليعات الثياب السودانية القديمة والحديثة في آخر المفكرة ولكن الأستاذ الطيب صالح كان سألني مرة بلهفة : ما كتبت عن الرَّحَطْ؟

قلت له : في كتاب العادات الثاني كتبت مقالـة عـن الملابـس ضـمنتها الـرحط وغـيره تستحق أن أفرد لها كتاباً خاصاً لأن السودان لولا المقـادير ولـولا جـبن رأس المـال فيـه كـان ينبغي أن يكون من أكبر أقطار الـشرق الأوسـط في صـناعة النـسيج وفي صـناعات أخـرى كصناعة الجلود فمن الذي يعقل أن بلداً فيه مـشروع الجزيـرة وثـروات الـشرق والغـربِ والجنوب الحيوانية ويستورد أهله العمة والشال والجلابية وما تحتها إلى المركوب –أكـرمكم الله. بل نحن الذين يُخَطِّئ عالمنا الراحل عبدالله الطيب الموسوعة البريطانية التي نسبت أول زراعة القطن إلى السبئيين (أهل سبأ) ويبصم بالعشرة بأن هذا خطأ في قـراءة الـنصّ وإنمـا المقصود (السوبيين) أهل سوبا يعني بلاد السودان. بل ذكر المؤرخون أن الملك عيزانا الـذي غزا الأراضي السودانية سنة ثلاثمائة وخمسين قبل الميلاد وجد المرويين (أهل مملكـة مـروي) وبقية إقليم السودان لهم منازل من الحجر والقش ومزارع للـذرة والقطـن. وهـذا الجانـب التاريخي يحكمه عالمنا وأستاذنا الباحث البروفيسر عبدالقادر محمود الـذي دشّـن بتوفيـق الله سلسلة تاريخية سماها (هكذا السودان) وأنا أترجمها (يا هو ده الـسودان) صـدر منهـا كتابـه الأول عن بعانخي وسيليه تهراقا ثم السيدة العذراء ثـم الإمـام المهـدي. بـارك الله في عمـر البروفيسر وجهده فهو القدوة في التحري والتدقيق والمثل في الصبر على البحث وَفَّقَهُ الله. والذي يطالع كتابات الرحالة من أمثال ألن مورهيد وبوركهارت وبيكر ودينو وغيرهم ممـن كتب عن السودان القديم يصاب بالحياء من الأمية الصناعية المعاصرة التي نعيشها في عصر العولمة. قالوا كانت صناعتنا الجلديـة في سـلامة الـذوق والمتانـة تفـوق رصـيفاتها المـصرية والشامية بل تكاد تبلغ في الجودة الجلد الروسي وكان الصندل الجلدي السواكني من الشهرة بحيث يعرف في كل البلاد العربية وكانت اليمن والحجـاز ومـصر تتنـافس علـى البـضائع

السنارية والسواكنية، قال بوركهارت (وقل من الحجاج من يبرح مكة بغير حصيرة سواكنية صغيرة مصنوعة صنعاً دقيقاً). وكانت مصانع الدمور في سنار تزوّد السودان كله ثم الحبشة وأن مناسج القطن بسنار والباقرمي (غربي دارفور) تزوّد أكثر بلاد إفريقيا الشمالية الشرقية بالقماش. (بس نحن فالحين في اختراع أسماء الثياب وموضاتها الناس يحلموا لينا ونحن نعزل) حتى أصبح للسودانيين دون خلق الله أسواق ثياب خاصة في كل مدن المهجر الناطقة بالعربية وبغيرها وأصبحنا نصنفها بثياب سهرة وثياب مرقة وثياب جارات وثياب جِد وثياب بيت ونسمي خاماتها حراير وشفونات وكربات وتوتلات وبولسترات، ونسمي أشكالها مشجرات ومطرزات ومخرمات وكاروهات وجاكارات وسادة ونطلق على هيئات اللبس ثوب ربط وساريه ، وكان في القديم يقال فتقة وفتقتين. ونجعلها موضات مثل اب قجيجة ورسالة لندن وطريق الشوق والمغترب ثم الهجيج واللهيب والنار ولَّعت والدلع والخط السريع والمراية وسوار الدهب والشبح وأخيراً الصحَّاف ولم يعجبني منها إلا ثوبِ واحد سموه (القسيمة تحت المخدة) يعني إذا ما عجب السِّتْ فالباب يفوّت جمل. ولا تظن أخواتنا أنهن صنعن شيئاً فالحبوبات كن أشطر على الأقل يصنعن ويخترعن التسمية. وأسماء الثياب قديمة والشاهد عليها ما ورد في الحديث أعلاه وهو الخميصة قيل كانوا لا يسمونها خميصة إلاّ إذا كانت فيها خطوط تلك الخطوط التي أعجبت المصطفى صلى الله عليه وسلم. والثوب المخطط أو المقلم معروف منذ الجاهلية قال امرؤ القيس :

تَجَافَى عن المأْثور بيني وبينها وتُدْنِي عليهَا السَّابُرِيَّ المُضَلَّعا

وقد أثبتُّ في كتاب امرئ القيس والحاردلو أن السابري المضلع هو(الفركة) وهو الذي قال فيه الحاردلو:

وكِتْ راقَتْ معاي وبي اب سَحَالي اتَغْتَّتْ زَرَقَتْ قَلْبي بي فَتَّاً سَنِين ومَلَتَّتْ

والفَتُّ هو الرمح. ومن أسماء اب سحالي القديمة عندنا أبو صفيحة وأبو عكاكيز وأبو سيحان وأبو كناره وأبو زيق وكله قريب من شكل الفركة (وطلّعتها ليكم عربية) رغم أنها

من الثيابِ الخاصة حتى قالت إحدى الشامتات في محاربة ظاهرة النفاق في الحداد على الموتى:(**غشّن على الميتين، بالليل فِرَكْ وبالنهار دلاقين**). واب علجه عندهم أيضاً هو الثوبِ المخطط بالأحمر والأسود تماماً كتخطيط الحُقْ والبرش والفركة وهذه ألوان تراثنا الأثيرة ولها مدلولاتها قال الشايقي يطمّن صاحبته ويمنيها:(**لباسك يبقى من الكِسَوْ الغوالي من الفركة لا قرن اب سحالي**) وقال محلّق صاحب تاجوج بعد تبدل أحواله:

قول لي نسيبتي ديك أم فَلَجَة   بعد الدُّلْكَةْ زَيِّ الـمَلَجَةْ   وبَعَد العنقريب أب علجة

راقد فوق بريش في الدلجة.

وكانوا يعرفون الشيفون والشنتيان ولا يفهم أحد أنه الستيان كالعربي الذي أرسلته زوجته إلى السوق يشتري لها ستيانة (الركامات التي تحمل الثدي) فنسي الاسم وقال للبائع(**أعَطِيْنا** طاقية أبو راسين). أما الشنتيان فهو المذكور في شعر ود الفراش:(**مورد لونو يعجب شنتيانا**). ومن ثيابهم البسيطة ثوبِ الزراق قال الشايقي: (**الزراق فوقا تقول حرير**) وطبعاً الكلام على الشماعة. وقال الحمري(**ثوب البوبلين الجار ما بحمل الدبار**) يعني لا يتحمل البهدلة. ما شاف الشفون والحرير الذي يدخل في الخاتم ويخرج كأنه خيط لكن من قر عيناً بعيشة نفعه. ولهم ثوبِ (البرصة) وأحسبها (البورصة) قال الشاعر : (**ترفع في البرص منها الشباب حرجان**) وقال ود سعد في الإمام المهدي (**زهدت النِّسا في الدهب والبرصة**) وقالت الأخرى:

جابولي شيوماً كلو غالي   البرصة والجنفص وابسحالي

قال الأستاذ الطيب صالح مرة (الشيوم) لعلها من (الشام) وهو اجتهاد وجيه ولكن عندي خبرها وليس هذا موضع تفصيله ولكنها حبشية، قال النجاشي للصحابة في الهجرة الأولى (اذهبوا فأنتم شيوم) وأسالوا خليفة ود اب صالح أستاذي البروفيسر حسن الفاتح قريب الله. وكان لهم البنقالي وكيد الفقير وتوبِ العِنْ وأبو أرضية وتوب القبلة -بكسر القاف- يجلب من الحجاز. وكان لهم السرتي وهو من أعظم ثيابهم ومن أغاني الجابودي :

يالسرتي اب حباكه يا الفوقو الناس تتباكى إن جاني الموت ما يكفنوني براكا)

ومن هذه الأبيات أخذ الشيخ الصابونابي رواية مدحته الشهيرة (يا بلح المدينة) وقد جاراها الشيخ البرعي في (نخل المدينة) ثم تبعهما الناس.

والكردفانيات صاحبات ظرف وذوق ، كان لهن ثوب اسمه (الدنيا زالت) قالت إحداهن (**بمشي وبتّالت حنجور جِدَيْةَ العالت خُتْ القماش لا تشيل الدنيا زالت**) تتغنَّج في مشيها ولها جيد كجيد غزالة في مكان مرتفع. ومع ذلك استوردوا الثياب الهندية وكانت من ملبوسات الخاصة قال الحاردلو:

بعد ما بقيت مِفَلّسْ وعادِم الجَرَقَنْدي يا محبوبة لا متين نَتْقَلِدْ في الهندي

والجرقندي عملة تركية كالمليم . وقال آخر :

القايم دقاق باشندي نيْ ما بشلّلولو الهندي

وهذا من باب (**جاهلة صغيرة لسع يا دوب ما بتحمل لباس التوب)**

وقولهم (قايم دقاق ونّيْ وجاهلةْ) تراث غزلي يحتاج إلى مفكرة خاصة . وهذا غيض من فيض المقالة المذكورة .بس الله يستركم من فورة شهوة النسوان لموضات الثياب التي قد تثيرها هذه المرافعة. ولو صبر إخواننا المعترضون حتى يصدر الكتاب المذكور لكانوا أراحوا واستراحوا.

ده كلام جرايد*

كان عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي هو والبحر سواء في العلم (وطولة البال) وكان يتعقّب الشاعر الفرزدق ويُلحّنه – يعني يخطئه – في بعض أشعاره فأنشد الفرزدق مرة بيتاً فيه (مُسْحتاً أو مجلَّف) فقال له الحضرمي : على أي شيء ترفع (أو مجلّفُ)، فقال له الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك .وغضب منه وهجاه بأبيات منها :

ولو كان عبدُ الله مَوْلَىً هَجَوْتُه   ولكنَّ عبدَ اللهِ مَوْلَى مَوَالِيا

فقال له الحضرمي : قد لحنت أيضاً في قولك (مولى مواليا) وكان ينبغي أن تقول (مولى موالٍ) . شوف طولة البال ! فعلى الرغم من أن الأمر وصل إلى الهجاء ولكن الحضرمي كانت تهمه سلامة الكلام هجاءً كان أو مدحاً .

ويبدو أن الإخوة في التحرير يريدون ترويضنا فقد بشّرناهم بأننا سنبدأ معهم في الأسابيع القليلة القادمة إن شاء الله في نشر سلسلة جديدة من العادات السودانية (الكتاب الثاني) فأصبح حالهم معنا مثل حال مقطوعة الطاري التي (هدوها من الدُّواحة باتت كتُر) قلنا لهم أوقوعتمونا في أربعة أخطاء في المفكرة السابقة فأبت مكارمهم إلا أن يجعلوها في هذه المرة خمسة أخطاء دفع ثمنها (كاش داون) أخونا سعادة المدير العام دباقر ، فقد قطع عليه الجوال والفاكس نومة عميقة في صيف جدة المولّع وقلت له يا دكتور إما أن ترفع يد التحرير من التدخل في مقالاتي أو أرفع أنا يدي من صحيفتكم بباقي كرامتي . وللفائدة وجبراً لخواطر الكثيرين الذين اتصلوا بي مسرورين لعودتي للكتابة أقف عند خطأ واحد منها – ولآخر مرة – فقد قلت (وكنت مكَلّفاً الرَّدَّ) هكذا مضبوطة في الأصلين اليدوي والمطبوع فتفضل المصحح وأضاف باءً لتصبح (مكلّفاً بالردّ) قلت لدكتور باقر من أين لمصححك المتحذلق هذه الباء والنابغة يقول :

لَكَلَّفْتَني ذَنْبَ امرئ وتَرَكْتَهُ   كَذِي العُرِّ يُكْوى غَيْرُه وهو رَاتِعُ

---

* صحيفة الخرطوم ١٤ أغسطس ٢٠٠٢م.

ويقول آخر :

كُلِّفَ من عنائه وشِقْوَتِهْ بِنْتَ ثماني عشرةٍ من حِجَّتِه

والشاهد (كلّفتني ذنبَ) و (كُلِّف بِنْتَ) دون باء . فإذا كان الأول مظلوماً حلّ به العقاب لجرم جناه غيره كالبعير الأجرب يكوى غيره وهو يبرطع وإذا كان الثاني يستاهل جزاء التصابي فهو قد بلغ من الكبر عتيا فما له ومال الشابات ولكن الشلاقة عاقة ، فما ذنبي أنا في أن يقوّلوني ما لم أقل ؟ ويعلم الله أن العكننة ليست في قاموسي ولا أقصد تتبع الأخطاء لعلمي أن العصمة لا تكون إلا لأولي العزم من الرسل، ولكن لا نريد أن تكون الصحافة هي مضرب المثل في قلة الجدوى فنحن نتعامل مع الناشئة ونعلم أن وسائل الإعلام هي من أكثر وسائل التَعَلُّم الإيجابي والسّلبي نفاذاً ، ونعلم أن الصحافة من أهم هذه الوسائل وأشدها تأثيراً في الناشئة .ولا نرى الكتابة في الجرايد (كلام جرايد) يعني لا فائدة فيه ولا جدوى منه وإلاّ فنحن عابثون ننشر العبث . وعندي أن الخطأ في الصحيفة أشنع منه في غيرها لأنها أكثر شعبية وتداولاً ولأن الناشئة وأوساط الناس حين يقرأون لكاتب في صحيفة يحسبون أنه لا يأتي الخطأ ولا يعرفه فيأخذون كلامه مسلّمات ، وهنا يكمن الداء لأن كثيراً من الكتابِ يصدق عليهم قول الشاعر :

تَعِسَ الزمانُ لقد أَتَى بِعُجَابِ وَمَحَا رُسُومَ الظَّرفِ والآداب

وأتى بكُتّابٍ لو انطلقت يدي فيهم رَدَدْتُهُمُ إلى الكُتّاب

وحين بدأت نشر سلسلة مقالات في هذه الصحيفة في السنوات الماضية قابلني في ردهات الجامعة أحد أساتذة اللغات الأجنبية وهو تربية خواجات فقال لي : حرام عليك يا أخي ما سمعت الناس بقولوا (ده كلام جرايد) فكيف تنشر مقالات بهذه الرصّانة والعمق في جريدة ؟ لم أوافقه على ذلك بالطبع فالكتابة للصفوة وحدها فيها جناية على عامة الناس الذين ندين لهم بالكثير والمعرفة ليست حصراً على أهل الثقافة العالية . وقد تجد معلومة في جريدة لا يمكنك الوصول إليها في أمهات المراجع . وبقليل من المرونة تستطيع أن ترضَي

وتفيد العامة وأهل التخصص على السواء . وليس كل ما يكتب في الصحف هو للاستهلاك المؤقت فللناس وسائل أخرى لتزجية الفراغ ولكن جريدة (الخرطوم) عودتنا أن نجد فيها كثيراً من الأقلام المبدعة التي لا ينقص كتاباتها إلاّ الحواشي بما فيها من توثيق لتصبح بحوثاً علمية رصينة .

أما قصة الحضرمي التي بدأتُ بها فأنها تقودني إلى ملاطفة أستاذنا الدكتور إبراهيم دقش الذي بدا غاضباً علينا في هوامشه المُتُون ، فالعين لا تعلو على الحاجب يا أستاذ ، وإنما أنتم شيوخنا ونحن تحت قاماتكم الباسقة أشبه بالعشب في أصول النخل الطّوال . وهل نَتَزَبَّبُ ونحن حُصْرُم ونبيع المُوية في حارة السقايين ؟وإنما نريد أن نتعلم منكم الأناة وسعة الصدر ولنا عندكم باقٍ ، فليست الواو وحدها هي التي ليست في أصل بيت جبل التوباد وإنما الواو والياء والألف (ويا) وهو ما عنيته بزيادة الوتد المجموع . والبيت من بحر الرمل التام محذوف العروض محذوف الضرب ومَخْبُونُهُ . أما بيت ابن كلثوم فمن البحر الوافر ، وإذا حتّمت الضرورة على الشاعر حذف شيءٍ تحتّم علينا أيضاً أن نتبعه ونحذف ما حذف حتى لا ينكسر وزن البيت . أما الرواية ففي محفوظنا المتواضع (إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ) وهي رواية الخطيب التبريزي والزوزني وغيرهما من ثقاة رواة المعلقات . ومع ذلك فسنقبل روايتكم فأنتم عندنا محلّ الثّقة ومنكم نستفيد أستاذنا . قالوا تلاحى الأصمعي والشيباني – وهما علما زمانهما – في رواية قول الشاعر :

عَنَتاً باطلاً وظلماً كما تُعْتَرُ عن حَجْرَةِ الرَّبيضِ الظِّبَاءُ

وهذا نظام (زوغان) من الوفاء بالنّذر ، فقد كانوا ينذرون إذا بلغت إبلهم مائة أن ينحروا شاة ، فإذا بلغت المائة صادوا ظبياً فذبحوه .شوف البخل والظلّم ! المهم أن الأصمعي روى (تُعْنَزُ) يعني تطعن بالعنزة وهي الحَرْبَة ، وروى الشيباني (تُعْتَرُ) يعني تذبح . وأصرّ كلٌّ منهما على روايته وجعل الأصمعي يصيح ويشغب فقال له الشيباني : تكلّم كلام النّمل

وأصِبْ ، والله ولو نفخت في شَبُّور يهودي وصحت إلى القيامة ما نفعك شيء . وكلام النّمل يضرب به المثل في المبالغة في الخفاء و السرّية حتى قال الشاعر :

ويعلمُ عِلْمَ الحُكْلِ لو أنَّ نمْلةً تُسَاوِدُ أخرى لم يَفُتْهُ سِوَادُها

يقول : لو أن نملة من الحُكْلِ وهي العجماوات همست في أذن أخرى لفهم ما بينهما من سر . يعني إذا كان الحقُّ معك فلا ضرورة لرفع الصوت فإنك لو نفخت في بُوق يهودي فإن نفخك لا يثبت الباطل ولا يغطي على الحقّ . ويبقى لكم التقدير والأستاذية ولنا الفائدة وأدب الطلاب مع الشيوخ ، ولا عدمناكم أستاذنا .

فاكس :

الأستاذ السَّاخر ومُرَوِّج المساخر الزعيم ياسر ، أراك جعلت لرهطك من الساخرين إماماً فمن خليفته يا ترى ؟ جزيت خيراً أخي على وفائك للأستاذ الكبير رحمه الله . وهكذا تكون التلمذة الحقّة .

دارفور وتشحيذ الأذهان (١-٢)*

كنت بعثت بهذه المقالة المطولة إلى صفحة (الإطلالة) قبل شهر ويبدو أنها لم تصل إلى بريد أستاذنا د. حسن أبشر فخطرت لي فكرة اليمني الذي تبرع لأهل البلد بجامع شريطة أن يجعلوه إماماً فلما اكتمل الجامع رأوا أنه ليس أهلاً للإمامة فاعترضوا على طلبه فقال لهم (تَعْمَلُوني إمام ولاّ أقص راسو (يعني المئذنة) وأقلبو فرن (مخبز). فهأنذا أقص رأس الإطلالة واعملها مفكرتين بعد الاختصار والتعديل.

قال لي بعض المفتونين بالسياسة: لماذا لا تسخر قلمك هذا في السياسة؟ قلت ومتى كان الكُتّابِ يبرمجون ويوجهون؟ الكاتب ليس خياطاً – والخياطة مهنة من أشرف المهن وكان لقمان الحكيم خياطاً، ولكني قصدت أن الخياط يعمل وفق رغبة الزبون. ثم ما الذي جنيناه من السياسة بمفهومها الحزبي القديم، لقد اندلعت مشكلة الجنوبِ في العام الذي ولدت فيه ونال السودان استقلاله ولم أبلغ عاماً من العمر ومنذ ذلك التاريخ يشتغل الناس بالسياسة بمفهومها البالي إلى يوم الناس هذا فما الذي صنعوه؟ الذي نراه عند كثيرين هو من السياسة كنسب الفيل من الأتان.لأن السياسة حسن التدبير وليست الألعاب القذرة ولا الشطارة في خلع اللقمة من الأفواه وخطفها من الأيادي ولا سحب الكراسي من تحت الجالسين.

نحن اليوم لا نحتاج إلى سياسة بهذا المفهوم، نعم نحتاج إلى من يقودنا ويوجهنا لأنه لابد لكل سفينة من ربان ولكننا نحتاج قبل ذلك إلى الرِّضا ببعضنا والثقة فيمن يتقدمنا وأن نكون له عضداً وساعداً، وهذا ما يوفره الأدب والتراث إذا فهمناه وهضمناه وتمثلناه ناهيك بالدين الخالص. لذلك سأبقى أكتب في الأدبِ والتراث واللغة فهي عندي أهم مداخل الهوية (والذي لا تعجبه كتابتي يفُطّني).

---

* صحيفة الخرطوم ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤م.

ومن كتب التراث ذات الصِّلة بحديث الساعة كتاب الشيخ محمد بن عمر التونسي الذي سماه (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) كتبه قبل مائتي سنة طاف بأقاليم دارفور وعاش بين أهلها فخرج بما لم يخرج به المتشدقون عبر القنوات الفضائية.

وقد زاملت أربعة من أبناء الفور ومضت عقود من الزمن لا أعلم أين هم الآن من خريطة الدنيا والأحداث، كانوا يمثلون أصناف النفس البشرية تمثيلاً دقيقاً، أحدهم اسمه إبراهيم طيب بسيط نقي السريرة لدرجة السذاجة لا يعرف من الشر شيئاً وكنا وقتها ما نزال طلاباً بالجامعة ونمارس التدريس متعاونين في بعض مدارس الخرطوم الثانوية للبنات. وكنا مرة نراقب الامتحانات وكان في أحد الفصول مصطبة عالية في مؤخرة الفصل فكان زميلي العزيز يصعد بحسن نية فوق هذه المصطبة رغبة في إحكام المراقبة لا أشك في ذلك أبداً، ولكن بعض (عفاريت) الطالبات تنمّرن من تصرفه فبدأن يدنين عليهن من جلابيبهن ويعدلن الثياب ويسدلن الطرح على جيوبهن (الجيب هو فتحة العنق والصدر في أعلى الفستان) كأنما يتهمنه بتعمد ذلك التصرف ليطل عليهن من عَلٍ. فسحبته بلطف وأفهمته الشعور العام، فقال لي ببساطة (أنا ذاتوا ما قاعد نعاين تحت). وفي أواخر المرحلة الثانوية –وكنت حديث عهد بالداخليات– كان زميلنا حامد الفوراوي الله يذكره بالخير ليس له هم سوى (تصليح رأسه) فدخل علينا ذات ليلة وهو (عامل سِتّة) وكنا قد تعشينا فولاً ولم نرتب المكان بعد وتناثرت بعض حبيبات الفول المصري على البلاط، فقال (من العليهو) إنت جوكم غنم هنا ولا شنو؟ ظن الفول بعراً –أكرمكم الله–. ويبدو أنه كان في أول (النَّعنشة) إذ وجه الشبه قريب بين الفول وما هداه إليه نظره (المطشش) وهو لم يصل بعد مرحلة قول أهلنا (فلان سكران سكره يقول للجمل بِس) على عكس قول الأعشى:

شربتُ الراحَ بالقَلْتَيْنِ حتَّى   حَسِبْتُ دَجَاجَةً مَرَّت حمارا

انظر رحمني الله وإياك إلى حكمة تحريم الخمر التي تلعب بالعقول بهذه المستويات الثلاثة من التكبير والتصغير والتدوير حتى يرى شاربها الفول بعراً ويرى الآخر الجمل قطاً (كديساً) ويرى الثالث الدجاجة حماراً. بل رأى امرؤ القيس الخيل غنماً في قوله:

ونشربُ حتى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنَا نِقَاداً وحتى نَحْسَبَ الجَوْنَ أَشْقَرا

النقاد: جنس من الغنم قصار الأرجل، والجون: الأسود، والجون الأبيض أيضاً، والأشقر: الأحمر.

هل هذا شيء يتبجَّح المرء بشربه في الفضائيات كما تفضل أحد أصحاب قضية دارفور في أوروبا حين صرح في إحدى الفضائيات بأن الويسكي من مكونات مائدته اليومية. لقد كان من أدب المبتلين بشرب الخمر عندنا أنهم لا يقربونها إلا بعد أن يصلوا العشاء يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً راجين غلبة الخير على الشر وآملين في الله الذي يقبل التوبة من عباده. بل كان من لياقة أهله الفور خصوصاً وحسن أدبهم فيما يرويه التونسي في (تشحيذ الأذهان) أنهم كانوا إذا شربوا الخمر يمضغون فروعاً من شجر (الشَّعْلُوبِ) لكيلا تشم رائحة الخمر من أفواههم. قلت: ولو عرفوا فاعلية حبوب الكزبرا في ذلك لراجت تجارتها. قيل إن الخبراء (يقرشونها) فلا تبقى للخمر أدنى رائحة هكذا كان دأبهم وأدبهم. فلو عرفوا أنه قد خرج من أصلابهم من يتبجح بذكر الخمر ويفخر بشربها على الملأ لأعفوه قطعاً من تكبد مشاق الدفاع عن قضية الإقليم من شرفات الفنادق الأوروبية. ولطالبوه بتطهير نفسه قبل مطالبته بإيقاف التطهير العرقي ولذكّروه بأن معظم أهله في حواشي أقاليم السودان يعيشون في عشش ورواكيب في قرى صغيرة وفرقان مبعثرة لا في قرى محصنة من غابات التيك والزان والمهوقني والأسمنت حتى يزعم حرقها وتدميرها وتمرير الخدعة على السكارى من أمثاله الذين نما لحم أكتافه من خيرهم. وينفذ مخططاتهم.

استفيدوا بني جلدتي من تقنيات أوروبا الصوتية مثلاً -لا من تقنيات مصانع الويسكي- واصنعوا لنا معجماً في الفوراوية كما صنع (نالختيال) الألماني في معجم اللغة

الفوراوية وبذلك نتقارب ونقترب لأن القعدات والليالي الحمراء لا تقرب بل تخرب لأنها تخرج المدسوس وتجعل الرواسب تطفو على السطح. ألفوا للأجيال منهجاً في لغة الفور نسبر به غورها وغور تراثها فقد نفلح أكثر منكم في سبر أغوارها كما فعل المسيو (جومار) الفرنسي، والفرنسيون الآن من أكثر أمم أوروبا حُمّى وسخونة بسبب دارفور لا حباً في سواد عيون أهلها ولكن لأن رأس السوط مسّ أطراف إمبراطوريتهم ووصل إلى مصالحها وتريد أمريكا التي عجزت عن جرها إلى العراق أن تجرها إلى الحلبة حقداً وانتقاماً فغزتها في عقر دارها ومنطقة نفوذها في إفريقيا، وهم يجعلون خفاف العقول وقصار النظر من أبناء الشعوب دائماً أدوات ومخالب لتنفيذ مخططاتهم. وأقول لأصحاب النعرات القبلية ما قاله الشاطر بصيلي قبل عشرات السنين في تاريخ حضارات وادي النيل: "العرب كانوا يهدفون إلى تحقيق مصالحهم مع المحافظة على حق الأفارقة [والدليل أنهم تزاوجوا منهم وانصهروا فيهم] والغربيون يريدون تحقيق مصالحهم الذاتية يستخدمون فيها الإفريقي دون الاعتراف له بحقوق تزيد على المحافظة على بقائه على حياته البدائية". فهل يقول واقعنا اليوم غير ذلك؟ وهل لكل ما يجري في دارفور من دافع سوى صرف الأنظار عن إخفاق أمريكا المستمر في أفغانستان والعراق في عملية تسخين لحملة الانتخابات التي داهمتهم.

لا مُشَاحَّة في أن يرفع إنسان قضية أو ظلامة فذلك أمر مشروع ومصادرته أو كبته حَيْفٌ وظلم ظاهر ولكن صاحب القضية العاقل يعرف متى يرفعها وكيف يرفعها ولمن يرفعها. إن الذي يدخل السودان على متن طائرة أمريكية ويتربع -لا سمح الله- على كرسي السلطة بعد أن يترجل عن دبابة هل يظن أنه سيتربع على قلوب السودانيين، سيبقى قيئاً في جوف السودانيين وسيقذفونه يوماً ما في مزبلة التاريخ.

أما زميلنا الثالث (أحمد) فقد كان آية في العقل والرزانة والجد في التحصيل وطيب المعشر وحلاوة اللسان والمروءة. يعود من العطلة محملاً بأوراق التابا (التبغ) المحصودة لتوها

من مزارع كتم و أم كدادة فيعدل الرؤوس (الخرمانة) (نَيْ ونُجيض) النى التمباك والنجيض السجائر (التباكو). ولو تركنا إخواننا مؤججو الفتنة من فنادق أوروبا وأمريكا لانسابت الحيلة كما دأبنا عليها نستخدم كلمة التابا والتيراب (التقاوي) والدرت (موسم الحصاد) والدقلة (للشيء الصغير) وهي فوراوية مثلما نستخدم النعقريب والبعشوم (الذئب) والشمباني -وليس الشمبانيا- والأرباب وكلها بجاوية ونستخدم التقنت والماروق والفوسيبة وكلها نوبية ولكن لا أحد منا يقف عندها ليعرف أصلها لأنها سودانية وكفى. وقد شاعت كلمة (التيراب) عند أهل الزراعة و(التابا) عند عامة الناس فدخلت الأخيرة معجم الدوبيت والشعر البلدي بكثافة ملحوظة قال الهمباتي:

يوماً كَرْبتِيت ويوماً عَشَانا رَبيت　　　يوماً نَشْرب التَّابَا وعليها نَيِيت

قال التونسي "الدخان بلغتهم يسمَّى (تابا) كما يسميه الإفرنج. قال وهذا الاتفاق من العجائب وأورد فيه أبياتاً طريفة ذكرتني بالحملة الشرسة التي قادها بعض العلماء على شرب الدخان (التباكو) وكله يسمى (التنباك) أيام الأتراك والناس بين محلل ومحرم له وامتدت آثارها إلى السودان على أيام الشيخ إدريس ود الأرباب وكانت فيها المداولة التي جرى فيها السؤال المشهور: من راسك ولا من كراسك؟

أما أبيات التونسي عن التابا فمنها قوله:

ومن يدعي التحريم جهلاً فقل له　　　بأي دليل أم بأية آية

وليس بها سُكْر ولا الله ذمها　　　فقولك بالتحريم من أي وجهة

فإن تنتشق دخانها سترى الشفا　　　فلا تنس باسم الله أول مصَّة

وقل بعد ذاك الحمد لله وحده　　　فحمدك للمولى زيادة نعمة

ولو سمع إخواننا الحنابلة بهذه الفتوى لما وسعت صاحبها أرض ولا سماء، ناهيك بأمره للمدخن بأن يسمي الله عند أول (نَفَس) وأن يحمده ليزيده من فضله ومن قرّ عيناً بعيشه نفعه!

دارفور وتشحيذ الأذهان (٢-٢)*

وصلاً لما انقطع في المفكرة السابقة كنت ذكرت ثلاثة من زملائي الأعزاء من دارفور أما رابع الزملاء فأستاذ طالما دغدغ الطباشير خياشيمه في مدارس وزارة التربية، ثم انتدب لإكمال تعليمه بالجامعة بعد أن صار مدير مدرسة أو كاد وكانت هذه الفئة من طلاب جامعة الخرطوم المميزين، رواتبهم مدخرة وترقياتهم محفوظة والجامعة توفر لهم ما يحتاجون وفوق ما يحتاجون ووجدوا في أبناء الإقليم ضالتهم المنشودة لمواصلة دور الأستاذية والرئاسة فكان بعضهم يصدر صحيفة حائطية أظنها (جراب الرأي) كانت حاملة دعوة انفصال الإقليم الغربي في ذلك الوقت فكنا نسألهم عن موارد هذه الدولة المرتقبة ولم تكن لهم إجابة ولم نكن نعلم نحن ولا هم أننا نجلس فوق بركان خامد مثلما تجلس دارفور فوق بحيرة بترول فتفجر البركان اليوم قبل أن يتفجر البترول. وإذا كانت لأهل دارفور قضية فإن لبقية أقاليم السودان قضية أيضاً فالتهميش سمة جامعة لكثير من بقاع السودان ولن تزيل أمريكا التهميش لأنها كما يقول المثل (غَلْفَ... وشايلا موسها تطهر) لأنها غارقة في التهميش حتى في بعض أحياء أفخم مدنها.

فالذين يطلون علينا من فضائيات الدنيا ويستعرضون وجبات الفنادق المشتملة على الويسكي هل يظنون أن دخول أمريكا إلى السودان سيزيل التهميش ويسيل أنهار الويسكي في شوارع السودان؟ نظرة واحدة في واقع العراق اليوم –واللهمَّ لا شماتة- تبين لك فداحة الجرح الذي يخلفه دخول الأجانب بين (اللَّحا والعود) أو (بين البصلة وقرفتها). ستظل الأجيال الحاضرة واللاحقة تلعق جرحاً لا يندمل بسبب التدخل. والأمم الواعية هي التي تعالج جرحها بيدها على طريقة (كلام الأقربين بسدوا عليه الباب). وقد عالج تراثنا بعمق رغم ما يبدو من سذاجة اللفظ مثل هذا الانفصام في قول أهلنا (ما حَكَّ جِلْدَكَ مِثْلُ ظُفْرِك) أما الغزاة فإنهم دائماً يسيرون بالمثل المغاير (جلداً مو جلدك جر فوقو الشوك). ودعونا من العراق والنماذج الأخرى في أفغانستان وغيرها ولكن تأملوا تاريخ السودان القديم اقرأوا

* صحيفة الخرطوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٤م.

(كاتب الشُّونة) لتعرفوا مقدار القتل الذي وقع في المشايخ والعلماء والدمار الذي أصاب البنية التحتية بالنهب والسلب أيام الأتراك. وانظروا إلى انحراف خط الثورة المهدية وشيوع القبلية والفتن وقتل الخصوم وتمثلوا انتقام كتشنر وإباحة العاصمة تدركوا المطامع القديمة في السودان. وإذا وقع الفهم الصحيح لأوضاعنا وكان هم السودان جماعياً استطعنا تفويت الفرصة دون ضوضاء أو ضجة وخسائر. أما إذا وقع الفاس في الراس فلتعلم الرؤوس والأذيال دون هتاف أو ضجة أننا كما قال شاعرنا القديم :

نحن قلوبنا واعية حاشاها ما ها عَميَّة

نحن عُرُوضنا بالتُّقَى والعفاف مَحْمِيّة

نحن فَقَارَةْ جَدْ لكن شعورنا سَنِية

سُود لكن أسود واحد يقابل الميَّه

القضية إخوتي قديمة ولكن الجديد فيها أنها خلعت ثوب (السودانوية) -وهذا المصطلح لأخينا الدكتور غازي صلاح الدين- ولبست ثوباً هو ثوب العار والشنار والتاريخ يبرهن على أن أصحاب مثل هذا التصرف الهجين هم الخاسرون دائماً في النهاية لأن الغزاة دائماً وأبداً يأتون بأجندة خاصة بهم وإن غلفوها بنصرة المستضعفين.

نحن ما صدقنا أننا (جَبَدْنا نَفَسْ) من مشكلة الجنوب، فكانت دارفور هي فرس الرهان الجاهز للمتربصين بنا والله أعلم بما يليها أيكون في الشرق الصامت أم في الشمال الذي يلوح مثقفوه بالتهميش بين الفينة والفينة. ارفعوا دعاواكم واسعوا إلى إزالة الضيم عن أهلكم ولكن ليكن ذلك بوطنية صادقة وبعقول متفتحة وبقلوب وسواعد سودانية.

وقد طافت بخاطري هواجس وأفكار وأنا انظر إلى جلسة توقيع اتفاقية السلام في نيفاشا والروح السودانية المتسامحة. انظر إلى المشايخ حسن الفاتح قريب الله وشيخ البيلي وقومه ممن أحسب أنهم كانوا لا يطيقون رؤية قرنق، وأرى المثقفين من كل نوع يطلقون الضحكات المجلجلة. انظر إلى جون قرنق بنظرة غير نظرته القديمة المكفهرة لأنه هذه المرة جاء يمد يده خالصة لجمع الشمل، جاء وفيه من روح الدعابة ما لم نعهده فيه وهو يعلق على

(جنى التسعة شهور) ومن العجيب أن يعيش جنى التسعة وجنى السبعة ويموت جنى الستة شهور والثمانية فما الحكمة؟ أهي الإشارة إلى الوحدة في العدد الفردي وإشارة إلى الانقسام في العدد الزوجي؟. تأملوا. وعلى كل حال فقد نجح علي عثمان وقرنق وفريقاهما مرتين أما المرة الأولى فقد أطال باله الأستاذ علي عثمان محمد طه الشايقي للعقيد جون قرنق الدينكاوي فصبرا التسعة أشهر وهي فترة حمل كاملة كما عبروا عن ذلك في حينه ونرجو أن يخرج الجنين تاماً صالحاً باراً، وأطال باله للدينكاوي بمثل طولة باله لصديقه اللدود الجعلي. فقد ذكروا أن جعلياً وشايقياً كانا في حافلة فهاجت مِرَّة الحقارة على الجعلي وضايق الشايقي بكل ضروب المضايقة والشايقي صابر يقابل ذلك بكل ضروبِ الدبلوماسية حتى اقتربت محطة الجعلي فصاح على الكمساري "يا زول هوي ما تفوتني محطة الدايات". فلما وصلت الحافلة إلى محطة الدايات ونزل الجعلي إلى الأرض وتحركت الحافلة أخرج الشايقي رأسه من النافذة وصاح بأعلى صوته "هوي الجعلي أمانةً في ذمتك دي محطة ينزل فيها راجل". أما النجاح الآخر لطه وقرنق فقد قيل في أمثالنا (ريسين بغرقوا المركب) فكذب الثنائي قرنق وطه المثل وقادا سفينة السلام إلى ما يقال إنه بَرّ السلامة ونرجو أن يعمل الجميع على أن يكون هو البر. وحين ينسب ذلك كله إليهما إنما المراد الرمز والقيادة فهما لم يحققا السلام بمفردهما ولكن دون شك كانت وراءهما جيوش من الجنود المجهولين. وإذا كان الناس بالجلوس إلى بعضهم يصلون إلى ما يصبون إليه فإن حشر أصحاب الهوى والغرض حماقة تعود بالثبور والهلاك لأهل دارفور أولاً ولأهل السودان في المقام الثاني.

لقد علمنا تراثنا إخوتي أن السوداني يفخر بالسوداني الناجح ناظراً إلى ما حققه من نجاح ومجد ضارباً صفحاً عن أي صفة أخرى من لون أو عرق أو دين. فقد حكم ود أبِ سن السودان وكان أول مدير للخرطوم في زمن كانت فيه عصبية القبيلة هي أساس الملك، ومع ذلك كان محبوباً مطاعاً لأنه كان عاقلاً حليماً حازماً منصفاً. وما اشتهر ملك من الملوك ولا سلطان من السلاطين شهرة السلطان علي دينار، فتقاطرت عليه وفود الشعراء من كل

حدب وصوب لما كان الناس يعجبهم السوداني الفارس الشجاع (المالي هـدومو) صـاحب الملك والدولة والصولة فمدحه الشاعر حسن النافعابي:

الملـــهوف بجيـــك بتـــأمّنو وبِتْحِلُّـــو والبايس الكلالـة يـا الخريـف بِتْبِلّـو

وكت الشوف يشوف تحتـو الجـديري يـسِلُّو والكازاك تعـب بـي إهـانتو بتعجِّلـو

والجديري وأب راكوبه من سيوف السلطان علي دينار المشهورة.

ومدحه الشاعر النيل أحمد حسب الرسول السرورابي الجعلي:

خيلك روّقن لابسات دروع ومغـاتي من قومة الجهل راكب مَحَفَّـل وعـاتي

سيد آدم رجال سيد الملـوك وشـراتي إيدك وابل التَّلْـوي الـصُبْ يومـاتي

وكان كبار أهلنا ممن قضوا شطراً من العمر في دارفـور يتحـسرون علـى ذلـك الـزمن الطيب الذي لا يعرف الفروق والحواجز فيقولون (هلا هلا ده زمن كنا في فاشر أبو زكريا).

وتعجبهم الأشياء الثمينة من أي جهة من السودان جاءت فكانت الخيـول الدنقلاويـة مصدر اعتزاز عندهم لذلك قال شاعر علي دينار:

الليلة العزيـز طالـب بكـان الـصُرَّه فوق زِمْلاً غُلاد والـدُّنقلاوي أبْ غُـرّه

واشتهر أبوزكريا أو أبو حمزة السلطان علي دينار بخيله المؤصلة حتى قال الحاردلو:

جــاتني مدرِّجَـة الـبَهَم الـصُّباهو كبـار تتــضلَّع متــل مَكْلُــوف علـــي دينـــار

وحتى في الأحذية أكرمكم الله فقد كان اقتناء المركوب الفاشري مـن علامـات الظـرف والوجاهة.

ولم ينسوا أن يفتخروا بنساء دارفور كما قال ود الفرّاش: (نَخُشْ دارفور ضِحى نجـالس العسالي) أي ذوات الشفاه العسلية.

فالمدخل إلى الوحدة ليس على دبابات الأمريكان وإنما بالانحناء علـى الـتراث واحتـضانه؛ لذلك ما طالبت وسأظل أطالب بأن ندرس لغات النوبة والنوبـا والفـور والبجـة واللغـات النيلية لأبنائنا مثلما ندرسهم لغات الدنيا حيّة وميتة. لماذا يدرس معهـد الدراسـات الآسـيوية

والأفريقية لغة الهوسا والسواحيلية ولا يدرس لغات السودان. ويبقى المطلوب من المتحدثين بهذه اللغات التقعيد لها لتيسير وصولها إلى المتلقي ليتعرف أبناء الأمة الواحدة تراث بعضهم فإنك لو طلبت ذلك اليوم فلن تجده إلا في بعض الإشراقات الضئيلة والمؤسف أنها كتبت بأقلام غير سودانية تشكر وفضلها لا ينكر ولكنها تبقى جهوداً تصويرية ناقصة تصف ما ترى إذا استطاعت ولكنها لا تستطيع الغوص إلى الأعماق لإخراج المكنونات بسبب حاجز اللُّغة. كجهود التونسي في (تشحيذ الأذهان) يتعرف القارئ فيها جد أهل دارفور في حفظ القرآن وعلومه وحرص ملوكهم على أن يحيطوا أنفسهم بأشهر طائفة من العلماء وتنافس الملوك في استقطاب العلماء وتقف فيها على آثار الملك الأثيل وتقاليده وتتعرف فيها الطب البلدي وفنون أهل دارفور في التداوي المعقول وغير المعقول. وفيها أفانين من ضروب السمر وأنواع الرقص من (الجيل) إلى (اللَّنْقي) إلى (الشَّكندري) وأساليبهم وحيلهم في صيد التياتل والأفيال والجواميس وبقر الوحش والظباء والغزلان وضروب الحياة الفطرية التي انقرضت أو كادت بسبب توسع العمران والصيد الجائر. ثم يتعرف من يتعرف سفاسف الأمور وسطحي العادات من العلاقات الخاصة وغيرها وكلها أمور خاضعة للفحص والدرس والتمحيص وهي تستمر على الزمن فيتساقط ما يتساقط ويبقى الأصيل المفيد. فهلاً التفتت وزارة الثقافة بجهود الشباب العاملين فيها من أمثال أخينا وزميلنا الأستاذ صديق المجتبى والقائمين على العاصمة الثقافية من أمثال أخينا المهندس السعيد محجوب وأستاذنا المجتهد عبد الحميد الفضل والشاعر الرقيق اللواء الخير المشرّف فجعلوا هذا الكتاب واحداً من الكتب التي يتبنون طباعتها بل لو تصدت لهذه المهمة وزارة الثقافة في ولايات دارفور وهو كتاب ثمين قيم ولكنه منقرض أو آيل إلى الانقراض وهو كله ثمرة جهود غير سودانية (تونسية ومصرية وفرنسية) فهل نطمع أن نرى له طبعة سودانية بأيدٍ سودانية وعليه شعار العاصمة القومية ليس تمشياً مع موجة الترضيات السمجة ولكن برغبة صادقة في التواصل لترى الأجيال ما جد وما درس في دارفور وما تطور وما انصهر في غيره منذ أيام التونسي قبل مائتي عام إلى زماننا هذا.ولا نامت أعين دعاة الفُرقَة والتمزيق.

خمّ الرَّمادْ*

أقبل شهر الخير، شهر الرحمة للمقبلين على الله -زادهم الله وشهر الضّجر للمنصرفين عنه- هداهم الله. ولحظات ثبوت رؤية الهلال -هلال الصوم أو هلال الفطر- لحظات ترقب يصل إلى درجة التوتر أحياناً فقد دخل الصبي على أبيه مسرعاً يلتقط أنفاسه وقال: يابا يابا قالوا رمضان ثبتوه. فجلس الوالد ووضع رأسه بين يديه قائلاً (والله جنس شقاوة). ويبدو أن الدنيا كانت صيفاً في الجو وفي الجيوب.

وإذا كان للصائم فرحتان، فالناس في الفرح نوعان نوع يفرح بدخول شهر الصيام؛ لذلك قالوا: "نعاين ليك زي هلال رمضان"، وآخر يفرح بدخول شهر الفطر. والحبيب يقول للحبيب: شوفتك زي هلال العيد. وفرحة الفطر عظيمة حقاً لأن الصائم قد أنعم الله عليه بقضاء النسك وبعودة حياته إلى طبيعتها، لذلك قال بعضهم يشبه مقدار التشوق بالتشوق إلى رؤية هلال الفطر:

رمقوا أعالي جِذْعه فكأنما   رَمَقُوا الهلالَ عشية الإفطار

وعلى الرغم من عظمة هذا الشهر الذي تغلق فيه أبواب النار وتصفد فيه الشياطين فإن قلق بعض أصحاب الهوى من الصيام قديم معروف، خصوصاً إذا صادف صيفاً حاراً أو ضيقاً في ذات اليد وضعفاً في الإيمان. قيل لبعضهم في أي يوم تحب أن تموت؟ فقال: إن كان لابد فأول يوم من رمضان. وكان الخليفة المأمون ومعه جماعة يتحرون رؤية هلال رمضان وأخوه أبو عيسى معه وهو مُسْتلقٍ على قفاه فرأوا الهلال وجعلوا يدعون للخليفة وهي سُنَّة وعادة ما تزال عند كبارنا . فقال أبو عيسى كلاماً أنكره عليه المأمون، فتسخط أبو عيسى وقال:

دهاني شهرُ الصَّومِ لا كان من شهرِ   ولا صُمْتُ شهراً بعده آخِرَ الدَّهْرِ

---

* صحيفة الخرطوم ١٢ أكتبر ٢٠٠٤م.

قال المعري في (رسالة الغفران) فأصابه صرع من وقته فمات ولم يدرك شهراً. والمشهور عن الأعشى الكبير أنه أدرك الإسلام وأراد أن يعلن اعتناقه فتصدى له كبراء المشركين وأغروه بالمال ليرجع عن عزمه، فقالوا له إن محمداً يمنع الربا فقال لهم ما أنا بصاحب مالٍ أخشى عليه. قالوا فإنه يحرم الزنا قال: قد كبرت وما بقيت فيّ سن لذلك. قالوا فإنه يحرم الخمر، قال أما هذه فلا أرجع عامي هذا فأرتوي منها، ثم إذا كان العام المقبل وفدت على محمد وفي طريق عودته سقط من ناقته فاندقت عنقه فمات. وهذا هو الأصل في (خَمّ الرَّماد). فيكون الأعشى بذلك أول من فكّر في خم الرماد ولكنه لم يلحق.ولعلها تكون عبرة لأولي الألبابِ ويكفي هذه الظاهرة سوءاً أن سميت بخم الرماد وهي العبارة التي تطلق عندنا كناية عن الخيبة وسوء المنقلب.

وممن نادى بخم الرماد البحتري في قوله:

فتروّ من شعبانَ إن وراءه ... شهراً يُمَانِعُنَا الرَّحِيقَ السَّلْسَلا

وقال أيضاً يطلب من صديقه خمراً يودعون بها شعبان:

ومما دَهَى الفتيانَ أنَّهُمُ غَدَوْا ... بآخر شعبان على أول الورد
غداً يَحْرُمُ الماءُ القراح وتَنْتَوي ... وجوهٌ من اللذات مُشْجِيةُ الفَقْد
أعِنَّا على يومٍ نشيِّع لَهْوَنَا ... إلى ليلةٍ فيها لهُ أجلٌ مُرْدي

يعني أن الذي أزعجهم هو أنهم أصبحوا في آخر شعبان وسيردون رمضان الذي يحرم فيه الماء البارد ناهيك بالخمر ويفتقدون أنواع اللذات العزيزة عليهم ويطلب من صاحبه أن يعينه على يوم خمّ الرماد وهو آخر أيام شعبان قبل أن يُرْدِي ذلك اليوم ويقتله دخول رمضان.

ولو تتبعت ذلك في أشعارهم لوجدته كثيراً مستفيضاً نحو قول الآخر (رمضان أقبل هاتها يا صاح)، وقول الثالث (أسقني بالكبير قبل الصغير) وكله دليل شره ونهم وجزع من العبادة وضعف إيمان في شهر هو واحد من اثني عشر شهراً من السنة لو جعله الإنسان زكاة

لبقية السنة ما كان كثيراً، دعك عما فيه من الفضل والخير والبركة والتربية والطاعة. ولكن الذي خلق النفوس يعلم أن فيها ضعفاً. قيل لأعرابي: رمضان قد جاء: فقال: والله لأفرقنه بالأسفار يعني (كل يوم في بلد) طلباً لرخصة الفطر ونسي القضاء. وكما كان لأعراب الماضي جهل وجفاء مع رمضان فإن لأعرابنا جهلاً وجفاء في رمضان أيضاً؛ شكا أحدهم لأخيه معاناته من حر الصيام، فقال له أخوه. صدقت والله كان ختينا جرعات الموية البِنَاخُدِنْ مع الوضو كان مُتْنا. وكان أحدهم يستمع إلى الواعظ منهمكاً في ليلة من ليالي رمضان والواعظ يشرح قصة الإسراء والمعراج فقال إن الله تعالى خفف الصلاة على الأمة من خمسين إلى خمس فاندفع الأعرابي متسائلاً بعفوية: يا مولانا دحين ما اتفاكر معاهو في رمضان ده؟!

والضيق بالعبادات محنة تدل على ضعف الإيمان. قال لي أحد مغتربي السعودية جاداً إن أذان الفجر والعصر يروعانه، فأذان الفجر ارتبط في ذهنه بالدوام الأول، وآذان العصر يذكره بالدوام الثاني. وكلا الوقتين غير حبيب إلى نفسه لحرمانها من الدعة والراحة وتذكيرها بالجد والتشمير للعمل. وهذا غير طبيعي إذا كان أخونا هذا منتظم الجدول ينام مبكراً ويصحو مبكراً. وكان أهلنا في الماضي لا تقلقهم إلا صلاة العشاء يخشون أن يناموا قبل أن يحين وقتها وذلك لما عودوا عليه أنفسهم من النوم الباكر. قيل كان اثنان من عمال الزراعة ينامان بعد المغرب من جراء التعب بعد أن يكلفا زميلاً بإيقاظهما لصلاة العشاء، وذات مساء رقدا فلما جاء المكلف بإيقاظهما وجد أحدهما قد فارق الحياة فأيقظ صاحبه قائلاً: يا خوي صاحبك ده مات. فدعك عينيه من بقية النوم، وقال له: الله ريحو من صلاة العشا. أما الفجر فما كان يمثل مشكلة لديهم لأنهم إذا ناموا مبكرين صحوا مبكرين دون شك. وأما العصر فما كان وقت فراغ عندهم بل يدركهم إما في مكان عملهم من زراعة أو رعي ونحوه أو يدركهم خارجين إلى أعمالهم. وكانوا يكرهون نومة العصر على الرغم من أنها لاتصادف منهم فراغاً ليتمتعوا بها ومع ذلك حذروا منها لأن المتبطلين منهم قلة وهم قد يفعلونها لذلك قالوا:

ألا إن نوماتِ الضُّحى تُورث الفتى   خَبَـالاً، ونومـات العُـصَيْر جنـون

لذلك فشا فينا –نحن أهل هذا الزمن– الخبال والجنون وضعف الذاكرة وقلة التركيز وقلة الإنتاج لأننا نسهر فنضطر لنوم الضحى ونتبطل فنحتاج إلى نومة العصر. قالوا حذر الفكي بعض الفقرا من نومة العصر قائلاً: "البنوم بعد العصر أربعين يوم يجِنْ (يصيبه الجنون)". وأصر أحد الفقرا على التجربة ولما أتم أربعين يوماً صحا بعد المغرب فوجد المطر منهمراً فوضع خيشة (جوال) فوق رأسه وانطلق (يفجخ في الطين) إلى بيت الفكي. ثم طرق الباب بعنف فجاء الفكي مفزوعاً: شنو يا فقير نعل ما في عوجة الجابك شنو في المطره دي؟ قال ليهو إنت قلت البنوم أربعين يوم بالعصر بجن والليلة أنا تميت أربعين يوم وما جاني شي. فقال له الفكي ضاحكاً: إنت عايز ليك جن أكتر من حالتك دي؟

وأفضل نومات أهلنا بعد نوم الليل المبكر هي غفوة ساعة القيلولة وقد أثبتت التجارب والطب بفروعه أن ما اعتاده أهلنا من نومة القيلولة هو أعود أنواع النوم بالفائدة على الإنسان.

هذا والفزع من الأذان قديم خصوصاً لدى الذين يقضون ليلهم بين الكأس ومدير الكأس أو إدارة قنوات الفضاء. قالوا أذّن المؤذن فوضع سيف الدولة الكأس من يده تأدُّباً، فقال شاعره أبو الطيب المتنبي على البديهة:

ألا أذّن فمـا أذْكَـرْت ناسـي   ولا ليّنـت قلبـاً وهـو قاسـي

ومـا شُـغِلَ الأمـير عـن المعـالي   ولا عـن حـق خالقـه بكـأس

وهذا حديث يفيض ضجراً ولا شك. تصوموا وتفطروا على خير. واسأل الله بحرمة هذا الشهر أن يجنب البلاد والعباد الفتن.

حَجَّة وزوغة*

في مفكرة الإثنين ١٣رمـضان والـتي كتبهـا الأسـتاذ عيـسى إبـراهيم (عـم عيـسى المصحح) أبهجتني السعادة التي غمرت عم عيسى بأدائـه العمـرة ، وقـد شـحنها بفيض من الروحانيـات، فقلـت إذا حـج عمنـا عيـسى فـسنتوقع سِـفراً أدبيّـاً بليغـاً في أدبِ الرحلات . وحُقّ للرجل أن يبتهج فهو من قومٍ حُبُّ النبيّ عنـدهم فطـرة وطبيعـة ، فـالتراث السوداني خصوصاً تراث المديح النبوي يفيض بالأشواق الحـارة الدافقـة والمـشاعر المتأججـة الملتهبة للحبيب وبلد الحبيب صلى الله عليه وسلم مـن لـدن ود حليـب وحـاج المـاحي في (**شوقك شوى الضمير *** بطراك مناي أطير**) ومروراً بحاج قدورة في (**إن ما لقيت لي عنافي *** نيتي أقوم لو كتافي**) يعني إذا لم يجد بعيراً فليس له صبر وسيأخذها كداري . ثم نـأتي إلى الشريف الهندي في : (**خلِّى القلْبِ متْل الصّار *** بي القومة ولو في عصار**) حتـى نـصل إلى شيخ البرعي بظرفه المعهود وبَصْمَتِه العصرية في قوله :

ناوي اشُقّ التّيه والقِفَارا　　　لي الأغاث مَنْ تنورو فارا

قلبي زادَ هيام دمّو فـارا　　　منتظــر تأشـيرة الســـفارة

وقد مرّ بأهل السودان دهر متطاول _ وما يزالون _ وغاية مُنَـى أحـدهم أن يتـزوج ويحـج ويزور المصطفى وكل ما سوى ذلك هيّن يسير . وكان لقب الحاج عندنا لا يعلى عليه دينيـاً واجتماعياً إلى أن خفف بريقه المغتربون بكثرة ما يحجون (والكترة بتمسِّخ الطعـم) وهـو غرض ثانوي عند بعضهم حتى إن أحد جماعة (عمرة وزوغة) لما فرغ من مناسـك العمـرة قال له زميله القديم : بعد ده باقي ليك المدينة، فقال له : (يـاخوي نحـن جـايين مـن أهلنـا عشان نسويها دُواحة بـالحلاّل ؟ طبعـاً عـايز الريـالات !) أمـا المغتربـون عمومـاً ومغتربـو السعودية والخليج خصوصاً فبفضل الله وبحكم القربِ يعتمرون ويحجون كثيراً ولكـنهم لا يجدون للحـج والعمـرة مـن الحـلاوة مثلمـا وجـد عـم عيـسى ، فـأين الهيلمانـة والبـوش

* صحيفة الخرطوم ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢م.

والكرامات والضبايح وتجديد المنازل وتنجيد الأثاث ويا داخل هذي الدار صلٌ على النبي المختار وحجاً مبروراً وسعياً مشكوراً . والحاج دخل والحاج مرق والحاج قال ليكم . لم يذق المغتربون هذه الأهميات وغاية ما يذوقونه نومة طويلة يستيقظون بعدها على هموم الغربة والعمل وكأننا يا حاج لا رحنا ولا جينا . وعلى كثرة ما يؤدي المغتربون هذه الفريضة إلا أنهم محرومون حتى من كلمة (حاج) والهالة التي تنسج حول صاحبها . فقد جُرِّد المغترب في السودان من كل صفة إلاّ صفة البقرة الحلوب ، والله المستعان .

قلت ذكرتني سبحات عم عيسى وتهويماته بأدب الرحلات . وقد حظيت رحلة الحج بعناية الكُتَّاب بلغات الدنيا المختلفة وكان لكُتَّابِ العربية نصيب من ذلك خصوصاً المصريين والشوام مثل الأمير شكيب أرسلان في (رحلة إلى الحجاز) وكذلك فعل الأتراك والآسيويون والأفارقة وبعض الأوربيين . غير أن السودانيين – فيما وقفت عليه – لم تكن لهم في هذا الفن مساهمات تذكر إلا ما جاء عرضاً في سيرهم الذاتية لمن وفقوا في الكتابة عن حياتهم كالشيخ بابكر بدري رحمه الله وأضرابه. ولكني أعرف محاولة جيدة مبكرة في هذا الفن الأصيل لرجل صوفي كبير وزعيم ديني شهير هو الشريف يوسف الهندي (تُوُفِّيَ ١٩٤٢م) أحد زعماء السودان الثلاثة الكبار في النصف الأول من القرن المنصرم . وأحد كبار العبّاد والعلماء والأدباء والشعراء ومنشئ طريقة دينية خاصّة، وكان أبوه أحد مشاهير شيوخ القرآن في السودان، أعني الشريف محمد الأمين الهندي الذي عمل بتدريس القرآن خمسين سنة حتى عرف قرآنه المجوَّد بقرآن ود الهندي وله مؤلفات في التجويد نفيسة . ألف الشريف يوسف في كل فن في السيرة والفقه والمديح النبوي والتاريخ والأدب والتراث الشعبي ، وبلغت مؤلفاته نحو سبعة عشر مؤلفاً معظمها – على نفاسته – ما يزال مخطوطاً . قلت سجل الشريف يوسف رحلة حجِّه التي كانت في رمضان سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) بدأها بحلة الشريف يعقوب شرق مدني مروراً بمصر ثم الحجاز . ولو وقفت عليها رأيت

العجب في اختلاف الناس والأزمنة والأمكنة ، ووجدت بوناً شاسعاً بين ما وصفه وسجّله وبين ما يصفه ويسجله عمنا عيسى المصحح.

وانبهر عم عيسى فيما انبهر به بالنظافة التي رآها في المدينة والتي قال عنها الشريف (وجدنا المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم أوسع بلاد الله وأطيبها وأرحبها ، وأعذبها ماءً وأعدلها هواءً وأشرفها بناءً وأكرمها فناءً كأنما هي مبنية على القمر لا تشم فيها عفونة ولا تسمع من أهلها كريهة ... ولا يتغير بها مزاج كأنها الجنة لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم) .

وقد كانت النظافة في سوداننا في ذلك الزمن أيضاً مضرب المثل فقد شهد لنا الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوي من أكابر كُتّابِ الحجاز بأنه رأى نموذجاً من النظافة في السودان لم يجده في بلاد العرب، قال (وكان ذلك أثناء الهجرة إلى السودان سنة ١٩٢٢م) نعم هكذا بالنّص ، أيام كان السودان بخيره وكان يُهَاجَر إليه أقال الله عثرته .

ثم عرّج عمنا عيسى على الكهرباء والمياه في المدن الثلاث (المدينة – مكة – جدة) في إشارة ذكية إلى المدن الثلاث عندنا (يلخي شن جاب لي جاب) ولا تذهب الغيرة بأحد فإن من نعم الله علينا أننا نفخر بتلك المدن الثلاث الإسلامية بما لا ينتقص من معزة مدننا الثلاث السودانية فتلك لنا بالإسلام وهذه لنا بالموطن . قال لي أحدهم : عشت في المملكة أكثر من عشرين سنة انقطع التيار الكهربائي مرة واحدة فقط وقد وزعوا علينا إشعاراً بوقت القطع وتاريخه، فقلت له :يا أخي ناس الحكومة ديل أدوهم شوية وِفَاق وسنتين تلاته وحاتشوفو .وعلى الجملة فإن حالة الانبهار التي انعكست في حديث عمنا عيسى تجعلنا نرسل له التهنئة من قلوبنا ولكن بصراحة دي عدّت وجات سليمة (عمرة وعودة) غير أن هذا الانبهار لو تبعته حَجَّة فالله أعلم إنو عم عيسى ما حا يشوف السودان قريب . فانبهاره قريب من انبهار الأخ الذي سافر إلى العراق وهناك استقبلته شلة القعدة القديمة في السودان وطمأنوه بأن الأمور هنا موزعة :ناس الدين براهم وناس القعدات والانبساطة براهم . فغمرت الرجل الفرحة والسعادة، وقال ليهم : يا سلام ديل الهاشميين سلالة الرسول

وآل البيت ونسل العرب الأصليين فاصلين ناس الدين براهم وناس القعدات براهم ونحن ناسنا في السودان في سيدنا بلال ما لاميّنْ ومع ذلك المريسة دي يقولوا لينا حرام !

ثم خرّم عمنا عيسى أخيراً بعد تلك السياحة الروحية فأخرجنا من سعة الدين إلى ضيق الدنيا ، فيبدو أن الحاج حج وجا وقِلّيب البعر ما خلاّ ! وأهلنا قالوا البقلب البعر بلقى العقارب . يا حاج ما كفاية إنو مكيفات الحجاز خربت طبعكم وخلتكم جيتو لبدتو في مكيفات صحيفة الخرطوم وهملتو شغلكم لدرجة إنو مقالاتنا في صفحة الثقافة عن العادات السودانية (حِردْنَاها) فأوقفناها بسبب الواجب الذي قمتم به نحوها . ولاّ انتو بتهتموا بالصفحات الملونة فقط من الجريدة ؟ نحن يا حاج الصفحات الملونة دي (شعراً ما عندنا ليهو رقبة) وهي خاصة بالمحرشين ورهطهم الذين إن ردينا عليهم قالوا (انتو عكاليت)، وكان سكتنا قالوا (الراجل باعنا ولا شنو) والله غِلِبْنَا حيلة . لكن جد يا عم عيسى تقبل الله عمرتك وألبسك ثوب العافية ولا أعدمنا قلمكم الأسود (المفكرة)ولا الأحمر (التصحيح) يا حاج !

جنت على نفسها براقش*

يتحفني أخي الأديب أزهري محمد بخيت* بكثير من لطائف التراث ونوادره وقد جرت بيننا مراجعة في الحيوان في أمثالنا (أكرم الله القراء) فوجدت فيها طرائف أحببت أن أتحف بها القراء . وللحيوان في تراث الأمم كلها نصيب مقدّر يضربون به المثل في أمورهم ونحن أمة رعي وزراعة ونصيبنا في ذلك كبير. وقد لاحظت أنهم ذكروا كثيراً من الحيوانات في أمثالهم ولكن كان للكلب نصيب الأسد في ذلك. وإذا كان الحمار هو رمز الجهل فإن التيس هو رمز الغباء والبلاهة وكل ذلك ميراث قديم من البيئتين العربية والإفريقية . فالعرب تقول (فلان تيس في سفينة) يعني لا بودي ولا بجيب.ولعلكم سمعتم بتيس أم الحسن الجابوه يَعَشِّر الغنم رِضِعِنْ (رضعهن) وهذه نهاية الخيبة وهي أشبه بديك السارة (جابوه يلِّقح الجداد(الدجاج) حضن البيض). وسأعود للكلابِ بشيء من التفصيل ولكن المقام يقتضي أن أذكر خيبة الكلبة التي اشتراها صاحبها للصيد وكانت تفزع من صوت البندقية فصار يأخذها معه لمناسبات الأفراح حتى يصبح ضربِ النار مألوفاً لديها وبالفعل أصبحت لا تخاف من صوت البندقية وأعجبتها زغاريد النساء بعد ضرب البندقية فخرج بها للصيد وأطلق طلقة على صيدة ظهرت له وانتظر انطلاق الكلبة لجلب الصيدة فما كان من الكلبة إلا أن أَقْعَتْ على رجليها وأخذت تزغرد.

والديك عندنا أيضاً رمز (العوارة) مع أن قدماء اليمانية كانوا يضربون بالديك المثل في البر ورعاية الأسرة فهو يستنهض الأسرة باكراً للسعي في الرزق وإذا وجد حبة قمح أو ذرة نقرها ثم دعا إليها بقية الدجاج. ولكن الديك مثال الغفلة عندنا فهو لا يدري عن مصيره لذلك يقولون (ديك ود رعية هو يعوعي وبَصَلْتو في النار) يعني هو في صياحه والجماعة جهّزوا البصلة لطبخه. وما أكثر الديوك في ساحات السياسة الخبيثة عندنا فكم من ناشط

---

* صحيفة الخرطوم ٢٥ مايو ٢٠٠٥م.

* عليه رحمة الله، عاجله الموت (٢٠١١م) وخلّف حُزناً لا ينقضي، بارك الله في أهله وذريته، وأورثه الجنة.

يكدّ ويجتهد ولا يدري عمّا يحاك له من وراء الكواليس. يحرثون لغيرهم ويتصدرون الشر(يشيلو وش القباحة) حالهم أشبه بحال كلبة (حومل) وهي امرأة من العرب كانت تجيع كلبة لها تربطها بالليل لتحرسها وتطردها بالنهار لتلتمس رزقها. وهذه الكلبة أشبه عندنا بكلب ود أب زهانة قالوا كان يقوم بحراسته ولكنه يجيعه ويذله لذلك يقول أهلنا: (فلان زي كلب ود أب زهانة ينتكل على الحيط حتى ينبح) يعني من شدة هزاله يستعين بالحائط يعتمد عليه ليقوى على النباح. وكم من مدافع عن توجه يفني عمره في ذلك فحين يأتي توزيع الكعك يجد نفسه في الرف . ويذهب الكعك لأهل الشأن.

وللبغال نصيب في الخيبة أيضاً، فإذا كانت الخيول الكينية تعرف عند المنعطفات فإن أهل الكشتينة يضربون المثل ببغلة أم الخير، قالوا تكون في أول البغال وتسبقها دائماً فإذا قاربت نهاية المضمار (تشتحت تَتَبوَّل) أكرمكم الله فيسبقها النشيط والعاجز من البغال. وهو مثل يضرب لمن يضحك أخيراً ويفوز على من كان متقدماً عليه بسبب سوء تصرف الأوّل.

وللبقرة والثور نصيب لا تسعه هذه العجالة ولكن لا يحلو الكلام دون أن نذكر الثور الذي كان ضحية للبصيرة أم حمد، فأهلنا حين يرون إنساناً يجتهد في حل مشكلة فيعقدها يقولون (جا يكحلها عماها) ويسمونه (البصيرة أم حمد). وأصله أن هذه المرأة التي كانت تدعي الحكمة وكان لها ثور أدخل رأسه في بُرْمة (قُلَّة أو جَرَّة) أو قل (دَحَلُوب) إذا كانت في القراء بقية تعرف هذا الاسم وهو وعاء من الفخار يستخدم للطبخ قبل غزو الالومنيوم وأخواتها. المهم أن ثور البصيرة هذا حين أدخل رأسه في البرمة قالوا لها نكسر البُرمة فقالت لا وأصرت على ذبح الثور فنحوه ولكن لم يتخلص الرأس من الجرة فكسروها فخسرت الثور والجرة معاً. والحكمة في معالجة الأمور تعود بالخير دائماً ولا يجلب البلاء إلاّ الدكتاتورية والتمسك بالرأي وإن كان خطأً.

ومع أن بعض شعوب الدنيا تحترم الكلاب جداً وقد يكون ذلك بسبب وظائف غير معلنة ومع أن العرب على وجه الخصوص كانوا يحرصون على كلاب الحراسة تماماً كأهل

البادية عندنا ولكن الكلب رغم الخدمات التي يقدمها للإنسان إلاّ أنه في نهاية المطاف نجس مرذول مزجور دائماً ومطرود. ومع أنه مذكور في القرآن مرتين إلاّ أنه في إحداهما خامل وفي الأُخرى لئيم ضعيف (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث). وهو عند علماء الطبائع من الحيوانات ذات الخَلْقِ المركب، فهو لا ينضاف إلى البهائم ولا إلى السباع، وإذا قيل للرجل يا كلب فهو لا إلى الرجال ولا إلى النساء هذا مع لؤم أصله وخبث طبعه وسقوط قدره ومهانة نفسه. يعيش على فتات الموائد وقاذورات المزابل. لذلك يقول أهلنا فلان (كلب عرس) أو (كلب صدقة)إذا رأوه شبعان من بقايا موائد الآخرين .

أما الأمثال في الكلابِ فحدّث ولا حرج. وأوّل ذلك قولهم (اتق شر من أحسنت إليه) وتدور قصته حول الكلب ونباحه. ومنه قولنا (البِلْعَبْ مع الجريوات بخربشنو) يضرب للإنسان يدفعه حسن النيّة إلى التعامل مع من يسيء إليه. ومما اتفقت فيه أمثالنا وأمثال العرب قولنا (الكلب بريد خانقو)، وقول العرب (أحب شيء إلى الكلب خانقه). قال الجاحظ في كتابِ الحيوان: ومن لؤم الكلب أنك إذا أسمنته أكلك وإن أجعته (جوعته) أنكرك. ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه وإلفه لمن أجاعه. وأشعار العربِ مليئة بهذا المعنى ومنه قول أحدهم :

كالكلب يتبع خانقيه وينتحي نحو الذين بهم يَعِزُّ ويمنع

فطلب الحماية هو الذي يقوده إلى مثل هذه النهاية.ولم تسلم الغنم من مثل هذا الصنيع فالشاعر يقول فيمن يسيء إلى من يحسن إليه ويتودد إلى عكسه:

كَعَنْزِ السُّوء تنطَحُ من خَلاَها وتَرْأمُ من يُحِدُّ لها الشِّفارا

فهذه تنطح من يقدم لها العلف وتشم الذي يُعِدُّ السكين لذبحها. ولم تسلم قبيلة الضأن من توابع الأمثال فقالوا: (الكبش إن سمن لابد يناطح سيدو) وهذا ضرب آخر من اللؤم وسوء الخُلُق يكون في الحيوان ولا يرجى أن يكون في الإنسان، ويقولون غازرة ونطلحة وهذه نهاية

اللُّؤم وعدم الفائدة وهو كما قالت العرب: (أحشفاً وسوء كليلة)، ولو تأمل المرء في حال نفسه متعظاً بالبهيمة التي كرّمه الله من أن يكون مثلها لارتفع بنفسه عن كثير مما يهبط بها.

وأجمل ما سمعته من أمثالنا في الكلاب هو قولهم (زَرَّةْ كلب في مايرْنُو) ولكن قبل أن أتحفكم بقصته كما رواها لي (أبو الزهور) دعوني أذكر واحدة من حسنات الكلب التي ذكرها الجاحظ فقد ذكر أن الكلب هو سيد الحيوانات في قبول التلقين حتى إن القرد والفيل والغنم المكية والببغاء لتتضاءل عن إتقانه للتلقين والتدريب. وذكر أن الكلب الزيني الصيني يسرج على رأسه أي يوقد السراج ويوضع على رأسه فلا يتحرك ولا يميل حتى لو رموا له ببعض اللحم، فإذا أخذوا المصباح من رأسه هجم على اللحم. وهذه المزية في الكلب هي من أسوأ ما يمكن أن يتصف به بنو البشر لأنهم لم يخلقوا لهذا الدور الذي يلغي شخوصهم ويحولهم إلى مسخ ومضحكة. والشاهد هنا أن أكبر حسنة في الكلب هي أكبر سيئة في الإنسان.

ومع أن الحراسة هي وظيفة الكلب الأولى والأخيرة ولكن أصحاب الكلاب قد تأتيهم البلوى من هذه الحراسة، لذلك قالت العرب (جَنَتْ على نفسِها براقش). وأصله أن براقش هذه كلبة كانت لحي من العرب فنبحت على جيش مرّ بالحيّ ليلاً (والدنيا ضلام شديد)، فتنبه الجيش الغازي لذلك الحي ولم يكونوا يقصدونه فدلهم نباح الكلبة على موضعهم فاستباحوهم وقضوا عليهم .

ومع أن بعض الناس يضربِ بالكلب المثل في الوفاء ويذكر قول الشاعر البدوي في مدح الخليفة العباسي:

أنت كالكلب في حفاظك للوُدِّ وكالتَّيْسِ في قِراع الخُطوب

إلاّ أن صفة الوفاء هذه لا تسلم للكلب فهو (سريع البيع) لأربابه الذين ربوه وتبنوه فمن لؤمه أن اللّص قد يطعمه الليلة والليلتين فيألفه ويأنس به ويتركه يفرغ دار أصحابه الذين ربّوه كل عمره فهو مع صاحب العطاء العاجل ولا يهتم بما كان في الماضي. وهذه نهاية اللؤم لذا كانوا يقولون (اصنع المعروف ولو مع الكلب) يعني هو آخر من يستحق المعروف.

ويقولون فلان ألأم من كلب على عَرْق (عظم).ومن أجمل وصايا العرب لبعضهم وصية هشام بن عقبة لمسافر قال له بعد أن ذكّره بمشقة السفر ووجوبِ المحافظة على صلواته ثم أردف (وأعلم أن لكل رفقة كلباً ينبح عليهم فإن كان نهب شركوه فيه، وإن كان عارٌ تقلله دونهم، فلا تكن كلب الرفقة) وهذا ظاهر في كثير من نماذج البشر عندنا يخرج من المولد بلا حمص و(يشيل وجه القباحة).

وأمّا المثل الطريف عندنا وهو قولهم: (فلان زروه زرّة كلب في مايرنو). فإن من المعروف عندنا أن بين القدماء من إخواننا الفلاتة وبين الكلاب عداوة قديمة مشهورة وذلك أنهم كانوا غرباء على البلاد وعداوة الكلب مع الغريب لا تخفى. أمّا الآن فقد استوطنوا ووسعتهم هذه البلاد الرحبة التي ستسع غيرهم (إذا تطايبت النفوس). وأصل المثل أن للفلاتة مستوطنتين ضخمتين مشهورتين في جهة سنار هما (مايرنو) غرب النيل الأزرق و(الفكي طلحة) شرقه، وليس في قراهم هذه كلب. وقديماً كان الكلب الذي يدخلها ولو عابراً فذلك آخر أيام حياته لأن القرية كلها تخرج في طلبه وتكون له بالمرصاد . لذلك كانت عادة أهل المواشي من شرق سنار أنهم يعبرون النيل الأزرق ببنطون مايرنو ، فإذا كانوا في حالة رحيل فمن عادتهم أن يضعوا صغار الأغنام (البهم) في الأخراج (جمع خُرج) رأفة بها لأنها لا تتحمل الحركة ولكنهم حين يصلون ما يرنو يخرجون (البهم) ويضعون الكلابِ داخل الأخراج حفاظاً عليها من سطوة أهل ما يرنو . والعهدة على الراوي .

هذا وأهلنا يستقبحون الكلبة أكثر ، ويشبهون المرأة الكثيرة الحمل بها وهذا قطعاً بسبب ضيق ذات اليد وإلا فكثرة الذرية محمودة. أما أقبح الكلاب عند أهلنا فالكلبة(الصّارف) أي (المتهيئة) للقاء الذكور من الكلاب، فإذا كانت في الحي واحدة من هذا النوع فإنها تهيج كلاب البلدة كلها فتجتمع عليها فتقلق راحة الجميع. ولأن ذيل الكلب أعوج فإن أهلنا قديماً وحديثاً يضربون المثل به في الأمور التي لا تستقيم لأنها نشأت غير مستقيمة، فيقولون (ضنب الكلب ما بنعدل)، ويقولون في المتماثلين المتواطئين على شيء: (الكلب شهودو ضنبو). وكما قالت العرب: (الكلب ينبح والقافلة تسير) قال أهلنا

(الكلب ينبح والجمل ماشي). يعني ينبغي للكبير ألاّ يلتفت إلى هذيان الصغار وقد أحسنوا حين قالوا أيضاً: (لا يضر السحاب نباح الكلاب). أكرم الله القراء من أوّل المقالة إلى آخرها وأكرمهم دائماً. ونستميحهم عذراً في غيبة قد لا تطول بسبب موسم الاختبارات وإلى ذلك الوقت للجميع أطيب الأمنيات.

بين الرَّكْشة والشَّبَح*

الركشة وسيلة مواصلات معروفة في بعض نواحي الدنيا خصوصاً في آسيا وبالأخص عند الهنود . وفي منتصف السبعينات كانت في مدينة ود مدني ركشة واحدة تجيء من جهة حي الدرجة تقابلنا في ذهابنا وإيابنا إلى مدرسة ود مدني الثانوية حين كنا طلاباً فيها – رعى الله أيامها- نذكر تلك الركشة الفخمة بلونها الأزرق السماوي الفاتح الذي يقرب من لون زيّنا المدرسي في ذلك الزمان . أذكرها وكأنني أراها الآن وهي تعبر بوابة السكة الحديد وتتعدى قضبانها بصعوبة منحتني مرة فرصة للاقتراب منها فتأمّلت مقاعدها الجلدية السوداء الوثيرة. وقد كانت تدهشنا لأنها تزيد عن (الفيسبا) بعَجَل (لستك) وتنقص عن السيارة عَجَلاً فهي لا إلى السيارات ولا إلى (الفيسبات) تنسب. شأنها في ذلك شأن البغال التي لا تصنف في الحمير ولا الخيل – أكرمكم الله – فابن آدم (أبو كراعين) الذي هجّن الدّواب لم يصعب عليه تهجين الآلات وتحسين سلالاتها. ثم كثرت هذه السلالة المحسّنة (الركشات) كثرة مفرطة حتى عَدّ ابني الصغير مائة وثمانين ركشة فقط من ساعة دخولنا الخرطوم عند إشارة جامعة إفريقيا وحتى وصولنا إلى المقرن في طريقنا إلى أم درمان . وصارت الركشة وسيلة مواصلات منافسة يحسب لها ألف حسابِ . يسميها بعض الناس (الركشة) بالكاف، وآخرون (الرقشة) بالقاف ولا تعجبوا إذا قلت لكم إن للاسمين أصلاً في كلام العرب ؛ فالرُّكْشُ في كلامهم هو السير الشّاق قال أبو الطيب المتنبي في الدالية الشهيرة في مدح سيف الدولة وأولها(لكل امرئ من دهره ما تعودا) ذاكراً هروب قائد الروم (الدُّمُسْتُق) في وجه قوات الممدوح:

سَرَيت إلى جيحانَ من أرض آمِدٍ ثلاثاً ، لقد أدناك (رَكْشٌ) وأبعدا

* صحيفة الخرطوم ٢٠ يناير ٢٠٠٤م.

يعني أن سير الدمستق السريع الجاد المجهد أدناه من بلده وأبعده من أرض سيف الدولة. فهذا هو الركش بمعنى السير الشديد. وأصل الركش في اللغة الآرامية – وهي أخت اللغة العربية- هو قلب الأرض بالمِعْوَل (الطورية). والركشة إنما تجوب الأرض وتقلبها بكثرة (الحُوامة) التي يضيق بها صدر ضَرَّتها القديمة (أصحابِ التاكسي) . وأظنكم سمعتم بسائق التاكسي الذي جلس إلى(ستْ الودِعْ) يشكو لها من عصلجة الظروف والحالة الواقفة فقالت له وهي تنظر في الودع: عندك عارض يا حسن، والله أنا شايفة لي مَرَهْ (امرأة) واقفة في طريقك. مرة تجيك لابسة أخضر ومرة لابسة أحمر ومرة أسود ومرة أصفر ، هي المعكّسة عليك الأمور وموقفة حالك. فقال لها بحُرقة شديدة وهو يعض أصبعه : أحَّيّ أنا عليها ... دي ما الركشة!!

أما الذين ينطقونها بالقاف (رقشة) فإنهم لم يبعدوا عن الصواب أيضاً لأن (الرَّقَشَة) هي اللمعة وهي أيضاً اللون المختلط بكُدْرة كالحمرة والسواد ونحوه، ومنه الحية الرقشاء وهي الرقطاء أيضاً والذي نراه في الركشات من الألوان التي وصفتها (الودَّاعية) يؤكد ذلك. أما الكُدرة التي تخالط بقية الألوان فهي (الغَبَشة) التي تلوِّن مشمع سقف الركشة الذي وضع عليه أحد العميان يده وهو يقول : الكوز وينو؟ يظنها (مزيرة) سبيل.

وإذا لم تكن الركشة من المراكب الوطيئة الفارهة فهي على الأقل من المراكب الميسورة الرخيصة المسعفة، ولكنها على رغم تعلق النساء بها-طبعاً بسبب الأجرة الرخيصة- تعد من المراكب ذات (الضَّهر الحار) التي يقف سائقها كالبالع مسطرة لا مجال فيها للاتكاءة والانفشاخة التي تمتع بها حتى أصحابِ الإبل في سابق العهد والأوان. ولا يظن أصحابِ الأشباح (المارسيدسات) أن الانفشاخة على الجنب (على التكَّاية) هي خاصة بهم فالمساند والمخدات والوسائد قديمة، ألم يقل شاعر الجاهلية المثقب العبدي:

ثَنَيْتُ زِمامها ووضعتُ رَحْلي ... ونُمْرُقَةً رَفَدْتُ بها يَمِيني

والنمرقة هي الوسادة التي يتكىء عليها.

وقال أبو الطيب:

ومِنْ عذبِ الرُّضَابِ إذا أَنَخْنَا　　　يُقَبِّل رَحْل (تُرْوَكَ) والوِراكا

يعني كم من حبيب حلو الريق إذا أنزلت ناقتي المسماة (تُرْوَك) يقبِّل رحلها ووراكها فرحاً بقدومي.والوراك هو ما يوضع تحت الورك يثني عليه الراكب رجله إذا تعب. فمثلما يتأنّق الناس في مراكبهم الآن كانت العرب-على قدر حالها- تتأنق في مراكبها فيتخذ أحدهم نمرقة أو وراكاً يريح يديه ورجليه إذا تعب. وكان الجمالة (أصحاب الجمال) في سوداننا أيضاً يتأنقون جداً وعندهم من ذلك أشياء منها (الرِّقَيْبَة) وهي فرشة خاصة توضع على غارب البعير (قرب الرقبة) يضع عليها الراكب رجليه مخلوفتين إذا تعب. وكلها تقوم مقام المساند والوسائد والتكّايات التي تكون تحت السائق أو على يمينه يتكيء عليها المنعّمون إذا تعبوا أو حين يميلون لمحادثة الجالس بجوارهم بشيء من المودة والهمس.

وبمناسبة الشبح(المارسيدس) لا تستغربوا إذا قلت لكم إن السودانيين عرفوا لفظة (الشبح) للمركبة الفارهة قبل أن يعرفها غيرهم وقبل أن يفكّر الألمان في المرسيدس، فكما أن المرسيدس من أفره السيارات فإن الجواد الأصيل يعد من أفره المراكب عندنا لذلك سمّاه أهلنا منذ القدم بالشبح. نعم إن الفرس الأصيل عندنا الذي هو بمثابة المرسيدس الآن كان يسمّى شبحاً في السودان. ذكر الراحل المقيم البروفيسر عبدالله الطيب أن الراحل المرحوم مندور المهدي -عليهما رحمة الله- ذكر له أن قوماً من الشايقية رحلوا جهة الصعيد في إحدى السنوات العجاف فقال فيهم بعض من أقام ولم يرحل:

التمُر شَالْ فَدَعْ الجريد　　　وا شقاوةَ الشَّال الصعيد

فأجابه بعض الذين رحلوا:

قمنا بالفرّاخ والسِّلاح　　　وقمنا بالشَّبح ال في المُراح

وفسّر البروفيسر(الشبح) بأنه الفرس. قلت: وكانت لأهل الشمال عناية فائقة بدواب الركوب الفارهة وكانت خيول دنقلا هي مضرب المثل حتى إنهم من فرط جمالها وفراهتها

ووثارتها (برودة ظهرها) وعلوّ أكفالها وضخامتها يشبهون بها أرداف المرأة . ويكثر ود الفراش من تشبيه محبوبته (الدُّون لحِق) بجنائب الشايقية التي ذكرها الطيب صالح في (ضو البيت) :

جنيبة موسى بيه المزيقتو رَتَّنْ بَرَاطْم الدُّون تقول كَبْدة حَمَلَّنْ

والجنيبة هي المهرة المعتنى بتربيتها. أما تشبيه البراطم (الشفاه) بكبدة الحملان فهذا من إبداعات الفرّاش التي لا تستوعبها هذه العجالة . كما يكثر ود محلّق من تشبيه تاجوج بالمهرة الدنقلاوية :

شعرك يا مهيرة دنقلا أم طيقان لا القَلَّصْ ولا العَقَبْ الأضان ريقان

وقد كانت تاجوج مشهورة برجاحة الأكفال حتى قيل إنها إذا رقدت على ظهرها (يدردقو البطيخ الصغار من تحتها) فيعبر إلى الناحية الأخرى . ولو رأى أصحابنا المولعون بتسمية السيارات الآن تلك الخيول الموصوفة بتلك الأكفال العالية والأرداف الضخمة لمسَّخت عليهم تسمية اللاندكروزر بـ (ليلى) .

ولولا أن يقول بعض من لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب إنني أتمحَّك وألوي أعناق الألفاظ لقلت لكم إن (التيكو) كانت ماركة مشهورة لنوع من القماش الأسود المشهور في دارفور منذ مئات السنين قبل أن تدخل إلينا سيارات (التيكو) وراجعوا (تشحيذ الأذهان للتونسي) أو أسالوا بروفيسر عون الشريف أطال الله عمره.

هذا حديث الركشة والشبح والتيكو وما لفّ لفّها، وإن جَدّ شيء عن الأمجاد أو (الأتوس والنوبيرا واللانسير) التي أكد أخونا الأستاذ عمر محجوب سليمان في إحدى مفكراته أنها أصبحت حلم الشباب فسنفرد لها مفكرة أخرى إن شاء الله.

بين الثّرثرة وعابر سبيل والمفكرة*

الصفحة الأخيرة هي فاكهة الصحيفة وتحليتها ، وهي المحطة الأخيرة التي يستريح فيها القارئ من سفر القراءة الجادة عبر الصفحات الأخرى ، فهي إذن مسك الختام . ويستمتع القارئ كثيراً حين يتولى الكتابة في هذه الصفحة نفر من الأساتذة ذوي الخبرة الطويلة الواسعة والأقلام السلسة البارعة والأفكار المسلية النّافعة. وأنا دائم المتابعة لأعمدتها الثلاثة الذائعة : ثرثرة قلم وعابر سبيل والمفكرة.

والذي لفت نظري في عمود (ثرثرة قلم) جرأة صاحبه في اختيار هذا العنوان وهو العالم الضليع الذي يعرف أن الثرثرة من صفات الكلام المذموم المردّد المختلط ، ولكن الأستاذ لما كان واثقاً من علمه معتدّاً بمحفوظه مطمئناً لما سيقدمه فكأنه أختار هذا العنوان ليبطل المثل القائل (الجواب يكفيك عنوانه) . وليس صنيعه هذا بغريب على السودانيين الذين جعلت أمثالهم من الفسيخ شربات وجعلت نساؤهم من الضفرة عطراً لا يضاهى، وجعل رجالهم من العمامة زياً عربياً أصيلاً ممتداً عبر القرون محتكراً . بل حمّل السودانيون لغة الضاد معاني وأبعاداً ودلالات لم يعرفها الناطقون بالعربية من السلف وتكفيك كلمة (الجهل) التي يَذُمُّهَا كل ناطق بالعربية إلاّ في عربية أهل السودان فإن من معاني الجهل عندهم صغر السن ، فإذا قالوا (فلانة جاهلة وصغيرة) لم يذهبوا إلاّ إلى صغر السن وهو مما يمدح به الإنسان . ولولا ذلك ما كنا لنسامح مطرباً بحجم إبراهيم الكاشف ولا شاعراً بحجم شاعره وهو يمجد لنا الجهل ويحنّ إلى أيامه في قوله (ياحليل زمن الجهل) ، وما كانت صاحبة على المساح ترضى أن يصفها بقوله : (أوعَ الجاهلة لينة ما بتحمل عتابِ) . وعلى ذلك قس اختيار عمنا أبي شرف للثرثرة التي استوقفني فيها وفي المفكرة وعابر سبيل ثلاثة أمور في عدد الخرطوم ليوم السبت الموافق ١٣يوليو ٢٠٠٢م . الأمر الأوّل في حديث صاحب

* صحيفة الخرطوم ٣٠يوليو ٢٠٠٢م.

الثرثرة عن الشاعر المرحوم عمر حسن الأزهري وأنه (أول شاعر عربي جعل الكلمة الإنجليزية تنوب عن أختها العربية في آخر عجز البيت) في أبياته التي تقول :

ألا يا فاضلَ الأخلاق إنـي	عرفتك عاشقاً للـ EDUCATON
فـدم للمجد والأخلاق بحـراً	كما قد كنت للآداب OCEAN
لقد كذب الـذي يبغي فخـاراً	عليك صناعةً أو CULTIVATION
كأنك في الرياض تبثّ فيهـا	جدوالها مدير الـ IRRIGATION
فَفُقْتَ خرستو فورشن في عـلاج	وجئت لنا بأنجح OPERATION
هـداك الله ربٌّ للبرايـا	فأنت موفق في كل MOTION
مـدحتك لست أطلب منك مـالاً	ولكني أريد الـ INVITATION

وألفاظ القوافي الإنجليزية على التوالي تعني : التعليم أو المعرفة ، المحيط ، الزراعة ، الريّ ، العملية الجراحية ، الحركة ، الدعوة والعزومة . والأبيات فيها طرافة ومُلحة مقصودة وقد كنت أحفظها منذ أيام الدراسة الجامعية ولكني أنسيت شاعرها وكنت أنسبها لسعد الدين فوزي . وما أحبّ إضافته هنا لحديث عمّنا صاحب الثرثرة هو أن ما صنعه الأزهري في جعله قافية الأبيات ألفاظاً إنجليزية مسبوق بنماذج قديمة جداً في التراث العربي والتراث السوداني .

أما في التراث العربي فقد قال الجاحظ (وقد يتملّح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئاً من كلام الفارسية) وقد كانت الفارسية قديماً هي لغة العرب الثانية كالإنجليزية في زماننا . ثم ساق الجاحظ في بيانه أبياتاً كثيرة منها قول العماني الراجز :

لما هَوَى بين غِياضِ الأُسْدِ　　　وصار في كَفِّ الهِزَبْرِ الوَرْدِ

آل يذوقُ الدَّهرَ آبَ سَرْدِ

يعني أقسم ألا يذوق طيلة حياته ماءً بارداً (آب سرد) ، فكلمة آب بالفارسية تعني : ماء وسرد تعني : بارد . وقال ابن أبي كريمة :

لـــــــزم الغُـــرّام ثوبيــــــي بكـــــرةً في يـــــوم ســــبت
فتمايـــــــــلت عليهــــــــم مَيْـــــلَ زَنْكـــــيّ بمُـــــسْتي
قـــد حــسا الـــدَّاذيَّ صِـــرفاً أو عُقـــاراً بـــا يخُـــسْــتِ

في أبيات طويلة . والغرّام هم الدّيانة واحدهم غريم ، وزنكـي : زنجي ، ومُسْتي : الـسُّكر وإدمان شرب الخمر والداذي خمر معروف وبايخست :موطوء بالأقدام وكان الفرس وغيرهـم يعتمدون هذه الطريقة في صنع الخمور وهي أن تجمع عناقيد العنب في المواسـم وتوضـع في أحواض كبيرة ثم توطأ بأقدام النساء ، وما تزال هذه العادة مـشاهدة في مواسـم الحـصاد في بعض أقطار أمريكا الجنوبية .

أما النموذج السوداني القديم فهو لشاعر بربر إبراهيم الفراش رحمه الله (توفي سـنة ١٨٨٣م) وقد عمل الفرَّاش مع الجيش التركي في السودان جندياً ودليلاً وحامل بريد وجامع ضرائب وتنقّل بين الخرطوم وبربر وسواكن وكسلا ، ومكنّه عمله في شـرق الـسودان مـن إجادة لغة البجة فنظم رباعيات ختم البيت الرابع في كل منها باللغة البجاوية فسبق بذلك الأزهري وغيره ووضع الأساس له ولجماعة حلمنتيش من بعدهم ، ولعـلّ لأخينـا الـشاعر الفحل شمس الدين الخليفة صولات في هذا الميدان عسى أن نعرض لها لاحقاً . أما رباعيات الفراش فهي كثيرة منها قوله :

وَدّ الأريـــــــــل الــــــــضارب حقّبْتُــــــــو
ضـــــامر مــــن وســـــط تعجــــب رقبتــــو
غـــــالبني الــــصبر أنـــــا مـــــا غلبتــــو
بتـــــك دايـــــبُ وانــــــدا بتـــــوك جنبتــــو

***

رســـــــلت الفــــــريخ شــــــدّاها جابــــــا
تـــــرى الكـــــراب محـــــدّر فـــــوق ســـــنابا

دخلـــــــت البيـــــــت علـــــــيّ جـــــــضّن كلابـــــــا

تقـــــــول دي هـــــــيلمن أودهـــــــن برابـــــــا

فالبيت الرابع من المقطع الأول معناه بلغة الهدندوة : إنت طيبة ولكن أمك على العكس منك . والبيت الرابع من المقطع الثاني معناه : واسجمي الناس صاحيين وفي الأبيات كلمات عربية هي للجيل الحاضر كالبجاوية أيضاً تحتاج إلى تفسير نحو قوله ود الأريل : وهو الغزال ، ضارب حقبتو : منعزل في مكان عال ، سنابا يعني سناما أي سنام الناقة ،وإبدال الميم باء كثير في كلامنا منه قول الآخر : قميص من سم وسروال من جهنب ، يعني جهنم والعرب يقولون با اسمك يريدون ما اسمك؟ ويقولون بيد أني وميد أني ، وأغمطت عليه الحمى وأغبطت وهذا كثير لا يسعه استقصاء ، وهو دالٌّ على أصالة العامية السودانية .

أما صاحب المفكرة الأستاذ عمر بادي فقد وفىّ الجانب العلمي في حديثه عن الوزن المثالي وليته طالع كتابي (عادات سودانية) لاستيفاء الجانب التراثي ففي الكتاب أكثر من مقال عن البدانة والسمنة والمسمنات وأطمئنه بأن نسخته بطرفي ولكن لم أعرف لكثير من الزملاء طريقاً لإيصال نسخهم إليهم . واستوقفني في حديثه المثل القائل (ود البدري سمين) وهذا أصله في الإبل فإذا كان الحوار (الحاشي) من نتاج الشتاء قالوا (حوار بدري) وهو عندهم أقوى من الصّيفي لأن الأول يقضي فترة أطول في الرضاع فيسمن وتحسن حاله وقديماً قال شاعرهم :

إن بنيّ صبية صيفيون　　　　أفلح من كان له ربعيون

يعني عيالاً ولدوا مبكرين في ربيع العمر فهؤلاء ينفعون والدهم أكثر ممن يولدون على كبرة . وإن أتيحت لنا فرصة أخرى فلعلنا نوقف القارئ الكريم في عصر الإنترنت والعولمة على أن كثيراً من ألفاظ اللغة مأخوذ من ألفاظ الإبل مثل : الدلاهة والقطيم ، والهوس ، والشبق ، والجان والنتيجة ونحوها .

أما أستاذنا عابر السبيل الدكتور إبراهيم دقش فقد ظَلَّ يمتعنا على الرغم من أنه عابر سبيل فإذا أقام وتوقف عن الرحيل هذا فإن القراء مبشرون بمتعة أكبر ، قياساً على (الحالة

دي بلا وضو) فقد صلى أحدهم بجماعة فلما فرغ من الصلاة، قالوا له أحسنت يا مولانا والله صلاتك سمحة أو قياساً على حال الراقصة السودانية التي أدهشت الحاضرين برقصها فلما صفقوا لها قالت لهم (الحالة دي ما مدخنة) . هذا وقد وجدته زاد وتداً حين قال (ويا جبل التوباد) والرواية (جبل التوباد حياك الحيا) وهذه الزيادة في العروض –وهو شيخ العارفين – تميد بجبل التوباد على ضخامته .ثم رأيته قد بدّل في فخرية عمرو بن كلثوم فقال : (إذا بلغ الصغير لنا فطاماً) والرواية (إذا بلغ الفطام لنا صبيٌ) وقال : (الجبابرة) والصحيح (الجبابر) وليس هذا التنويه من باب (القطر فيه مفتش) لكن يبدو أن كثرة تجوال الدكتور عبر الأسبلة واعتياده سماع إيقاعات الشعر الأفرنجي والإفريقي قد أثّر في مخزونة من أعاريض الخليل الفراهيدي .فلا عدمناك أستاذنا ولا عدمنا أستاذينا أبا شرف وبادي وبوركتم وبوركت الخرطوم بلداً وصحيفة ، ونرجو ألاّ يقطعنا عنكم ثانياً ما قطعنا عنكم أوّلاً.

بعد الرّحيل*

أهدى إليّ زميلنا في هذه المساحة (من المفكرة) أستاذنا عبدالعزيز جبورة – حفظه الله – بعض أريج مشاعره وهو ديوانه (بعد الرَّحيل) أخذ اسمه من إحدى قصائده المؤثرة التي تحكي لواعج شوق الآباء حين تجبرهم الأقدار على مفارقة الصغار كارهين . وله مع القصيدة طرائف ربما حكاها لقرائه لاحقاً . وأوّل ما استوقفني في الديوان القصيدة التي سمّاها (مرثيتي) وقال إنه يعبّر فيها عن إحساسه بقرب الأجل وتاريخ القصيدة (١٩٩٠م) وقد مضى عليها نحو ثلاث عشرة سنة وما يزال شاعرنا – أمدّ الله في عمره – بخير و (الحكاية أظنها خوفة) ، فالأعمار بيد الله يا أبا محمّد ولكنها أشجان الغربة .

غير أن الذي شدني في الأبيات وهي تقارب الأربعين قوله عن مذيع التلفزيون :

ماذا إذا قطع البرامج معلناً   أني قَضَيْتُ وللجميع نعاني
شاركت في إعدادها زمناً مضى   أفلا يكون لي الجزاء ثواني

أراد من التلفزيون أن يقطع إرساله – وفاءً – ويذيع نبأ رحيل الأستاذ – بعد عمر طويل إن شاء الله – توقع أن يُعامل معاملة العظماء و (المهمّين) ومن حقه – وهو الذي له على التلفزيون أيادٍ – ومالو ؟ فقد أنهى مذيع التلفزيون نشرته الرياضية وهنأ زميلته على الهواء مباشرة بخطوبتها ثم حوّل لها المايكرفون لتذيع النشرة الجوية ، فلم نستهجن ذلك لما فيه من كسر لجدية نشرة الأخبار وروتين الرسميات ودلالة على طيبة السودانيين . ولكني أحسبك أستاذي حين تقف على الهيكلة الجديدة للتلفزيون وتنظر ما فعلت برموزه فلن تجد أحداً من جيلك ورَبْعك يثمّن ما قمت به ، وأجدك وقتها محتاجاً لترديد حكمة صاحبك أبي العتاهية :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم   وخُلِّفْتَ في قرنٍ فأنت غريب

---

* صحيفة الخرطوم ١٥ فبراير ٢٠٠٣م.

فلا أكثر من أن تتأسّى بقول أم الفوارس: (وهل يضير الشاةَ بعد الذبح سلخُها؟) ولكن من إشراقات (الإنقاذ) تكريمها لبعض الأحياء من المبدعين ونأمل أن يبقى هذا عرفاً وديدناً لكل مبدع في كل مجال وبنداً ثابتاً في وزارة الثقافة – التي أنهكتها التجزئات – يحل محل تكريم الأموات فقط . وعلى الرغم من أن ما طالبت به هو حقّ أصيل ذكره أهلك العرب الجاهلون بعروبتك رغم حمرتك التي تفوق الحمرة الأباها المهدي وأنا (ذاتْ نفسي) ضالع في هذا الأمر فقد كنت كلّما قرأت لك تخيلتك أسمر بجاويّاً إلى أن رأيتك . ولا أدري ما السرّ في هذه الرابطة بين أهل بربر والبجة التي بدأها ود الفراش (شاعر بربر) وأمنت أنا عليها وأتمها الرحالة بوركهارت في إعجابه بأهل بربر وألوانهم السمراء . أما كون طلب النعي حقاً أصيلاً فقد قال جدُّك طَرَفه بن العبد :

إذا مِتُّ فابكيني بما أنا أهْلُه وحُضّي عليّ الباكيات مدى الحَضّ

وكانوا لا يرون في ذلك ذاماً ولا عيباً خصوصاً إذا كان الميت يستحق البكاء ، ألم يقل شاعرنا :

ما كَجَر الحوايا وفي ضَرَاهِنْ بات كيف يبكن عليْهْ دُغْس العيون إن مات

يعني إذا ما بِقَى راجل وأخو بنات وهمباتي فإنه لا يستحق بكاء ذوات الأعين النُّجل.

ولكن لعمرك إن النعي والبكاء ضروب وأشكال ، فقد مات أحدهم وترك لزوجته (كوم بنات) وهي مكشوفة حال فجعلت تنوح وتقول : حليل أبونا ولادتُو كلّها بنات ، حليل أبونا أريتو كان كساني ومات ، حليل أبونا استراحو الجهال من ضربو ، حليل أبونا استراح الشوك من زَرْبُو ، حليل أبونا خشم البيت يسِدُّو ، حليل أبونا الشرموط يِعِدُّو ...هل رأيتم بخلاً كهذا ؟ يحصي قِطع اللحم المجفف المعلّقة على الحبل، ولكن مكر النساء لا تحده حدود فقد سلّط الله عليه هذه الماكرة التي قابلت بخله بدهاء عجيب فكانت لا تسرق (الشرموط) كاملاً بل تقطع رؤوس (الشراميط) حتى لا يتنبّه لفعلتها (والبياكلك أبصر

منّك) كما قال لي عمنا ودربيح الدرويش الراوية الأسطورة – حفظه الله – تعليقاً على هذه المناحة التي أخذتها عنه .

وسرحنا عن ديوان (بعد الرّحيل) الذي تضمَّن فكاهات ودعابات لطيفة ومُلحاً – بضم الميم – وعلى ذكر الفكاهة والمُلح كنت عقبت في مفكرة قديمة على استخدام الألفاظ الأجنبية في الشعر كالذي أشار إليه أستاذنا الذي اختفى فحرمنا من طلّته ولعل الداعي خير – أعني الأستاذ مصطفى أبو شرف – فكم تمنيت أن لو اطلعت على ديوان جبورة قبل مداخلتي مع أبي شرف في أبيات عمر الأزهري ، مع أن ديوان جبورة صادر منذ عام ٢٠٠٠م وفيه قطعة صالحة جيدة تدل على تمكن في النظم وتبحّر في العربية والإنجليزية وهي قطعة من أربعة عشر بيتاً قوافيها كلها ألفاظ إنجليزية ؛ منها قوله : (ص٩١) :

أيها العائش بين الناس	لا تَخْشَ و Fight [١]
مثلما للناس حقٌّ	أنت أيضاً لك Right [٢]
لا تكن ذئباً ولكن	كن لدى الهيجاء Knight [٣]
وتدبّر كل أمرك	واعقد العقدة Tight [٤]

ومعاني الألفاظ الإنجليزية على التوالي : ١حارِبْ ، ٢ حق ،٣ فارس ، ٤ مُحْكم .

وهذه الظاهرة الطريفة قديمة ذكرها الجاحظ وسقت نماذج منها من شعر إبراهيم الفراش والمصادفة أن الشاعرين من بربر ، ووشّح كلاهما قوافيه بألفاظ غير عربية . وقد استهوت هذه الظاهرة حتى شعراء البطانة رغم تمسكهم بلغتهم فأدخلوا بعض الألفاظ البجاوية في أشعارهم ؛ يقول أبو دقينه ودقلبوس في فارس الشكرية علي ود اب علي :

علي يا التَّرْكَبْ التَّرْمَعْ وشيكة   قمر عشرة وْفديق للبالو فيكا

و(فديق) بالبجاوية يعني أربعة ، فقمر عشرة وفديق يعني (قمر أربعطاشر)

وديوان (بعد الرّحيل) الذي يقع في نحو مائة صفحة ويحوي نحو أربعين قصيدة كلها وجداني قد تلاحظ فيه أحياناً تفوّق قصائد الصبا على غيرها في قوة السّبك . وقصائده كلها على أوزان الخليل ما خرجت منها إلا قليلاً وهذا دليل على سلامة الذوق وموسيقية الأذن وقوة المَلَكة لدى الشاعر الذي اعترف في مقدمة ديوانه بأنه لم يدرس العروض (أوزان الشعر) . ومع أن العروض هو صيقل الموهبة لكن كثيراً من الناس ينفرون منه ويرونه (رياضيات اللغة العربية) . وقديماً حاول أحدهم دراسة العروض فأعياه فقال له أستاذه قطُّع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ ... وجَـاوِزْهُ إلى ما تستطيـع

وكان التلميذ لماحاً (يفهما طايرة) ففهم (اللعبة) وترك دراسة العروض . وهذا أهون حالاً من الذي ثار على العروض والعروضيين قائلاً :

مستفعلن فاعلن فعولُ ... مسائلٌ كلها فضول

قد كان شعر الورى صحيحاً ... من قبل أن يخلق الخليل

فجزى الله خيراً أستاذنا جبورة على اعترافه وإن كان عدم علمه بالعروض غير ظاهر في ديوانه .

ويجدني القارئ الكريم أُكثر من استخدام (أستاذنا) وقد يضيق بذلك بعض الفضلاء وأنا حين أطلقها أعنيها مبنًى ومعنًى ؛ وكيف لا أطلق على مثل شاعرنا جبورة – حفظه الله – لقب أستاذنا وفي ديوانه المذكور قصيدة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٥٢م أي قبل ميلاد شخصي الضعيف بثلاث سنوات . وقد جاءت ناضجة مستوية ومن نماذج نُضْج الشاعرية فيها – ويشير طبعاً من طرف خفي إلى العمر – قوله (ص ١٩) :

وسكَنْتِ وَسْنَى تنعمين بحَيرتي ... وأنا الشقي بلحظ طرف فاتر

هذا ، ولعلّ أستاذنا جبورة لم يشر من بعيد أو قريب إلى عمره والهروب من العمر عادة مستحكمة في البشر خصوصاً لدى (ربّات الحجال) فصدق فيه ما قاله أستاذنا البروفيسر

صلاح الدين المليك – متعه الله بالصحة والعافية – فقد نعمنا في آداب جامعة الخرطوم بمحاضراته النقدية القيمة التي كان يضفي عليها زخات من فكاهته وخفة روحه . قلت صدق فيه ما قاله بروفيسر المليك الذي قدم لديوان (بعد الرّحيل) فقال (ص٥) : كان عبدالعزيز طالباً مرموقاً لا يخطئ التعبير ولا تغفله البصيرة ، يلقاك هاشاً باشاً يتحدث إليك فتلمس فيه طيبة أهل بربر ، وتحسُّ قدراً من دهاءٍ ساخر. أحسن أستاذنا في تقريظ الشاعر وهو أهل ذلك ولكن مربط الفرس وبيت القصيد هو حكاية (الدهاء الساخر) التي جعلت شاعرنا يتفادى ذكر العمر لا الفني ولا الحقيقي ولو سهواً وحكاية العمر الفني هذه جديدة وطريفة وفيها حسن تخلص ذكي ؛ فكثيرون ممن يُسألون عن أعمارهم (يزوغون) من الجواب ويذكرون العمر الفني . وقد رأيت شاعراً وضع نقطاً مكان عمره في أول ديوانه ولعلّه خشي العين . فالتحية لأستاذنا جبورة وبارك الله في عمره ومزيداً من الإبداع .

نقطة نظام : رصدنا جائزة لمن يستطيع إعادة ترتيب أبيات بشّار التي وردت في مفكرة الثلاثاء ٢٠٠٣/٢/٤م اتركوا الأبيات على حالها ورقموها ••• ١،٢،٣ ... إلخ . والله يسامح الإخوة في التصميم على الرغم من روعة إخراج الصحيفة .

الهجرة خشْمْ بيوت*

دخلنا في العام الأخير من ربع القرن الهجري الخامس عشر فكل عام وأنتم بخير وقد كانت هجرة سيد الخلق ﷺ نقطة تحول في تاريخ الأمة. نقف عندها كل عام نستشرف أنوار الهدى ونراجع المسيرة لا بالاحتفالات والعطل التي يراد بها التذكير ولكنها محطة تأمل ومحاسبة لأخذ العبرة ولو على قدر فهم الدرويش الذي (شق السُوق) وهو يبكي بأعلى صوته فقيل له ما يبكيك ؟ قال: عمري زي النتيجة (التقويم) كل يوم يقطعوا منو ورقة فضّل فيهو شنو؟ وتراث المديح النبوي في السودان ما ترك شاردة ولا واردة في السيرة النبوية وأحداثها إلا وقف عندها . وكانت قصة الهجرة وما وقع فيها من معجزات هي محور كثير من أجزاء القصيدة المادحة الفصيحة والعامية وقد كانت نجاته صلى الله عليه وسلم وصاحبه من المتربصين بهما من الكفار معجزة في ذاتها. وكانت قصة الغار على وجه الخصوص مما وقف عنده الشعراء كثيراً من لدن البوصيري إلى يومنا هذا.

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على   خير البرية لم تنسج ولم تحُم

وما أكثر ما ذكر الشعراء السودانيون هذه المعجزة ولكن لبعض شعرائنا لفتات فريدة لا يتجاوزها الناظر في أدب المديح تجدها منذ أيام النقر ود الشاعر إلى برعي كردفان ، وهذا الأخير له تجليات نادرة بسطت بعضها في (كتاب السهل الممتنع خواطر وصور بلاغية في شعر البرعي) وأحسبه الآن بين يدي كثير من القراء داخل السودان وخارجه. واللافت في شعر البرعي هنا أن الشعراء يذكرون الغار وبيض الحمام ونسج العنكبوت ويصورون ذلك تصويراً لا تستوعبه هذه العجالة ولكن البرعي دائماً يسلط الضوء على مواطن العتمة في الصّور الشعرية. وله قصيدة هائية فصيحة لطيفة يجوّد إنشادها أخونا المادح ياسين عبدالجبار، يقول فيها في قصة الهجرة مركزاً على دور الصديق أبي بكر ﷺ وفدائيته في حماية الرسول ﷺ ووقايته له بنفسه:

---

* صحيفة الخرطوم ٢٤ فبراير ٢٠٠٤م.

وجــزى الإلــهُ رفيقَــه خـيرَ الجَــزَا | مــن كــان في جَـوْفِ الــدُّجى أوَّاهــا
وبغـــارِ ثـــورٍ قـــد فـــداهُ بنفْـــسِه | ذات النُّهَـــى حُبّـــاً جُعِلْـــتُ فِـــدَاها
ورأى ثقوبـاً فيـه لـيلاً قـد بَـدَتْ | ســـودُ الثعـــابين الـــتي يخـــشاها
فغـــدا يمـــزّق ثوْبَـــه يحـــشُو بـــه | تلـك الثُّقُـوبَ وبـالقميص حـشاها
وبـــدا لـــه ثقـــبٌ ولم يـــكُ عنـــده | إلا الـــــتي في حُبِّـــــه أفناهـــــا
فتلافـــى بالقـــدم الكريمـــة سَـــدَّهُ | طُـــوبَى لهـــا بـــالفوز يـــا بـــشراها

سد ثقب الغار برجله فعرضها للدغ الحيَّة وقد فازت قدم فدت النبي ﷺ من المكروه بلا شك. وفيها عبرة في صدق العقيدة وحسن الصحبة.

وقبل أن أسترسل في حديث الهجرة المعاصرة و العكسية و العودة الطوعية. شـدني أمـر له صلة بالمديح أثير مع بعض الفنانين في عدد الخميس الماضي من هذه الـصحيفة العـامرة وهو (أداء المدائح بالآلات الموسيقية) وأهل الفن فيه بين مؤيد ومعارض ومتحفظ. وكلـهم يدفعهم تبجيلهم للممدوح ﷺ إلى ما صدروا عنه من آراء هي محل التقدير وخصوصاً وهـم من أهل الشأن وأهل مكة أدرى بشعابها. ولكن استوقفني رأي معتدل للفنـان عمـاد أحمـد الطيب ظهر فيه ميراث الفن من أبيه وميراث المديح من طابت. ويتلخص رأيه في أن يكون للنص الدرجة الأولى من العناية وللموسيقى الدرجة الثالثة ولم يذكر الدرجة الثانية وأظنه جعلها للرواية أو(اللحن) وهو تصنيف موفق. فالشعراء الأوائل من المادحين وجدوا أمـة من السودانيين يستهويها الغناء والتطريب فالراعي وراء قطيعه له ألحان للصدور والـورود والمقيل والتحرك والحادي على إبله له ألحان وأهازيج لسير الليـل والنهـار والمـزارع يـزرع ويسقي ويحش ويحصد على إيقاع ولحن وهذا أمر قديم، قال صاحب العقد الفريـد (وأهـل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتـور علـى أبـدانهم ترنمـوا بالألحـان فاسـتراحت لهـا أنفسهم). ولما كان الشعر عصب الـدعوة الإسـلامية منـذ نـشأتها كـان طبيعيـاً أن يلتفـت شعراؤنا إلى القوالب اللحنية المحلية ليصبوا فيها شعر المديح النبـوي ويبثـوا أشـواقهم إلى

الممدوح ويبينوا أخلاقه وصفاته وهديه ويسردوا سيرته وسيرة أصحابه. فبدأ هذا الإنشاد عندهم بالصفقة ثم بالمتاح من الآلات البدائية بل بالعصيّ (جمع عصا) يقول ود اب شريعة:

حَسِّنْ نِيَّتَكْ وامدح ولو تَلْفِيق   مَرّاً بالدُّفوف مَرّاً عصا وتَصْفِيق

ثم أصبحوا يبارون الغناء فدخل الطار وصار إيقاعه هو السائد فلما استحدث الناس الرِّق والكاسات والمثلثات في الغناء ونقلها بعض المداح إلى المديح نفر الناس منها شيئاً ما ثم عادت آذانهم فقبلت ذلك وألفته نفوسهم وما أراهم إلا سيقبلون على الموسيقى وستطيب بها نفوسهم ولكن المعوّل في كل حال على التجويد في استخدام الآلات بقدر الحاجة وألاّ تطغى الموسيقى وألاّ تكون صاخبة لأن المقصد هو الألفاظ والمفاهيم والمعاني التي تؤديها وما اللحن والإيقاع إلاّ معينات ومحسّنات. قال بعض القدماء" وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذّب (الدفاع) عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب فيبكي بها الرجل على خطيئته ويرقق القلب من قسوته" قلت إذا كان هذا في الغناء فكيف به في المديح؟

وأسوأ ما يذم به المادح عندنا أن يوصف بأنه (بياكل الكلام) وهذا يعلي من شأن وضوح النص ويعطيه التقديم والمرتبة الأولى فهو الذي عليه المعوّل (أو الرّك). ثم يلي ذلك التطريب الذي هو الرواية أو اللحن الذي يكون لصوت المادح فيه أثر كبير. والصوت الحسن نعمة حتى ذهب بعض المفسرين إلى أن قول الله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) هو الصوت الحسن. وقد أعجب الرسول ﷺ بصوت أبي موسى الأشعري في التلاوة فقال له قد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود. وأخيراً يأتي الإيقاع الذي يساند اللحن لتكتمل الصورة. ولذلك أعيد هنا ما قلته متجرداً في مفكرة سابقة أن كل من يستمع إلى شريط الجيلي الشيخ (صلّوا يا أمم) يشهد له بالتجويد فهو علاوة على نداوة صوته وقوته حفظ اللحن (الرواية) كما هو وكانت مخارج حروفه وألفاظه في غاية الوضوح والسلامة وهذا هو بيت القصيد لأن المقصود في النهاية هو مفاهيم المديح التي تحملها الألفاظ وقد

أعانته الموسيقى على حسن الأداء وساندته (جوقة) متمرسّة متناغمة، أداؤها أشبه بأداء فرقة الصحوة ورصيفاتها . واتجاه هؤلاء الشباب للمديح في هذه الفرق إذا كان مدروساً ومنظماً- وإذا لم يُرَدْ به الكسب فقط- هو مكسب ينبغي تعزيزه ناهيك عن أن طريقتهم في الأداء استهوت كثيراً من الشباب ولفتتهم إلى أدب شعبي ثر مهمل سيقودهم حتماً إلى الالتفات إلى كثير من أمور دينهم. لولا أن الأداء الجماعي أحياناً يحرم المتلقي من كثير من الوضوح الذي يوفره الأداء الفردي.وقد أعجبني جداً أداء الصحوة لقصيدة ود اب كساوي (قام الحجيج قطع) فقط أنبه المشرف على الصحوة إلى تجويد تلقين المديح القديم ، فقد أفلتت من الشبابِ أشياء ، منها قولهم (يتولَّى يا برعيد) وإنما الرواية (تويلي يا برعيد) و(يا) بمعنى (أو) . وفروة التويلي نوع من الفراو العزيزة أما البرعيد فهو (المِرْعِزْ) قال الحاردلو (فارشين فراو مرعزنا). ويفلح الجيلي الشيخ لو ضمن هذه القصيدة في شريطه المرتقب فهي واحدة من روائع الشعر الشعبي ودرة من درر المديح النبوي وقد فاتني أن أذكرها في كتاب الشيخ البرعي مع أنني ذكرت فيه وصف الناقة عند ود تميم ووصف الجمل عند ود سعد ووصف البوكسي والطائرة عند البرعي. هذا وقد سرقني الحديث فتركت الهجرة وأنواعها وكلها مما ترغم عليه النفوس إرغاماً وهي كما يقول أهلنا (خيار أم خير) ، وهي أحد أمرين أحلاهما مُرّ، وما من مهاجر وإن رفل في النعيم إلا وهو في نزاع وحنين إلى وطنه. وقد حنّ الرسول الكريم إلى مكة على الرغم مما لقيه من قومه ولنا فيه أسوة فقد كانت هجرته فاتحة خير.

وأكثر المهاجرين في جحيم لا يتصوره من لم يجرب وكم من مهاجر عاد إلى الوطن حازماً حقائبه واضعاً (الخُتّة السوداء) بينه وبين الهجرة ولكن سرعان ما تضطرب أحواله وتختل حساباته وتنضب موارده فلا يجد سبيلاً إلاّ العودة إلى الخيار الصعب قبل أن يقع في الخيار الأصعب وهو افتضاح أمره بين خلق الله الذين أوهمهم مظهره بأنه المنقذ وأبو المكارم وكم من مهاجر انقطع عن السودان بسبب مشاريعه الخاصة وهروبه من مواجهات يعرفها أو تجنباً لاستنزاف جباة الزكاة والضرائب والرسوم أو إخفاقه في غربته ثم يعلق انقطاعه عن السودان بسبب المعارضة وكأن قوائم رجال الأمن السوداء لا تضمن إلا اسمه الخطير مع أنه (لا في الحِرَا ولا في الطّرا) ولا في زول جايبلو خبر، وهذه (شماعة) بغيضة. ومع بشائر

السلام يتنسم الناس آمال العودة الطوعية والهجرة العكسية ولكن ينبغي على القائمين على الأمر وعلى المجتمع حسن الاستيعاب حتى لا نتلقى قوماً بكفوف الراحة ونضطر آخرين إلى العودة من حيث أتوا. ومع أن بعض المتحررين يرون الدعاء من أخلاق العجائز وهو عندنا مخ العبادة فنسأل الله أن يلم شمل السودانيين لينفتح باب الهجرة العكسية الطوعية وأن يمنحنا القناعة ورزق الإقامة فقد فضح شيخ البرعي أكثرنا حين قال :

الغربة أمر خطير هي شر مستطير

رزقك خير فطير إن طرت معاك يطير

ألا ترونه حصر أمر الهجرة كله في القناعة ؟ وذكرنا بالمثل الشائع (كان جريت جري الوحوش غير رزقك ما بتحوش) .

هذا وبعد الفراغ من كتابة هذه المادة بلغنا نبأ انتقال الشيخ عمر محمد أحمد الصافي شيخ الكريدة إلى رحاب ربه وهو فقد جلل ومصاب عظيم ، فالعزاء لأسرته وأحبابه والعزاء الخاص للشيخ عبدالرحيم البرعي ورحم الله الفقيد بقدر ما أسدى لمريديه وبارك في أيام الشيخ البرعي و(إنا لله وإنا إليه راجعون).

النُّقطة التي أغْرَقت البعير*

تضيق كثيراً ويثير استياءك عدم اكتراث أهل الصحافة للأخطاء الإملائية واللغوية مع أنها قاتلة أحياناً . وفيها طرائف ولطائف لا تحصى .ومعلوم أن التصحيف والتطبيع علّتان لا يسلم منهما ممارسو الكتابة والطباعة طال باعهم فيها أو قصر . والتصحيف هو الخطأ في الضبط أو في قراءة الحروف معجمة أو مهملة – يعني منقوطة أو غير منقوطة . والتطبيع يقصد به أخطاء الناسخين والمشتغلين بالطباعة . وفي مفكرة الثلاثاء الماضي (٣٠يوليو ٢٠٠٢) أوقعني الناسخ ومصحح الجريدة في أربعة أخطاء دفعتني إلى الدردشة مع قراء المفكرة حول هذه الظاهرة وطرائفها معتمداً على سماحة الإخوة طاقم التحرير وإننا وإياهم هدفنا تجويد الأداء (والتساهل ممنوع والزعل مرفوع) فقد جاء في مقالي (ويستمتع القارئ كثيراً حين يتولّى الكتابة ... نفر من ذوي الخبرة) فتكرّم الناسخ وزاد سيناً على الفعل (يتولى) ليصبح (يستولي) وهذه السين التي زادها الناسخ وأفلتت من المصحح تجعل الفعل عنيفاً دالاّ على السيطرة لأن التولّي بالرضا والاستيلاء بالقوة وهذا اتهام لكتّاب الصفحة أنا بريء منه . ولو كنت أردت (يستولي) لنقطت الياء . وقلت أيضاً (حمّل السودانيون لغة الضاد معاني وأبعاداً ودلالات) فما كان من الإخوة إلاّ أن جعلوها (معانٍ) حاذفين الياء وواضعين تنويناً تحت النون يحسبونه تنوين العِوض ، وهذا خطأ فاحش يُحسب على كاتب المقال لأن الاسم المنقوص إذا كان منصوباً بقيت ياؤه ولا تحذف هنا بحال من الأحوال . وقد أغضبني هذا حتى قلت لدكتور باقر: هل يحسب مصحح صحيفتكم أننا لا نحسن هذا القدر من اللُّغة ؟ وكتبت في المقال المذكور (موطوء) بواو بعدها همزة ظاهرتين لا تخفيان على الضّبع فكتبوها (موطئ) . وكتبتُ (عابر السبيل) وقصدت تعريف (السبيل) فنكّرها الناسخ وجعلها (سبيل).

---

* صحيفة الخرطوم ٦ أغسطس ٢٠٠٢م.

نعم ، كلّنا خطاؤون وكلنا نصحّف ، ولكن الكامل من عُدّت سقطاته . وقد صحّف قبلنا الفقهاء والـمُحَدِّثُون وعلماء اللغة والشعراء والخلفاء ولكنهم كانوا معذورين لرداءة الخطوط اليدوية أمّا نحن وفي عصر التقنية المتقدمة فالسبيل إلى عذرنا ضيقة . ولنبدأ بتصحيفات السودانيين فقد استعدّ أحدهم للسفر إلى ليبيا فكتب له أخوه المغترب هناك يحذره بأن ليبيا ليس فيها سَكَر بفتح السين والكاف فما كان من والدتهما إلاّ أن وضعت في حقيبة ابنها المسافر أرطالاً من السُّكر – بضم السين – فلما وصلوا ليبيا وفتحوا الحقيبة ووجدوا السُّكر عرفوا أن الذي قرأ الرسالة للوالدة كان بارعاً . أما تصحيف الفقهاء فقد قال أبوحيّان : قرأ ابن عباس – وهو حبر الأمة وترجمان القرآن _ حتى يلج الجُمَّل في سَمّ الخياط . والجُمَّل – بضم الجيم وتشديد الميم – هو حبل غليظ من حبال السُّفن يسمّونه(القلس) وهو الذي يسميه أهلنا (الألس) وهذه الهمزة دخلت علينا من القاف المصرية وقد فاتت على أستاذنا د. عون الشريف في معجمه النادر (قاموس اللهجة العامية) ولنا معها ومع أخوات لها وقفة . والمعروف أن قراءة الناس كلهم (الجَمَل) وهو البعير أو كما قال ابن عباس : هو زوج الناقة . والمضحك أن صاحب كتابِ تصحيح التصحيف الذي أورد هذا الخبر قال ابن عباس قرأها (الحمل) بالحاء وهذا تصحيف التصحيف وليس تصحيحه .

وللمُحَدِّثين – رواة الحديث – تصحيفات شنيعة ، قال العسكري : كان عندنا شيخ من المغفلين يروي الحديث فروى يوماً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم (كان يغسل خُصَى حماره) – بالخاء جمع خُصية – وإنما الحديث : (يغسل حَصى جِماره) بالحاء يعني كان يغسل الحصى الذي يرمي به الجمرات في الحج .

ويروى عن الشافعيّ – وناهيك به إماماً وعالماً _ أنه قرأ يوماً : ويستحبُّ في المؤذن أن يكون صبيّاً – يعني فتى صغير السّن – فقيل له : لماذا ؟ قال ليكون قادراً على صعود درج (سُلَّم) المئذنة . وقد غلط ، وإنما الحديث (أن يكون صيِّتاً) يعني صاحب صوت حسن قويّ . وجواب الشافعي على ما فيه من وهم فيه حسن تعليل بديع يدلّ على الأستاذية .

وحتى لو صحت الرواية فقد أغنانا الله عن طلوع السلالم بمكبرات الصوت فيمكنك أن تؤذن واقفاً أو جالساً أو مضطجعاً إلا أن تراعي السنة والأثر .

أما الكُتّاب فحدث عن تصحيفهم ولا حرج ، فقد قرأ أحدهم قصة أمام الخليفة العباسي المأمون فقرأ (أبو ثريد) يعني (أبو يزيد) فقال لهم المأمون : كاتبنا اليوم جوعان فأطعموه ثريداً . والثريد هو الفتّة أم توم بشحمها ولحمها .

وأما تصحيف الأشعار ففيه طرائف لا تسعها مجلدات ، فقد قرأ أحدهم على أبي العباس ثعلب :

ولو كنت في حُبّ ثمانين قامة

قرأها بالحاء ، والصحيح بالجيم والجُبّ هو البئر من قوله تعالى (وألقوه في غيابة الجُبّ ...) أما الحُب – بالحاء – كما قرأها صاحبنا فهو الزير أو القُلَّة أو الجَرّة . فقال ثعلب : خَرِبَ بَيْتُك ، أرأيت حُبّاً ثمانين قامة ؟ والقامة من المقاييس عندهم وهي طول رجل وهي موجودة عندنا حتى الآن نقول (بير عمقها سبعة رجال) وانظر قول ثعلب للرجل : خرب بيتك . أليست هي يخرب بيتك الشائعة عند إخواننا المصريين اليوم . وبالمناسبة فإن قولنا لمن يطلب منّا شيئاً : (حُبّاً وكرامة) قالوا معناها : قُلّة ومعها غطاؤها . وهي هدية قيّمة عندهم خصوصاً في الصيف .

وربما نجيّ التصحيف من الهلاك ، فقد ذكروا أن هارون الرشيد كانت له جارية حظيّة سمراء اسمها (خالصة) فهجاها أبو نؤاس بقوله :

لقد ضاع شِعري على بابكم كما ضاع عِقْدٌ على خالصة

فلما بلغها غضبت وشكته للرشيد فأمر بإحضاره وقال له : يا ابن الفاعلة تعرِّض بحظيتي ؟ فقال وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال قولك : (لقد ضاع شعري ... البيت) فاستدرك أبونؤاس بدهاء وخبث وقال يا أمير المؤمنين لم أقل هكذا إنما قلت :

لقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء عقد على خالصة

فسكن غضب الرشيد ووصله بجائزة . قال بعض الأدباء : هذا بيت قُلِعت عيناه فأبصر.

والذي يريك فداحة التصحيف وأنه قاتل ، خصوصاً إذا ما وقع في أمر قضائي عاجل ، ما كتبه سليمان بن عبد الملك إلى أمير المدينة: أن أَحْصِ المُخَنَّثِينَ من قِبَلِك . يعني بيّن لنا عددهم وكان هذا الخليفة شديداً على أهل الفجور والفسق فصحّف كاتبه الحاء وخطها بالخاء ، ففعلها والي المدينة ونفذ التعليمات في خبر مضحك طويل يمكنكم مراجعته في كتب التراث .لأن لصحفنا خطاً أحمر وتوجهاً عاماً إذا تجاوزه الكاتب كان عرضة لمقص الرقيب . ولكن أن يتدخل التحرير في الإملاء واللُّغة وهو يعلم أن زيداً من كتّاب الصحيفة هو من أهل هذا الشأن فهذا تطاول يبعث على الضّيق . وإليك أمثلة من مقالات لي نشرت في الأعوام الماضية بهذه الصحيفة المحبوبة . فقد جاءني مرة أحد المهتمين وهو يمشي على استحياء يحمل صحيفة الخرطوم وقال لي : أنت نبهتنا إلى ألا نقول (كفى الله المؤمنين شر القتال) لأنها ليست من الآية الكريمة ولكنك قلتها في مقالك هذا .وقلت (من يعيش ير) فجزمت جواب الشرط ولم تجزم فعل الشرط ، وقلت (أن يكن) فحذفت واو (يكون) بلا سبب . فما كان مني إلاّ أن أخرجت له أصل المقال الذي أرسلته بالفاكس إلى الصحيفة فنظر في المواضع الثلاثة فوجدها صحيحة . فهذه عجلة من الناسخ وغفلة من المصحح يتحملها الكاتب . وقلت للإخوان في هذه الصحيفة إن أكثر مثل سوداني أعمل له حساباً هو قولهم : (غَلْفَ ... وشايله موسها تطهِّر) . وقد كنت دخلت مرة هائجاً على أحد الناسخين وهو شايقي مسلّط عاش بين الجعليين وقلت له : ما بالكم معشر الناسخين على الكمبيوتر لا تحاولون فهم ما تطبعون ؟فردّ عليّ بلهجة رباطابية فاترة :(نحن كان بنفهم البنطبعو كلو ما كان لقيتنا في الكرسي ده) .

وهناك أمور لا يسعك أن تعتمد فيها على فطنة القارئ ، ففي تعقيب لي على مقالة للدكتور مختار عجوبة – الله يمسّيه بالخير – كتبت (لا بالجاه ولا بالجهة ولا بالجهوية) فتحولت بقدرة قادر إلى (لا بالجبهة ولا بالجبهوية) فزاد الناسخ باءً في الكلمتين ، وكانت الخرطوم وقتها مصنفة في صحف المعارضة فقال لي أحد الإخوان سيغضب عليك أصحابك

الجبهجية ، فقلت له : يكفيني أن ينبسط أخي الأستاذ عبدالله علقم – وهو من كتّاب المفكرة المعروفين . وذكرني هذا بلُحد الأخوة العرب وكنا نعمل في مشروع ثقافي كبير ، وكنت مُكلَّفاً الرَّدَّ على هيئة علماء عُيِّنَتْ لمتابعة التوجه الإسلامي والثقافي في ذلك المشروع وكنت أشدّد وأُغْلِظ في الرد عليهم أحياناً فكان زميلي هذا حين يقرأ بعض تعليقاتي يقول لي : يا دكتور قرشي إنت بنيت بيتك في السودان ؟ يعني هل أنت مستعد لمغادرة هذا البلد .

كل ذلك مما يمكن أن يكون (مبلوعاً) ولكن أن يتدخل التحرير والتدقيق بصورة تربك المقال فذلك ما لا يقبل . ومن الأمثلة عليه مقالة لي نشرت بهذه الصحيفة عن البدانة والمسمِّنات ، جاءت فيها نكتة تقول إن أحد جيراننا جاء آخر اليوم من الورشة (واصل قِفْ) فوجد زوجته تعرك وتَتْجَيَّه استعداداً لحفلة فسألها باستياء شديد : إنت ماشّة وين ؟ فقالت : ماشّه الحفلة ، فقال ليها حفلة بتاعة شنو إنت البعاين ليك منو ؟ والله كان شفت ناس حنان بلو بلو والله الواحد يبلعها بي جزمتها ، فكادت تنشقّ من الغضب وقالت ليهو: أنا ماشّه ماشّه وإنت أبقى تمساح وافتح خشمك واقعد للبلع . هذه هي النكتة كما وردت في المقالة فما كان من التحرير إلاّ أن حذف اسم المطربة ووضع ثلاث نقط بين قوسين هكذا (...) وليس في النكتة مساس بالمطربة بل هو مما يصبّ في رصيدها ولكن الربكة التي حصلت أن اسم المطربة حذف وبقيت صورتها تزيّن المقال فيقرأ القارئ المقال من أوله إلى آخره فلا يجد سبباً لوجود الصورة وهذا إرباك وتشويش .

وفي المقال نفسه مرّ المحرر ببيت شعر فيه كلمة (أرداف) فما كان منه إلاّ أن حذفها بالطريقة السابقة . ومعلوم في أصول البحث العلمي أن وضع النقاط بهذه الصورة يدلّ على أن المحذوف شيءٌ نابٍ أو قبيح أو جارح وهلم جرا. وعندي أن كلمة (أرداف) هي من أكثر ألفاظ هذا الموضع سلامة وتهذيباً ، وديوان الشعر العربي والدوبيت السوداني يعج بها عجيج عرفة بالحجيج ولو أراد إنسان أن يستشهد على ذلك لجمع المئات من شواهد الشعر والدوبيت وأقربها إلى الذهن الآن قول شاعرنا :

(بين ثدييها وارادفيها رُقّاً بُدْعَة) يصف خصرها بغاية الضمور ، ولم أجد فصيحاً ولا عامياً أجاد في الوصف وأبدع كما فعل شاعر هذه الشطرة .

وما زلت أعجب من حذف تلك الكلمة فأنا لم استخدم العويص كالكفل والعجيزة ، ولا استعملت لغة الشماسة كالعاكس والدّش ولا أتيت بألفاظ العامة كالشنطة والحقيبة ، وحتى هذه الأخيرة فهي محترمة مذكورة في أروع نماذج الدوبيت عندنا في قول الحاردلو في صفة الظباء : (الدّوف فوق حقايبهن كترتو جمال) يعني كثرة اللحم في هذا الموضع فيه جمال للظباء وفيه جمال لمن نشبههن بالظباء .

هذا وقد يحدث التصحيف حتى في المخاطبات الشفهية نتيجة العجلة أو ثقل السمع فقد قضى بعض جماعتنا نهاراً طويلاً في محكمة يحاولون الإصلاح بين فئتين ، وقد أهلكهم الجوع فنهضوا من أمام القاضي وكان آخرهم ثقيل السمع والحركة وهو يحمل عصا غليظة ، فقال له القاضي (هسع يا حاج عصاتك دي ما عصة كَتِلْ (قتل)، فما كان من الحاج إلاّ أن صاح للجماعة بأعلى صوته : يا جماعة هوي تعالوا راجعين ، مولانا القاضي قال ليكم : (في أكِلْ) .

وأخيراً قد يتساءل قارئ هذه المفكرة عن أنني عنونت ما كتبته بالنُّقطة التي أغرقت البعير ولكن المقالة ليس فيها شيء من هذا القبيل فأقول له : إذا كتبت أنا : (عَرِق البعير) بالعين المهملة فجئت أنت فقرأتها بالغين المنقوطة فماذا يكون ؟

اقرأ واسكت وحلل البريق*

أولاً أستميح الأستاذ الزبير سعيد عذراً في تعقيبي هنا في المفكرة علـى مـا جـاء في عموده المقروء (اقرأ واسكت) حول ضوابط المديح النبوي بتاريخ الـسادس عـشر من سبتمبر المنصرم وليس وراء تعقيبي هنا إلا ضيق المساحة هنـاك. إذ تقتـضي الأصـول أن يكون التعقيب في الموضع المعقب عليه خصوصاً إذا كان التعقيب على عمـود مقـروء جـداً يتسم صاحبه بالشجاعة والجرأة والطرح الناضج والصدر الرحب في تقبل الرأي الآخر.

وكأن الله تعالى أراد لهذا التعقيب أن يتأخر باحتجابِ مفكرتي في الأسبوع الماضي حتـى أستمع إلى تحفة أخرى من تحف الأستاذ الجيلي الشيخ في المديح النبوي وهو شريطه الثـاني (سيد العمر) وحتى أشاهد النقيضين عبر الفضاء السوداني: الجمال المحض مع بابكر حنين في (حلل البريق) في حلقة الجمعة الماضية التي كانت عن مـديح الـشريف يوسـف الهنـدي والاستفزاز المحض في واحدة من هفوات التلفزيون السوداني. كما ستراه في موضعه من هذه المفكرة.

وكان الأستاذ الزبير تناول في عموده المشار إليه ضوابط يرى أن المـدائح النبويـة تحتـاج إليها ولا نختلف معه في كثير مما ذهب إليه غير أن هناك أموراً ينبغـي الوقـوف عنـدها ولـو قليلاً وأول ذلك أن بعض الناس يجهلون المديح النبوي جهلاً تاماً ويرونه (دروشـة) مـع أن المديح النبوي شطر من ديننا وباب من أبواب الأدب كبير ورفيع وهـو مـصدر مـن مـصادر ثقافتنا لا يستهان به ورافد من روافد لغتنا الفصحى والمحكية. وقـد علـق الـدكتور عبـدالله الطيب عليه الرحمة على نفور بعض الشبابِ من المديح، وقال (حلقـات الـذكر لا يرتادهـا المعاصرون إما عن ضعف دين وإما عن فرط تشدد فيه وإما عن جهل تام ومن جهـل شـيئاً عاداه... وربما خيل إلى بعضهم أنه ليس بشعر وإنما هو أوراد عبادة مما كان يعكف عليه جيل

---

* صحيفة الخرطوم ٢ نوفمبر ٢٠٠٤م.

الرجعية أو الماضي المنقرض، ويا بؤس للجهل ضراراً لأقوام) ولقد صدق أستاذنا وبرَّ. بل ذهب بعض السلف إلى أن مدح النبي والثناء عليه فرض لا يتم الإسلام إلا به. وقد ذكر الأستاذ الزبير أن الرسول عليه الصلاة والسلام (مدحه الخالق وليس بمقدور البشر أن يأتوا بأفضل من مدح الخالق) وهذا حق محض أخي الزبير لكنه لا يمنع الشعراء من مدحه بقدر استطاعتهم فإن الله تعالى شرع لنا الثناء على ذاته المقدسة مع أننا عاجزون كل العجز عن الوفاء لله بما يجب له من الثناء حتى قال الرسول سيد الحامدين والمثنين على الله (لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

أما الآلات المصاحبة للمديح تقليدية وحديثة واعتراضك على استخدام بعضها فالأصل في الأشياء الإباحة ولو قرأت ما قاله صاحب العقد الفريد في الاحتجاج لمن أباح الغناء وآلاته لوجدت للمادحين بآلاتهم ألف حجة. وأما الرقص والتمايل أخي زبير فإن الخيل تشرب بالصفير والإبل تسير بالحداء والبشر يحركهم النغم والنفس التي تطرب للغناء وهو لهو وباطل ألا يحق لها أن تطرب لمديح الرسول ﷺ وهو جد وحق. أما سمعت أخي زبير بصاحب الجاريتين المغنيتين، فقد كانت إحداهما بارعة مجودة والأخرى فاترة باردة فكان إذا غنت الأولى يمزق ثيابه من الطرب فإذا غنت الأخرى قعد يخيط ما مزقه من الثياب. وقد مر ابن تيمية بهذا الباب ولم يعترض على شيء من حالات الوجد التي تعتري الناس عند سماع الذكر والمديح وجعل شرط ذلك الصدق وهذا أمر بين العبد وربه. وينبغي لنا ألا نقلق من تراقص أبنائنا في المديح وأحرى بنا أن نخاف من رقصهم الآخر لأنه إذا توالت عليهم المعاني العظيمة التي يرددونها في المديح ثم رسخت في نفوسهم فإنهم قطعاً سيصبحون رزينين راجحين. وليس المديح كله طبول ورقص. المديح حياة كاملة ومدرسة متكاملة تعلم الناس أمور دينهم من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً ولعلك رأيت كيف تجلى الدكتور الشريف أحمد الشريف الصديق الهندي في (حلل البريق) في بسط السيرة ومنهج الحياة الذي يتضمنه معجم المديح. أما ما ذكرته من التشبه بالأجانب في قصات الشَّعر فهذا عند

المغنين مستنكر فكيف به عند المادحين. غير أن هذا لا يوحي بأن المراد فرض زي معين موحد على المادحين أو فرض حالة وهيئة ومظهر كمظهر الدراويش لا يتجاوزونه. فالإسلام دين الطهر والجمال وقد قال أيوب السختياني: (ما علمت أن القذارة من الدين). وقال عمر رضي الله عنه (المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة). وأنت أخي زبير لو رأيت أبناء الشيخ عوض الجيد الخدام لرأيت العجب في حلاوة النغم وجودة الأداء وظرف المظهر والبلوغ بالطرب في المديح إلى أقصى غاياته ولكنك لن تراهم في حالهم تلك إلا وتذكر قول ابن قتيبة: رأيت مشيخة بالمدينة المنورة في زي الفتيان لهم الغداير (الضفاير) وعليهم المورَّد (الثياب الموردة) والمُعَصْفَر وفي أيديهم المخاصر (العصي الخفيفة أو الحداثات) وفي أكفهم الحناء ودين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريد دينه. يعني مع تنعمهم ورفاهة مظهرهم لا يفرطون في دينهم، ولن يضايقنا أن يكون شبابنا كهؤلاء لأننا مأمورون بالتبشير لا بالتنفير ولأن (العافية درجات).

نعم نحن مع مديح السماع (الرايق) وللشريف يوسف باب واسع في المديح يسمى مديح الجلوس وهو الذي مثل له الشاب معتصم وفرقته في سهرة (حلل البريق) بقصيدة (نبي الله الراحما) وتجلت فيها (الروقة) وروعة انسجامهم وحسن الأداء. لكن الذي سمع مدحة الشريف يوسف (مين بصاليه) وهي من إيقاع الحماسة أو الحربي وقد أدتها فرقة أولاد الخليفة الهادي إحدى الفرقتين المشاركتين في (حلل البريق) وقد جودوها وهم مادحون أبوهم مادح وجدهم مادح جمع القرآن في صدره وهو من فحول الشعراء ومن أساطين الرواة والمادحين وهو الذي أسس للمذهب الذي يريده الأستاذ الزبير حين أوصى المريدين بقوله (مريدهم يجلس رايق بالدمع فوق المايق) فالذي يقارن بين أداء الطار عندهم وأداء هذه المدحة بالأوركسترا عند الجيلي الشيخ في شريطه الأخير (سيد العمر) يجد أن الموسيقى الحديثة لا تخرج هذه المدحة من ثوب الحماسة أو الإيقاع الحربي أبداً.

أما اعتراضك أخي زبير على إلباس المدائح جلباب الأغاني فهذا قديم جداً في التراث السوداني، سئل أحد رواة ود أب شريعة (توفي ١٩١٩م) عن ألحان المديح فقال (كنا نباري المَغَنَى) يعني نجاري ألحان الغناء وكان أكثر غنائهم في الحماسة فلما شاعت الأغاني ورأى المشايخ ولع الناس بها وفتنتهم كالفتنة التي نراها الآن دخلوا على قلوب الشباب من باب الألحان التي تستهويهم فملأوا قوالبها بمعاني المدح لاستدراج الشباب حتى تتشرب قلوبهم هذه المعاني.

وَلأَنْ تمتلئ أجواف الشباب بهذه المعاني النبوية أخي زبير خير من أن تمتلئ بكثير من السخف الذي نسمعه الآن. هذا وقد تجرد لمجاراة الأغاني مادحون أجلاء ابتداءً بمن ذكرت كالشيخ حاج الماحي والفحول على زمانه وبعده مروراً بقدورة وأب شريعة وود تميم وحياتي، ووصولاً إلى الشريف ود الهندي وود أب صالح الذين كانت تصل إليهم أصوات سرور وكرومة في ليالي العاصمة الصاخبة فيطلبون من يقيد لهم اللحن فيصبحون ويصبح اللحن قد زين بمدح الرسول ﷺ ثم انقطع لهذه المهمة صاحب الظرف التام والحس المرهف الشيخ هاشم الشيخ عبدالمحمود ومعاصره الشيخ الصابونابي ثم جاراهما وأبدع الشيخ عبدالرحيم البرعي وغيره من أساطين المديح في أيامنا هذه. وما رأينا أخي زبير ولا سمعنا بصاحب لحن واحد احتج بأن لحنه قد سرق لمدح المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام بل إنه ليسعد بذلك كل السعادة ويتشرف ويطول عنقه لأن إخراج الأمر من باب اللهو والشر إلى باب الجد والخير هو القياس الصحيح.

ثم أراك أخي قد عرجت على أجهزة الإعلام وطالبتها بالتصدي لتصحيح الوضع وفاقد الشيء لا يعطيه. والله لقد غضبت ليلة الثلاثاء الماضي غضبة لو كنت أملك من الأمر شيئاً ما تركتها تمر كما مرت ولم يمح غضبي إلا بابكر حنين ليلة الجمعة الماضية فقد صحح الوضع وأحسن التصرف. أما سبب الغضب فقد درجنا على أن نخرج مسرعين من صلاة القيام في السعودية لندرك شيئاً من صلاة القيام التي ينقلها تلفزيون السودان وأنا لا أشك أن أي

مسلم (ناهيك بالسوداني) يدير مفتاح الفضائيات فيقف عند قناتنا السودانية في تلك اللحظات المتجلية لحظات نقل صلاة القيام لن يملك إلا أن (يتسمَّر) المفتاح في يده ولن يبارح ذلك المنظر البهي والأداء الرائع الخاشع والتلاوة المجودة بالقراءة السبعية الصحيحة ولن يملك في النهاية إلا أن يقول كلمة طيبة عن السودان والسودانيين. غير أن القائمين على أمر البث في تلك الليلة قطعوا علينا تلك المتعة وتركوا الإمام في دعائه المخلص وعادوا إلى استديوهاتهم ليبثوا الدعايات ثم المسلسل المصري. وهذا ما لا أجد له مسوغاً أبداً. ولا أقلل من الجهد المبذول في هذه الوسيلة الإعلامية الخطيرة ولكني أستنكر الاستخفاف بمشاعر المستمعين. أين ذهب تعظيم شعائر الله؟. وهنا أعيد ما صرخت به في عمود (حاطب ليل) يا جماعة لا تقطعوا المواد الدينية وخصوصاً المديح كأنه من سقط المتاع إن المديح أدب وفن له رواده ومتابعوه فأنصفوا مشاهديكم فإن الإنصاف لا يُغْضِب.

أما الأستاذ بابكر حنين جزاه الله كل خير فقد ضرب مثلاً رائعاً وداوى الجرح الذي أحدثه تلفزيون السودان فإنه حين شدّه وأسره مديح الشريف الهندي وأمتعه حديث ضيفه الدكتور الشريف أحمد طلب من المخرج بأدب أن يمدد زمن البرنامج وقد فعل فانظروا إلى التناقض بين موقف القناتين الدال على تميز الحنين وإنصافه.

هذا وقد كان آخر عهدي بأخي الأستاذ بابكر حنين عام ١٩٨٨ بمدينة الرياض وهو في دورة في معهد الإدارة وقد أسرني فيه هذا التسامي الروحي الذي لمسته أمسية الجمعة فرأيته يستزيد الدكتور أحمد الشريف من حديثه الشائق العميق الذي تمنينا أن ينطلق فيه أكثر وأكثر ليجيب على كثير من المسكوت عنه وما قصر الشريف وفقه الله.

ولكن الحنين أثار في نفسي كوامن بإعجابه بما يستمع إليه ورغبته في المزيد وكأنه يريد أن يقول لهذه الكوكبة أين أنتم (من زمان) وأين كان هذا الأدب والإرث العظيم. لقد جبل أهل هذا البيت –أخي الحنين– على التواضع والزهد في الأضواء ولكنك لو وقفت على رصيد هذا البيت في كل ميدان لذهلت. وستقف عما قريب على رصيد عميدهم الشريف محمد الأمين الهندي قطب القرآن الذي علم الآلاف ولم يطأ بلاد السودان أحد مثله في نفع

أولاد المسلمين كما يقول الفحل الفكي الطاهر. وقد وقفتم على قبسات من رصيد الشريف يوسف في المديح ولو رأيتم بقيته خصوصاً (النور البراق) لأذهلتكم فصاحة هذا الرجل الأمي الذي لا يعرف له شيخ. ولو وقفتم على رصيد الشريف يوسف في التراث وقرأتم ما جمعه عن الشعر والشعراء في السودان في كتاب (الشعر والغنا) لما وسعتكم الدهشة. وحدث ولا حرج عن التاريخ والأنسابِ والقبائل والرجال والأمثال والعامية وغير ذلك مما استعرضه الدكتور الشريف وما لم يستعرضه.

ولو وقفتم على أرصدة أبنائه وخلفائه من بعده لوجدتم السماحة والسجاحة وحسن الخلق في أسمى معانيه عند خليفته الشريف عبدالرحمن، وميراث الشجاعة والمهابة عند الشريف عمر والكرم الحاتمي عند الشريف إبراهيم حتى سماه أهل البطانة (جيب رَسَنَكْ) ورصيد التربية الروحية والتصوف الحق والزهد الأنموذج والأدب الرفيع والقرآن كما أُنزل في الخليفة الحالي الشريف الصديق حفظه الله ولابد أنك سمعت برصيد أبيهم الشريف يوسف في الوطنية وقد ورثوه منه وقد كنتم شهود عيان على رصيد الشريف حسين في نضاله البطولي ووطنيته النادرة وأنت الآن شاهد عصر على وطنية الشريف زين العابدين الهندي السياسي البارع والأديب الأريب الذي أرسى قاعدة تقديم مصلحة الأمة على مصلحة الحزب وفتح للناس باب العودة والحوار المسؤول والمعارضة البناءة وجعل الناس يتنسمون عبير الحرية ومع ذلك قامت دنيا بعض الناس ولم تقعد ثم تدافعوا إلى الباب الذي تركه الشريف موارباً فدخلوا من مصراعيه.

ذلك بيت عريق أخي حنين وتلك ذرية بعضها من بعض. والكرة الآن في ملعب قناة النيل الأزرق لتكشف كنوز بيت الشريف بعد أن أمسكت برأس الخيط. وأرجو أن تتمكن من جلسات أخريات مع الشريف أحمد وإخوته كالشريف الهندي الشريف عمر فهو في تراث الشريف مرجع وأي مرجع. والتحية لك ولأخي الزبير وكل عام والجميع بخير.

اللّه يِنْعَلْ أُبُودَهْ كُبري*

قلت مرة لامرأة ذات همّة واهتمام في مؤسسة ثقافية كبرى : (إنـتِ واللهِ أرجـل زول في هذه الدّار) كنت غاضباً وأعجبني حسن تصرفها ولباقتها ولكنني بعـد أن هدأت شعرت بشيء من الحرج وقلت لعلني خدشت أنوثتها فالأنوثة ما تزال أحد أسـلحة المرأة . ثم وجدت أبا سعيد السيرافي العالم النحوي يقول : كان يقال عن أم المؤمنين عائـشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما : (كانت رَجُلَةَ العرب) فخفّ عني ذلـك الهـاجس ولكنـه أعاد إلى ذهني شريطاً من الأحداث المماثلة التي وقعت في التراث العربي القـديم ثـم وقـع مثلها أو نظيرها في التراث السوداني وقع الحافر على الحافر . وقد جمعت منها مـادة صـالحة أنوي إخراجها في كتاب وأخشى أن يؤلِّب عليّ الغيـورين مـن النـوبيين مـن أمثـال عمنـا الظريف الخفيف الروح الأستاذ صالح الحـارث أو مـن أمثـال صـديقيّ العزيـزين الـدكتور قرناص والصحفي الذي احتكر اسم الحسن ومعناه مصغراً ومكبراً الأستاذ (حسين حـسن حسين). وربما حرّك عليّ بعض أحبابي البجاويين من أمثال زميلي الـودود الـدكتور أونـور سيدي محمد – لهم التحية والود جميعاً – لأن بعضهم يـضيق مـن حفـري المـستمر في اتجـاه التيّار العربي . ولكنني سأظل أكرّر أنني أتبنّى معادلة صريحة تقول : (سوداني = عربـي + إفريقي) وأجتهد بقدر الوسع والطاقة في الاتجاه الذي أعرفه وأرجو من الآخرين أن يعملوا في الاتجاه الذي يعرفونه ، وقطعـاً سـتكون النتيجـة تمازجـاً ناضـجاً يـصب في حقـل الهويـة السودانية المهضومة .

ونعود إلى الأستاذة (الضكرانة) ومع اختلاف موقفهـا عمّـا سـأذكره كنـت أظـنّ أن النسوان (الضكرانات) قليل ، حتى وجدت زوجة الأحنف بن قيس مـن (أضـكر) نـساء العرب ؛ فقد ذكروا أنه اعتم بعمامته ونظر في المرآة فقالت له زوجته : كأنـك قـد هممـت

* صحيفة الخرطوم ١ مارس ٢٠٠٣م.

بخطبة امرأة ؟ فقال لها : قد كان . قالت فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوج من الرجل إلى امرأتين . فما كان منه إلاّ أن نقض عمامته وترك ما كان ينويه . ولكن عندنا سودانية أدهى و (أضكر) من زوجة الأحنف هذه ، فقد ذكر نعوم شقير في تاريخ السودان أن نصرة بت عدلان – سليلة ملوك الفونج – زوَّجها أبوها برجلٍ من حوش بانقا ، فاقتنى السراري (واحدتها سرية وعليها المثل : حَرَّ العربية الببردوه في السِّرِّية) حسب عادة الأعيان في السودان فأنكرت عليه ذلك وطلبت منه أن يترك جميع سراريه ويكتفي بها ، فلما لم يفعل اقتنت جماعة من العبيد المُرْد وقالت لزوجها : إن طلقت سراريك طلقت أنا عبيدي وإلاّ فنحن في الحقّ سواء . فانصاع وطلّق (يعمل شنو؟).

ويستهويني جداً التوافق العجيب والتطابق المذهل الذي يصادفني في التراث العربي القديم والتراث السوداني فأحب أن يشاركني فيه الآخرون ؛ فقد كنا في جلسة (ونسة) سودانية ومعنا زميل سوداني الأصل والنَّشأة أمريكي الهوى معروف بالعفوية المفرطة وعدم التركيز في تعليقاته فجرى الحديث عن بعض كبار الأساتذة في جامعة الخرطوم وجرى ذكر أحدهم أدركه ذلك الزميل ولم ندركه وكان مع علمه وفضله إنجليزي التربية يرتدي الرداء الأبيض (الشورت) وهو إداري صارم ذاق منه الطلابِ الأمرَّين في الضبط والربط في الكلية وكأنهم في كلية عسكرية ثم هاجر إلى الخليج ولبس الجلابية والعمة والشال ولزم عمله والمسجد فعلق عليه ذلك الزميل بعفوية شديدة قائلاً (شوفو بالله جا البلد دي بهدلوه وطلعوا دِيْنه ... وسووه مؤذن) فات على زميلنا أن الرجل أصبح حمامة مسجد نسأل الله لنا وله حسن الختام . ولم يمض على هذه الجلسة وقت حتى وجدت الحجاج بن يوسف الثقفي يقول لمحمّد بن سعد بن أبي وقاص غاضباً : بينا أنت يا ظل الشيطان أشدّ الناس كِبْراً ، إذ صرتَ مؤذناً لفلان !! طبعاً عبارة الحجاج ناشفة شديد . ولا أدري أهي المصادفة المحضة أم هو عمق الروح العربية في تكوين بعض السودانيين ؟ فهذا حسان بن ثابت

الأنصاري أيقظ أهل الحي ليلاً (بعد الهجعة) فلما اجتمعوا إليه فزعين قال لهم : قد قلت بيتاً من الشعر فخشيت أن أموت قبل أن ترووه عني :

ربَّ حِلْمٍ أضاعه عدمُ المال وجهلٍ غطّى عليه النّعيم

والحقّ إنها حكمة بليغة ربما وافقت هوىً في نفوس الكثيرين وصدقت على كثير من النماذج التي يعرفونها ، غير أن الصباح رباح لو صبر . ولكن كيف يصبر وقد ذكر المعاصرون للفنان إبراهيم الكاشف – رحمه الله – أنه قضى شهرين يحاول إيجاد لحن لأغنيته (الزيارة) وقد شغلته شغلاً شديداً ، وحين عثر على اللحن أسرع إلى أحد أصدقائه وأيقظه في الثالثة صباحاً وقال له : لقيتو . فقال له صديقه : بسم الله الرحمن الرحيم ، لقيت شنو ؟ قال : اللّحن . بل إن بعض الناس تشغلهم الملاهي البريئة كلعب الورق (الكشتينة) والضُّمنة والشطرنج ويتنافسون فيها تنافساً يصل إلى المشاحنة وربما إلى القطيعة ، ويحتد بعضهم في المنافسة حتى تكون الهزيمة أو (الغُلب) أشدّ عليه من الهزيمة في الحرب. وكان لنا عمٌّ – رحمه الله – من أهل البراري من الذين يبتهجون بالانتصار في الضُّمنة ويغتمُّون بالهزيمة . ويبدو أنه غُلِب ذات ليلة فلما انصرف إلى داره هرب النوم من جفونه هربَ الأمن من فؤاد الجبان كما قال المعرّي . وأخذ يعيد شريط تلك اللحظات التعيسة فنهض من فراشه فجأة عند الثانية أو الثالثة صباحاً وتوجّه إلى منزل زميله الذي غلبه وهو في آخر بري الدرايسة وطرق البابِ بعنف فخرج إليه ذلك الزميل منزعجاً فعندما فتح الباب بادره قائلاً : أنا كان قبيل ختيت ليك الشيش ما كان بِتَغَلِبْني ، ثم رجع إلى بيته يجتر (المَغَصَه) بقية ليلته .

ومما يكاد يدخل في باب المبالغة ما يروى عن بعض الناس حين تقطع رؤوسهم لجرم ارتكبوه فإن تلك الرؤوس قد تتكلم ساعة وقوعها على الأرض ؛ فقد ذكروا أن سعيد بن جبير _ أحد التابعين _ قتله الحجاج الثقفي فيمن قتل . وما كان على ظهر الأرض أعلم منه – رحمه الله – قيل فلما قطع رأسه وانفصل عن جسده كان لسانه ما يزال يلهج

بالشهادتين . بل إن أحد الشعراء العذريين اسمه هُدْبة بن الخَشرَم – والخشرم جماعة النحل والزنابير – كان شجاعاً مقداماً فطلبه الوالي في دم رجل قتله ، ودفع أهله مائة وعشرين ناقة حمراء ديةً لأهل القتيل فرفضوا ورفض الوالي. قالوا فثبت هُدْبة ثباتاً عجيباً ، فلما قادوه إلى التنفيذ كان رابط الجأش ينشد الشعر (ولا عليهو) وقال لزوجته :

ولا تنكحي إذ فرّق الدهر بيننا أغَمَّ القفا والوجه ليس بأنزعا

لم يمنعها الزواج ولكن أوصاها ألا تتزوج غبيّاً خاملاً . فأخذت سكيناً وجدعت (قطعت) أنفها وقالت له : هل فيّ مطمع لرجل ؟ (وهذه أحسبها (أضكر) من الثلاث السابقات) فقال لها هدبة : الآن طاب ورود الموت . ثم قال لقومه : تَفَقَّدُوني (عاينو لي) فإذا قطع رأسي فسوف أقبض لكم يدي وأبسطها . قيل فلما قطع رأسه نظروا إليه فقبض يده وبسطها . ولك أن تقارن – عزيزي القارئ – بين هذا الموقف وموقف صاحبنا الذي ساقوه إلى المشنقة فجزع وبكى وولول حتى أخجل أهله فقال له أحدهم : ياخي ده قدر الله وإنت ميّت ميّت وبتخلّي وراك فضيحة أم جلاجل للقبيلة دحين أرجل وشد حيلك . فقال لهم : والله نبكو ونكوركو ونَهُرُّو والما عاجبو يجي يبدّلني . ولكن الذي يعيد لك تلك الروح الشجاعة ما ذكره الرواة من أن محمد نور ود تلبخان الفونجاوي كان مع إبراهيم ود سلاطين ود أبو لكيلك فلما قتلوهما أخذ محمد نور رأسه بيده وأبعده من الدم وكان رجلاً شجاعاً وهو الذي قال :

جابولي الوَلاَهُمْ قَدْري ومافي مِنْ بِقِيفْ في سَدْري .

بل ذكر المؤرخون أن بعض ملوك الجعليين لما ضربت رؤوسهم على يد ملوك سنار كان الواحد منهم يأخذ رأسه بين يديه حتى إذا قطع جذبه إلى حِجْرِه (عِبّه) لئلاّ يسقط على الأرض فيدلع لسانه (يعني يتدلدل) ياخي إن شا الله يطلع من لغاليغو وهل يضير الشاةَ بعد الذبح سلخُها ؟ نعم ، إنها الشجاعة والحرص على التاريخ الناصع (في العُقُب).

وقد كنت مرة ذكرت خفّة روح المُدَّاح وطرافتهم وطرائفهم ووعدت بإتحافكم بشيء من ذلك وسأفعل إن شاء الله . ولكني ما ضحكت في بقعة مقدسة مقدار ما ضحكت في

مدينة الحبيب صلى الله عليه وسلم حين لقيت أمير المدّاح وظريفهم وأستاذهم الشيخ الأمين القرشي – يحفظه الله – وذكرته بالاسم لأنه من الحريصين على التوثيق . قلت مرت بنا مناسبة ونحن خارج الحرم النبوي فقال لي شيخ الأمين ذكرتني هذه المناسبة بقصة الرجل الذي ركب عربةً في طريقه إلى كوستي ، وكان كوبري كوستي القديم على حالة مشهورة من الضيق وصغر الحجم ، ولكن ذلك الراكب لا يعرف هذه الحقيقة فلما توسطت العربة الكوبري شاهد شيئاً أثاره فأخرج رأسه من النافذة وفي ثوان معدودة قطع درابزين الكوبري رأسه ، قال فوقع الرأس على الأرض وهو يقول : الله ينْعَلْ أبو دَه كوبري !!

القرآن محفوظ وحافظ*

لم أقرأ- على كثرة ما قرأت – سيرة ذاتية في آداب الأمم عرباً وأعاجم أمتع من تاريخ حياة طيب الذكر المرحوم الشيخ بابكر بدري عليه رحمة الله رائد التعليم عامة ورائد تعليم المرأة على وجه الخصوص. وتمهيداً لما سأقتطفه من هذه السيرة بمناسبة شهر القرآن فإنني لا أضيف جديداً إذا قلت إن أهلنا في السودان يجلُّون ثلاثة أنواع من الرجال: حامل القرآن أو الفكي وهو الفقيه عندهم (وإن لم يجمع في صدره سوى القرآن) وصاحب السبحة (إذا لمن تكن سبحة ضلال) والمعلّم (رغم اضمحلال مكانته كثيراً في زماننا هذا).

وكان بعض الحفاظ لجودة حفظهم وجلالتهم في نفوس الناس يمنعون من الجلوس على الأرض، كأنهم مصاحف لأن المصاحف لا توضع على الأرض إجلالاً. وهذا حال الشيخ تكرور الكبير الذي قيل إنه جلس مع السيد الحسن الميرغني في سرير واحد ليس تجاوزاً للأدب ولكنهم يعتبرونه مصحفاً متحركاً هكذا ذكره صاحب حقيبة الذكريات عليه رحمة الله. وليس في البيئة السودانية أشرس وأفتك من الهمباته وقطاع الطرق ولكنهم مع ذلك يتضاءلون ويذوبون أمام المشايخ وحملة القرآن.

وكان الشريف محمد الأمين الهندي من أشهر أهل القرآن في العهد التركي علم القرآن مجوّداً للآلاف المؤلفة وصنف في علوم القرآن مصنفات ومنظومات نافعة ولو كانت وزارة الثقافة تهتم بالعطاء الجاد فإن أمثال هؤلاء هم من ينبغي أن تطبع مصنفاتهم فإنها على درجة من الإتقان والقيمة العلمية تجعلها في صدارة ما أنتجته عقول المسلمين في العصور المتأخرة. كان هذا الشيخ مهاباً لا يدخل الأتراك مسيده لجباية الضرائب (الطُّلبة). بل كان الهمباته يرهبونه فلا يتعرضون لأموال أهل منطقته ولا يمرون بنواحي مسيده إلا

* صحيفة الخرطوم ١٩ أكتوبر ٢٠٠٤م.

ضيوفاً ثم يرحلون. قال ابنه الزعيم الشريف يوسف: رأيت بامسيكة البطحاني مع(معنّي بيك) نائب ود أب سن مدير الخرطوم فقال لوالدي الشريف محمد الامين: عرفتني يا ود الهندي؟ فقال له الشريف: إن صحت الفراسة أنت بامسيكة. فأحضر درقته وسل سيفه وعرض سروراً بمعرفة الشريف له. فقال له الشريف: شجاعتك باقية. فقال: شجاعتي وين مع ها الوجوه الحمر؟ يعني الأتراك.

ولعل القراء سمعوا بالجماعة الذين قطعوا الطريق للقطر (للقطر مرة واحدة) في شرق السودان وأنزلوا ركاب الدرجات كلها وأمروهم بإخراج حقائبهم وإفراغ ما في جيوبهم حتى تكومت جبال من الغنايم وكانوا يسألون الراكب عن عمله فإذا قال تاجر أو موظف زجروه وأمروه بوضع ما في يديه حتى مرّ بهم أحد الركاب فقالوا له: وإنت شغال شنو؟ قال: مدرس. فقالوا له: لا إنت شيل من الكيمان دي. ولو وجدوا أحد مدرسي زماننا هذا ممن ليس لهم نصيب في الدروس الخصوصية ودعم الأهالي الذي يقتطع من جلودهم لأعطوه كل ما في القطار.

وهذا الأمر قديم، فقد ذكروا أن جماعة من قاطعي الطريق هجموا على قافلة متجهة إلى بيت المقدس فجردوها من كل شيء وجردوا أصحابها من ثيابهم وفي أثناء عملية التفتيش والتجريد وقعوا على رجل لا يملك إلا سبحته ومن حرصه عليها وضعها في طيات عمامته فلما نزعوا عمامته سقطت السبحة فقالوا: لا، هذا صاحب سبحة وأرجعوا له أشياءه.

وكنت مرة ألقي قصيدة في جمع حاشد ووقفت عند قبيلة الهمباته فرع الشايقية فلحق رأس السوط أستاذنا مختار عجوبة فما كان منه إلا أن أرسل إليّ وأنا على المنبر وريقة يذكرني فيها بعمائل أهلي من الهمباته ولا أريد تسميتهم تحاشياً للسان زعيم الأعلجم الذي ندد بالقبيلة في عموده (الطاعم جداً) ورمضان كريم ونسي حملات التهميش التي يقودها أبناء عمومته آل قرناص ومن ناصرهم.

المهم أن شايقياً من كبار الهمباته اسمه عثمان ود حمد نهب رقيقاً لأحد الجعليين كما يحكي صاحب الطبقات فلجأ الجعلي إلى الفقيه ود دوليب وقال له أنا جعلي وبدورك ترجع لي فرخاتي من عثمان الشايقي. وذات يوم قام الفجر يقرأ القرآن وكان مجوداً حسن الصوت فسمعه ود دوليب وسأل عنه فقيل له: الجعلي الجموعي سيد الرقيق. فناداه وقال له: إنت بتحفظ القرآن؟ فقال نعم أنا حافظ وأبوي حافظ ومجوّد، فلامه ود دوليب وقال له: تقول أنا جعلي؟ الله قال (إنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ الله أَتْقَاكُم) وما قال جعليكم. وأرسل لعثمان الشايقي وقال له: خدم الفقير تجيبهن وإن ما جبتهن بجيبهن. فخاف الشايقي وردّ الرقيق. وفي القصة عدة شواهد منها نفع القرآن لحامله، ومهابة أهل القرآن حتى عند الهمباته والفُتّاك، ثم وعي هؤلاء المشايخ بدينهم ومحاربتهم للقبلية منذ مئات السنين وها نحن مع دعوى التحضر والعولمة نثير النعرات القبلية ونحييها بكل سبيل وعبر كل وسيلة والشاهد الماثل هو ما يجري في دارفور.

والحديث عن الهمباته ذو شجون، ولم تسلم من الهمبتة قبيلة من قبائل السودان على تفاوت في ذلك. وقد ناشدني بعض المتابعين بالكتابة عن الهمباته وهو لا يعلم أن لي كتاباً ضخماً عن ظاهرة الهمبته والصعلكة في البيئتين السودانية والعربية القديمة. وإن يسر الله لهذا الكتاب أن يرى النور فسيرى الشايقية زعماءهم من الهمباته بقيادة عثمان ود حمد ويرى الرباطاب شيوخهم في الهمبته بزعامة نعيم الذي أقلق الدولة كلها حتى قتله الأتراك بمساعدة العبابدة وقطعوا أذنيه وأرسلوهما إلى والي العثمانيين في الحجاز. يرون هؤلاء جنباً إلى جنب مع ود ضحوية وبامسيكة البطحاني وود شرف الحميداني الكاهلي ممن يفخرون بأن (أكلهم حرام ومشيهم ضلام) وغيرهم ممن ارتبطت بهم ظاهرة الهمبته.

ولعل عمنا عثمان الشايقي سيعيدنا إلى ذكريات الشيخ بابكر بدري وإلى ما أردنا قوله من أن القرآن محفوظ بتعهد المولى بذلك في قوله (إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون) أما كون القرآن حافظاً لحامله فقد مرّ بك طرف من هذا ولكن الشيخ بابكر يروي في كتابه الممتع (تاريخ حياتي) مواقف كثيرة نفعه فيها القرآن.

قال الشيخ بابكر رحمه الله ضربني مرة عمي فلان ضرباً موجعاً لسبب تافه فغضبت والدتي وأدخلت لي كتبي في شنطة قماش وقالت لي أمش لودمدني أقرأ على عمك الفكي الإزيرق-والفكي الإزيرق هذا كانت له مكتبة مكونة من أكثر من ثمانين مخطوطاً في الفقه نسخها بيده- قال الشيخ فذهبت على أرجلي من رفاعة فأدركت آخر سوق المسلمية فوجدت لحسن حظي رجلين على حمارين ذاهبين لمدني فتعلقت في حمار أحدهما وبعد برهة سألني أين أذهب؟ قلت لمدني أقرأ الفقه على الفكي الإزيرق قال لي أحفظت القرآن؟ قلت نعم قال لي اقرأ (وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بِغَيْظِهِمُ) فقرأتها عليهما فأردفني على حماره وقال: يا ولدي الحكيم قال لولده: احفظ القرآن فإنه لا يرميك وإذا رماك برميك على برش وتعلم العلم فإنه لا يرميك وإن رماك يرميك على سرير.

في هذا الخبر دروس تحتاج إلى مقال : هذه الأم التي دفعت بصغيرها للخروج إلى طلب العلم وحيداً ماشياً على أقدامه من رفاعة ليعبر النيل إلى الحصاحيصا ثم إلى المسلمية ثم إلى مدني. والفقيه الإزيرق هذا الرجل المطبعة البشرية الذي أذهل الأتراك حين وقفوا على مكتبته بمجلداتها الضخمة التي نسخها بيده وهذا الصبي الذي وعى صدره القرآن كاملاً فجعله قاعدة متينة وركيزة يؤسس عليها علمه وهو يحمل كتبه في شنطة قماش أشبه بالمخلاية ولكنه يحمل عزيمة حذاء يتضاءل عنها حملة السامسونايت من أبنائنا. وهذا الرجل الذي أردفه على حماره وهو الآخر يحفظ القرأن وينطق لسانه بالحكمة وهو على حمار وكم من أصحاب سيارات فارهة في زماننا لا يحفظون آية ولا يحسنون تركيب جملة .

وحين وقع الشيخ بابكر في الأسر بعد أحداث المهدية بالغ الأتراك والمصريون والإنجليز في سوء المعاملة. قال وقعنا مرة في أسر الأتراك فأدخلونا على مصري يدعى خير الله أفندي فأمر لنا برغيف يابس فلما مدّ لي نصيبي قلت لهم لا أريد طعاماً لأن باله مشغول بوالدته وشقيقاته اللاتي تركهن بعد الأسر في الخلاء لا يعرف عنهن شيئاً قال فقال الضابط: أتركه هذا لا يأكل طعام الكفار فقلت له أنتم لستم بكفار وإذا كنتم كفاراً فطعامكم حلال لنا قال الله تعالى (وَطَعَامُ الذين أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُم حِلٌّ لَهُمْ) فقال لي أنت

تحفظ القرآن قلت نعم قال اقرأ لنا ربعاً فبدأت من أول سورة البقرة فلما وصلت (إن الله لا يستحي) قال الضابط صدق الله العظيم، ثم نادى يا أمباشي عفيفي هذا الرجل ينزل البحر ويأخذ البلح وينتقل في المعسكر كما شاء. وتكرر ذلك لما كانوا في السجن في تلك الأيام نفسها. وكان العساكر يأمرونهم بتنظيف السلحات وسجون النساء من العذرة-أكرم الله القراء- وكانوا يحملونها بأيديهم دون آلة قال فوجدت آلة حملتها مع القصرية ولما فرغت من الجهة التي حددت لي اغتسلت واضطجعت على ظهري وصرت أقرأ القرآن فمر بي ماهر بيك وودهاوس فلما سمع ماهر قراءتي تحول نحوي قال فقمت مسرعاً فقال لي تحفظ القرآن كله؟ قلت نعم والحمد لله. قال لي أحب أن أرسلك مصر لمنزلي وتقرأ في الجامع الأزهر وتعيش مع أولادي؟ قلت كان هذا والله خيراً سعادتك ولكني تركت والدتي وشقيقاتي في الجبل وأريد أن أخرج من هنا لأتحسس خبرهن قال فجاء الراغبون في أخذ الاسرى بالضمان وكان منهم رجل من العبابلة من (دراو) اسمه علي أبو محمود فكنت من نصيبه فلما عرضت الأسماء على ماهر بيك ووجد اسمي قال لعلي أبو محمود هذا يحفظ كتاب الله وأنت وعمك موسى تخدمونه في المزارع فقال علي لماهر نتركه يعلم أولادنا فقال ماهر بيك أنا سآتي إلى (دراو) فإذا وجدته متعباً أقصم ظهرك(بهذه العبارة). ثم حكى ضروب المشقة التي لقيها من ذلك الرجل حتى أعثره الله على رجل يقال له العمدة حسن أب حاج، كان يجل القرآن والعلماء إجلالاً عظيماً فقربه منه وأكرمه إكراماً عظيماً. قال فكنت أجلس معه وأقرأ له الكتب فدخل عليّ مرة ووجدني جمعت بعر حصانه-أكرمكم الله- في طبق لأضعه في الزبالة فقبض على الطبق وقال لي مغضباً: لاه لاه (يعني ليه) تحرق يا بابكر بيتي بالنار أنت تحفظ القرآن وتعرف العلم وتنقل بعر حصاني واستلم مني الطبق وشتت البعر بيديه كما كان ثم غسل يديه. قال وجاء في مرة أبنه محمد الكبير عند الفجر وقال لي أمشي مع جماعتنا لتقلعوا مركب الجزيرة التي غرقت. قال فقمت ووقفت مع الجماعة استعداداً للمشي فجاء ابنه الأصغر فوجدني واقفاً معهم فقال لي: لماذا واقف هنا؟ قلت لأمشي مع الجماعة لقلع المركب قال ومن أمرك بهذا؟ قلت محمد أخوك. فدخل على والده فأخبره قال فجاء العمدة يجر ثوبه ووجد محمداً واقفاً فقال له مغضباً إنت قلت لبابكر أقلع المركب مع أولاد حجازي فقال:

ومالو؟! فقال العمدة: مَلّهْ في جنبك. بابكر يدنقر كه(هكذا) ويقلع المركب مع أولاد حجازي بابكر إذا أهله يقلعوه المراكب حفظ القرآن وهو كه(هكذا) وحفظ العلم وهو كه أي بهذا الصغر. قال فلم يطلب مني شيئاً بعدها.

هذا غيض من فيض مما جاء في ذكريات هذا الرجل الذي كان مدرسة بذاتها وكان ذخيرة من خبرة وتستحق سيرته أن تدرس وتدّرس بل تستحق أن تخرج في فيلم كامل لأنها تمثل مرحلة مهمة ومنعطفاً خطيراً في تاريخ السودان وهي من بعد أنموذج للسيرة الذاتية الحافلة الصادقة الشائقة الممتعة. رحمه الله وأحسن إليه ونفعنا بالقرآن في شهر القرآن.

الغناء الذي لا يُطْرِب*

تجاوباً مع جهود وزير الصحة المكافح سعادة الدكتور أحمد بلال عثمان وانفعالاً بنداء الإعلامي المتمكّن الأستاذ أحمد البلاّل في برنامجه الشجاع النافع (الواجهة ، الاثنين ٩/٢) وتضامناً مع الإدارة القومية لمكافحة الملاريا ، وانسجاماً مع حملة صحيفة الخرطوم المتمثلة في رباعيات الشاعر أحمد الشيخ المستصرخة وريشة الفنان هاشم كاروري المعبرة ومساندة لهم جميعاً في حربهم المستمرة والمستعرة على الملاريا وعملاً بالمثل الشعبي (العندو بليلة بعاشي بيها) وبعيداً عن (الانحشار) بين أهل الاختصاص هل سمعتم بالبعوضة التي حطت (ركّت) على ظهر فيل فلما أرادت أن تطير قالت للفيل : استمسك فإني أريد أن أطير (فاكرة نفسها بوينج) فقال لها والله يا هذه ما أحسست بك لما حططتِ فكيف استمسك إذا أنت طرتِ ؟ هذا هو الذي يسميه أهلنا (البوبار وفك الزّرار) وهذه هي البعوضة التي ضرب الله بها المثل في الصغر وضآلة الحجم (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) يعني فما دونها . وضربوا بها المثل في حقارة الدنيا (لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما أعطاها الكفّار) .كما ضربوا بها المثل في دقة الخلق وإحكام الصنعة واطلاع الخالق جلّ وعلا على تفاصيل تلك الدقة لأنه صانعها في المناجاة التي تقول:

يا من يَرَىَ مَدّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا في ظلمةِ اللّيل البَهيم الأَلْيل

ويرى مَنَاطَ عُرُوقِها في نَحْرِها والـمُخ في تلك العظامِ النُحَّلِ

ومع ذلك فالبعوضة (ماها هينة) فهي على صغر حجمها تزعج الفيل على ضخامته وتقلق قطيع الماشية وتقض مضاجع البشر وتحصد بنقل الملاريا ما بين مليونين وثلاثة ملايين من الأرواح سنوياً ولها أكثر من ثلاثة آلاف نوع ونحو خمسة وثلاثين جنساً ومن أسمائها البعوض والبَقّ والجِرْجِس والشَّرَّان والأذى والخَمُوش . ومع كثرة أنواعها وغزارة

* صحيفة الخرطوم ١٠سبتمبر ٢٠٠٢م.

إنتاجها فإن البعوضة قصيرة العمر تعيش إناثها شهراً ولا تزيد وتعيش الذكور عشرة أيام فانظر إلى قصيرة العمر الملعونة التي تتسبب في تقصير أعمار الناس إذا وافقت الأجل حسداً من عند نفسها.

وبعض الناس لهم صبر عجيب على دراسة أحوال المخلوقات وتتبع أطوارها حتى اكتشفوا أن لبعض البعوض مستودعات ومخازن. قال أحدهم: كنت والله أرى البعوضة تطير من ظهر الثور فتسقط على الغصن من الأغصان فتلقي ما في بطنها ثم تعود. ويبدو أن الهدوء والهدنة التي نحسّ بها أحياناً هي فترة التفريغ ومسافة السكة. وقبل أكثر من نصف قرن من الزمن (١٨٩٨م) أكتشف السير رونالد روس الحائز على جائزة نوبل عن أبحاثه في مكافحة الملاريا أن أنثى الأنوفليس هي الناقل الوطني المحتكر لنقل عدوى الملاريا إلى الإنسان، نعم (إن الإناث رياحين خلقن لنا) ومنذ ذلك التاريخ والبعوض يقاوم مواد المكافحة ابتداءً من ال. د. د. تي ونرى الآن الجرثومة التي ينقلها قد تأثرت به وأصبحت تناطح لمقاومة مفعول الكلوروكوين ثم الفانسيدار ولم تبق إلاّ المحطة الأخيرة وهي الكينين (والله يستر) وكيف لا تقاوم البعوضة وقد حكى أحدهم أنه رأى بعيراً نهشته أفعى وإذا هو وافر اللحم وكل شيء حواليه من الطير والسباع ميّت (بسبب السم) إلاّ البعوض الذي كان راتعاً وكأنه في خلية عسل. قال فبينما أنا واقف أتعجب هبّت ريح فطيرت البعوض ناحيتي فسقطت بعوضة على جبهتي فما أن عضتني حتى أسودّ وجهي وتورّم وصرت لا أحك شيئاً من موضع العضة إلاّ انتثر (انحتّ) فحملت إلى منزلي وعولجت بعد زمن طويل ولكني بقيت أقرع الرأس أملط الحاجبين. لم يؤثر السم في تلك الملعونة بل حولته إلى (كيماوي) لم يترك شعرة في رأس ذلك المسكين ولا حاجبيه.

ولأنثى البعوض طنين عالٍ مزعج قالوا هو في الحقيقة غناء دافئ تجذب به عشيرها (فردتها من الذكران) ولكنه نواح حار وعويل مقلق في آذاننا. وكل مغنّ مهما قبح صوته قد يجد من يتجاوب معه ويطرب له وإن قلّ إلاّ غناء البعوض لذلك يكره الناس صوتها

وينفرون من طنينها الذي هو أشبه بالسكاليب . قال أحد البغداديين قديماً وقد بات ليلة مظلمة لم يذق فيها طعم النعاس أو النوم :

وليلةٍ لم أدْرِ ما كَرَاها أمارسُ البعوضَ في دُجَاهَا
لا يَطْرَبُ السَّامِعُ من غِنَاها حَنَّانَةٌ أَعظمُها أذاها

وقال آخر :

لم أرَ كاليوم ولا مُذْ قَطُّ أطْوَلَ من لَيْلِي بنهر بَطّ
من البَعُوض ومن التَّغَطّي إذا تَغَنَّيْنَ غناءَ الزُّطّ
وهُنَّ مني بمكان القُرْطِ لَهُنّ وخْزٌ مثل وَقْعِ الشَّرْطِ

فإذا تغطى آذاه الحر وإذا انكشف اجتمع عليه البعوض بأصواته التي تشبه غناء الهنود وهو يزنُّ حول شحمة أذنه وهي مكان الحلقان (القرط) وهو موضع طري صالح للعض . فهو بين نارين مثل ناري اليماني في السودان قديماً حيث قال : إذا نمنا جوه الحرّ والذبان وإذا نمنا بره الذبح من الأذان للأذان .

وهي مع الطنين المزعج تحمل خرطوماً كالإبر والسكاكين أكثر إزعاجاً قال عنه بعضهم:

مثل السَّفَاةِ دائمٌ طنينُها رُكِّبَ في خُرْطُومِها سكِّينُها

والسفاة ذرة الرمل أو التراب ومن عجائب الخلق أن البعوضة تغمس خرطومها في جلد الجاموس مع – قساوته – كما يغمس الرجل إصبعه في العصيدة .وإبرة العقربِ تَقُدُّ الحَلَّة – بالفتح – والجرادة تغرز ذنبها في الصخر وتضع بيضها .

قال لي بعض خفاف الظل إن البعوض عندهم في منطقة الفاو بمشروع الرهد يأتي في ثلاثيات ، تمسك إحداهن طرف الناموسية وتمسك الثانية طرف الناموسية الآخر وتدخل الثالثة فإذا صارت بالداخل أمسكت من إحدى أخواتها لتدخل وبعد أن تصبح الاثنتان بالداخل يرفعن الناموسية للثالثة التي بقيت بالخارج فتدخل ثم تبدأ المعركة مع النائم .

قلت له الآن صدّقت قول الشاعر :

من نافرٍ منها وذي اهتباشِ   يرفع جَنْبَيَّ عن الفِرَاشِ

وهذا الثلاثي المتعاون على ناموسية أهل الفاو له علاج عجيب ، فالمعروف أن الطيور والحشرات بعضها لا يلتمس الرزق إلاّ بالليل مثل الخفافيش والبوم وبعضها يسترزق بالنهار كالذباب . أما البعوض فأذاه بالنهار قليل وإنما يقوى سلطانها بالليل . ومع أن الذبابِ لا يعمل بالليل قال بعض المتتبعين لحركات الحيوان : إذا بات الذبابِ في الناموسية فإنك لن تجد معه بعوضة واحدة . وحتى في هذه الحالة فلا مجال للنومة الطويلة لأن الذباب إذا أحسّ بضوء الفجر فإنه يقوم بوظيفة المنبِّه فيشبعك طنيناً وقرصاً وقردنة ، ولكن قطع ألف نومة خير من ريح الملاريا .

أما خاصية خمود البعوض بالنهار فسوف تسعد أصحاب الزواج النهاري فقط فينتهبون ساعات هادئة بعيداً من أذى البعوض .والزواج النهاري في عرف الأسلاف هو ضربِ من زواج المساكنة الذي أثاره أخونا الأستاذ صلاح الدين مصطفى – له التحية – في عموده (نبض الأشياء) وهو ظاهرة لا تشبه مجتمعنا ناهيك بديننا واجتثاثها يمثل أولوية مهمة ، والبركة في جهود مولانا بروفيسر أحمد على الإمام وأهل الغيرة .

وقد عرف أسلافنا البعوض بأشكاله وأنواع عضه ولسعه وطنينه وحنينه ولكنهم كانوا يجهلون الصلة بينه وبين الحمّى القاتلة التي كانت تصيبهم وكانت أقل مضاعفاتها الهَضْرَبَة (في الفصيح الهذربة) وللمتنبي لوحته الرائعة في وصف تلك الحمّى المريعة التي جعلته يتصبب عرقاً ، وفيها يقول :

إذا ما فارَقَتْني غَسَّلتني   كأنا عاكفان على حرام

ولتّ فيه النقاد وعجنوا وقالوا الاغتسال يكون من الحلال قبل الحرام ، مع أن الرجل قد يكون أراد التشبيه بعرق تلك اللحظة فقط ، لكن يغني المغني وكل حد على هواه.

الشماسة وقسمة الثروة*

قيل للمصري :(السودانيين بِقُوا ينكِّتوا) فردّ بسرعة قائلاً: (قاعوا -جاعوا-أولاد ال...) ولم يخلق الله شعباً لا يعرف النكتة ولكن المعرفة شيء والاختصاص شيء آخر. وللمصريين في النكتة ودوافعها تاريخ واختصاص قديم. ومن نكات مفاوضات السلام أن جنوبيّاً أوقف سيارته في محطة بنزين(طرمبة) وطلب من العامل أن يملأ التَّنك (فُلْ) فقام العامل بالمطلوبِ ثم طالب الجنوبي بالحساب فقال له كم؟ قال العامل: خمسين ألفاً، فناوله الجنوبي خمسة وعشرين ألفاً. فقال له العامل: ده نص المبلغ أدينا الباقي فردّ عليه الجنوبي بحماس: وَهْ ، إنت ما سمعت باقتسام الثروة؟ هذا ما روته النكته، ولكن أن تتحول النكتة إلى واقع فذلك ما حصل لي والبركة في (موبيتل) فقد أصبحت رسائل الجوال وسيلة اقتصادية ناجعة في الاطمئنان على العُقب ولكن الأخطاء فيها قاتلة. فكثيراً ما أضغط سهواً وبفعل العادة على رقم ابنتي بالسودان فيأتيني جوابها ساخراً (النمرة غلط يا بابا) ولكني هذه المرة أرسلت رسالة لأحد أقاربي في الخرطوم أنبهه لتسلُّم مبلغ من جهة معينة وبقدرة قادر غيرت آخر رقم في جواله فطارت الرسالة واستقرت في جوال أحد الإخوة الجنوبيين وهو شاب جمع ضروب المشاغبة كلها مع بساطة وخفة روح وطلاقة لسان ، فملأ شاشة جوالي الضيقة بالكرات المرتدة (المِسْ كولات) وقد كان أهلنا قبل الرسائل يخسرون قيمة دقيقة ليقولوا لك وبسرعة فائقة (كلمنا على الرقم الفلاني) أما الآن فقيمة الدقيقة من (سوداتل) تمكنهم من عمل عشرات (المِسْ كولات) من (موبيتل) ونحن الضحية في الحالتين. المهم حين ألَحَّ الرقم المجهول (رقم الجنوبي) في الرسائل المرتدة خفت من العواقب وخشيت أن يكون في الأمر خطر أو مكروه فكلفت ابني الاتصال من الهاتف الثابت ليتعرف لي صاحب الرقم ويبلغه تعذّر اتصالي به في الوقت الراهن لوجودي

* صحيفة الخرطوم ٣٠ مارس ٢٠٠٤م.

خارج البيت. ثم تطور الأمر واتصل بي الأخ (دال) مباشرة أكثر من مرة وفي المرة الأخيرة قال لي جاداً : شنو يا هاج ما لكم فتحتوا لينا انتو نسيتونا ولاّ جِنُو؟ وكاد يذكرني بقسمة الثروة. أما في المرة الأولى وبعد السلام والتعارف فقد كان قال لي: شنو يا بتاعين سعودية ما تشوفونا بي هاجة إن شاالله كم (رُبْطه) كده نحن والله (مسخنين لي الطِّيش) وأشفقت عليه من طول المكالمة بعد أن فهمت المعنى العام ووعدته خيراً. والتفتُّ بسرعة إلى أخي كامل وابني محمد وابن عمته بدرالدين وهم من المتضلعين في هذه اللغة الحديثة (لغة الراندوق) فأفهموني أن (الرُّبطة) هي مائة ألف وأن الألف يسمى (حَبّه) وأن (السخانة) هي الفَلَس. فأضفت إلى قاموسي معاني أخرى ومعنى خامساً لكلمة (السخانة) إذ كنت أعرف الأخيرة بمعنى الحرارة والحمّى وضيق الصدر أو الحماقة. وكان عمنا ود ربيع أحد دراويش البدراب الله يمسّيه بالخير – أضاف لي معنى رابعاً عجيباً للسخانة، قال: شيخنا قال لي اتزوّج، فقلت له: عايز لي مرة (زوجة) فيها عشرة صادات (صفية وصلاّية وصوّامة وصالحة وصابرة وصامته وصافيه وصفراء وصاقطة) فقال له الشيخ: ده كلو عرفناه لكن (صاقطه) دي كيف، يتَلْمَسها؟ قال: قلت لا يا بابا الشيخ، ما بلمسها لكن بنتك دي إذا كانت لا صدراً يعَطِّر ولا وَرْكاً يبَطِّر (بعد وصف طويل للنحافة) ... عيدان ومغطية بالدلقان دي ماها مسَّخنَهْ لامن مِدَخِّنَهْ. وأظن شيخ الدراويش كان يريد امرأة (فريون) باردة صيفاً حارة شتاءً كالتي عناها العرب والسودانيون . ألم يقل ود الفراش :

تكسِّر ليّ حِسّاً مو هو هايف   تَبْرْد الحُمَّى وكت الصّيف يَصَايف

بل ألم يقل الحاردلو :

حلوة ولينةْ يدفي جليدا من الزِّيفه

وهذا هو برد الصيف ودفء الشتاء الذي ذكرته العرب (الخالق الناطق) في قول شاعرهم:

وتبرد بَرْدَ رداء العروس   بالصَّيف رَقْرَقْتَ فيه العَبيرا

وتَسْخُنُ ليلةَ لا يستطيع   نُباحاً بها الكلبُ إلاّ هَريرا

وتستوقفني (لغة الشماسة) كثيراً فأجتهد في تأصيل كثير من مفرداتها وأقف عاجزاً أمام كثير منها وهي ألفاظ وأساليب تتكاثر بالمصادفة بإخراج اللفظ من دلالته الشائعة إلى دلالة مستعارة ثم ينتشر فَيَتَلَقَّفُهُ العامة ويسري سريان النار في الهشيم. ومن معاكسات الكبار أن أحدهم حكى لي عن أستاذ جامعي معروف بالدُّعابة والممازحة سألته طالبة حسناء عن نتيجتها، فقال لها: نتيجتك زي وشّك فبكت المسكينه وانتحبت فقال لها الأستاذ: يا بتي حرام عليك ، شوفي وشك في المراية تعرفي نتيجتك ففهمت وضحكت. قال الراوي: يعني (فَصَلَتْ) وأظن أن فاصل وحارق تَشْ من لغة أهل الميكانيكا. ومعجم الشماسة أبداً متجدد ففي زماننا كان يقال: (فلان خالط) فأصبحوا يقولون (مجكس) والزملاء الذين يتكفَّلُون بتوصيل الزميلات إلى داخلية الطالبات كنا نسميهم (طراحات أو تكاسة) وأظنهم الآن يسمون (ركشات) إذا بقيت داخليات الطالبات بمفهوم زماننا. وفي أزمان سابقة كان يقال (فلانة عسل) فتطورت في زماننا إلى (فلانة شطة) قال لي بعضهم: فسدت أذواق الناس . قلت لم تفسد الأذواق لأن الشطة في موضعها أحلى من العسل في موضعه واسألوا أهل المزاج. ثم تطورت في زمان لاحق إلى (فلانة شَرِطْ ومُوسْ وسِمْ) والجايات أكثر من الرايحات. وأنت لا تملك إلاّ الحيرة إذا سمعت محاورة بين شماسيين يقول الأول: صاحبك ده عامل فيها (تفتحيه) كنت عاوز (أدقّسه) لكن لقيتو (ناقش) أظن (الفرده) أداهو (الشمار) و(شتَّت) فيقول الآخر: بعد ده (أنسله) (الفارة) ده لو عملت ليهو (ملاوزه) يجيب لينا (هوَا). وأظنني أستطيع الفتوى في (دقس وفردة وشتّت) ، وإن كانت الأخيرة في زماننا كانت تعني التكشف وعدم الاحتشام ثم كثر التكشف وقل الاحتشام عبر الفضاء المفتوح والمغلق حتى عجزت كلمة (مشتّته) عن استيعابه ولا أدري ما البديل لها ولكنها الآن أصبحت بمعنى غادر أو زاغ كما سوف ترى في النصوص الآتية .

أما (دقس) بمعنى غفل و(التدقيس) بمعنى الضحك على الدقون فقد وقفت عندها في أكثر من مناسبة حتى في كتابي عن مدائح شيخ البرعي وهي عربية فصيحة. أما الفردة وإن

كنا نعرفها في فردة النعلين- أكرمكم الله- وفي فردة جوز الحمام فقد أصبحت الآن خاصة بالصديق أو الحبيبة، (سنة يا فردة) وعلى الرغم من شيوعها وفرحة الشماسة بها لكنها قديمة عتيقة أنشد ابن الأنباري قبل ألف ومائتي سنة قول جارية تحنّ إلى حبيبها:

وكنا كَغُصْنَي بَانَةٍ وَسْطَ دَوْحةٍ ... نَشمُّ جَنَى الجنَّات في عِيشَةٍ رَغْدِ

فأُفْرِدَ هذا الغُصْنَ من ذاك قاطعٌ ... فيا (فردةً) باتت تَحِنُّ إلى (فَرْدِ)

وحتى كلمة (سنة) التي كانت شائعة في أيامنا في معاكسات الشرّامة في مواقف المواصلات، هي قديمة أيضاً وهي من أصل حبشي تقال للتعجب من الشيء الجميل، وجدتها في خبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام وندّ عني موضعها الآن وقد جاءت في سياق ممازحته لجارية (بنت صغيرة) رآها تلبس ثياباً حسنة فقال لها : سَنَهْ !! وكان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلاّ حقاً. (*)

هذا بعض ما فهمته ولكن تأملوا معي العبارة التالية التي قالتها مجموعة (مساعدين عربات) توفي زميلهم فجمعوا مبلغاً من المال كما جرت به عادة المواساة والمجاملة الفريدة عندنا ثم جاءوا يعزون والد زميلهم (فردتهم)، وقالوا له:(يا حاج الفرده ده دقس واتلحس ، ونحن جبنا الشرتيتة دي ومشتتين) ثم جاء زميل لهم بعد انصرافهم سمع بالخبر متأخراً ، فرفع الفاتحه وجلس بالقرب من الحاج يسلّيه ويواسيه فكان مما قاله له: بالله يا حاج الفرده ده جَرّ شفّاط متين؟

بارك الله في أيام البروفيسر عون الشريف وجهوده في قاموس العامية ويبدو أننا بعد الفراغ من قسمة الثروة والسُّلطة في حاجة إلى قاموس آخر معاصر يفك طلاسم لغة (الراندوق) هذه، وهذا اسمها كما قرأت في بعض مجلاتنا أعان الله أساتذتنا وأخواننا في مجمع اللغة العربية وأخانا د. صديق عمر صديق في معهد عبدالله الطيب ومن دار في فَلَكِهم.

(*) راجع مقالة (سنه يا أم خالد).

الدكاترة والأَلَس*

عرفت الدكتور الصيدلي عبد الحميد قرناص قبل سنوات من خلال صحيفة الخرطوم التي من حسناتها الكثيرة أنها عرفتنا أمثال عبد الحميد. عرفته كاتباً رشيق القلم خفيف الظل والروح والدم (دم دكاترة) من خلال المفكرة ووطن الابتسامة الذي افتقدناه كثيراً وافتقدنا أعلامه وليتهم يعودون فالعود أحمد. هاتفت عبد الحميد مرات عديدة غير أنّي لم أَلْقَهُ كِفاحاً أبداً مع أننا في مدينة واحدة (الرياض) وما رأيت له إلا صورة واحدة ولعلها في صحيفتنا هذه وكان مُعْتَمّاً بعمامة أظهرته على غير هيئة الأناقة التي وجدته عليها بالمصادفة حين جئت المستشفى العسكري قبل أيام ، سألته عن بعض الزملاء وسلمته بطاقة فيها معلومات شخصية ورجوته تسليمها لأحد الزملاء فما أن نظر فيها حتى قال لي وبسرعة : يا أخي إنت مفروض تعرفني قبل الجماعة ديل، أنا عبد الحميد قرناص! لم أتهم ذاكرتي بأنها خذلتني لأنني أصلاً لم أركِّز في وجهه فخرج إليّ وتعانقنا بطريقة السودانيين حتى لفتنا نظر المراجعين . وبعد دردشة سريعة قال لي د. قرناص : إنت ذكرت أن (الألس) لفظة عربية وهذه اللفظة معروفة عندنا في تراث الساقية بأنها نوبية ؛ وأنا سأكتب عنها في المفكرة ، قال لي ذلك بإصرار ، فقلت له : هي عربية أصلها (القَلْسُ) ولكن اكتب ما عندك لتعميم الفائدة . وأنا شديد الحرص على التعليق المفيد ، وقديماً قالوا: التعليق على الكتب كالشُّنُوف (الحلقان) في آذان الحِسَان ؛ قال لي القارئ محمد أحمد الحساني بالمدينة المنورة : نحن عليّ الطلاق قايلين الصّبي هو الجنى اللّيهُو عنقرة لا من قرينا كلامك- يعني ملجاء في مفكرة الثلاثاء ٢٠٠٢/٩/٣م عن الرضيع والصبي. ولأضع القُرَّاء في الصورة كنت ذكرت في مفكرة سابقة أن لفظة (الألس) التي تعني الحبل الغليظ هي لفظة عربية أصلها (القلس) وأن صاحب قاموس العامية ذكر أنها نوبية ، وعندي أنها عربية ولديّ على ذلك شواهد ستأتي. ولكن قبل ذلك تعجبني ظاهرة هؤلاء الصيادلة والأطباء الأدباء؛ والحقيقة أن الحقل

* صحيفة الخرطوم ١ أكتوبر ٢٠٠٢م.

الطبيّ حافل بالمبدعين منهم وأمثل فقط ببعض من عرفناهم من خلال هذه الصحيفة ابتداءً بالبروفيسر حسن أبو عايشة – أستاذ الطب بجامعة الملك سعود – الطبيب الأديب بمعنى الكلمة وأكثر. أديب في طباعه ورقته ودماثة خلقه وأديب في قلمه واهتماماته ولا تستغرب إذا قلت لك إن هذا العالم البروفيسر ما يزال يخلع (الكوت) الأبيض ويجلس جلسة التلميذ المبتدئ يتلقى أنواع المعارف المختلفة. زرته مرة في عيادته ودخلت معه قاعة محاضرات كلها لوحات توضيحية عن الكُلَى ومصطلحاتها الطبية ولكن اللوحة الأساسية كانت تزينها أبيات شعر لأبي تمام، فطلب منيّ أن أجدد ما فيها من أبيات فحضرتني في تلك اللحظة أبيات في النسيان كنت أنشدتها مرة لأستاذنا البروفيسر صاحب (صيد الخاطر) فاستطرفها وطلب منيّ تسطيرها في لوحة مكتبه أيضاً، و أرى ألا أحرم منها القراء فربما وافقت حال كثيرين منهم في هذا الزمن الأغبر، يقول الشاعر :

أفــرطَ نسياني إلى غــايةٍ	لم يَـدَع النسيانُ لـي حِسّا
فصرتُ إما عرضت حاجةٌ	مُهِمّـة أوْدَعْتُهـا الطِّرسـا
وصرت أنسى الطِّرسَ في راحتي	وصـرت أنسَى أنـني أنسَى

والطِّرس هو الدفتر . وأزيدكم من الشعر بيتاً بأن زملاء البروفيسر أبو عايشة هم أيضاً على شاكلته، فقد شرفني حين عرفني بلختصاصي المسالك البولية زميله البروفيسر ربيع عبد الحليم فوجدت أديباً كبيراً بل موسوعة أدبية متحركة يحفظ من الأشعار ودرر الكلام ما يرصِّع به حديثه في التخصص فتخرج من عيادته متعافياً (غير حُقْنة ومشرحه) كما يقول شيخ البرعي رعاه الله . وقبل ذلك عرفني برئيس قسم المسالك البروفيسر صلاح فقيه فوجدت خُلقاً وعلماً وأدباً جعلني أهمهم بقول الله تعالى (الطيبون للطيبات) وأقول والله معاهم حق فهم كما قال الشاعر :

إذا كان الَهزَارُ دليلَ قوم	يمرُّ بهم على الرَّوْضِ النَّضِيرِ

وحين أعجبني حالهم مازحتهم بعبارة أخشى أن تُؤَلِّب عليَّ فـروع قبيلـة الطـب الأخـرى ، قلت للبروفيسرين فقيه وربيع : أنا أرى أن تخصص المسالك هذا سيِّد تخصصات الطِّب بناءً على قول الجاحظ "وعامّة اكتساب الرجال وإنفاقهم وهمّهم وتصنّعهم وتحسينهم لما يملكون إنما هو مصروف للنساء والأسبابِ المتعلقـة بالنـساء" . ويطـالبني بعـض القـراء بالـشرح والحواشي لكن مساحة المفكرة لا تسمح و عبارة الجاحظ هذه يفسدها الشرح .

وفي حفل بهيج بفندق الرياض ماريوت أقامه (د. معتـصم و د. عـصام وأ. تجـاني) أبناء المعلم الأنموذج والمربي القدوة الأستاذ عبد الباقي محمد عبد الباقي (الذي منحته جامعة الخرطوم درجة الدكتوراه الفخرية لعطائه الفياض في حقل التعليـم) يومهـا خطـب ابنـه الأكبر الدكتور محمد المعتصم خطبة عصماء جعلـت سـفيرنا الأسـتاذ سـيد شـريف يقـول لأستاذه المحتفى به : قد كنا نعلم أن ابنك طبيب ولكن لم نكن نعلم أنه خطيب. والحـق أن الرجل يتحلى بقلم سيّال وفكر عميق التقيناه مع شيخ الـصحافيين الأسـتاذ الكـبير محمـد الحسن أحمد – متعه الله بالصحة – في ضيافة البروفيسر عز الدين عمر و د. محمد المعتـصم فقاد الأخير الحوار واستخرج لنا خبايا كنوز أستاذ الصحافة في جلسات قـلّ أن تجـود الأيـام بمثلها ، شرَّف حضور بعضها أخونا د. الباقر ثم لحق بقطار مـشاكوس المتعثِّـر كتعثـر قطـار كريمة في زمانه ، نسأل الله أن يقيل عثرته و يوصِلَه محطَّـته . فليـت المعتـصم يخـرج للنـاس بنات أفكاره اللائي يصرخن في زوايا أدراجه فقد عهدنا البنات يُحْبَسْنَ في الخـدور ولـيس في الأدراج و عَهِدْنا سَمِيَّهُ المعتصم العباسي من فرط غيرته على النساء دكّ حصون الروم في عمورية من أجل صرخة امرأة قالت : وامعتصماه !! وقراء هذه الصحيفة يعرفـون الـدكتور محمد إبراهيم قرض الصّيدلي الأديب الساخر الفَكِه (الكـاف مكـسورة وإذا شـددها أحـد فليست مسئوليتي يا دكتور) وقد كنا نقرأ له بشغف إبداعاته في صفحة (وطـن الابتـسامة) وغيرها من صفحات جريدة الخرطوم. وما قرأت في وصف دخـان الطلـح أبـدع ممـا كتبـه د. قرض حتى أجبرني إبداعه على أن زيَّنت بما كتبـه حواشـي كتـابي (ص١١) . وقـد يـصدر

الطبيب عمّا لا يصدر عنه دهاقنة السياسة وأساطين الأدب وجهابذة الكتابة كما جاء في اللوحات الأدبية والسياسية التي رسمها يراع الطبيب الأديب الدكتور عارف عفان صاحب القلم الرشيق الصادق العفيف في حقّ الوطني الغيور والمناضل الجسور والجندي الصامد الصامت السيد الشريف زين العابدين الهندي الذي فتح للناس باب العودة والحوار وأتاح للناس مساحات من الحرية ما كانوا يحلمون بها فاستنكر المتعجلون وقصار النظر خطوته وشجبوا مبادرته ثم دخلوا أخيراً من البابِ الذي فتحه لهم ولم يفتح الله عليهم بكلمة عرفان ، بل نسب بعضهم فتح الباب لنفسه . تكلم عنه د . عارف في هذه الصحيفة فاستفاد من دروس علم التشريح في سبر أغوار الشريف وبيان مقاصده الوطنية السامية النبيلة وشخص الداء بعقل كبير ووضع يده على مصدر الألم بأدب ورفق وكتب دكتور عارف الوصفة النافعة وبقي علينا أن نوفر ثمن الوصفة وهو الصدق والتجرد وبقي على ألوان الطيف السياسي أن تحرص على استعمال الدواء بانتظام والعاقبة بعد ذلك عافية أهل السودان جميعاً . طابَ الشريف وطبت أيها الطبيب العارف العفيف.

هذه نماذج فقط والساحة – من بعد – حُبْلَى بالمبدعين في حقل الطب وغيره ؛ فانتظروا حديث (الألس) في مفكرة الأسبوع القادم إن شاء الله وعسى أن يطالعنا د. قرناص بمداخلته قبل أن نقول كلمة أهل اللغة في (الألس وأخواتها).

الألَسُ وأخوَاتها*

وعدت القراء الكرام في مفكرة الثلاثاء الماضي بالحديث عن كلمة (الألس) التي قال عنها د. قرناص إنها نوبية ويؤيده في ذلك معجم العامية للدكتور عون (مادة : ألس) . فجزى الله الدكتور قرناص خيراً لأنني – قبل تعليقه – كنت وعدت القراء بمناقشتها مع أخوات لها. وجزى الله أستاذنا د. عون الشريف كل خير فإن معجمه في العامية مفخرة لكل باحث ومهتم ، وهو العمدة في كثير مما نصدر عنه من أحاديث العامية. وتبقى الحقيقة هي ضالة الباحث أين وجدها أخذها. وكلنا طلابِ عَلم أخذنا عن شيوخنا أن (من قال عَلِمْتُ فقد جَهِل). وحين قال عدي بن الرقاع:

وعَلِمْتُ حتّى ما أسائلُ واحداً   عن علمٍ واحدةٍ لكي أَزْدَادَهَا

قال أبو جعفر المنجّم : كنت أحب أن أرى شاعرين أحدهما عدي بن الرقاع فأسأله عن جميع العلوم فإذا لم يجب أَدَّبته . والآخر زيادة بن يزيد فأُقَبِّلُ رأسه لقوله :

إذا ما انتهى علمي تَنَاهَيْتُ عنده   أطال فَأعلى أم تَنَاهَى فَقَصّرا

وقديماً قال حكيم المعرة وشيخها أبو العلاء :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زَمَانُهُ   لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأَوَائلُ

فانبرى له غلام حدث وقال له : الأوائل أتوا بثمانية وعشرين حرفاً في الهجاء فهل لك أن تزيدنا حرفاً واحداً؟ فانقطع الفيلسوف الحكيم. فلله درّ أبي جعفر والغلام.

وليس لمثلي أن يستدرك على الدكتور عون إلاّ إذا تحرى وملأ يده مما يقول . وإذا قلنا : ما ترك الأول للآخر شيئاً فلن نفلح ونكون بذلك قد وضعنا أرجلنا على أولى درجات سلَّم الهبوط وكانت دعوة صريحة للجمود خصوصاً في حقل كحقل اللغة التي لا يحيط بها بشر إلا نبيّ يوحى إليه أو ملك كريم .

* صحيفة الخرطوم ١٥ أكتوبر ٢٠٠٢م.

ولا ينكر أحد التواصل والترابط السرمدي بين شعبي وادي النيل إلاّ أننا على كثرة دخول المصريين علينا وعلى كثرة دخولنا مصر خرجنا منها ونحن سودانيون لم يعلق بثياب عاميتنا إلا القليل النادر من عاميتهم وكان بفعل الغفلة والتسامح أولاً ثم استمر بفعل العادة. ومن طبيعة اللغات الحيّة أنها تأخذ وتعطي ولا عيب في ذلك بل هو دليل حياة وتطوّر.

أما كون (الألس) نوبية أو عربية فكلكم يعلم أن إخواننا المصريين خصوصاً أهل الشمال يقلبون كل قافٍ همزة فيقولون للقلم (ألم) وللقُطن (أطُن) وللقانون (آنون) وهي لهجة مستقرة عندهم ومشهورة. وقد ذكر الشيخ محمد صالح ضرار ومحمد صالح محيي الدين والشاطر بصيلي - وهو مؤرخ مصري قديم له اهتمام كبير بتاريخ السودان -ذكروا رواية طريفة وسبباً قديماً لقلب القاف همزة يعود إلى العصر المملوكي تقول الرواية : كان من نماذج الاضطهاد السياسي الذي مارسه المماليك على العرب في مصر أن أحد سلاطينهم أصدر أمره إلى الجنود بقتل العرب وحرق ديارهم ، فاستنبطوا حيلة لا يمكن للعربي أن يفلت منها، وذلك أنهم كانوا يقولون للعربي : قل (دقيق)، فإن نطقها صحيحة بالقاف قتلوه، وإن نطقها خطأً بأن قال (دَئيء) كما هو النطق المصري تركوه لأنه غير عربي، وكانت هذه الحيلة من أهم أسباب هجرة العرب إلى القطر السوداني فراراً من مصر.

فإن صحت هذه الرواية فهي من أهم أسباب انتشار قلب القاف همزة عند المصريين .

أردت بهذا أن أبين أن العرب عرفوا كلمة (القلس) وهو الحبل الغليظ من حبال السفن أو السواقي ونحوها وأن المصريين حولوا القاف إلى همزة فصارت (الألس) ثم انتقلت إلى الجنوب بهذا النطق كغيرها من الكلمات التي سأورد عليكم بعضها . أما في تراث العرب فقد أورد التونسي في (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) قول الشاعر :

لقلعُ ضرسٍ وضنْكُ حَبْسٍ و نَزْعُ نَفْسٍ وَوِرْدُ رَمْسٍ
ولفح نارٍ وحمل عارٍ وبيع دار بربع فِلْسٍ
وَقَوْدُ قِرْدٍ وفَرْطُ بَرْدٍ ودَبْغُ جِلْدٍ بغير شَمْسٍ
وفَقْدُ إلْفٍ وضيقُ خَسْفٍ وضَرْبُ ألفٍ بِأَلْفِ (قَلْسٍ)
أهونُ من وقفهٍ لِحُرٍ يرجو نَوالاً بباب نَحْسٍ

قال في القاموس المحيط : القَلْسُ حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما. قال محقق كتاب التونسي : ولعلّه هو الذي يسمى في بعض ريف مصر بالألس، ويكون غالباً من ليف . وقال ابن منظور في لسان العرب : القَلْسُ حبل ضخم من ليف أو خوص من حبال السفن. وذكر ابن جني في المحتسب الآية : (حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ - الأعراف/٤٠) وقال : قرأ ابن عباس وجماعة : الجُمَّل - بضم الجيم وتشديد الميم - وقال هو الجبل الغليظ من القِنَّب ويقال : حبل السفينة، ويقال : الحبال المجموعة. وقال أبو حيان في البحر المحيط : الجُمَّلُ : فسّر بالقلس الغليظ وهو حبل السفينة، تجمع حبال وتفتل وتصير حبلاً واحداً. وقال الصفدي في التصحيف : هو قَلْسٌ من قُلُوس السفينة. وجاء في ثمار القلوب للثعالبي عن الوزير ابن الفرات أنه نُصب بين البيازين وضرب بالقُلُوسِ، وهي الحبال الغليظة.

مما سبق يتبين أن كلمة (القلس) عربية ثم تغيرت عند المصريين إلى (الألس) كعادتهم في كل كلمة فيها قاف . ومن طريقهم جاءتنا وتسربت في لهجتنا كلها بتحريفها وليست في النوبية فحسب، فنحن في الجزيرة نقول : (دابي قَدْر الأَلْس) للثعبان الضخم. بل أعطيكم مثالاً آخر تستأنسون به وتطمئنون على صحة ما سبق وهو أننا نقول : (الأزمة) للآلة التي تشبه المرزبة لكنها أصغر حجماً وتستخدم في تشكيل الحجارة وإعدادها للبناء أو في حفر الأرض. وهذه الكلمة عربية أصلها (القزمة) وقد ذهب بعضهم إلى أنها تركية ، ولكنها عربية قلب المصريون قافها همزة فصارت (أزمة) مثلما قلبوها في (القلس).

ومنهم جاءتنا واستقرت عندنا حتى إن بعض السودانيين الذين اعتادوا قلب الهمزة عيناً يقولون (العزمة) وهذا شيء طبيعي في العربية لأن القاف والعين والهمزة من حروف الحلق وهي بنات حيّز واحد والإبدال في حروف الحّيز الواحد أمر طبيعي في اللُّغة. فبعض أهل الوسط يقولون (العيادة) وبعضهم يقول (الإيادة) و (السُّؤال) و(السُّعال). أما أهلنا أصحاب السواقي والألس فعداوتهم مع العين قديمة فهم يحولون كلّ عين إلى همزة؛ فيقولون : (وردي - شفاه الله - من إنْدِنَا) وهم يريدون (من عندنا) وحقّ لهم أن يفخروا بقمة الفنّ السوداني - أسمعنا الله عنه كل خير ومَتَّعَهُ بالصحة والعافية.

هذا وفي لهجتنا العامية كلمات أُخر تسربت من العامية المصرية تزيدك أُنساً بما نحن فيه، منها (الحقنة الشرقية) وهذه الحقنة رغم أنها (غربية) حسب فسيولوجية الجسم واتجاهاته، ولكن ليس المراد شرقية ولا غربية ولا صلة لها بالاتجاهات أصلاً وإنما هي (شرجية) لأنها تدخل من فتحة الشرج كما هو معلوم ولكن لأن المصريين يقلبون الجيم قافاً قوية فيقولون : (قريدة القزيرة) وهم يريدون (جريدة الجزيرة) ويقولون (القَمَل) وهم يعنون (الجمل) فجرياً على عادتهم حولوا (الشرجية) إلى (شرقية) ومنهم تسربت إلينا ثم استمرت. وهذه الحقنة قديمة ذكرها الجاحظ في البيان؛ قال : أشاروا على عبيد الله بن زياد بالحقنة، فَتَفَحَّشَها، فقالوا : إنما يتولاها منكم الطبيب. فقال : أنا بالصاحب آنس يعني يفضل أن ينكشف لصاحبه بدلاً من الطبيب لأن الطبيب غريب.

وقد مات كثير من أهلنا عليهم رحمة الله بالإمساك وحبس البول بسبب رفضهم اقتحام الأطباء لهذه المناطق الخاصة المحظورة. ولكننا الآن تحضّرنا فأصبحنا نأخذها ببساطة و (ميّة خازوق ولا الموت الزؤام).

ومن الألفاظ التي وردتنا من مصر : (الجواب المسوكر) وهو عند المصريين (مسوقر) وعند العرب (مسوجر) من الساجور وهو عصا تُجْعَلُ في عنق الكلب تَحُدُّ من

حركته وخطره ؛ قال بعضهم : فقلت له السلجور خير من الكلب. وقال المتنّبي في صفة كلب أبي علي الأوارجي : عن أَشْدَقٍ مُسَوْجَرٍ مُسَلْسَلِ .

قال ابن جني في الفِسْرِ : مسوجر : من السلجور ومسلسل يعني له سلسلة يقاد بها، (قُلْتُ: الفِسْرُ هو كتاب شرح فيه ابن جني ديوان المتنبّي)، فالمسوجر هو الشيء المقفل قفلاً محكماً. وهذه صفة الخطاب (المسوجر) الذي حوله المصريون إلى (مسوقر) ثم حوّله السودانيون إلى (مسوكر) لأننا نقلب القاف كافاً فنقول : المحرش ما بكاتل . وكاتال في الخَلاَ وعُقْبَانْ كريم في البيت . ومنها (قلفط مزاجو) وهي في العربية (جلفط) و (زقل) الشيء عندنا يعني رماه وهو في العربية (زجل) والقائمة طويلة. وكنت عزمت على مناقشة هذه الأشياء العامية الطريفة في عمود (مسلحة عامية) في صفحة المغتربين حتى لا نكدر أجواء المفكرة التي من أهدافها الترويح، ولكن يبدو أن محررها وكفيلنا أو عمنا الأستاذ صلاح الحويج غير راضٍ عنا.

للمتابعين :

عم عيسى المصحح (ودحاجة هيبة) جاء إلى المملكة مستشفياً فاسألوا الله له الشفاء العاجل.. علمت بوصوله من مكتب الصحيفة بجدة فاتصلت للاطمئنان عليه فسألني برُغْب : أها الليلة نزل ليك شيء في الجريدة ؟ طبعاً كان يتوقع الجزء الثاني من الرد، فقلت له : لما سمعنا بمرضك عفونا عنك وجعلنا الجزء الثاني من الرد كرامةً لك، فتنفس الصُّعداء. وهو مُصِرّ على أن المسألة كلها كانت (تحريشة ومشاغلة) . ألم أقل لكم إنه ظريف؟ وهو الآن بخير فاسألوا الله له تمام الصحة والعافية والعود الحميد. ولا عندك نيّة زوغة؟

الخُنْفُشار وحمارُ بَشّار*

قد قيل ما قيل في (الخُنْفُشَار) وأنَّه لا أصلَ له في كلام العرب وذلك في قول الشاعر:

لقد عَقَدَتْ مَحَبَّتُهم بقلبي كما عَقَدَ الحليبَ الخُنْفُشَارُ

وأرجح ما قيل في (الخُنْفُشَار) أنها كلمة صنعها أو نحتها الشاعر حين اضطرته القافية . ويبدو أنها مثل قافية بشّار الغريبة التي قال لجلسائه عنها : أسالوا عنها الحمار . فقد قال لهم وهو يعبث ، وكان مات له حمار : البارحة رأيت حماري في النوم فقلت له : ويلك ما لَكَ مِتّ ؟ قال إنك ركبتني يوم كذا وكذا فمررنا على بابِ الأصبهاني فرأيتُ أتاناً (أنثى الحمار) عند بابه فَعَشِقْتُها فمِتُّ ، وأنشد :

سيِّدي مِلْ بعنَاني نحو بابِ الأَصْبَهاني
إن بالباب أتاناً فَضَلَتْ كُلَّ أتَانِ
تَيَّمَتْني يومَ رُحْنَا بثَنَاياها الحِسَانِ
وبِغَنْجٍ ودَلالٍ سَلَّ جسمي وبَرَاني
ولها خَدٌّ أسيلٌ مثلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِ
فبهَا مِتُّ ولَوْ عِشْتُ إذنْ طالَ هَوَاني

فقال له رجل : يا أبا مُعَاذ ! ما الشَّيْفَران ؟ فقال هذا من غريب الحمير فإذا لقيتم حماراً فاسألوه عنه ! .

فالشَّيْفَران والخُنْفُشار وَلَّدَهُما الاضطرار ، ولكن الذي علمته بالمشاهدة والتجربة الشخصية أن هناك نباتاً يَعْقِدُ الحليب ويُخَثِّرهُ يعرف عندنا في وسط الجزيرة (بالجُبَّين) _ ولا أعلم اسمه العلمي – وهو نباتٌ أوراقه كبيرة الشبه بأوراق نبات الباذِنجان إلا أنها أصغرُ حجماً ، وعلى سطحها أشواك ، وثماره صغيرة كُرَوِية الشكل في حجم نَبَق السِّدر العادي ،

* صحيفة الخرطوم ٤ فبراير ٢٠٠٣م.

وهي صفراء اللون إذا نضجت وجَفَّتْ . وبذورها تشبه بذور الباذنجان ، وكنا – في أيام الطفولة – نَفتُّها ونستخرج تلك البذور السوداء ، ونَذُرُّها في الحليب الطازج ونُعَرِّضُها للشمس دقائق معدودة فَيَتَخَثَّر الحليب وينْعَقِد ويُصْبِحُ أشبهَ بالزَّبادي أو الجبن ، وربما أكلناه في تلك المرحلة . فهل هذا هو الخُنْفُشَار ، أم ما تزال هذه الكلمة لغزاً ؟ .

هذا ولعلّ فكرة (الجُبْن) من ههنا أُخذت ونشأت . وهي عملية تخثُّر بمواد طبيعية تنْقُصُهَا الخميرة ، ولاحظ العلاقة بين الجبن والجُبَّيْن في التسمية والاشتقاق اللغوي . ولا تستغرب العلاقة اللغوية بينهما فالجبين أشبه عندي بالمصدر المُرْتَجلَ عندنا وهو (الفُعَّيْل) – بالضم أو الكسر – نحو قولنا :(الغُمَّيْض) ونحن نريد التّغميض ، و(العُصّير) من عَصَّر، و(أحس بِكِسَّير في جسمي) والمراد (التَّكْسِير) ، ولهذا مَشَابِهُ لا تكادُ تُحْصَى في عاميتنا .

وعسى أن يكون الجُبَّيْنُ هو الخُنْفُشَار – لأن العرب لم تعرف نباتاً مثله يَعقِدُ الحليب، والدليل على ذلك إنكارهم عدم معرفة هذه اللفظة وأنها غير واردة في معاجم لغتهم – أو أنها المصادفة المحضة . وهذا استقراء واجتهاد مجرد ، ويبقى القولُ الفصْلُ لعُلَماءِ النَّبات . وعلى رأسهم عالم النبات الموسوعي أستاذنا الدكتور حسن مصطفى حسن .

وعوداً إلى حمار بشّار – أكرمكم الله – ورغم ما ناله الحمار في التراث من تحقير إلاّ أنّ لنا فنانين يجعلون من الحبة قبة ، فعّمنا الخليفة إبراهيم الفكي صالح – يرحمه الله – من أهالي قرية الدناقلة شرق مدني – توفى في أربعينيات القرن الماضي وهو شاعر كبير مجوّد مبدع ، قضى شبابه لاهياً ساهياً ثم أدركته رحمة الله فتحول مائة وثمانين درجة وخرق العادة في الصلاح والاستقامة وأصبح أحد خلفاء الشريف يوسف الهندي ، سلك طريقته الذائعة بالجزيرة وغيرها ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والشريف بقصائد من عيون الشعر . كان إبراهيم آيةً في جودة الشعر وكان في شبابه ساخراً مُرّ الهجاء وكان فَكِهاً أيضاً ؛ ومن فكاهاته أنه مات له حمار فأنشأ فيه مناحة كان يؤديها مع شُلّته في ليالي الرِّيف المقمرة وكان في الزمان وأهله طيبة وفن فطري يقول إبراهيم في أبيات أرجو أن تقبلوها على جودة الشعر وروعة التصوير وروح الفكاهة لا على المعنى :

من فرق الحبيب مَسْخَانْ علينا الدور
اتْنْدَل رقد عَضُمْ أب كُدر في الخور
هيلا ... سيقانو رَقَدْن شــــور

بجيــــــب عليـــــــك منـــــــشور — يــا خبّــار بكانــات الخـَـ ... المحـشور
يا اب جلداً عَفِنْ من الـورم مقـشور — نَفَسَكْ ديمة قـايم زي نَفِخْـة الـكور
ودعِــزّ المــكادة نِـسيِبْتو مـعـــروفة — بي العَتّرة الشديدة شـلوفتو متفوفـه
اللَّخـدر خرابـه وحـــالو مكـشـوفه — غَرْوَادْ لي عيونو والـبي قَفَـا بـشـوفا
إبْكَنُّو الحـمير مـسخان عليهـا الـزاد — يا أسد الدَّفايس اللي البيوت قَـدَّاد
ما بْتَحَمل شـديد مـن اللـبِّد رقّـاد — وإن حَرَنْ الجَضَع لا بِنْسَاق ولا بِنْقَـادْ

وهي طويلة طريفة قد تكون فيها صـعوبة في بعـض ألفاظهـا خـصوصاً علـى بعـض مولَّدي المدن وبعض أبناء المغتربين وهما فئتان معذورتان لانعدام المعايشة . وقد ساءني جداً أن أسمع طبيب أطفال كبيراً في سـهرة تلفزيونيـة يـشكو مـن صـعوبة التفـاهم مـع أطفـال المغتربين حتى كأنهم من العجم أو أنهم من كوكب آخر . وهذه فِرْيةٌ أطلقها بعض المنكِّتين ثم صدّقها بعض الناس وهولوها وَضَمُّوا لها (الحنكـشة) وهـي مـرادف الـدلال والـدلع والعجن الذي يمكن أن يوجد في أي بيت وفي أي بيئة وقد أعـود في سـانحة أخـرى لأطفـال المغتربين الذين شبعوا ظلماً ، وهم إن فاتهم شـيء مـن مفـردات الـتراث وتقاليـد البيئـة السودانية لبُعدهم فهم بخير ويحسنون كثيراً من الأمور التي لا يحسنها بعض الكبار . والمهم أن الدفايس جمع دفيس وهو القمامة ، والشديد هو السَّرج . واللِّبد جمع لبدة وهي ما يوضع تحت سرج الحمار . أما قوله : (ود عزّ المكادة) فيعني أن هذا الحمار مؤصّل ضـالع في سـوء الأصل لأن الحمار المكادي أسوأ أنواع الحمير عندنا . والمكادة هم الأحباش . وتنسب إليهم أشياء أخرى منها (بت المكاديّة) حظية مشهورة من حظايا أحمد مـرض يـومين ود اب سـن شيخ عربِ البطانة ومنها (بصل المكادة) وهو الثّوم ، (والبرق المكادي) الذي يبرق مـن

جهة الحبشة وهي جهة الجنوب الشرقي وهو برق أبيض لامع لا ينتظر منه خير وهـو شـبيه بالبرق الحُماري أو هو هو قال ود محلق في تلجوج :

شعراً بلا دايوك عَمَتْ الوسادة وسنّاً بلا مسواك برق المكاده

أما البرق المأمول والممدوح عندهم فهو القبلي أو العبّادي الذي يبرق من جهة القبلة جهة الشمال الشرقي قال شاعرهم في النعيم ود حمد :

إيدو أم رويق والقِبْلي شايل .

وعيدكم سعيد

أقدم من الكسرة*

إخواننا أبناء القضارف ينشرون عبر الانترنت مجلة باسم بلدتهم ويفكرون في إصدارها مطبوعة، يقود نشاطها الأستاذ الهمام صلاح كشة، وقد طلبوا مني المشاركة في بعض إصداراتهم فكان أقرب موضوع إلى الذهن أن القضارف هي صومعة غلال السودان. وكانت الكسرة أول ما تبادر إلى ذهني فكتبت لهم عنها وكانت انطباعاتهم عنها سارة فأحببت أن أشرك فيها قراء المفكرة وأوردها مختصرة (وحقوق النشر محفوظة لمجلة القضارف). فالكسرة هي طعام السودانيين المفضل الذي لا يتقدمه طعام. وهي من لوازم الجالية السودانية أينما حلّت حتى إن أحدهم حين ينزل غريباً في أحد بلدان النزوح والمهاجر التي تكتظ بهم- وما أكثرها -يسأل أول ما يسأل عن مكان الكسرة والتمباك. فأقيمت لها المصانع الآلية واليدوية وأصبحت مصدر ثروة لا يستهان به لأصحاب المصانع و(سِتّات الكسرة). وإن صحبتها أشياء أساءت للسودانيين كثيراً.

والناس إذا أرادوا وصف شيء بالقدم والعتاقة أو وصف إنسان بالكبر قالوا (فلان أقدم من الكسرة) وهو تشبيه مبني على حقيقة تاريخية ثابتة بل إن أول إضراب في السودان حصل بسبب الكسرة. روى صاحب (حقيبة الذكريات) عليه رحمة الله أن أول إضراب في كلية غردون تسبب في إثارته الطلاب الذين جيء بهم من رواق السنارية بالأزهر وذلك أنهم احتجوا على تقديم الطعام بالشوكة والسكين والزبدة والمربة وطالبوا بالكسرة ... وقال رحمه الله: وزعم الدكتور هانزا الألماني عالم الآثار في بعض حديثه لجمعية الخرطوم الفلسفية سنة ١٩٦٣م أن السودانيين القدماء في دولتهم التي كانت تسمى مروي في القرون السابقة للميلاد كانوا يصنعون الكسرة ولديهم آنيتها من خُمَّارة ومُرْحاكة طحن ودوكة عواسة وأن كلمة الكسرة نفسها كانت مستعملة بينهم.

* صحيفة الخرطوم ١٣ يناير ٢٠٠٤م.

أما أدوات صنع الكسرة الواردة فيما نقله البروفيسر عبدالله الطيب عليه رحمة الله عن هذا الألماني فمنها الدوكة. والدوكة كما هو معروف صَحْفَةٌ ملساء من الفخار (الطين المحروق). ولا أدري إن كانت قرية دوكة نواحي القضارف مأخوذة عنها أم أنها الدّوامة من الطين الخادع يخوضه الإنسان ليعبر إلى الجهة الأخرى فلا يخرج منه حتى يبتلعه. ولعلّ قول إخواننا المصارية (راح في دوكة) هو من هذا الباب لأن الطمي في الدلتاوات أو في شواطئ الأنهار بهذه الصفة بل أسوأ وقد نجوت منه وشقيقي بأعجوبة في بعض شقاوات الطفولة في مرابع لهونا على النيل الأزرق. هذا وقد يستخدم الصَّاج مكان الدوكة. أما المرحاكة فعربية قديمة وأصلها (مِرْهَكَة) من (الرَّهْك) وهو الطحن وقد وصفها الرحالة بوركهارت في رحلته في بلاد النُّوبة ولي معها وقفة مطولة في غير هذا الموضع. أما الخُّمارة فقد كانت بُرْمة من الفخار يخمّر فيها العجين رأيناها قبل أن تتطور الآنية ولكن الطريف أن أحدهم أدخل والدته العجوز إلى الحمام الإفرنجي – أكرمكم الله – فمكثت طويلاً وخرجت دون أن تفعل شيئاً، فسألها فأخبرته بأنها لم تجد موضعاً لقضاء حاجتها، فأشار لها إلى حوض السايفون – فاندهشت وقالت له: ... هنا؟ قال نعم. فقالت: كُرْ علي يا يابا الله يعلم يا ولدي يستاهل يسووه خُمّارة. ولولا خوف الإطالة لاستطردت إلى شرح بقية أدوات العواسة نحو القرقريبة والمعراكة والريكة والسايورة وأخواتها.

ولا يفرغ الإنسان من وصف الكسرة حتى يقفز إلى ذهنه الإدام (الملاح) وإدام الكسرة الأول هو اللايوق ويكة ناشفة أو المفروك بأنواعه. و اللايوق عربي قديم وهو فاعول من (ليق) وأصله تليين الطعام. وفي حديث عبادة بن الصامت :(لا آكل إلا ما لُوِّق لي يعني ما لُيِّن لي. واللين والالتصاق هما صفة الويكة واللايوق حتى إننا حين نصف الإنسان (اللزقة) نقول له (يا ويكة أو يا لايوق).وحرصاً على إقناعي بالعودة إلى الكتابة لاحقني رُبَّان مكتب جريدة الخرطوم بجدة الأخ محمد شيخ العرب بشيء من هذه الصفة مع نُبل الهدف طبعاً. قلت: وقطعاً فإن ملاح (أم رِقَيْقَة) هو سيد إدامات الكسرة وأطيب أنواع أم رقيقة ما دخلت فيه (لحمة) الضان السمينة. ذكروا أن السيد عبدالرحمن المهدي – رحمه الله – قدم

ملاح (أم رِقَيْقَة) للوزير المصري علي ماهر باشا لما زار السودان عام المعاهدة (١٩٣٦) وأعجبه الملاح ولكن لم تعجبه بداوة اشتراك الناس في أكله من إناء واحد فقال: (بس لو كان كل واحد مَعْجَنْتُو لِوَحْدِيها) نسي صاحبنا أنه بين قوم شعار ثقافتهم وبروتوكول طعامهم (بارك الله في زاد كثرت فيه الأيادي) ورثوا ذلك من أهلهم الذين يقول شاعرهم: (وإني امرؤ عافى إنائي شِرْكَةٌ) يعني (عيب ياكل براهو).

وكانت الذرة بأنواعها هي حياة أهلنا فإذا افتقدوها فلا حياة لهم، وكان أحدهم إذا حاز (مونة السنة) من العيش فكأنما حاز الدنيا بحذافيرها. قال بعضهم يخاطب العيش:

مالك يا العيش علي تجَّانْ　　أرْخَسْتَ الشباب حتى البهايم لاَنَّنْ
القُوا والضُّعاف من غيرو ما بْتَنْحانن　　شحّاط لي العروق لامِنْ المفاصل بائَنْ

وكانت مادة الكسرة الأساسية هي الذرة وهي أفضل ما يسمنون عليه هم ودوابهم وأفضل أنواعها الفيتريتة ولكنهم تحولوا عنها حديثاً لدكانة لونها. وزعموا أن فيها مادة غذائية حتى إنهم إذا أرادوا تقليل فحولة الحمار أو الجمل -أكرمكم الله- غيروا عليقته إلى المايو أو المقد أو وزن عشرة،وربما سرى ذلك على الرجال.

ومن الذرة يصنع أهلنا ألوانا من المشروبات كالعكارة والموص والمديدة والنُّشَا، وما الحلو مُر (الآبريه) إلاّ عصير كسرة مطوّر. وكلها طلباً لقطع العطش أو التسمين. وكان أستاذنا أبو الحيران الشريف الهندي الشريف عمر الهندي يسمي الموص المصنوع من كسرة التكية (تكية كولا) على وزن (بيبسي كولا). ومن الذرة أيضاً يصنعون العرقي والمريسة، والأخيرة غذاء رئيسي في بعض البيئات الجنوبية والغربية وذهب الأستاذ حسن نجيلة إلى أن أهل بوادي كردفان يرون المريسة علاجاً وهو كذلك في كثير من بيئاتنا وهي موصوفة لأمراض الكُلَى خصوصاً. ومن طيبة أهلنا وغفلتهم أنهم يرون المريسة غذاءً نافعاً مقوّياً؛ فقد ذهب بعض أهلنا في الجزيرة إلى الحكيم (الطبيب) فأراد أن يحقنه بحقنة فلم تخترق جلده فقال للمريض: إنت بتاكل شنو ؟ فقال له: لبن بقرتي والغبشاء. فقال له الحكيم لبن

بقرتك عرفناه ، الغبشاء شنو ؟ قال : المريسة. لذلك قال شاعرهم: (شارِب الـوِرْد عـضمُو انْسَمَر) والورد هو المريسة البايتة. بل يحرصون على علف مواشيهم بحثالة تصفية المريسة وهي المعروفة بالمُشُك أو المسكاب وهو صالح جداً لدواب الركوب وغيرها ومدّر فعّال للّبن. ومع غفلة من يرون المريسة غذاءً لهم ولدوابهم تجد حذراً ظاهراً عند بعض أهل التدين الذين لا يشربون حليب الماشية التي تتغذى بالمشك تأثماً. هذا والطريف أن العرب تعرف المريسة وتسميها الغبيراء ، والغَبَرَة والغَبَشَة واحد . وكانوا يقولون هي خمر الحبشة . ويرى أستاذانا البروفيسر الراحل عبدالله الطيب رحمه الله والبروفيسر الشيخ حسن الفاتح قريب الله – حفظه الله– أن الحبشة في النصوص الإسلامية هي سوداننا بشحمه ولحمه . وكل عام وأنتم بخير .

أسماء في حياتنا*

كل زول يعَجْبُو الصَّارُّو والقرد في عين أموّ غزال والجعران عند أموُّ كنان ولالوبنا ولا تمر غيرنا، والعندو بليلة بعاشي بيها والقحة ولا صمّة الخشم إلى آخر هذه المنظومة التراثية التي تعلي من شأن الأشياء الخاصة ومنها قناتنا الفضائية وما تقلمه فإنه يبقى محل تقديرنا ننميه باستمرار العطاء ونقوّمه بالنقد الراشد النزيه ونجنبه المصادرة وننأى به عن الهوى حتى لو ذهب بعض أصحابِ غربة الروح من المفتونين بأشياء غيرهم إلى ما ذهبت إليه جماعة قالوا لامرأة: إن زوجك فَعَلَ فَعْلَةً نكراء بين جمع من الناس فقالت لهم رغم فَعْلَته هو حبيب إلى نفسي. وأسعد كثيراً بمتابعة برنامج الأستاذ عمر الجزلي الذي يوثق لأعلام الحياة السودانية فهو إثراء لحياتنا وتاريخنا وهو وفاء لأجيال العطاء التي تستحق تخليد الذكر وهم القدوة التي تحتاج إلى أن تظل ماثلة في ذاكرة الأمة. وقد قال بعض السابقين في وجوب التوثيق لأمثال هؤلاء (ليكون ذلك شكراً لجميل سعيهم وحميد مقامهم إذ كان من حقهم على من أدوا إليه علمهم وأعملوا في صلاحه جهدهم تقييد أخبارهم وتخليد مآثرهم بما يبقي لهم لسان الصدق الذي هو بدل البقاء والخلد). وأتابع هذه الأيام بأنس حميم بالصوت والصورة رجلاً عرف بحلاوة اللسان وطيب الجنان وإشراق البيان كم أحببت أن أراه وأجالسه وإني لأرجو ذلك أعني معلم الأجيال الأستاذ مصطفى أبو شرف صاحب القلم الرشيق والفكر الدقيق والحس الرقيق والطرفة الحاضرة مع قوة الذاكرة التي تغبطه عليها أجيالنا الحاضرة فهو من جيل نارت دواخله وقلت شواغله فصفت العقول وتوافر المحصول ، لا كجيلنا المسحوق في هذا الزمان الممحوق ، يكافح البيت كله بكل جارحه فيه لتأمين العيش فتكون حصيلة أكثرهم الكفاف، فكيف نحفظ أو نحافظ على ما حفظنا، وما أصدق القائل، إذا ركب الرجلَ هَمُّ العيش طار من عقله ما لا يؤوبِ إليه. ومع

---

* صحيفة الخرطوم ١٣ أبريل ٢٠٠٤م.

علمي بأن الثناء يضايق عمنا أبا شرف ولكنه محسن يستحق الثناء فليسمح لنا بمضايقته حتى ننجو من صاحبه القديم القائل:

فَأثْنُوا عليهم لا أباً لا أبِيْكُمُ   بإحسانهم إن الثناءَ هو الخُلْدُ

شرّق بنا الأستاذ أبو شرف وغرّب في سياحة ممتعة في حديقة ذكرياته الغناء بطريقة تؤكد لك قيمة مثل هذه البرامج التوثيقية فنحن قومٌ أشحة في الكتابة فقراء في النشر فلا أقل من أن نحرص على الاستزادة من مثل هذا التوثيق خصوصاً لأمثال أستاذنا أبي شرف الذي تجد في حديثه المتعة الكاملة بما يتيحه لك من ذكرياته الثرة واختياراته اللطيفة الخفيفة الظريفة التي يستخرجها للمستمع ببديهة حاضرة في سعة ذاكرة وحضور شاهد. وسأتوقف قليلاً مع شخصية وموقف مرّ ذكرهما في حديثه الشائق . أما الشخصية فقد تحدث أبو الأشراف حديث الوامق عن الأستاذ الأديب المناضل عرفات محمد عبدالله عليه رحمة الله. فقال إنه كان يكتب في التايمز اللندنية في وقت كانت فيه الكتابة فيها حلماً لكثيرين من الإنجليز من معاصريه، فهو نتاج جيل كان تلميذهم يَفْهَم ويُفْهِم بالإنجليزية حتى ينبهر به الخواجات كما كان من أمر تلميذ الأميرية مع الخواجة الزائر في استراحة مشروع الجزيرة ببركات فقد كلمه ذلك الصغير بلغة جعلت الخواجه يحمّله رسالة إشادة إلى مدرسه مع أن ذلك التلميذ كان نصيبه من تعلم الإنجليزية أشهراً ستة فذكرني انبهار ذلك الخواجة بصاحب الطيب صالح الذي وصفه بالنصراني ذي المسوح والصليب الأصفر الكبير الذي قابل مصطفى سعيد في القطار في رواية موسم الهجرة إلى الشمال وقال له إنك تتحدث الإنجليزية بطلاقة. تداعت إلى ذهني وأنا استمع إلى حديث هذا الأستاذ عن ذلك الأستاذ روايات عجيبة عن تضحيات ذلك الجيل فهل سمعتم بأن(دخان الطلح) أنقذ مناضلاً من اعتقال الإنجليز؟ نعم إنه الأستاذ عرفات محمد عبدالله الذي كان كاتب المنشورات ومترجم البيانات لجماعة اللواء الأبيض فأحس الإنجليز بخطره وأضمروا اعتقاله وكان في جماعة اللواء الأبيض مأمير وضباط سودانيون فأوكل الإنجليز لبشير جار النبي تفتيش بيت عرفات

فهيأ له سبيل الهرب إلى مصر ولما جاء وقت التفتيش أخبر زوجة عرفات أن تعد لنفسها دخاناً وكانت بين أوراق عرفات بعض المنشورات فأسرع بها بشير جار النبي إلى زوجة عرفات التي ألقت بها في حفرة الدخان فلما هم الضابط البريطاني بالدخول على السيدة حذره جار النبي من أن دخوله ينافي العُرف الإسلامي والعادات السودانية فخرج الضابط ولم يقف على أي أثر للاتهام.

أما الموقف فإن أمثال أبي شرف كالذهب في المعادن وقد شدني موقفه التربوي الأخلاقي السامي حين أشاروا عليه في مدارس العروبة أن يقصي غير المتفوقين من طلابه من الجلوس لامتحان الشهادة تحت مظلة مدارس العروبة حفاظاً على سمعة المدرسة (التجارية طبعاً) فكان جوابه الرفض القاطع. نعم إن أبا شرف من جيل لا يبيع ضميره بحفنة دنانير. وليت المهتمين بالتعليم يستخلصون العبر والدروس من مثل مواقف هؤلاء الأوفياء فقد أثار هذا المعلم الأصيل بموقفه هذا قضية أنتظر الفرصة السانحة لتفجيرها وهو ما درجت عليه بعض المدارس (أو المتاجر) الخاصة من إقصاء غير المتفوقين من إحصائية المدرسة وتسجيلهم في مراكز أخرى يمتحنون فيها بالاتفاق (أو بمقاولة من الباطن). حفاظاً على سمعة المدرسة كما يزعمون وهم إنما يحافظون على الدخل والاستثمار ، لأن المدرسة الناجحة لا تزرع اليأس في نفوس طلابها ولا تحطم القلوب الصغيرة. وهب أن أباً رزقه الله أبناءً نجباء وآخرين غير ذلك فهل يكون أباً حقاً إذا فرّق بينهم في التربية والمعاملة. هذا تفكير استثماري تجاري بغيض لا صلة له بالتربية ولا بالتعليم وأسلوب دخيل على أصالتنا وعلى أعرافنا التربوية وهي ميكافيلية لو عرضت على الدين والعقل والأخلاق لكانت من بديهيّات منبوذاتها. وهل كانت حنتوب وخور طقت ووادي سيدنا أو وارثات التفوق من بعدهن يصنعن شيئاً من ذلك بفلذات الأكباد. وهل كان يرضى بهذا العزل البهيمي ساع أو بواب في تلك المدارس المنارات ناهيك بذلك الرعيل من المربين الذين مثلهم أبو شرف بارك الله في أيامه فضرب أروع الأمثلة في هذا الزمان المادي الكالح وبرهن على أن القيم

والمثل جبال ثوابت لا يجرفها طوفان الماديات ولا يلوثها مستنقع الاستثمار الآسن والاتجار الجشع بكل شيء نفيس وجميل. وهو أمر لنا إليه عودة حين تكتمل بيدنا خيوطه إن شاء الله.

هذا وقد يحلو لبعض المتابعين استهجان أساليب بعض مقدمي البرامج بحق وبغير حق . فربما ذكروا مقاطعتهم المتكررة للضيف وجهلهم بسيرة حياته بل ربما علقوا على ابتساماتهم وضحكاتهم حتى حينما يمر بهم ما يضحك حقاً وقديماً قالت الحكماء : تركُ الضَّحك من العَجَب أعجب من الضحك من غير عجب. والإعلامي المتمكن يعرف كيف يستخرج كنوز ضيفه لا يلجمه ولا يقحمه ولا يلزمه ولكن يعرف متى يلتقط زمام المبادرة ويجمع أطراف الحديث. قالوا مر أعرابي مُحَرَّم (جديد على البلد) على حلقة بعض مشايخ البصرة فاشرأب بعض المتعجلين لسؤاله عن مسألة ، فقال له شيخ الحلقة: دعني أسأله فأنا ألطف بسؤاله وأعرف. فالخبرة مطلوبة واللباقة مرغوبة وحسن التأتي للسؤال ضمين الفائدة. فليترفق الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب وليتركوا مجالاً للحريات والديمقراطية التي ينادون بها فإن ما لا يعجبك قد يعجب غيرك، ويكفينا من الأستاذ الجزلي هذه الحصيلة الغنية التي يعرضها علينا وتبقى رصيداً يتحف الأجيال فكم من شخص علم تمنينا أن لو رأيناه أو سمعناه وكم من عظماء من هذه الأمة أحدثوا ذكراً ولكنهم مضوا مخلفين أثراً بعد عين وبالأمس القريب بل في الأسبوع الماضي وقفت على سيرة علم شامخ من أعلام التربية والتعليم في مدينة الأُبيض هو الراحل الأستاذ عبالعزيز عبدالنعيم عليه رحمة الله الذي شرفتني كريمته بالاطلاع على بعض ما كتب فتمنيت لو أنه كان كتب أضعاف ما كتب لأن كتابته تفيض علماً وخبرة وأدباً. وسأعود إليها بإذن الله ولكني متحسر على رصيد أمثاله من الذكريات والتجارب التي رحلوا بها في صدورهم. قالوا مات أحد العلماء فوقف أحد زملائه على قبره وهو يقول: ذهب معه بعلم كثير فقال له بعض أصحابه. بقيت كتبه. فقال: الكتب تؤدي ما فيها ولكن صدره !! فمثل صدور هؤلاء إنما ينزح معينها في مثل هذه اللقاءات التي نتمنى على الأستاذ الجزلي أن يخرج بها من إطار العاصمة فإن في الأقاليم فلتات أيضاً .

ويكفي الأستاذ الجزلي ارتباط اسمه بهذه الكوكبة الشامخة ولا نقُول (اجنِ الثِّمارَ وخَلِّ العُودَ للنار) ولكن كما قال الآخر :

اعمل بقولي ولا تنظر إلى عملي   يَنْفَعْك قولي ولا يَضْرُرْك تقصيري

فالتحية لأستاذ الأجيال أبي شرف متعه الله بالصحة والعافية ونفع به والتحية للأستاذ الجزلي والتقدير لكل من بقي قابضاً على موقعه في الوطن الغالي في زمان الرحيل هذا. جمع الله الشمل ووحّد الكلمة .

ينطيك العافية*

الكلمة التي كتبها الأديب القاص الأستاذ الطيب صالح في هذه الصفحة (يوم الخميس الماضي ١١ مارس ٢٠٠٤) بعنوان (الكلمة السودانية الدارجة الفصيحة) والتي مسح أولها بمسحة السخرية المعروفة فيه تدل على حب الطيب لكل ما هو سوداني وتوق نفسه الشديد إلى تعريف الآخرين تراث السودان وأدبه ولغته. وفصاحة العامية السودانية محور أساسي من محاور حديث الطيب صالح متى جلست معه أو استمعت إليه. وقد طرق الأستاذ في كلمته تلك بعض الألفاظ التي طرقتها بالتحديد وبالتفصيل في محاضرتين سعدت بإلقائهما في الأسابيع الماضية في سفارتنا بالرياض ضمن الدورة التي يقدمها بعض المهمومين بالثقافة والشأن السوداني.

فقد قدمني تلميذي النجيب الأستاذ مأمون الحاج إلى جماعة موقرة من المشايخ الشبابِ والشبابِ المشايخ بمن فيهم طاقم السفارة أكبرت فيهم أدبهم وحرصهم على الفوائد يجلسون في هيئة أشبه بمجالس العلم في الزمان القديم، يحضرون صائمين عصر كل خميس يحاضرهم محاضر في أي فن ثم يفطرون جماعة ويصلون ويتفرقون. وقد شجعت هذه الجماعة إنشاء فصل للناشئة أيضاً يدرسونهم فيه الدروس النظامية ولهم دروس خاصة بالسودان يحدثونهم فيها عن كل شيء سوداني حرصاً على غرس حب الوطن وإذكاء جذوة الوطنية في نفوس الصغار ممن عصفت بهم رياح الغربة فأنستهم كل شيء سوداني إلا ما تتيحه مثل هذه اللفتة الكريمة الأصيلة برعاية السفارة والمهتمين بهذا الشأن من أمثال الأستاذ يوسف برقو والأستاذ أحمد أبو رضا.

وقد كشفت للحضور عن عكوفي على تأليف كتاب لأبناء المغتربين الذين أصبحوا ميدان تَنَدُّرٍ لجهلهم المطبق بكثير من الشأن السوداني. فإذا كان الصغار معذورين بسبب الظروف المحيطة بهم والمفروضة عليهم فما دور الكبار دولة ومواطنين في هذا الأمر؟ وقد

---

* صحيفة الخرطوم ١٦ مارس ٢٠٠٤م.

كنت كتبت قبل سنوات في صحيفة الخرطوم وصحيفة الصحافة وفي كتاب العادات الأول عن هذا الهم ووجدت قبولاً للطرح وأقوالاً ولكني لم أجد أفعالاً فلم يبق أمامي إلا التعويل على قدراتي الشخصية على ضعفها. وأشكر أخي سعادة المستشار الثقافي بسفارتنا بالرياض الأستاذ أحمد عبدالرحمن سوار الذهب الذي حين علم بنيتي وعد بشد الأزر وبذل الجهد، وقد عهدته صادقاً.

ونحن نلوم أرباب الأقلام في إحجامهم عن الكتابة والتنوير بالتأليف ولكن الذي يدخل هذا الخضم لا يخرج إلا برصيد هائل من الإحباط والخيبة. فالطباعة مكلفة والترحيل كلفة باهظة والموزعون لا يقبلون بأقل من ثلث قيمة الكتاب والرسوم والجمارك تقصم الظهر ولا تسمعوا صيحات عاصمة الثقافة فتجربتي مع كتاب (السهل الممتنع في شعر شيخ البرعي)، ما تزال غضة طرية فقد وصل إلى القراء في السودان بشق الأنفس. قادني إلى هذه (التحويلة) حديث الطيب صالح عن العامية التي كانت موضوع محاضرتي المشار إليها وخصوصاً عن كلمة (زول) وتصغيرها (زويل) فقد كنت أفكر في تسمية الكتاب (الزول الصغير) ثم عدلت عنها للظلال التي تتبعها فسميته (السوداني الصغير). أما كلمة (زويل) وظاهرة التصغير في الثقافة السودانية فقد وقفت عندها طويلاً في كتاب العادات السودانية الثاني. والتصغير في كلام السودانيين لا يحصى وهو في كلام العرب باب كبير من أبواب الصرف. وكان الحاردلو ود أب سن من بين شعراء السودان القوميين هو ملك التصغير بلا منازع وجدت في ديوانه المطبوع أكثر من خمسين لفظاً مصغراً منها قوله:

البارح رُقادي كسَيَده فوقها (بريش)
راكوبةً تجيب صَقْطَةْ ومعاها (رشيش)
الأحماني ما اشهّل جُمَال العيش
هنهيناً بسَوّنُو الدُّغُش بي شيش

ورغم إصرار أخينا الودود السفير عثمان الدرديري على شرح الدوبيت لصعوبة لغته إلا أن شرح هذا المقطع قد يعرضنا لمقص مدير التحرير الواعي المتفاني الأستاذ عبدالكريم. قلت: والذي دفعني للبحث في التصغير والكتابة عنه منذ زمن عبارة أغضبتني وردت عند الرحالة لويس بوركهارت الذي قال عن عرب السودان وغيرهم: (إن عجز العرب عن التمييز بين المقادير والأبعاد لا يحتاج إلى بيان، فهم قلما يتحرون الدقة في استعمال الألفاظ الدالة على الطول والقصر وعلى الكبر والصغر وعلى العلو والانخفاض وعلى العمق والضحولة وهم إذا وصفوا شيئاً غالوا في تضخيمه أو تصغيره غلواً غير معقول). ولئن أوتي بوركهارت دقة الملاحظة فإنه أُتي من ضحالة التحليل وقلة المعرفة بنفسية السودانيين، وليس ذلك نتجاً عن عجز كما زعم وإنما هو مكونات ثقافة فأهلنا يقولون: (عندي بقيرات وتميرات) وإنما هو بقر وتمر كثير. وقد يكون مرجع ذلك إلى خوف العين أو قطعاً لطمع الطامعين أو التواضع وقتل النفس الفخورة. والمرأة عندنا إذا رأت ابنها يقدم زوجته عليها عاتبته قائلة (الشفيرات قبل الشطيرات) تحقيراً لفعلته. وقد يكون التصغير من باب التمليح والتحسين فإن المرأة عندنا إذا قالت (يا وليدي أو يا بنيتي) فإنها قطعاً لا تحقر صغيرها بل تتحبب إليه وتلاطفه. ولكن التصغير قد يجلب الضرر أحياناً فقد روي أن عيسى بن عمر الثقفي كان عالماً يَتَقَعَّرُ (يتفصح) في كلامه والعرب تكره التفاصح في غير موضعه. فالثقفي هذا كان بعض جيرانه أودعه ثياباً قليلة في صُرّة (بقجة) فجاء عمال الوالي ابن هبيرة في كَشَّة ضرائبية مفاجئة وأخذوا كل ما في داره بما في ذلك وديعة جاره. فلما جاء الجار يطلب الوديعة أخبره بالكشة والمصادرة التي حصلت فلم يصدقه وشكاه للوالي الذي أمر بضربه بالسياط ليعترف فكانت السياط تلهب ظهره وهو يردد بعربية عويصة (والله إن كانت إلا أُثَيَّاباً في أُسَيْفَاطٍ قَبَضَهَا عَشَّارُوك) يعني والله ما كانت إلا (هديمات في بقيجة) استولت عليها كشة العشور التي قام بها عمالك. هذا وقد تكاثرت الكشات في زماننا وتعددت أساليبها وأصبح بعضها أقرب إلى الهمبتة نسأل الله أن يغني السودان وأهله.

أما سخرية الأستاذ الطيب التي ذكرتها في أول حديثي فهي ما جاء في أول حديثه من قوله (يظن أهلنا أن عربيتهم الدارجة هي من أفصح اللهجات العربية، ويمضي أبعد من ذلك العالم الحجة الدكتور عبدالله الطيب رحمه الله تعالى فيقول إن العربية الدارجة في

السودان هي أفصح اللجهات العربية إطلاقاً، الله أعلم. والحق أن من قلة بخت عرب السودان أولاً اسم دولتهم والثاني أن عروبتهم كما تجري على ألسنتهم أفصح مما ينبئ به سَمْتُهُم وسَحَنُهم) ولا أعرف الطيب صالح إلا مستميتاً في حب العامية والدفاع عنها. ومع ذلك فإن الذي وقفت عليه من رأي البروفيسر الراحل قوله في (ذكري صديقين ص ١٨) (وعاميتنا نحن قريبة النسب والروح من الفصيحة) وهذا حديث من يعي ما يقول فالعامية السودانية مزيج من عربية ونوبية وبجاوية وفوراوية وإفريقية وغيرها ولكن المكون العربي في هذا المزيج هو عربية صميمة بل عربية نادرة أقمت الدلائل عليها في الكتاب الذي بين يدي الأستاذ الطيب الآن وهو كتاب (بين امرئ القيس وحاردلو البطانة) والكتاب مكتمل وينتظر مقدمة الأستاذ الذي هاتفته الأربعاء الماضي فنقل لي شديد إعجابه بالكتابِ وأنه عاكف على كتابة مقدمته، وسأسلي القراء بفصول منه في هذه الصحيفة ريثما تصل المقدمة. وسيلحظ القارئ أنني استخرجت من شعر الحاردلو كلمات كثيرة يظنها السودانيون خليجية وهي سودانية صميمة (كالحراج والديرة) بل استخرجت كلمات فصيحة ماتت في المعجم العربي المعاصر كله وبقيت في بوادي السودان مثل: (الزعل والشبريق) فإن قيل إن عربية السودان أصيلة فصيحة فهذه هي العربية المعنية وهي كما قيل وفوق ما قيل أما السحنة واللون فتلك من آيات الله القائل: (ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم).

هذا وقد قال الأستاذ الطيب (وفي ديار غرب السودان يقولون (ينطي) بمعنى يعطي هي كذلك في المعجم ولم أجدها عند غيرهم) فإن كان يعني غيرهم من السودانيين فجائز رغم أن بروفيسر عون أثبت وجودها في شرق السودان. أما من غير السودانيين فأنطى لغة عربية قديمة قرأ بها أهل اليمن (إنا أنطيناك الكوثر) وجاء في الحديث (اللهم لا مانع لما أنطيت) وهي لغة معروفة يسميها العلماء (الاستنطاء) وينسبونها للأنصار وقبائل هذيل والأزد وقيس وهي شايعة جداً في زماننا هذا عند العراقيين والشوام الذين يقولون (ينطيك العافية) بل هي من الأصول القديمة في اللغة السامية أم العربية. وفي اللغة العبرية أخت العربية الفعل (نتى) (أعطى) و(ناتن يا هو) هو عطاء الله. ونطى في العربية بمعنى (مدَّ) ونحن نسمي العطاء (المَدَّة) بفتح الميم. أما في غرب السودان فهي شائعة جداً، قدّم أحدهم

طعاماً لضيف فلما أكل قال (الحمد لي منعم) فغضب رب البيت وظن أن منعم الذي أراده الضيف هو (منعم منصور) ناظر قبائل الحمر فقال للضيف غاضباً: (منعم أنطاك غلة) والغلة الطعام. وأهلنا في الغرب يتهمون الجلابة بالجبن فيقولون (الجلابي كان لقيتا وحيدا ينطيك وليدا) وقد جامل الشاعر أحمد ود سعد الأنصار حين قال عن الإمام المهدي:

ربي أنطاك وديـــمة ينطيك　　حافظك وناصرك ومغطِّيك

الإنس والجن تحت إبطيك　　يا البحر الما انشاف شاطيك

وقلت جاملهم لأن ود سعد جعلي وكلمة (أنطى) ليست من لغته. وما أفصح عربية كردفان!!

مختارات الطيب صالح

قبل الدخول في الحديث عن سلسلة (مختارات الطيب صالح) الفخمة الضخمة القيمة الماتعة المكونة من تسعة مجلدات والتي صدرت برعاية مركز عبد الكريم ميرغني (منارة الثقافة) الذي عودنا نشر النفائس دائماً دعوني أقول: حين تصادف إنساناً يسعى للحصول على كتاب ويفرح باقتنائه تكون كمن عثر على الكبريت الأحمر في هذا الزمن الأغبر وتعود بك الذاكرة إلى الماضي وحكايات عمنا مصطفى أبو شرف (بارك الله في أيامه) وتوفيرهم (حق الفطور) وهم تلاميذ ليشتروا به مجلة (الفجر)، ذاك جيل نبيل عاش في زمن جميل، لا كجيلنا الذي أصابه الحول وضعف البصر من إدمان الجلوس أمام شاشات الفضائيات يقتلون الوقت ويقتلون أنفسهم لا يتورعون من الانغماس في الملذات ويتردد أحدهم ألف مرة إذا همّ بشراء كتاب؛ إلاّ من رحم ربك.

في غفلة من الزمن فاتني شرف متابعة بعض مقالات الأستاذ الطيب صالح التي كانت تحلي آخر صفحات مجلة (المجلة) وكنت شديد الأسى والأسف على ذلك حتى بشرني الأستاذ محمود صالح المشرف العام والأب الروحي لمركز عبد الكريم ميرغني الثقافي أنهم عاكفون على جمعها وإصدارها كاملة فظللت أرقب هذا الحدث بتلهف حتى وصلت إليّ النسخة الكاملة منها والتي صدرت في مايو المنصرم عن دار رياض الريس ببيروت فتسلمتها الثلاثاء الماضي (٩ يونيو٢٠٠٥م) من يد الأستاذ المطّلع الضليع السفير أحمد عبد الوهاب الذي حملها إليّ مشكوراً من أرض الكنانة هدية من الأستاذ الجليل محمود صالح الذي أفادني بأنني أول قارئ يقتني النسخة الكاملة من مختارات الطيب صالح في قصة طريفة مع أخينا السفير أحمد سأحكيها للقراء في مفكرة الأسبوع القادم إن شاء الله.

صدرت المجموعة حفظ الله كاتبها وناشرها في تسعة مجلدات مجموع صفحاتها (٢٣٨٦) ألفان وثلاثمائة وست وثمانون صفحة من القطع المتوسط على ورق الشاموا الصقيل

وبحرف مريح أصيل وإخراج رائع جميل قال لـي أحـدهم حـين رأى المجلـدات التـسعة متـى وكيف كتب هذا الرجل هذا الكم؟ قلت له: (عين الحسود فيها عود) هذا أقل من نصف ما كتب وهو فيض الفتاح العليم الذي يؤتي الحكمة والقدرة من يشاء.

اختير للجزء الأول من المجموعة اسم (منـسي..إنـسان نـادر علـى طريقتـه) والثـاني (المضيئون كالنجوم..من أعلام العرب والفرنجة)، والثالث (للمدن تفرد وحديث: الـشرق)، والرابع (للمدن تفرد وحديث: الغرب)، والخامس (في صحبة المتنبي ورفاقه)، والسادس (في رحاب الجنادرية وأصيلة)، والسابع (وطني السودان)، والثامن (ذكريات المواسـم)، والتاسـع (خواطر الترحال).

تتبين في إهداءات الأجزاء التسعة روح النبل والوفاء المتأصلة في كاتبنـا الكـبير فقـد أهدى الجزء الأول (إلى روح أحمد منسي.. يوسف مايكل بـشطاوروس) والجـزء الثـاني (إلى روح الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز...)الذي كان يتابع هذه المقـالات ويـشجعه علـى الكتابة ولما لقي منه من تقدير ولطف. وأهدى الثالث لبعض رفاق دربـه والرابـع لزوجتـه وبناته إلى آخر الأجزاء التسعة، وقد لفت نظري التوفيق الذي حالفـه في تلـك الإهـداءات حيث وقع الإهداء لزوجته الاسكتلندية وبناته في الجزء الخـاص بحديثـه عـن مـدن الغـرب، وأهدى الجزء الخاص بالمتنبي ورفاقه للشيخ الأستاذ عبد العزيز التويجري وهو أديب سعودي بارع له بالمتنبي اهتمام وولع وكم تمنيت أنْ لو أضـاف إليـه عميـد أدبنـا الراحـل عبـد الله الطيب فليس في العربِ من هو أكثر معرفة واحتفاءً بالمتنبي منه. وأهدى الجزء السابع الذي يحمل اسم (وطني السودان) إلى كوكبة مشرقة حملت اسم السودان في الحنايا وشرفته في كل المحافل ونشرت ثقافته وصحافته أولهم الأسـتاذ محمـود صـالح أحـد أعمـدة نـشر الثقافـة في عصرنا، ومنهم حسن أبشر ومحمد الحسن أحمد وحسن تاج السر وإبراهيم الشوش والفاتح أحمد، وليس ذلك مستغرباً على الطيب الإنسان فإن كل عمـل رائـع لابـد أن يـصدر عـن إنسان رائع.

وعلى طريقة الأعرابي الذي بكر إلى الحج وتعلق بأستار الكعبة قائلاً: اللهم اغفر لي قبل أن يزحمك الناس. ولما كنت قرأت الجزء الأول من المختارات قديماً وقد أهدانيه الأستاذ محمود كعادته حال صدوره ولما كنت أول من نال شرف اقتناء هذه المجموعة النادرة قلت أختار جزءاً حديثاً أجعل عليه مدار حديثي في تبشير القراء بصدور هذه المجموعة النفيسة فوقع اختياري على الجزء الخامس الخاص بالمتنبي، ومن غير المتنبي تنثني إليه أعناق الحدق طوعاً ولا أقول يلويها ناحيته، بل من غيره تكلله العيون وتحيط به تماماً كخصر الغادة التي قال فيها هو نفسه:

وخَصْرٍ تَثْبُتُ الأبصارُ فيه   كأنّ عَلَيْه من حَدَقٍ نِطَاقَا

فذاك رجل كما ملأ الدنيا وشغل الناس، فهو قد:

شغل الخواطر والجوارح والمسامع والحدق

وهو كما قال الآخر:

وإذا بَدَا اقتادَتْ مَحَاسِنُه   قَسْراً إليه أَسِنَّةَ الحَدَقِ

قرأت المجلد بصفحاته الثماني والخمسين والثلاثمائة بقية نهار الثلاثاء وبياض وسواد الأربعاء، فيالك من إمتاع وأنس وفائدة ويالك من علم وسياحة. وجدت فيه نظرات نقدية هي أشبه بالفتح الرباني إن لم تكُنه، ووجدت فيه مزجاً بين الطارف والتليد أشبه بعمل الفنان البارع بالألوان، اطلع الأستاذ على علوم الدنيا وآداب الأمم وتاريخها وثقافاتها فأودعها حافظة أمينة ثم أرسل نفسه على سجيتها بصدق وطبع سمح وذهن متوقّد فانطلقت تلك الذاكرة العامرة وتدفقت على تلك السريرة المنيرة والطوية النقية فسكبت في لغة مشرقة وأسلوب أخّاذ حديثاً كالشهد أو هو الشهد بلا كاف وبلا خلاف.

لم أعرف كاتباً سودانياً حمل السودان في حدقات كل كلمة سطرها؛ ولم أر سودانياً متمكناً من ثقافة بلده غيوراً عليها بارعاً في عرضها كالطيب صالح، ولم أجد كاتباً تشرّب التراث السوداني حتى أصبح جزءاً من مداده كالطيب صالح، أحب العربية والشعر العربي

كما لم يحب شيئاً، وأحب كل شاعر مجيد من كل ملة وسنخ ولكنه اختص بالمتنبي وذي الرُّمة والمعري وتولّع أشد الولع بالحاردلو. لا تعجبه صورة عرفها العرب إلا تلمّس لها مُشابهاً في التراث السوداني ولا مرّ بكلمة سودانية ذات دلالة مهمة في سياق إلا تتبع أصولها وحاول إرجاعها إلى لسان العرب ولا مرّ بعادة من عاداتنا إلا حاول توثيقها وتأصيلها. استطاع أن يُسَرِّب كل ذلك في مقالاته المقروءة على نطاق واسع ويوصلها إلى القارئ العربي الذي يجد في نفسه ازوراراً عن تكليف نفسه معرفة شيء عن هذا السودان العظيم الذي أضاعه تقوقع أبنائه وتواضعهم السلبي. انظر إليه كيف تسلل بلطف عبر السطور ليذكر عادة سودانية قديمة هي دقّ الشَّلّوفة (وَشْم الشّفاه) قال: (واللمياء التي في شفتيها سمرة تضرب إلى سواد وكانوا يرون ذلك من آيات الجمال، وهو كذلك في ديارنا إلى اليوم يَصْنَعنَهُ صناعةً إذا لم يكن خلقةً) ص٢١٩.

ثم تراه أحياناً يطرح الفكرة علناً ويورد العادة بتفاصيلها ويشرح مفرداتها بصبر كما فعل في حديثه عن (دخان الطلح). قلت للأستاذ محمود صالح أكاد أجزم أن كلام الطيب عن دخان الطلح فيه رائحة (تعويض عن الفقد) إذ إن زوجته الاسكتلندية ما اظنها سمعت بالطلح لذلك أكثر الحديث عنه في هذا الجزء كلما وجد سانحة فأورد (رمية) ود الرضي الرائعة:

(الطَّايِقْ البوخَة.. قام نَدَاهُ يهتّف نلم من الدُّوخَة.. إيدو عَاقّباه جَدْلَة مملوخة.. ولي مَعَالق الجوف مُوسُو مَجْلوخة).

ثم أورد أبياتاً في الطلح لصديقه الفنان عثمان وقيع الله واستعرض رائعة المجذوب الرائية البارعة ثم ذكر الأستاذ أن حديث الطلح أثار كوامن الدكتور حسن أبشر وهو في عمان فكتب إليه رسالة رقيقة متجاوباً مع ذلك، قلت ولا أدري ما السر الذي يجعل أهل عمان يتجاوبون دائماً مع ما يكتب عن (دخان الطلح) فحين نشرت مقالة الدخان في إحدى مقالات كتابي (عادات سودانية) أواخر التسعينات جاءتني ثلاثة تعليقات من عمان من

الدكتور محمد إبراهيم قرض أورد فيها رمية ود الرضي السابقة ومن الأستاذ دهب خيري الذي ذكر أنه بعد قراءة مقالة دخان الطلح (شعر يتَحَسَّن ملموس) وأما الأستاذ محمد سعيد شُلِّي فقد رأى في تصدير الكتاب بتلك المقالة ذكاءً وخبثاً. نضّر الله أيامهم تلك الطيبات وأعاد لنا أقلامهم النابضات.

ومما يدل على ترسخ الأستاذية في طبع الأستاذ الطيب أننا اجتمعنا مرة فأخذ يحدثنا عما تصفحه من كتابِ العادات فلم يبدأ الحديث إلا بمقالة (دخان الطلح) فوجدنا فيه حفظاً عجيباً وحضور استشهاد بديعاً ثم سألني عن (الرَّحط) لماذا لم أكتب عنه فقلت له هو من موضوعات الجزء الثاني من الكتابِ ضمن مقالة مطولة عن الملبوسات، ولكن الأستاذ من تواضعه لم يذكر لي أبداً أنه مرَّ بهذا الموضوع من قريب ولا من بعيد في كتاباته فلما قرأت مقالات هذا الجزء من مختاراته وجدت أنني في ذلك اليوم الذي تجاذبنا فيه حديث الدخان كنت أبيع المويه في حارة السقايين.

وكما فعل في شرح عادة دخان الطلح ومفرداتها تراه يحمل قُرَّاءَهَ بلطف على الوقوف عند بعض ألفاظ العامية السودانية فقد أورد شروحاً كثيرة لبعض الألفاظ العامية السودانية، وما أراه إلا سيفرح إذا وجد أنّا قد زدناها تأصيلاً وأضفنا لها بعض الشواهد التي تقوي ما ذهب إليه، من ذلك أنه أورد مقطعاً للحاردلو في مسدار الصيد يصف فيه تيس الظباء جاء فيه قوله:

تيسين زَاعَلِنْ باكِر مع الشّهْلاَل

وشرح المزاعلة بقوله (أَغْضَبْنَه وأَغْضَبَهُنَّ) وشرحها أستاذنا الحاردلو في الديوان بمعنى الاستنفار وشرحها الدكتور عون بأزعجهن من مكانهن ولفظة (الزعل) مما اشتهر عند جميع العربِ بمعناها المولد وهو الغضب إلا في البطانة عند الحاردلو فقد جاء الزعل بالمعنى الذي يعني نشّطَهُنَّ للمسير (ذكرت هذا في كتابِ امرئ القيس والحاردلو ص ١٥٥ وانظر اللسان مادة زعل)، وتَفَرُّد عامية السودانيين بألفاظ لا يعرفها أحد سواهم من عرب

الحاضر أمر ماثل في كثير من الكلمات مثل الزول - والهجا بمعنى الشبع - والمال بمعنى البهائم والشقريب وهو الخطوط في أفخاذ المرأة، والخضرة بمعنى السواد وكلمات لا تستوعبها هذه العجالة هي مما حافظت عليه العامية السودانية من ألفاظ العربية التي اندثرت في غيرها.

وذكر الأستاذ كلمة (ينطي) الشائعة في غرب السودان وهي شائعة في العراق وفي اليمن وهي معروفة وردت في كتب القراءات القرآنية وقرئ بها (إنا أنطيناك الكوثر) وجاء في الحديث (اللّهم لا مَانِعَ لما أَنْطَيْت) وقد ذكرتها بالتفصيل في كتابي المخطوط (مصالحة بين الفصحى والعامية)، وفي مفكرة صحيفة الخرطوم بتاريخ ٢٠٠٤/٣/١٦م.

وأورد الأستاذ مقطع الحاردلو الذي جاء فيه:

كم شُوَيمْ لهن وكُنَّا عُدال أيّامي

وقال في ظني أن كلمة (شويم) التي تعني الترحال في أثر المحبوبة مشتقة من (الشام)، قلت ولكن يبدو أن لسان العرب يضيف لنا فرحة اكتشاف جديدة إذ يجعل من الكلمة حبشية معربة و(شيوم) تعني عندهم (آمنين) من الأمان وفي حديث النجاشي لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم (اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي) قال صاحب اللسان أي (آمنون). فاشتق منها السودانيون (شويم) بمعنى سار آمناً وهو سير الفرح يكون في سيرة العرس (الليلة سار يا عشايا..عديله ليه.. شويم شايل الجدايا) وسيرة العرس من أكثر أنواع السير أمناً ويكون في السير إلى بلد الحبيب أيضاً ومنه قول الشريف وداهندي (العاشقين في كل يوم على الرسول عابين شيوم)، وكله بمعنى السير الآمن الذي يكتنفه الشوق والحب لمن يتجه إليه السائر. بل ربما كانت الكلمة عربية قديمة بقيت في عاميتنا مثل كلمة (الزين) في قولنا (العديل والزين) فقد اختفت من المعاجم ولم أجدها في لسان العرب ووجدتها في بيت شعر واحد قديم ذكرته في كتاب (امرئ القيس والحاردلو)، ويقوي ذلك أن البروفيسرين عبد الله الطيب وحسن الفاتح عليهما الرحمة يذهبان إلى أن الهجرة الأولى

التي عرفت بالهجرة إلى الحبشة كانت إلى أرض السودان (سوداننا المعروف) ويبعد عبد الله الطيب المرمى حين يذهب إلى أن وجود العرب في السودان قد يكون أقدم من وجودهم في الجزيرة العربية والله أعلم.

وقف الطيب صالح في هذا الجزء مع المتنبي وقفة النقاد العظماء وقارع الفحول الجهابذة من النقاد في اختلافهم حول بعض ماجاء في شعر (الأستاذ) كما يحلو للطيب أن يلقبه، وقارن بينه وبين كبار شعراء الفرنجة وكتابهم مثل شكسبير وروبرت فروست وآخرين ولم ينس الوقوف طويلاً مع المعري وهو شريكه في حب أبي الطيب المتنبي.

وعلى الرغم من صلات الطيب صالح بالمصريين وعلى الرغم من قوة الإعلام المصري وغيرة المصريين على أعلامهم تصدى الطيب صالح دون مجاملة لعميد الأدب الدكتور طه حسين في مقالات عديدة وفنّد كثيراً من أقواله الجائرة في حق أبي الطيب المتنبي ولكنه في تلك المقالات كان صاحب أدب جم وموضوعية مقنعة بعيداً عن الخصومة والفجور لا كما نشاهد عند شباب (سنة أولى نقد) في زمننا هذا ما أن تختلف مع أحدهم حتى يخرج لك ما سمعه عنك إلى سابع جد من أجدادك، ولعل منهج الطيب الذي تبناه في غير موضع من هذه المختارات هو إرساؤه مبدأ النقد المبني على المحبة فهو أَعْوَدُ بالخير على الحياة الأدبية من النقد المبني على البغض. ليس من باب (عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساوئ) ولكن الأمر مشروط بالإنصاف المقرون بالمحبة لذلك ثمّنَ الطيب صالح عالياً دراسات محمود شاكر وعبد الله الطيب وعبد العزيز التجويري وقبلهم المعري لأنهم ولجوا إلى شعر أبي الطيب عن محبة، والطيب يفصل دائماً بين الشعر والشاعر فلا ينبغي أن نبغض شعر إنسان من أجل بغضنا له وهذا موقف نقدي متقدم يقوم على تقدير الفن لكونه فناً في ذاته لا لأنه مرتبط بزيد من الناس، ولله درّه.

لذلك تجد الطيب في هذا الجزء يفصل بأسلوب العالم البارع والناقد الفارع بين (الدكاترة) زكي مبارك والبوصيري وشوقي، فقد تعصب الدكتور زكي مبارك لشوقي وقدمه

على البوصيري على الرغم من أن الفضل للمتقدم فما كان من الطيب إلا أن فنّد أقوال زكي مبارك بالدليل والحجة الدامغة وسلّ منها شوقياً سل الشعرة من العجين دون أن يتعرض له بانتقاص؛ يعينه على ذلك محفوظ ضخم واطلاع جم وحب وإنصاف متأصل.

هذا ودعوني هنا أكشف عن تبحر الطيب صالح في جانب قد لا يعرف الكثيرون اهتمامه به وتجويده وإبداعه في الحديث عنه وهو باب المديح النبوي. الطيب صالح وظف كل طاقاته الأدبية لفهم المديح النبوي، الطيب صالح رجل ذو روح شفافة وسبحات إيمانية عميقة، يقف الطيب صالح في حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وقوف المتبتل الناسك عن فهم وإيمان ومحبة لم أجدها في كثير من أهل جيله من (المطفطفين المسطحين) الذين يرون المديح النبوي دروشة ورجعية. ولَسْتَ واجداً إنساناً يعشق تراث المديح النبوي ويجله ويفهمه بعمق إلا حكمت بأصالة معدنه ونقاء بذرته وسمو فكره وشفافية روحه وحسن إسلامه وتقديره لتراثه الذي هو جزء من تكوينه. ولن تجد مستهتراً بهذا الفن الرائع جاهلاً به مزدرياً للمشتغلين به إلا حكمت عليه بضآلة عقله وضحالة فهمه وسطحية فكره وغثاثة نفسه وغربة روحه وانفصاله عن جذوره. الطيب صالح كعبد الله الطيب سبرا أغوار المديح النبوي ووقفا على شاطئه وقفة تأمل ثم وردا وصدرا برصيد قلّ أن تجده عند نظرائهما وأهل جيلهما.

وحين تحدث الدكتور زكي مبارك حديث العلمانيين الجفلة الغلاظ عن المديح النبوي وأخذ على البوصيري ذكره أماكن في شعره لا صلة لها بعصر مثل سلع والنقا والبان والعلم ردّ عليه الطيب صالح أطيب رد وأصلحه وصاح صيحة مجلجلة: (ما بال هؤلاء الأساتذة العمالقة تعمى أبصارهم فلا يرون الشيء وهو واضح ماثل أمامهم). والله حين قرأت رد الطيب صالح الأديب العملاق على الدكاترة زكي مبارك سبقتني دموعي إلى صفحات الكتاب وبحثت عمن يشاركني هذا السرور الغامر فاتصلت بأحد أساطين المديح النبوي الذين تشربوه من بيوتهم ورضعوه علماً في الجامعات على الدكاترة عبد الله الطيب والحبر

يوسف نور الدايم ومحمد الواثق، وهو زميلي الدكتور حسين النور فقرأت عليه شيئاً من تلك الصفحات الوضيئات (٢٦٥-٢٨٢) وأعطينا ربنا العجب في رجل يصف بعض الناس كتاباته بأن فيها شيئاً من كذا وكذا - قطعت ألسنتهم ألا يلتفتون إلا إلى السّفاسف - هذه الإشراقات ونحوها تجعلني أصرح بعكوفي على إعداد كتاب ضخم في اللغة والتراث في أدب الطيب صالح نصحني أستاذي محمود صالح أن أرجئه ريثما تصدر هذه المجموعة وقد أحسن إليّ كعادته. وقد وقفت فيه وقفة طويلة عند تدين الطيب صالح وروحانيته وصوفيته واعتداده بالإسلام وتاريخه وأعلامه. وفي هذا الجزء ظهر لي حب الطيب صالح لعبد الله الطيب فهو دائم الثناء عليه شديد الاعتداد بعالميته كثير الأخذ منه، لخّص كل ذلك في قوله: (وبعد فإنه يجمعني بالدكتور عبد الله الطيب أيضاً حب العربية والعروبة والسودانيين والسودان وحب ذي الرُّمة وأبي الطيب) ص ٢٥١.

وبمناسبة ذكر ذي الرُّمة وجدت الطيب في هذا الجزء لا يني يعقد الموازنات بين ذي الرمة والحاردلو وهو مذهب مشهور عنده وحين ذكرت له مرة أن أشبه شعراء العرب بالحاردلو هو امرؤ القيس لم يقبل مني هذا القول على عواهنه فعرضت عليه كتابي (بين امرئ القيس والحاردلو) فحين قرأه شرّفني بتقديمه للقراء وجاء في مقدمته أنه لم يجدهما متشابهين فقط بل هو يزعم الآن أنهما توأمان وهذا أحد شواهد أستاذيته وإنصافه وكم أنا سعيد بأن يتفق رأيي المتواضع مع رأي هذا العملاق الفرد. ولا صعوبة في الجمع بين شبه الحاردلو للشاعرين القديمين ويكفي أن يثبت الطيب أن الحادرلو أشبه الناس بذي الرمة ويثبت كتابي المتواضع أن الحاردلو أشبه الناس بامرئ القيس فيكون قد اجتمع لشاعرنا السوداني الفحل أنه شبيه بأحسن الجاهليين تشبيهاً وهو امرؤ القيس وبأحسن أهل الإسلام تشبيهاً وهو ذو الرمة وهذا قول اجتمعت عليه كلمة النقاد من لدن ابن سلام الجمحي إلى يوم الناس هذا.

هذا وقد سألني مرة عن شعراء الكواهلة فذكرت له من القدماء شَغبة المرقومابية ومن الـمُحْدَثِين عبد الله ود شوراني أحد أشهر شعراء البطانة المعاصرين (توفي ١٩٨٩م) وإني لأرجو

أن يجتمع الطيب بصديقه القديم الشاعر أحمد عمر البنا (الفرجوني) فإني ما وجدت أحداً من أهل البادية والحاضرة يقف أمام شعر ود شوراني وقوف العابد المتبتل يحفظه ويجود إلقاءه ويحسن فهمه كما يفعل الفرجوني قيثارة البادية التي ألقت بها رياح الزمان العاتية في أقاصي هضاب أريزونا الأمريكية وسهولها. وصلني به أخي الأديب علي عبد الله ود عجيب المقيم ببلاد الجوف في شمال الحجاز -وصله الله بكل خير- هاتفني وهاتفته هناك مرات وحين يأتي ذكر الطيب صالح تحسّ بالإجلال والإكبار والاحترام له يأتيك دافئاً متدفقاً من صوت الفرجوني عبر طيات الأثير. يا لبؤس هذا البلد العظيم الذي رَصَّعَتْ عقول أبنائه سماوات مهاجر الدنيا فهي تلمع في كل أنحائه كما تتلألأ النجوم في حندس الظلم. نسأل الله أن يجمع شملهم ويعودوا لبناء وطن عملاق نراه في تصورنا ونرجو أن تكون قد حانت رؤية هذا التصور واقعاً ملموساً.

ذكرت ذا الرمة وود شوراني الكاهلي لأنني وجدت الطيب قد ذهب في هذا الجزء كل مذهب في حب ذي الرمة وتمجيده وهو خليق بكل ذلك ثم ذكر أشياء وجدتها في ود شوراني فقد ذكر الطيب أن الرواة رووا أن ذا الرمة حين كان يفرغ من الإنشاد يقول: (سبحان الله والحمد لله والله أكبر). وقد توفي ود شوراني ولم نسعد بالاستماع إليه ولا سعدنا بالاستماع إلى كثيرين غيره والحمد لله، لأن حياتنا كلها غربة وكتابتنا كلها محض اجتهاد ولكني سمعت ود شوراني في أشرطة التسجيل فوالله ما يفرغ من إنشاد قصيدة قالها إلا قال في آخرها (أستغفر الله استغفر الله)، فتأمل.

وذكر الأستاذ قول ذي الرمة يصف ناقته وقد أصابها الهزال من عناء الرحلة بعد أن كانت ضخمة فقال:

كأنها جمل وهْمٌ وما بَقِيَتْ إلا النّخيرةُ والألواحُ والقُصُب

شرحة الأستاذ بقوله: مثل الجمل لعظمها، انثى كالذكر لكنها نحلت وذابت، أذابها طول السير فأصبحت كلا شيء. فوجدت هذا المعنى عند ود شوراني فيما لا أحصي في ديوانه يذكر هزال جماله من طول السفر فقال مرة واستشهد به دكتور عون في قاموسه القيم:

ضاع جَمَّالن المارِق سُمان موسَايف

يعني هزلت ونحلت إبلهم من جراء السير وكانوا قد خرجوا بها سمينة غير سائفة ولا ضعيفة، وقال في المعنى نفسه أيضاً:

دَرْعاة البجَادْعَنْ بالبطانة هَنون

كَلَتْ داني المسافات الخلاهِن بون

يعني أن هذه المرأة الجميلة/الظبية الدرعاء التي ترعى في البطانة مع سربها أكلت هذا البعير القوي الذي يقرب المسافات الشاسعة، أي أنها أنحلت جسمه وأذابت لحمه بطول الرحلة وجهد السير، ولاحظ أنه مثل ذي الرمة جعل حبيبته ظبية حقيقية وليست كالظبية تشبيهاً وهذا في شعر ود شوراني أكثر من أن تستوعبه هذه العجالة.

بقيت نقطة في هذه المختارات قد تكون غصة في حلوق بعض قراء هذه المجموعة الذين لم يعجبهم أن ينشر هذا السوداني الغيور الطيب صالح غسيل بلده في مجلة عربية مقروءة على أوسع نطاق ولا يعجبهم سؤاله (من أين جاء هؤلاء الناس ولماذا جاءوا) ذلك رأي الرجل الذي ينادي بحرية الرأي دائماً وهو انطباعه عن كثير من الحكام الأذكياء الأغبياء ولا أدري كيف جمع فيهم الصفتين. ومع ذلك ومن علامات صدقه ووطنيته وإنصافه أنه حين لقي جماعة من (هؤلاء الناس) قال عنهم كلاماً جميلاً، كحديثه عن الوطني المخلص نائب الرئيس الأستاذ علي عثمان محمد طه وحديثه عن الدكتور غازي صلاح الدين حين لقيه في برشلونة وفي ممازحاته مع زميلنا الدمث اللطيف الدكتور عبد الوهاب الأفندي، ونرجو مخلصين أن تكون زيارته الأخيرة للسودان قد أوقفته على أن بعض هؤلاء الناس قد صنعوا شيئاً ونرجو أن يكون في إنجازاتهم ما يَصْلُح إجابةً لبعض أسئلته ولا نشك في أنه الرجل المنصف الوطني الذي ينادي دائماً بخلوص النية وتصحيح العزم وإشاعة الروح المتسامحة فإذا وجد شيئاً فيه صلاح السودان فإنه سيعلنه ويسانده فليس في السودان أديب أو كاتب يعيش بيننا أو عاش على أرضه من صرخة ميلاده إلى أن توسد الثرى حمل السودان في حدقات عيونه

وفي طيات حروفه حالاً ومرتحلاً كما فعل الطيب صالح حفظه الله وبارك في أيامه ومتعه بالصحة والعافية.

هذا غيض من فيض الجزء الخامس الذي ما أخذت منه إلا كما يأخذ العصفور بمنقاره من مياه الطوفان، فكيف ببقية الجزء وكيف ببقية المختارات؟ أحسب أن القراء الجادين موعودون بوجبات ثقافية دسمة وسنعاودهم إن سهل الكريم.

ورحل ثالث الثلاثة*

بلدة الدناقلة شرق مدينة ودمدني على ضفة النيل الأزرق الشرقية تمتاز بهدوء القرى وقوة روابطها الاجتماعية وتنعم بمقومات المدينة ويرجع تاريخها إلى ما قبل التركية السابقة وهم دناقلة بديرية وكان لهم في المهدية شأن ومنهم أمراء عدداً منهم كرم الله كركساوي المشهور، وأحسبهم لا تربطهم بقبيلة الدناقلة إلا الأصول الأولى وليس في جيل الآباء ولا الأجداد من يعرف كلمة من الرطانة لقديم توطنهم في تلك المنطقة وانصهارهم في بوتقة المجتمع المحيط. وقد اشتهروا بالانخراط في سلك الجندية من جيش وشرطة ثم أخذوا على عاتقهم تعليم أبنائهم. فما رأيت في مناطقنا تلك أكثر منهم عدد ضباط وأطباء ومهندسين ومدرسين وأساتذة جامعات ونحو ذلك من خريجي الجامعات ويكفي أن منهم الدكتور الجزولي دفع الله رئيس وزراء الفترة الانتقالية والبروفيسر المهندس عابدين محمد علي نائب مدير جامعة الخرطوم. وليس ذلك جديداً ولا مستغرباً على هذه القرية التي أنجبت من قبل خيرة العلماء والشعراء والأدباء كان آخرهم أخي الحبيب الذي رحل بالأمس الحاج أحمد الفكي صالح بن الحاج موسى رحمه الله وأحسن عزاءنا فيه. وهو ثالث ثلاثة عظماء في بيت واحد في هذه القرية الوادعة. أولهم والده الفكي صالح الحاج موسى من أميز تلاميذ الشريف محمد الأمين الهندي قطب القرآن وخاتمة المحققين. حفظ عليه القرآن وأخذ عنه التجويد ووجوه القراءات القرآنية وكان من أحسن الناس خَطّاً، كتب مع أربعة آخرين ببلدة فداسي الحليماب المصحف الفحل الموجود الآن في مأثورات الشريف يوسف الهندي بمسيده بضاحية بري بالخرطوم وكان ذلك في سنة ١٣٤٤هـ.

أخبرني الوالد عليه رحمة الله وهو تلميذهم أن الشريف يوسف الهندي وجه بأن يُنْحَرَ لهذه المجموعة خروفٌ كل يوم إكراماً لكتاب الله وحفظته وكتّابه واستغرقت كتابة ذلك المصحف ثلاثين يوماً، وسيجد المهتمون هذا الخبر مفصلاً في كتابي الذي صدر حديثاً عن

* صحيفة الخرطوم ١٣ فبراير ٢٠٠٥م.

الشريف محمد الأمين الهندي. وكان الفكي صالح رحمه الله شاعراً مجيداً بالفصحى صاحب لغة عالية وأسلوب رائع وسبك متين. مدح الشريف علي الهندي الذي كان أميراً لراية الأشراف في المهدية واستشهد الشريف علي في معركة سنار وكان الفكي صالح رفيقه في تلك المعركة ولازمه حتى أودعه قبره بقرية بجبوج قريباً من سنار. ورثاه بقصائد مؤثرة ذاكراً صلاحه وخدمته لطلاب القرآن الآلاف في مسيد أبيه؛ قال في بعضها:

يا راكباً تنحُو التلالَ مُعَارضاً ... بسُهُولهِ أو جائزاً حُزّانَهُ

عرّج على قبر الشريف عَلي الرِّضا ... واعكف على أرجائه ومكانه

كم قد يبيت مُسَهَّداً أو طاوياً ... جُنْحَ الظلام وقد بدا غَسَقَانُه

ويظل نجاراً وطوراً خائطاً ... لكسله طلاب كذا بُلْسَانه

قُطْبُ التَّواضُع والخُمولُ رِدَاؤه ... تبني يداه جداره بَلَطانَهُ

ربُّ المروءةِ والفتوّة والحِجا ... والحلم والصفح الذي دَيْدَانه

آه عليّ وآهُ قلبي من فتى ... أضحى شهيدَ معاركٍ فرسانه

لهفي عليه وليس ينفعني إذا ... ما قلت يا لهفي على فقدانه

ترمي القنابلُ واصطلى نيرانها ... بل جاد نفساً في رضا رحمانه

وكان الفكي صالح ورعاً تقياً حازماً وكان الشريف يوسف الهندي يجلّه أيما إجلال كعادته مع تلاميذ أبيه الشريف محمد الأمين الهندي. وقد استنابه الشريف يوسف في إرشاد أتباعه ومريديه في شرق الجزيرة وكان يقول لهم الذي لا تمكنه الظروف من زيارتنا في الخرطوم يزور الفكي صالح في الدناقلة. عليه رحمة الله ورضوانه.

أما ثاني الثلاثة وواسطة العقد فهو ابنه الخليفة إبراهيم الفكي صالح تلميذ الشريف يوسف الهندي. وهو شاعر في العامية لا يشق له غبار، إذا هجى دمغ الخصوم وإذا سخر بدد الوجوم وإذا مدح أسكت (الخشوم) وإذا تشبب ذكرك بعفة جميل بثينة قال في إحداهن:

فوسيية السترى الما عِشْقَتَ زول قَبّالا

قامت فوق ندى وصافي النسيم هَبّالا

فاقـــــت في المحاســـــن جـــــيلا والقَبِّـــــالا
مُهـــر العَرْضَـــة يايوســـف حليـــل شَـــبَّالا

ويوسف هنا هو يوسف محيسي من أعز اصفيائه

وإذا تغزل في (خريف الـرازة) أشـهر صـاحبات الحانـات في شـرق الجزيـرة وشـيخة صاحبات الهوى في ذلك الزمان وجدت في شعره ابن أبي ربيعة في زمانه وإذا هجـا وجـدت في شعره الحطيئة يسعى على قدمين فقد انقلب على (خريف الزارة) بعد المودة فقال فيها ما لم يقل مالك في الخمر. وإذا نافر أهل المنطقة وشاحنهم عاد بك إلى نقائض العصر الأمـوي أيام جرير والفرزدق وإذا مـدح المـصطفى صـلى الله عليـه وسـلم أرجعـك إلى البوصـيري والصرصري وإذا مدح الشريف فتلك الغاية التي لا يسبقه إليها في شـعر القـوم صـاحب راية. وكانت حياته آية من آيات الله وأنموذجاً لحكمته. سار رحمـه الله في ميـدان الـشباب إلى نهايته حتى حكى لي رفيق صباه وراوية شعره المرحوم الخليفة محمد صالح عبد الجبار قال لـي (إذا تأخرت (الخادم) في عمـل (العرقـي) كـان (يلـز) معهـا الحطـب في النـار اسـتعجالاً للشراب). والمادح الخليفة محمد صالح عبد الجبار عليه رحمة الله هو الآخر فقدٌ جلل لأنه كـان آية في حفظ الأشعار والأخبار وتاريخ هذه الأسرة وتاريخ الدناقلة وتاريخ آل الهندي. ثم بعد طيش الشباب التحق إبراهيم بالشريف يوسف وأخذ عليه الطريق في قصة طويلـة عجيبـة غريبة سجلتها من أخي الحبيب وبقية آبائي الخليفة يوسف أحمد عبد الوهـاب بـارك الله في أيامه الذي كان كالتلميذ أيضاً لهذا الرجل النادر، فتحول إبراهيم بعـد ذلـك مائـة وثمـانين درجة وتدرج في مراقي الصلاح حتى أصبح من العارفين حقاً كما نحسبه.

انقطع لخدمة الفقرا في مسيد الشريف الهندي يعوس الكسرة ويسوي الشاهي ويـرد الماء حتى تشققت أقدامه فكان يخيط الـشقوق بـالإبرة والخـيط وكـانوا يتبعـون أثـر قدميـه ويعرفونها بالدم الذي يخالط التراب. ولزم بيت القهوة في مسيد الشريف خمس عشرة سـنة وصَدِّقوا أو لا تصدقوا أنهم قالوا طيلة هذه السنوات الخمس عشرة (نار الليل تلاقـي نـار النهار). وكان له في أثناء ذلك كرامات تحكى لا يسع المجال لذكرها. وكان قبـل ذلـك قـضى

شطراً من شبابه في أم درمان معروفاً بالوجاهة والظرف وهيئة الكبراء على عادة الشعراء في زمانه. ذكرت لأخي حاج يوسف مرة ظرافة حاج أحمد عليه رحمة الله فقال لي: إنت ما شفت إبراهيم أخوه والله أحمد (ما يتيرب ليهو)، يعني إبراهيم كان في غاية الظرف والأناقة حتى لا يعد حاج أحمد شيئاً قياساً به، رحمهم الله.

وقد سجلت من أخباره ما يصلح أن يكون نواة لكتاب عن هذا الرجل الأسطورة خصوصاً من أحد تلاميذه الذي نكبنا برحيله العام الماضي وهو الحاج عثمان عبد الله عليه رحمة الله، من تلاميذ الشيخ عبد الباقي وقد لازم إبراهيم ملازمة الظل وكان حبيبه وخليله وصفيه.

وإني أناشد أهلي الدناقلة: الأستاذ الجيلاني والأستاذ صالح عبد الرحمن وشباب الدناقلة أن يجمعوا شعر هذا الرجل الذي كان أمير شعراء حقبته بلا منازع وألاّ يبالوا بتسجيل شعر الهجاء والنساء والمنافرة فإنها سجل تاريخي وثروة أدبية نادرة ستلومنا الأجيال على تضييعها أما شعره في المديح فاسألوني عنه، فله في مدح الرسول وفي الحكم والمواعظ وآداب الطريق القصائد الجياد والروائع ، قال في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في قصيدة طويلة من نوع الناهيابي:

قالولنا الحبيب يا اخوانا يحلب شاتو
يرقع توبو يَخَصِف والحصير فِرْشَاتُو
نعيم الدنيا جاهو قالوا المكرَّم شَاتُو
من زهدو عفاف نفسو وكره دوشاتو

وأكثر مدائحه في الشريف يوسف الهندي وله فيه نونية رائعة منها:

يا أب قدراً رفيع أرفعني لا تنساني
على جمر الهموم رجل الذنوب دايساني
غيث يا من عليك ظني الجميل حَتَّاني
مادحك البديري وفي الشعر حسّاني

وله رائية رائعة بديعة يقول فيها:

منبــع كــل خــير تَــوْطِي المنيــف الــشاهر

رعد الـذل يـصيح لـي عـداك راعـب وقـاهر

بــان فجــر الــدليل نــور الأكيــدة البــاهر

قــاهر نفــسو صــارف دهــرو جــايع وســاهر

رحمهم الله.

أما ثالث الثلاثة فلأخوه الذي فجعنا برحيله بالأمس الأديب الأريب اللبيـب الحبيـب الحاج أحمد بن الفكي صالح الحاج موسى، الذي لو أطلقت لقلمي العنان ليكتب عنه لـسال دماً ولكني سألجم الحزن تفويضاً لله ورضاه بقدره. ورث حاج أحمد صـلاحَ أبيـه وأدب أخيـه؛ تجلس معه الساعات الطوال فتتمنى أن يتمدد الزمن. عرفته منذ صغري فشدني إليه الظرف والأناقة وطلاوة الحديث رأيتـه في عـام ١٩٦٢م في بـري الـشريف قبـل أن نـدخل المدرسـة الابتدائية ورأيت عنـده مـسجل (البـك أبِ أبـو أسـطوانة) في مجلـس ضـم أكـابر خلفـاء الشريف الهندي عليهم رحمة الله فيهم والدي والخليفة أحمد عبد الوهاب والخليفـة مختـار ود الترابي والخليفة محمد نور والد أكابر من عرفنا من أهل الدناقلة السيد إبراهيم محمد نـور الذي رحل قبل مدة مخلّفاً جرحاً لا يندمل. ومع فارق السن الكبير بيني وبـين المرحـوم حـاج أحمد أنشأ الله بيننا صداقة ومحبة عجيبة كان يناديني (بود شيخنا وود أبوي) وكنت إذا مدحت المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول لي (صوتك فيه قُنَّانة) وكـان يعـرف إعجـابي بـشعر أخيه إبراهيم فكان يقول لي (سَمِيك قال كـذا وكـذا). وكـان جيـد الحفـظ رائـع الإنـشاد. وبسبب صلتي به تكونت عندي أعز صداقات الدراسة والعمل من أهـل الدناقلـة مـن آل صالح وآل صديق وآل حمزة وآل حامد وآل الفاضل وآل فقير، جبر الله كسرهم أجمعين.

ثم جمعتني ظروف العمل بالسعودية بأستاذي الجيلاني أحمد يوسف الذي كان يعمـل موجهاً بوزارة المعارف وكنت مدرساً حديث التخرج وهنا حدّث ولا حرج عن نمط آخر مـن

أهل الدناقلة علماً وورعاً وتقوى وحزماً ومروءة وكانت للجيلاني صلة عامرة بعمه حاج أحمد يجله ويكرمه ويناديه بيا عم أحمد، يترافقان كثيراً وقد يختلفان في أمور ولكنهما لا يفترقان، تعلمت منهما أنموذج استقلال الشخصية مع الحفاظ على الثوابت. ومن الطرائف أن زملائي من أبناء الدناقلة كانوا يعجبون من صداقتي مع المرحوم حاج أحمد صالح والأستاذ الجيلاني لا لفارق السن بل كانوا يستغربون كيف تمّ لي أن أصادق وأصاحب اثنين من (أصعب الدناقلة) هما حاج أحمد والجيلاني وهما معروفان بالحزم الشديد لهما مهابة كبيرة في نفوس شباب الدناقلة ناهيك بنساء الدناقلة وجزيرة الفيل اللائي إذا سمعن بأحمد صالح وهو قادم فكأنما (صَبَّتْ مَطَرة)، وقيل إن حاج أحمد عليه رحمة الله هاتف إحدى أخواته فصاحت ابنتها (يُمّة خالي أحمد في التلفون) فقالت لها (قولي ليه دقيقة بس النَّلْبس توبي) رحمه الله. وهذا جانب ما غاب عني يوماً فأنا أجلّه وأوقره وقار الأب ولكن كانت فيه روح دعابة ومرح وسعة قلب لا تفتأ تخرجني من حال البُنُوَّة إلى حال الأخوة.

كان حاج أحمد رجل علاقات اجتماعية من الطراز الأول قبل أن يعمل في التجارة العمومية عمل في خور طقت متعهداً فظلت له علاقات وطيدة مع كبار خريجي ذلك الصرح العملاق وكم حدثني عن المشير سوار الدهب وله به صلة حميمة وبينهما تزاور وأنا من هنا أعزيه فيه وأعلم ما بينهما من صلة روحية وود. وكم حدثني عن الفريق عبد الماجد حامد خليل واللواء أبو عفان وغيره من الضباط أو الوزراء وكان وطنياً اتحادياً أزهرياً له أشعار ومداعبات مع الاتحاديين وعلى رأسهم السيدين الشهيد الشريف حسين والشريف زين العابدين الهندي. بل امتدت صلاته إلى خارج السودان، فقد كان حاج أحمد رحمه الله محباً للمصطفى صلى الله عليه وسلم فكان لا يترك الحج والزيارة وحج سبعاً وعشرين حجةً لم يفصل بينها فاصل إلى أن أقعده المرض وتقدم السن وكان مع ذلك لا يدع الزيارة ولو مرة في العام، أما عمرته فقد تكون ضعف ذلك. وهو محبوب أينما نزل؛ كوّن صداقات باقية مع بعض أهل الحجاز كالشيخ الصُّبيعي في مكة والشيخ سعد صبر بالمدينة النبوية. وأعرف

أنهم ما كانوا يرضون أن ينزل على غيرهم حتى آخر زيارة له. وكان يجلب الهدايا من الحجاز فلا ينسى وجيهاً أو سفيهاً، صغيراً أو كبيراً، حدثني أخي المهندس عمر الأمين خالد بأنه ما يزال يذكر حاج أحمد بأناقته وهو يدور على طلاب مدرسة الدناقلة الابتدائية يوزع عليهم الهدايا بعد أن يطرح عليهم بعض الأسئلة الدينية. ولعل المهندس عمر ما يزال يحتفظ له بمبرأة عليها صورة المدينة النبوية أو الكعبة المشرفة.

وكان عظيم الوفاء ما رأيت أحداً يجلُّ أخاه ويكبره ويفخر به كما يفعل حاج أحمد، وكان إذا جرى الحديث عن أخيه إبراهيم يبكي فأسأله عن السبب فيقول لي: (أنا على الطلاق إبراهيم ورّاني الرسول وأنا ما أسفت على شيء قدر أسفي على مخالفتي لإبراهيم أول أيام شبابي) فقد أبحر إبراهيم في بحر التصوف وكان حاج أحمد بعين غرور الشباب ينظر إلى أخيه الذي كان مضرب المثل في الأناقة والوجاهة وقد تحول بين عشية وضحاها إلى فقير خشن متقشف، ثم أدرك بعد وفاته أنه كان مخطئاً في تقدير حالة أخيه فسلك مسلكه وأعجبته الحال التي كان يزدريها فتنسك وحسن مذهبه غاية الحسن حتى أسف على ما فات من أيام لم يقضها في طريق أخيه رحمهما الله وأحسن إليهما. وكان كثير الزيارة لوالدي عليه رحمة الله منفرداً أو مع من يعز عليه كالأمين الجاك والجيلاني وعابدين عبد الحفيظ والبشير أحمد يوسف، يحب أبي لأنه تلميذ آبائه ورفيق إخوانه وكان والدي يحبه لأنه بقية أحبابه وأصحابه. وكنا نبادله ذلك فنزوره في داره فينطلق بنا إلى المرحوم الخليفة عبد الغفار ذلك الرجل الذي كان نسيج وحده في التقوى والورع والصلاح والذي حرمتنا الغربة من أن ننهل من معينه وأن نستفيد من صحبته عليه رحمة الله. ثم يعود بنا حاج أحمد إلى داره فيجتمع علينا وجهاء أهله وكرماؤهم ولكن قاتل الله الغربة التي جعلتنا نخرج من هذا البحر المحيط المتلاطم ونحن لا نحمل إلا مقدار ما يأخذ العصفور بمنقاره من مياه الطوفان.

وكان حاج أحمد كَلِفاً بالتسجيل والتوثيق ما ترك مشهوراً في مجال إلا سجل له وكان أثمن ما تقدمه له هو أن تتحفه بأشرطة كاسيت فارغة، وتحتوي غرفته الخاصة في بيته على

مكتبة سمعية نفيسة ولا نشك في أن أبناءه صلاح وعماد وإبراهيم وعبد الرحمن وعثمان أحسن الله عزاءهم وطرح فيهم بركته سيحافظون عليها خصوصاً عبد الرحمن الذي يعد أمين سرها مع أمهم الفاضلة وأخواتهم البارات وأبناء أخواتهم أبوبكر محجوب وإخوته ونشهد أنهم كانوا أوفياء لنا في حياة أبيهم ولا نشك أنهم سيبرون أهل ودّ أبيهم بعد رحيله، ولحاج أحمد متحف للصور الفوتوغرافية لشخصيات نادرة رأيت فيها صورة شيخ هاشم الشيخ عبد المحمود ظريف مادحي رسول الله؛ ولم أستغرب وجودها عنده ولا استغربت الصلة الحميمة التي تربط بينه وبين هذا الأديب والشاعر البارع فقد كان كلاهما مثال الظرف والأناقة واللطافة عليهما الرحمة. وقد جمعت بينهما صداقة متينة والتقيا في الحجاز وفي مصر. ومن ذكريات مصر أنه دخل على الشيخ هاشم فوجده يترنم فقال له والله يا مولانا صوتك جميل فقال له شيخ هاشم: (طمنتني)، ثم جرى الحديث في الألحان إلى أن ذكر حاج أحمد أغنية عبد العزيز محمد داؤود (أنا من شجوني باكيات عيوني يا ناس خلوني) فما كان من شيخ هاشم إلا أن جاراها بمدحته النبوية التي يقول مطلعها:

في سيد ذا النونِ ... حسِّنْ ظنوني ... ياناس هنّوني ... يا ناس هنّوني

فلما دخل حاج أحمد على الشيخ هاشم لاحقاً وجده قد ضمنه في نهاية تلك المدحة في قوله:

يا مُهدي الطالح ... ومعز الصالح ... أكرم وعظّم حاج أحمد صالح

أهلو وجيرتو ... والبحبو سيرتو ... في جوار الهادي النّور بصيرتو

وهو يعد ذلك تشريفاً كبيراً له من صديقه أن يدخله في هذا الفضل العظيم وقد حكى ذلك في مجلس طيب في زواج أخينا كامل الخليفة القرشي في دارنا بقنّب حاج علي قبل سنوات وهو موثق محفوظ.

ومع صلته الكبيرة بجميع أفراد بيت الهندي كانت له صلة مميزة بأحد أبناء الشريف يوسف وهو الشريف عمر الهندي الذي تجمعه به علة محاور فالشريف عمر أمه فاطمة بت الشيخ من الدناقلة فحاج أحمد من هذه الناحية من أخوال الشريف وإخوانه وكان الشريف عمر أديباً شاعراً وهذا محور آخر، ثم كان الشريف ظريفاً لطيفاً وكذلك كان حاج أحمد عليه رحمة

الله وكانت تربط الشريف عمر بالشيخ هاشم صلة وبينهما مودة وتبادل أشعار وقد ذكرنا صلة حاج أحمد عليه رحمة الله بالشيخ هاشم، وأحسب أن ثلاثتهم لو اجتمعوا في مجلس فإن العين لا تشبع من النظر إليهم ظرفاً وأدباً وأناقة مظهر وحسن هيئة وحلاوة حديث، رحمهم الله.

وكان حاج أحمد خطيباً مفوّهاً حسن الارتجال يحفظ شوارد الشعر ويحسن الاستشهاد بها أحتفظُ له بتسجيل مرئي في جمع حاشد وهو يؤبِّن والدي عليه رحمة الله فأحسن ما شاء الله له من الإحسان. وكان كاتباً جيد الترسُّل حفظت منه بعض عباراته التي يستهل بها رسائله كقوله (الحمد لله الذي جعل الأقلام تنوب عن الأقدام).

ولن يوفي مكلوم القلب معقود اللسان مثلي حاج أحمد حقه فقد كان أخاً وأباً وصديقاً وكان خير خلف لخير سلف، إنَّ فقدنا فيه لكبير ولكن الحبيب المصطفى يقول: (إذا أصيب أحدكم بفقد فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب). وهذه سنة الله في خلقه:

الناس في الموت كَخَيل الطِّراد　　　فالسابقُ السابقُ منها الجواد

والموت نَقَّادٌ على كفِّه　　　جواهرُ يختار منها الجياد

رحم الله حاج أحمد صالح وسلفه وبارك في ذريته وخلفه وخالص آيات العزاء لأسرته وأهله ولشيخنا الخليفة الشريف الصديق الهندي. ولنا في سيرة الراحل العطرة الخالدة بعض السلوى ولنا في أبنائه وذريته وأهله خير عزاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فقدُ الأمّة

قال حذيفة بن اليمان: كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا مصيبة الموت فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر. وما أحسب أن مصيبة العلم وأهل السودان في عبد الله الطيب من هذا النوع؛ فإنها تتجدّد كلّما افتُقد البدر في الليلة الظلماء، فقد أصبح اسمه قرين كل لفظة في اللغة ورديف كل أسلوب وشقيق كل معلومة فيها. ولولا قول الرسول الكريم: إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب، لأنكرنا على الشجر أن يخضرّ بعد عبد الله الطيب ولقلنا كما قال الأول:

أَبَعْدَ قتيلٍ بالمدينة أظلمت .. له الأرضُ تَخْضَرّ العِضَاهُ بِأَسْوُقِ

وكما قالت الأخرى:

أيا شجرَ الخابور مالك مُورِقاً .. كأنك لم تَحْزَنْ على ابنِ طَرِيفِ

وإذا لم تعجز الأقلام في مثل هذا اليوم فمتى تعجز؟ لقد رحل فارس الكلام وموسوعة العلم وسيد العلماء. وهل مثله ممن يوفيه قلم حقّه؟ وهل تقوى أقلامنا الكسيرة الكسيحة على القيام ببعض حقه، فنحن وإن حظينا بشيء من صحبته والاستماع له فإنما نحن من صغار تلاميذ تلاميذه حالنا كنَبتِ الحواشي في رياض عبد الله الطيب، ولكن عزاءنا أن عبد الله هو البحر من أي النواحي أتيته فلُجّته العلم وساحله المعرفة ويمكن لكل من أراد التحدث عنه أن يجد سبيلاً إلى القول.. جرّبنا ذلك أمس الخميس حين جلسنا للعزاء بمنزل ابن أخته د.الحسين الخزينة برياض السعودية وبيت كل منا نادب وفي قلب كل منا مأتم وجاءنا المعزّون من كل صوبِ وتحدث الناس وما انتهوا ولن ينتهوا فلكل منهم رواية وحكاية، أنا لا أملك ما أقول في رجل يعرفه كل من يقول وإنما يكتب الانسان للناس عمّا لا يعرفون وأمّا الكتابة في المعروف فنافلة وفضول ولكن سؤالاً واحداً أثاره أحد المعزّين من غير السودانيين حين قال: (كيف تمّ لهذا الرجل هذا العلم ومتى؟ هذا الرجل ينبغي لمن في مثل علمه وموسوعيته أن يكون قد عاش حياتين أوثلاثاً). فقيل له: (ذكر الرعيل الأول من

تلاميذ عبد الله الطيب أنه حين سافر سنة ١٩٤٧م إلى إنجلترا للحصول على درجة الدكتوراه وكان في السادسة والعشرين سافر وهو عالم بكل شيء ولا تعجبوا فإن الرجل عليه رحمة الله لو عمل بقول ابن خلدون وحده لكان ما قالوه حقيقة؛ قال ابن خلدون: (سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي.. ويقيني أن عبد الله الطيب حين عزم على السفر إلى إنجلترا كان قد وضع ما قاله ابن خلدون وأضعافه من دواوين الشعر والأدب وراء ظهره. لا يعني ذلك أن الرجل قد بلغ المدى فالعلم أوسع من أن يحاط به وأشهد أنه رحمه الله كان في تعلم مستمر، كان مرة يراجع نصاً مكتوباً فشكّ في شيء ونحن في بيت أحد الإخوان فطلب لسان العرب فاعتذر صاحب الدار فعنّفه مستنكراً أن تخلو مكتبة مدرس لغة عربية من معجم كلسان العرب، وليس هذا موضوع العجب وإنما يعجب الناس من معارف عبد الله الطيب في غير الأدب.

خبِّروني عمّن يذهب إلى المؤتمرات الدولية واللقاءات العلمية والمحاضرات وليس بجيبه قطعة قرطاس!! إن الناس ليعدون الأوراق ويسهرون الليالي في تجميع المعلومات وعبد الله الطيب كأنما يغرف من بحر. أُعِين بحافظة عجيبة وحضور أعجب، كان يقول لمستضيفيه اقترحوا علي وأنا أتحدث. زار – رحمه الله –قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود عقب (جائزة الملك فيصل) فطلب رئيس القسم قبل ذلك بيوم من ابن اخته د. الخزينة أن يسأل خاله عن عنوان المحاضرة ليضمنه الإعلان عنها، فقال له: (ليس لدي موضوع أعلنوا ما تشاءون وإذا جئت أخبروني بما أعلنتم لأتحدث فيه). أي ثقة وأي مخزون هذا! ترك دنيا الملك والسياسة لأهلها مع أنه كان أقدر الناس على فهم تدابير الملك والسياسة، يذكر لك ما ينبغي أن يكون عليه ما يصطفيه الملوك والحكام من الكفاية والتأهيل ويضرب لك المثل بنخّاس رُدّت عليه جارية شغواء(في فمها سن زائدة، في مجلس به جماعة من الوزراء وأهل الجاه فسألهم النخاس عن عدد أسنان الإنسان فما كان فيهم أحد عرف ذلك حتى أدخل بعضهم سبابته في فمه وجعل يعُدّ

عوارضه حتى سال لعابه، وضمّ آخر فمه وجعل يعدّها بلسانه فهل يليق بمن ائتمنه السلطان على رعيته وأمواله أن يجهل مثل هذا في نفسه؟) يقول ذلك وكأنه يتمثل قول الشاعر:

رياساتُ الرجال بغير علمٍ ... ولا تقوى الإله هي الخساسةْ

وكل رئاسة في جَنْبِ جَهْلٍ ... أَحَطُّ من الجُلوس على الكُناسة

وأشرف منزلٍ وأعزُّ عزٍّ ... وخير رياسة تركُ الرّياسة

ومن هنا كان عجب الناس من موسوعية عبد الله الطيب، تسأله في الفقه فيحدثك عن رجل مات وترك زوجة وبنتاً ووالديه ويقسم لك حصصهم بما استقام وما استشكل فيها عند أهل المواريث وتسأله عن الأخبار فيحدثك عن طارفها وتليدها. ذكر له أحد الزملاء مسجد (البوشاب) في منطقة الرباطاب فأخبره عن أصحاب هذا المسجد رجالاً ونساءً وذكر له آخر شاعراً مغموراً في بلدة القضارف فأنشده من شعره وأخبره أنه رآه. وكان من سعة الإلمام ومع تمكنه من لغة الضاد لا يعجبه التَّقَعُّر والتمشدق ولا يرتاح إلى مثل قول يحيى بن يعمر وقد تخاصم عنده زوجان فقال للزوج: (أَأَنْ سألَتْك ثمن شَكرها وشَبرِك أنشأتَ تطُلُّها وتضْهلها) ومع ذلك فقد حكيت عنه في مثل هذا حكايات وحكيت على لسانه أشياء سئل عن بعضها فكذّبها ونفى نسبتها إليه. ولا بدّ لمن في مقامه أن يصبح شخصية أسطورية.

وكان فوق ذلك شديد التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلاّ حقاً، خرجنا معه قبل أعوام لصلاة الجمعة فجرى حديث عن التمرد والمتمردين فتهامسنا ببعض ما قال، وكان يمشي أمامنا فقال: (ما لكم؟) فلما أخبرناه مازحنا بعبارة استكثرناها في ذلك الوقت ثم أثبتت الأيام صوابها وصدق حدسه.

لم يجمع عبد الله الطيب مالاً يبذله في زخارف البنيان ولا في لذّات النفوس مع اصطفاق المزاهر ولا معاطاة الندمان، أُكلت الدنيا بأدب عبد الله الطيب وكتبه وهو يعيش في بيت الحكومة.

شهد له كل من دخل بيته ببره بأهله فهو وإن لم يرزق ذرية فقد كانت له ذرية كالحصى، شملها ببر نادر وعطف غامر ، ذهب مرة إلى مؤتمر علمي وانتظره طلابه وزملاؤه ليقصّ عليهم خبر المؤتمر فقصّ عليهم فرحته بتوفيقه في سفرته هذه في العثور على إحدى قريباته انقطعت أخبارها عنهم زمناً.

نحن معشر المشتغلين بالكتابة لم نكرّم عبد الله الطيب وهو يستحق، وقد كَرّمَنَا عبد الله الطيب مع أننا لا نستحق وهو لا يستحق هذا العقوق، وقبل عشر سنوات استأذنه البروفيسر عبد القادر محمود في كتابة شيء عن سيرته، ولم نفعل، فإذا لم نفعل في حياته أفلا يحسن بنا أن نتلافى ذلك الآن؟

نَمْ أستاذ الكل هانئا فو الله ما رأينا رجلاً عرفته أُمّةٌ كما عرفتك ولا بكته بإجماع كما بكتك، ووالله ما بلغنا نعيُك حتى تسابقت العبرات والدموع وقول الشاعر في وقت واحد:

أَلاَ فَلْيمُتْ من شاء بعدَك إنَّما عليك من الأيام كان حِذَارِيَا

وإن من رحمة الله بأحبابك وطلابك أن موتك لم يكن فجأة ولا دفعة واحدة وأن طول الرقدة قد هيّأ النفوس لقبول المصاب وإن كنا يعلم الله نمني أنفسنا بعودتك وتحدثها بالاستماع إليك والاجتماع بك بعد أوبتك ولكننا نريد، والله يريد، ومراد الله ماض. فنسأله جلّت مراحمه أن تكون تلك الرقدة كفارة وتمحيصاً لكل ما سطره الملكان. فنَم قرير العين هانئاً فإن مثلك لا يصنف في الأموات، فالناس موتى وأهل العلم أحياء، ولئن مات قوم وما ماتت مكارمهم فلأنت في طليعة هؤلاء، وسيذكرك الناس ما بقيت لغة الضّاد. فإلى جنات الخلد بإذن الله، وإلى صفحات الخالدين، وعليك رحمة الله في الصديقين والشهداء والصالحين والعزاء لأسرتك وقومك وأمتك.

وفقدت الأُمَّة الرجل الأمَّة

في وقت السحر يرحل أهل السحر حلفاء السهر مثلما رحل الشيخ عبد الرحيم البرعي تيمناً الكردفاني موطناً المالكي مذهباً السماني طريقةً الكاهلي نسباً راجل الزريبة، رحل في واحدة من اللحظات التي تتوقف فيها عجلة الزمن ويكل فيها الساعد ويهن الفكر وينعقد اللسان ويستعصي فيها القلم المطيع وينضب معين التعبير المنقاد وتشرد الكلمات وينفرط عقد الجمل فالمصاب جلل يحل عقد القُوَى فيترجل القلم عن الأصابع وتتوارى إشراقات الفصاحة والبلاغة خلف سحائب الحزن الكثيفة فقد رحل الأستاذ المربي والشيخ المرشد السالك في مراقي العارفين مخلفاً أسىً لا ينقضي ودموعاً لا تنقطع وزفرات حرى. رحل رجل القرآن وطبيب القلوب ومرشد الأرواح ومصلح المجتمع أبو الأيتام والأرامل وملجأ الضعفاء وشقيق الجود وصنو المكارم وأخو المروءة وصاحب العزيمة الحذاء والهمة الماضية والتوجه القاصد إلى وجه الله الكريم.

رحل فقد السودان من أدناه إلى أقصاه، رحل فقيد القرآن والجيران فقيد العلم والثقافة فقيد الظرف واللطافة فقيد الإصلاح الاجتماعي فقيد المساجد وعمارها فقيد ساحات الذكر وذكارها فقيد المديح النبوي وعشاقه فقيد الكلم الطيب وذواقه، فقيد المرأة ونصيرها..رحل البرعي تاركاً في كل بيت باكياً وباكية ومأتماً ومخلفاً أمة من الأيتام ليس لها عدد

رحل فبكاه السودانيون في كل مكان، وتناقلوا نعيه وتبادلوا التعازي فيه دون قرابة رحم وأقاموا له سرادق العزاء حيث كانوا ووقعت المصيبة على أحبابه المغتربين مضاعفةلأن الأهل في السودان يتقاسمون الحزن أما الغريب فيقع عليه الحزن مع الوحدة فتكون المصيبة مصيبتين. اتصلت أستاذة جامعية على أهل بيتي بلحثة عن أحد يعزيها وتعزيه فأكبرت لفتتها لأنها تدل على أصالة أهل السودان وعمق محبتهم لهذا الرجل الأمة.

أما في السودان فقد رأينا عبر الفضاء تدافع الناس للمشاركة في عزائه فكانت يد القدر أثناء ذلك تخبئ محنة على محنة فلحق به بعض السادة الأدارسة الدكتور عبد العال

الإدريسي وصحبه لنوقن أن الأرواح جنود مجندة وأن أرواحهم في قرن واحد نسأل الله أن يتقبلهم وأن يجمعهم به وأن يجمعنا بهم جميعاً في مستقر رحمته،

رحل الشيخ البرعي بعد أن شهدت له بكل ما مضى ألسنة الخلق التي هي أقلام الحق ولكنه أبقى ذكراً طيباً ولسان صدق خالداً على الأيّام وسيرة عطرة متجددة على الدوام فقد كان الرجل أمة في نفسه وأنموذجاً في حياته وقدوة في سلوكه ومدرسة في منهجه. كان صاحب مذهب فريد في الدعوة إلى الله وعماد ذلك المنهج القدوة الماثلة في شخصه أولاً، فقد جعل من نفسه قدوة ومن أعماله أنموذجاً كان أمةً بعمق إيمانه، وحسن توكله وعظيم صبره وحسن خلقه وجميل تواضعه كان أمة في تواضعه يمشي في زريبة نور القرآن حافياً، أحب الجلسات إليه أن يجلس بين أحبابه وجيرانه في الرمل والبسمة لا تفارق شفتيه، يأخذه صاحب الحاجة بيده وينفرد به من الناس فيتبعه كالطفل ويجلس معه على الأرض حتى يفضي إليه بما في صدره ولا يقوم عنه إلا وهو مجبور الخاطر ومع تواضعه هذا وانكساره فلا يمكن أن تتخطاه إن وجدته - كما قال الأستاذ الفاتح النور - بين الشيوخ ظننته كبيرهم وإن وجدته بين الأفندية ظننته باشكاتبهم فهو جماع التشكيلة التي قال عنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أريد رجلاً إذا كان بين القوم وليس أميرهم بدا وكأنه أميرهم وإذا كان بين القوم وهو أميرهم بدا وكانه واحد منهم، يحادث زواره ويباسطهم وهو دائم التبسم ويطارحهم ويكاشفهم أمورهم الخاصة ولا يجدون حرجاً في بثه شؤونهم الخاصة وهو يحب ذلك ويرتاح له ويعمل على حل مشكلاتهم وتطييب خواطرهم وتطمين نفوسهم. يشارك أحبابه ومريديه أفراحهم وأتراحهم ويعود المرضى ويشيع الجنائز ويصلي عليها ويسافر المسافات الطويلة لأداء واجب العزاء والمواساة. جمع الله حوله قلوب الخلق وحببهم فيه، فأنشأ العلاقات الطيبة والحميمة مع من شئت من الناس داخل السودان وخارجه. اقترب من نفوس الناس على اختلاف مشاربهم حتى وجد كل منهم في أدبه شيئاً يوافق هواه ووسع قلبه الكبير كل من لقيه حتى يظن من يعرفه أنه المحبوب الوحيد له وأنه أقرب الناس إلى قلبه دون سواه.

كسله الله تعالى المهابة والجلال والوقار ورزقه القرب من قلوب الناس فهذه الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ الباحثة المحققة الشهيرة في التراث الإسلامي حين التقت به في الأبيض سألها أن تقرأ سورة الفاتحة جهراً فهمس له بعض مرافقيه بأنها أستاذة جامعية من حملة القرآن الكريم وأستاذة في التفسير والعلوم الإسلامية في الجامعات المصرية فأصر على أن يسمع منها تلاوة سورة الفاتحة قالت الدكتورة في مستهل محاضرة لها بالأبيض: (إن مدينتكم الفاضلة هذه غير عادية فقد التقيت قبل مجيئي إليكم برجل من طراز فريد في عصرنا هذا، رجل ليس به عوج جذبني نور الصفاء فيه من أول وهلة، وعندما قال لي اقرئي سورة الفاتحة جهراً انقدت إليه كما ينقاد الطفل لمعلمه بالرغم من همس الأستاذ الفاتح النور له بمؤهلاتي العلمية وأدركت بمعرفتي العلمية لأسرار الفاتحة بأنه رجل من طراز فريد في عصرنا المادي.. نفعنا الله بسره) "السهل الممتنع - ص٣٠" .

كان مصلحاً اجتماعياً رزق التوفيق والقبول فحارب الفجور والخمور والنياحة والمغالاة في المهور والبطالة والهجرة الداخلية والخارجية وحارب التزمت والتعصب الفكري والسياسي، وطالما شارك في صلح القبائل والمجموعات والأفراد وبرغم ظروف مرضه كان من شهود اتفاقية السلام الأخيرة في نيفاشا.

ومن آيات صلاحه أن الله تعالى بارك له في الوقت فالزمن عنده غير ممحوق يبني ويشيّد ويعمر ويدرّس ويرشد ويسامر ويسافر ويقرأ ويُقرأ عليه ويحيا حياته الخاصة ويرعى أسرته ويتفقد موارد رزقه ويهاتف ويتلقى المهاتفات ويكاتب ويراسل رغم ظروفه هذه يمنحه الله الوقت ليهاتف ويكاتب المغمورين الجاهيل من أصحاب البضاعة المزجاة من أمثالي، أرسلت له مسودة كتابي المتواضع (السهل الممتنع) وهو دراسة في شعره فقيل لي إنه قرأه ودعا لي في جمع من الناس ثم إن أحد أقاربه وهو الدكتور عز العرب الذي حمل له نسخة الكتاب المطبوع لما جاءه يودعه وكان ذلك وقت السحر قال فتناول الدواة والقلم وكتب لي بخط يده الجميل هذه الرسالة المرفق صورتها والتي يقول نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله وأصحابه والتابعين.

سماحة مولانا الأستاذ العلامة الشيخ إبراهيم القرشي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

وكل عام وأنتم بألف خير

قرأت كتابكم السهل الممتنع شرحاً لديواننا وهو حقيقة وافق ما قاله صاحب الديوان أي ما يريده عبارات واضحة ودلالات هامة وإشارات مهمة ومعاني دالة على الأمر الموضوع من أجله:

بيني وبينك موعدٌ لا يُخْلَفُ ... وإخاءُ دينٍ ليس فيه تَكَلُّفُ

ومودةٌ ومحبةٌ في ربنا ... وتزاورٌ وتعارفٌ وتآلفُ

دمتم لخدمة الإسلام والمسلمين وهاك مقالة لأبينا الشريف يوسف الهندي:

إن في كردفان شجرة مثمرة ذات ظل لكن ما أخذ منها شيءٌ.

سلامي لكم بقدر محبتنا في الله.

عبد الرحيم الشيخ محمد وقيع الله البرعي

١٤٢٤/١٢/١٦هـ

أي سيادة وشياخة وأي عالمية يا شيخ المشايخ بعد الذي رأيناه منك. والله رغم هذه الشهادات الرفيعة الغالية الثمينة عن الكتاب إلا أنني ما صغرت في عين نفسي ولا تضاءلت وشعرت بهوان نفسي أكثر مما شعرت به وأنا أطالع رسالته هذه وهو يصفني بصفات لا أجد شيئاً منها في شخصي ويضفي علي ألقاباً أنا أكثر الناس بعداً عنها.

جوّد الشيخ رحمه الله كل شيء في خدمة أمته ودينه، أما ميدان المديح النبوي فهوة نبع الشيخ البرعي الصافي ومعينه الثر وأحد أساليب الدعوة الناجعة عنده فقد جاء الشيخ في مؤخرة ركب المديح زماناً ولكنه حلّ في مقدمة الركب مكاناً، فهو فارس حلبة المعاصرين الذي لا يشق له غبار وأمير شعراء المديح في زمانه بلا منازع، أتى في فن المديح بكل جديد

عاد على المتلقي بكل مفيد وجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين الفن والأدب وبين الثقافة الدينية والتراثية.

أحل في قلوب الشباب الطرب لمديح المصطفى محل الطرب لمزامير الشيطان ولك أن تتأمل أن نعيه وصل إلينا في المهاجر عن طريق الصغار قبل الكبار فزعاً لفقده وتناقل شباب الجامعات نعيه عبر رسائل الموبايل قبل الإذاعات والفضائيات. نعاه لنا مبكراً زميلنا المقدم الدكتور اسماعيل خضر عن طريق ابنه طالب الجامعة بالسودان ونعته لأبو عركي البخيت ابنته طالبة الجامعة ونعته لي في حزن وتلعثم ابنتي طالبة جامعة الجزيرة، فعلام يدل ذلك؟

جدد الشيخ البرعي عليه رحمة الله ورضوانه في أسلوب المديح بما لم يتأتّ للسابقين وأضاف أموراً لم تكن مألوفةً في معجم المديح ولكنه أدخلها بلطف الصنعة ورقة الذوق فجاءت على أحسن ما يكون. أروني مادحاً عاش مع الأحداث الوطنية السياسية والاجتماعية والطبيعية وجعل شعره سجلاً لها كما فعل شيخ البرعي، فحين احتلمت حرب الجنوب واشتدت الفتنة كان مع الناس بكل مشاعره فاستمع إليه في (طال شوقي وقلبي حن):

بي حق وجوهاً دنقرن..
بي خشعة للقرآن قرن..
دمعن على الخدين قرن..
أكفينا فتنة جون قرن..

وقد استجاب الله دعاءه ونرجو أن تسير الأمور إلى آخر الطريق بما يحقق دعوة الشيخ عليه رحمة الله. وفي أيام المجاعة التي ضربت بعض أقاليم السودان جاءت الإعانات من بعض الدول ومن بينها أمريكا فسجل الشيخ رحمه الله ذلك في (أنفسنا لا تفيقن) حيث يقول:

نثبت لا نلوج غرباً وتشريقاً..
واكفينا بفضلك من عيوش ريقن..

يعني رونالد ريجان الرئيس الأمريكي والعبرة هنا في أنه يدعو الناس إلى الصبر والثبات وألا يتعلقوا بحبال الغرب وإعاناتهم لأن عيوشهم وإعاناتهم مغموسة في شروط الضعة والمهانة والاستعمار الحديث.

وهو يتسقط أخبار العالم ويتلقاها وينزلها في قصائده دون تكلف في دعوات صادقات:

في الحمــــى المــــأمون لينــــا واري

مــــن أذى الطــــايرات واللــــواري

أمــــن البلــــدان مــــن بــــوار

زلزلــــة وقــــانون الطــــواري

أما مصطلحات أصحاب المهن والحيلة العامة فإن الشيخ في قصائده يدخل بك في كل مجال دون إذن سابق ولكنك لا تلقى حرجاً لأنه دخول المرشدين فأنت مرة في مطبخ ومرة في عيادة ومرة في حقل وأخرى في الشارع العام، قال في (النبي القرشي):

طهّر صِينْ فؤادنا الـبي الـذنوب محـشي

وثبت لي نفوسـنا التائهـة كـالوحش

المنهمكــــة في الكنافــــة والحــــشي

وانهانــا عــن المنكــر عــن الفحــش

نسلك سـكة الفراشـو ليـف محـشي

وانظر إلى مصطلحات الطب والأمراض في دعائه في قوله:

البرعــــي بــــالإخوان بــــالله ســــلّ

من سـكري وسـرطان محفـوظ وسُـلّ

أو قوله:

فاضــــت خــــشوع لــــك أدمعــــي

عــــافي لجــــسمي الــــصار مُعِــــي

عقلــــي وبــــصري ومــــسمعي

جنــــبني مــــولاي والمعــــي

مستــــشفى ســــوبا الجــــامعي

ومن غير الشيخ البرعي أفلح في إدخال السائقين والمساعدين والكماسرة والطيارين في معجم المديح فحببه إليهم وزادهم عزماً وعزيمة بجريان اسمهم في مدح المصطفى(ﷺ).

استمع إلى مدحة (علي شوقك طال) ووصفه للبكسي والسائق والمساعد على غـرار ما فعل السابقون في وصف الناقة والجمل.

ومن الذي أحيا موات العامية ونفض الغبار عن مفرداتها وشرفها بإدخالها في معجم المديح، بل من غيره طيب خاطر (الشماسة) وأعطى بعض ألفاظهم جواز المرور. استمع إلى قوله في (صفة الرسول):

وجهه كان قسنا..
بالبـــــدور دقّســـنا..

بل من الذي جلب السكارى والحيارى بأسلوب الدعوة النـاجع بالحكمـة والموعظـة الحسنة ببث الأمل في النفوس ودفع القنوط عنها ودعوتها للدخول من باب التوبة الواسع:

سيد أبويا..
شـــافع الـسكارى غـداً والـدّقو تويــه..
أعمالنــا لــولاه مــا بتــسقينا مويـــه..
كان رحنا في الدنيا سُكّر في مويه..

أو قوله:

ديمـــا أقـــيم الليـــل لـــي الحمـــار..
بـــي صـــفا وتـــصديق لا أمـــاري..
يهـــدي وعظـــي اللاعـــب القُمـــار..
والـــسكارى ونـــاس ود عمـــاري..

بل من الذي يستطيع توظيف الغريـب فيجعلـه طريفـاً ويـزودك في الوقـت نفـسه بالمعلومة الثقافية وبالفائدة الفقهية، استمع إلى لقوله:

لابن العواتك..

صـــلوات دوام عـــد مـــا لفّـــت لـــساتك..
برعـي اليكـون في حمـاك مـن كـل فاتـك..
حـول بينـه وبـين مـن للحرمـة هاتـك..

هذه من الإشارات المعلمة لأنك لن تسمع (ابن العواتك) وتتجاوزها دون الوقـوف عندها لتعرف معناها فتضيف إلى معلوماتك شيئاً أو تجـددها أو تـسر باستعراضـها (وكـل ذلك مشروح في كتاب السهل الممتنع لمن أراد مراجعته).

ولعلك تلاحظ قوة السبك ولزوم ما لا يلزم في كل ما تقدم من الشطرات، هذا وقد استخدم المادحون لجناب الرسول الكريم العدد ولكن من الذي أبدع وتفنن وجاء فيه بكل عجيب وغريب ومفيد كالشيخ البرعي ففي مدحته السيارة (مصر المؤمنة) اسـتخدم العـدد أربعة في نحو سبع عشرة مرة، والقصيدة مشهورة ولكن استمع إليه في توظيف العدد عشرة في مدحة (الليث علي الكرار):

مـــولاي بالملايكـــة الجملـــة والعـــشرة..
والميـــــة المعاهـــــا أربعـــــة وعـــــشرة..
والـــــسورة الـــــتي كلماتهـــــا عـــــشرة..
ركعـــات الفـــرائض الـــسبع والعـــشرة..
رمـــضان ثـــم ليلـــة القـــدر في العـــشرة..
أدعـــوك بـــي ليـــالي الحجـــة العـــشرة..
والرســـل الثمانيـــة والـــسبعة والعـــشرة..
والمبــــــشرين بالجنــــــة العــــــشرة..
والحـــسنة الـــتي مـــضروبة في عـــشرة..
أرعـــى أحـــبتي لـــي اليـــسكنو ام عـــشرة..
يمسكوا في عـرى الإسـلام بـي العـشرة..
والكل لي يقول مرحب حبـاب عـشرة..
أدخلـــني حمـــاك وابقـــى علـــي عـــشرة..

ولقد أضاف الشيخ إلى معجم المديح معيناً من المعارف والثقافات قلّ أن تتوافر مع إحصاء شامل واستقصاء دقيق. فإذا استمعت إلى (مصر المؤمنة) وجدت سلسلة من الصالحين من قاطني مصر لا يعرف المصريون أكثرهم ناهيك بالسودانيين. واستمع إليه في مدحة (في كل قضية) تجد طائفة من العباد والزهاد لم يسمع الناس بها تشكل موسوعة في التراجم. وإذا أردت الاستماع إلى قصيدة من قواعد اللغة العربية والنحو فعليك بقصيدة (علم النحو والإعراب) وإذا أردت أن تراجع معلوماتك في العامية فإن مديح الشيخ كله معجم من معاجم العامية كم تمنيت أن يستفيد منه الدكتور عون في تنقيح قاموسه لأن البرعي حجة في العامية لوجوده في كردفان ولحياته اللصيقة بأهل البداوة، اقرأ مثلاً قصيدته:

لنفسك أنب..

ثلث الليل على حيلك قنب..

كون حاس ومقنب..

طول الليل لي النوم متجنب..

لنفسك أنب..

لبيها ولجّمها وضنّب..

لي نفسك أنب..

اخدم زرع التقوى وكدّب..

لوردك رتّب..

لا تكسل جوف الليل قوم تب..

وتتجلى البركة في الكم الهائل من المدائح النبوية التي فتح الله عليه بها رغم الظروف المحيطة به وكان رحمه الله كأنه يغرف من بحر لغزارة إنتاجه وتميّزه بالتجويد والإبداع فجمع بين الكم والنوع بصورة لم تتأتّ لغيره.

والحديث يطول وقد فصلته بأحسن من هذا في كتاب (السهل الممتنع) الذي مر ذكره آنفاً والذي تناوله أستاذنا النوراني الفاضلابي وعمر بشير وغيرهما في قناتينا في اليومين الماضيين جزاهم الله عن الشيخ وعني خيراً.

ومع أن المقام ليس مقام تبسط وطرفة ولكن التبسط كان عادة الشيخ وسجيته والطرافة كانت شيمة يتحف بها مسامريه ويرفع بها الكلفة عن زائريه ويلطّف بها كدّ الدروس ويذهب بها كدر النفوس، بل كانت طرفه وطرائفه دروساً وعبراً في ذاتها، ولما كانت حياة الشيخ كلها جداً واجتهاداً، ولما كان اتصال الخلق به كثيراً في ظعنه وإقامته كان لا بد من ورود الطرفة عفواً وقد يلجا إليها قصداً لحاجة في نفس يعقوب.

ومن طرائفه التي يحكيها وسمعت بعضها منه على الفضاء أنه حينما كان حديث عهد بقيادة السيارات كان يسأل المسافرين معه عن مدى إجادته للسواقة فكانوا يجاملونه، وذات يوم ركب معه أحد أعراب البادية ومن طبيعة الشيخ أنه يسير بسرعة فائقة فلما وصلوا سأل رفاقه في الرحلة عن رأيهم في سواقته فاختطف الأعرابي الإجابة بصراحة قائلاً: (والله يا الشيخ سماح مشيك في مسيدك). يعني أنك لا تحسن السواقة بل تحسن المشي على قدميك داخل مسيدك بين تلاميذك فقط. فضحك الشيخ من جرأة الأعرابي وصدقه.

وذات مرة غاصت أو غرّزت سيارته في الرمل، فدعا بعض الأعراب لمساعدته في إخراجها من الرمل ففعلوا، وكان أحدهم قال له أثناء دفع السيارة : (قول يا الشيخ البرعي) وهو لا يعرفه، فلما همّ بالتحرك قال له أحدهم: (أها أمش غطّسا تاني آب عنقرة).

وكان أحد الأعراب يسير خلف الشيخ ليلاً فلما دخلوا المضافة انقطع التيار الكهربائي فلم ير الأعرابي شيئاً وكان محتاجاً للحديث مع الشيخ فصاح: (العقير ده فات وين؟) يعني الشيخ، فقال له الشيخ: (ياهو دا العقير).

والعقير، هو المعقور كما نقول: (مقطوع الطاري ده وين؟) أو (الفَقُر ده وين؟) وهذه سماحة نفس نادرة من الشيخ وهي من أقوى الأدلة على لين الجانب وتحمل الأذى وعمق الفهم لطباع البشر. ومن ذلك أن أحد المتسولين لقيه في السوق ومدّ يده لمصافحته فأمسك به الشيخ وهزّه وكان صغير الجرم والحجم، فغضب وقال للشيخ: (أها أسّع بعد هزيتني دحين كان مُت وقالوا كتلو الشيخ ما شينة في حقك؟) فضحك الشيخ وطيّب خاطره وأجزل له العطاء.

ولعله كان يشرح مرة حكم النظر إلى الأجنبية ومرّ في بعض الحديث أن النظرة الأولى لـك والثانية عليك فلما فهم أحد الأعراب مقصود الحديث قال للشيخ: (أها كان كدي مِنْكَبِّرْهـا) يعـني ما دام الأمر كذلك فسيطيل النظرة الأولى ويكبّرها مادامت مباحة.

ومن الطرائف التي تدل على عظيم أخلاق الشيخ أن أعرابياً مـستعجلاً أراد مقابلـة الشيخ في أسرع فرصة فتصيد أول سانحة حين رأى الشيخ يسير وحـده نحـو إحـدى الغـرف فأسرع خلفه وكانت تلك الغرفة هي دورة المياه – أكـرمكم الله – وعنـدما وصـل الـشيخ للباب زاحمه الأعرابي عنده وهمّ بالدخول معه، فسأله الشيخ عن مـراده فقـال لـه: (عنـدي معاك كلمتين)، فأفاده الشيخ أن هذا المكان لا ينبغي أن يدخل فيه اثنان في وقت واحد، فقال الأعرابي للشيخ: (وأنا ذاتي كلامي ما كتير)، فأدرك الشيخ أن الرجل لا يعـرف دورة الميـاه ولم يرها من قبل فجلس معه بالقرب من ذلك المكان وجعل يستمع إليه حتى أكمل حديثـه ثم ودعه وانصرف مسروراً.

لقد كان الشيخ قدوة وأسوة في كل شيء حتى في الموت الذي اختطفه فقـد اختطـف قبل ذلك عدداً من أبنائه في حياته وكانوا زهرة الشباب ومثال الرجولـة وأنمـوذج الـصلاح فكان صبر الشيخ على أولئك الفقداء الأعزاء عظيماً وكان مثالاً في الاحتساب والتفـويض، ونحن لا نملك إلا الإذعان لأمر الله والتأسي بصبر الشيخ عليه رحمة الله.

ربّ إنه كان نافعاً لخلقك وأنت تحب النافع لخلقك فانفعه بما قدّم وانفع ذريته وأهله بما خلّف، وأحسن عزاءهم وعزاء الأمة فيه.

إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله

الرحيل الجماعي

الموت حق، وهو المسيرة الوحيدة التي لا تتوقف، ويبدو أن هذا العام هو عام الأحزان لكثيرين وأنا أحدهم. لقد كان حزني عظيماً لرحيل الشيخ البرعي والإدريسي وسبقهما الفكي عثمان شقيقي وخليفة والدي ولحقه أخي حقاً الحاج أحمد صالح وتبعهم فقد السودان والختمية وفقد أبناء عمومتي الشيخ بشير النفيدي ولم ينتظر بعدهم كثيراً الأستاذ الكبير علي التوم ثم ختمت الفاجعة بأستاذي البروفيسر الشيخ حسن الفاتح قريب الله ولأستاذيته قصة سأعود إليها. وكما لحق الإدريسي بالبرعي في ليلته لحق بالشيخ حسن في ليلته رائد الفكاهة الذي أدخل الابتسامة في كل بيت سوداني الأستاذ الفاضل سعيد رحمهم الله جميعاً وأحسن عزاءنا وعزاء ذويهم فيهم، فقد كانوا كلهم على اختلاف توجهاتهم أعلاماً في حقولهم وبدوراً في سماواتهم وأقماراً في أفلاكهم.

في يوليو من عام ثلاثة وتسعين (١٩٩٣م) قررت كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم مناقشة رسالتي للدكتوراه وكان موضوعها في النحو (إعراب القراءات السبع وعللها) وكان أستاذي المشرف على الرسالة البروفيسر الحبر يوسف نور الدايم بارك الله في أيامه يتحرى وصول البروفيسر عبدالله الطيب من لندن ليكون الممتحن الداخلي ولتأخر وصوله ولظروف إجازتي وضرورة عودتي إلى مقر عملي بالرياض وقع الاختيار على البروفيسر صلاح الدين المليك عليه رحمة الله ليكون ممتحناً داخلياً أما الممتحن الخارجي فقد كان متفقاً عليه وهو فقيدنا الراحل الشيخ البروفيسر حسن الفاتح قريب الله أجارنا الله في فقده وجبر كسر أسرته وأحبابه ومريديه. وكنت قد سجلت له زيارة مبكرة سلمته فيها الرسالة لقراءتها وكان وقتها خليفة ذا جلال ووقار وهيبة ولكن أعباء الخلافة لم تقطعه عن أعباء العلم فالرسالة واحدة. دخلنا عليه قبيل صلاة المغرب مع شقيقي كامل وابن أختي بدرالدين جلس معنا على الأرض وهشّ لنا وبشّ فأنشدنه شيئاً من براق الشريف يوسف

الهندي في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) فطرب وتحرك وسرَّ سروراً عظيماً، وحمّلنا السلام لوالدنا الخليفة الشريف الصديق الهندي الذي تربطه بالشيخ الفاتح قريب الله عليه رحمة الله وبآل أبي صالح صلة قديمة عامرة تمتد إلى أيام الشيخ قريب الله والشريف يوسف الهندي عليهما الرحمة والرضوان. وتشرفت بأن صحبته من أم درمان إلى الجامعة في يوم المناقشة وعدت به بعدها حسب توجيهه فسعدت بذلك مثل سعادتي بمناقشة رسالتي التي كانت في غاية الإمتاع والفائدة وقد كانت إشادته بها وتوصيته بطباعتها شهادة فوق شهادة الجامعة. خلع ا لشيخ حسن عباءة الكراسي الرسمية ولبس عباءة أوسع وأنفع منها فكان حقها وأهلها، ملأ مكانته حتى فاضت وتضاعف تلاميذه حتى كادوا لا يحصون.

عاش الشيخ حسن حياة حافلة بالإنجازات العلمية وهو يحمل صحيفة علمية ناصعة فقد حفظ القرآن بروايتي حفص عن عاصم والدوري عن أبي عمرو وتخرج بالبكالوريوس في جامعة القاهرة وجامعة أم درمان الإسلامية. وتوجها بدكتوراه الفلسفة من جامعة أدبنرة ببريطانيا. ثم بدأ مسيرة التعليم الجامعي وتدرج فيها حتى صار رئيساً لقسم الفلسفة ثم عميداً لكلية الآداب وعميداً لكلية الشريعة والعلوم الاجتماعية، فرئيساً لجامعة أم درمان الإسلامية. ورأس كثيراً من مؤسسات التعليم العالي، وكان قبل ذلك قد رأس إدارة معهد أم درمان العلمي الذي تحول في أيامنا هذه إلى جامعة القرآن والعلوم الإسلامية. وناقش وأشرف على ما يناهز المئة من رسائل الماجستير والدكتوراه. وهو عضو في ثلاثة مجامع لغوية في مصر وسوريا والسودان. وعضو في اتحاد الجامعات الإسلامية والعربية والإفريقية والعالمية. وعضو في الهيئة العليا لمجمع التقريب بين المذاهب. شارك في الدروس الحسنية الرمضانية التي يقيمها جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب بصحبة البروفيسر عبدالله الطيب الذي كانت تربطه به صلة طيبة وكان يدعوه دائماً لمناقشة رسائل الدكتوراه بجامعة الخرطوم ممتحناً خارجياً. منحته جمهورية مصر وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى كما منحته الدولة وسام العلم والفنون والآداب الذهبي

هذه المسيرة العلمية الحافلة كان نتاجها الحاضرة المستمرة والإسهام الجليل المتصل في الدعوة وإعمار المساجد وتشييد دور العلم. أما في مجال الكتابة والكتب فهذا هو الميدان الذي سخره الله له على الرغم من أعبائه العلمية والاجتماعية الجسام، فقد نشر نحواً من ثلاثين بحثاً في الصحف والمجلات الثقافية والدوريات العلمية المحكمة وذكر أن كتبه ومصنفاته تربو على المائة منها: المفهوم الإسلامي للتربية، والدعوة إلى الإسلام، ودور الشباب في تعزيز المرتكزات الدينية، والسلام العالمي في ضوء الإسلام.

لكن أمتع ما قرأته له هو كتابه الذي سماه (السودان دار الهجرتين الأولى والثانية للصحابة) وهو بحث عميق يلتقي فيه مع المرحوم البروفيسر عبدالله الطيب في كثير من القضايا والمفاهيم.

ذهب في هذا الكتاب إلى أن السودان هو مهد البشرية ومهد الحضارة وأن لفظة الحبشة التي وردت في الآثار الإسلامية الأولى لم يكن مقصوداً بها إلا أرض السودان المعاصرة. وجعل عدداً من الصحابة والصحابيات ممن وردوا بلقب حبشي أو حبشية هم من سوداننا المعروف منهم الحبشي الذي أدلاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قبره والحبشي الممسك بخطام ناقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما في (الإصابة في تمييز الصحابة). ومنهم نبعة الحبشية جارية أم هانئ ومنهم فضة النوبية التي كانت تخدم الرسول صلى الله عليه وسلم كما في (الإصابة). وجعل السودان هو مجمع البحرين الذي التقى فيه موسى (عليه السلام) بالرجل الصالح وهو بلد هاجر وقاطورا النوبيتين زوجتي سيدنا إبراهيم (عليه السلام). وهو بلد يزيد بن حبيب الدنقلاوي أستاذ الليث بن سعد. بل ذهب إلى ترجيح أن سوبا كانت مسكن الصحابة أثناء هجرتهم وإقامتهم بالسودان وذكر أسماء المهاجرين من الصحابة إلى السودان والمولودين فيه والمدفونين بترابه بأسمائهم وأعدادهم إلى غير ذلك. واستعان على كل ذلك بما ورد في أمهات كتب السيرة والتاريخ والأدب. وعوّل على الجاحظ والطبري وابن خرداذبه والمسعودي وابن النديم وابن حوقل وابن حزم والقلقشندي

وياقوت الحموي والمقريزي وابن تغري بردي وغيرهم بما يدل على اطلاع عظيم وتبحر في كتب السابقين.

واستفدت من هذا الكتاب في توثيق كلمة كان اعتمادي فيها على لسان العرب وهي كلمة (شيوم) بمعنى (آمنين)، والتي اشتق منها السودانيون الفعل (شويم) إذا سار سيراً آمنا فيه شَوْقٌ وَتَوْقٌ (شويم شايل الجدايه) أو (العاشقين في كل يوم على الرسول عابين شيوم). وقد ذكر الخبر الذي أورده صاحب الروض الأُنُف عن ابن هشام وهو قول النجاشي للصحابة (اذهبوا فأنتم شيوم (أي: آمنون) بأرضي من سبكم غرم وما أحبّ أن لي دبراً (جبلاً) من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم). وهو كتاب فيه جهد عظيم وتوثيق صبور لكن فيه كثيراً من الأمور المدهشة والمثيرة التي تحتاج إلى زيادة بحث وإعادة نظر وفضل تعمق.

سار الشيخ حسن على منهج والده في تبني الأساليب الجاذبة للشباب، فقد كان الشيخ قريب الله عليه رحمة الله ورضوانه رغم ما عرف عنه من حزم وجد صاحب روح شفافة وذوق عال؛ أشعاره تفيض بالرقة ومن طرائف ما يحكى عنه أنه كان مرة في هدأة الليل يذكر فبلغ مسامعه صوت شجي لفنان يغني في أحد أحياء أم درمان فلما أصبح الصباح سأل عنه وأرسل في طلبه. وكان هو الفنان كرومة (عوض الكريم عبدالله مختار) أحد رواد فن الحقيبة وهو مشهور معروف، فذكروا أن كرومة ضاقت به الأرض بما رحبت لما كان يعرفه ويسمع به من صرامة الشيخ وغضبه في الله، فدخل على الشيخ مضطرباً وجلاً فهدأ من روعه وسأله عن الكلمات التي كان يترنم بها الليلة البارحة وأصر عليه أن يؤديها بلحنها. فاطمأن كرومة وترنم بها في حضرة الشيخ وهي أغنيته المشهورة التي يقول مطلعها:

يا ليل أبقالي شاهد   على نار شوقي وظنوني

ولا أدري إن كان الشيخ قد ألف قصيدة نبوية بروايتها أم أنه استمع إليها من باب (يغني المغني وكل حد على هواه) فلكرومة ليل وللشيخ ليل وبين الليلين ما بين السماء والأرض. وكان هذا دأب حبيبه ومعاصره الشريف يوسف الهندي الذي كانت أيضاً تأتيه

أصوات المطربين في أحياء الخرطوم وهو بضاحية بري الشريف (اللاماب) وكان الزمان صافياً، شديد الهدوء قليل الضجيج، فكان ينادي بعض ملازميه يطلب منه تقري اللحن وحفظه فإذا أصبح صاغ فيه مدحة نبوية من ذلك أنه سمع ذات ليلة الفنان عبدالله الملحي أو إبراهيم عبدالجليل وهو يشدو برائعة الحقيبة:

ينوحن لي حمامات حمن عيني منامات بريدن شوقي لي لماتن

فأنشأ قصيدته النبوية:

بروق الروضة بي ذاتن سرت في قلبي لوعاتن حديثاً يحي أمواتن

فانظر الفرق وتأمل. وقد فتحوا بذلك الطريق أمام مدرسة مزدهرة بهذا الضرب من المسايرة للحقيبة فتولاه الشيخ الصَّابونابي الذي ما كاد يترك لحناً من ألحان الحقيبة إلا فَرَّغَهُ وألبسه ألفاظ المديح النبوي ثم تبعه الشيخ هاشم الطيبي ولحقهم الشيخ عبدالرحيم البرعي الكردفاني ولم يكونوا وحدهم ولكنهم حازوا قصب السبق في ذلك رحمهم الله جميعاً وأحسن إليهم.

وما تزال الإشكالية قائمة: هل أخذ الملاحون ألحان الغناء أم أخذ المغنون ألحان المديح، ويجزم الفنان عوض شمبات بأن من قال إن ألحان المديح أخذت من الغناء كذاب. ورد ذلك في الكتاب النفيس الذي زين به أستاذنا الدكتور دفش هوامش الأحد الماضي (الغناء والموسيقى في السودان) للباحث الأصيل الأستاذ معاوية يس ولنا معه وقفة إن شاء الله.

ذكرت كل ذلك تثميناً للمنهج السهل المحبوب الذي سار به الشيخ حسن في تليين القلوب التي عصفت بها رياح العولمة وأضرابها، فقد كان الرجل عليه رحمة الله كتاباً مفتوحاً وكان مدرسة متحركة وعيادة متجولة وكان أمة وحده وحق لنا أن نقول كما قال الأول: (وما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ) ولكنا نتفاءل ونقول إن بنيان قومه لن يتهدم لأن الجذور ضاربة في أعماق الثرى. أحسن الله فقد الأمة فيه وأنزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين ووفق إخوته وأبناءه لترسم خطاه والسير على دربه ورحم أموات المسلمين أجمعين ورحمنا إذا ما صرنا إلى ما صاروا إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تنويه:

بعد أن أرسلت مقالة مختارات الطيب صالح للصحيفة تبين لي أن بها فوائت ليتني تركتها لفطنة القارئ فاتصلت بالإخوة فأصلحوا خطأين وأخذوا الثالث (ضربية) فبدل أن يضيفوا ياءً لكلمة (الجاهلين) قلبوها واواً أظنه هو (الواو الضَّكري) سامحهم الله.

الفقد الفادح ويُتمُ الكبار

ما تزال الأقدار تضيّق علينا الخناق وتُحكم علينا قيود اليُتم وتضرب حولنا أسوار العزلة.. كتبت علينا الغربة فعشنا ظمأ الإبل الغابّة إلى النهل من معين أعلام تراثنا؛ فلما كتبت لنا العودة وجدنا الدار خاوية على عروشها أو تكاد. بدأنا ونحن في الغربة نستعيض عن بعض ما افتقدناه من الراحل المقيم البروفسير عبد الله الطيب في بعض اللقاءات هنا وهناك.. ولكنه رحل وحين بدأنا التفكير في العودة قلنا ننهل من مناهل البروفسير عون الشريف قاسم ولكنه رحل قبل أن نعود، ولما عدنا فرحنا بالطيب محمد الطيب ولكن سبقتنا إليه جياد القدر الأصيلة التي لا تكبو فسبحان الباقي الدائم.

إن فقد الأبِ والأم ضرب من اليتم يتضاءل ويذوب ببلوغ الرشد والنُّضج ولكن ضرباً آخر من الفقد واليتم يزيده الرشد فداحةً وهو فقد (أبِ الروح).. وأبوة هؤلاء الفحول الأعلام وأمثالهم لا تعوّض وفراغهم لا يسد وحاجة أمثالنا إليهم لا تنقضي...

وقديماً أحسّ شاعر الجاهلية امرؤ القيس بالفقد والفاجعة وأيقن أنّ الموت لا يغادر عظيماً ولا فطيماً وأدرك أن صروف الدهر لا تغفل عن جليل أو حقير فقال:

أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الخير حُجر ذي القباب

أرجّي من صروف الدهر ليناً ولم تغفل عن الصمّ الصّلاب

فجاوبه في آخر الدنيا وطرف الأرض على تطاول الزمن وتباعد الشقة، جاوبه شاعر البطانة الحاردلو قائلاً:

يا طيراً تطير سلم على القافات وقول ليهن ابو فاطنه المنقّل مات

الموت مو بدع ما يفرحوا الشمات وقول ليهن رسول الله المكرم مات

من من السودانيين لا يعرف الطيب محمد الطيب..خصوصاً حملة وجع الثقافة وسدنة همّ التراث.. الطيب الذي قدم الصور الشعبية بذاكرة تختزن السودان كله وبحضور ولباقة تحتضن أهل السودان أجمعين.. يصدّق ذلك قول البروفسير عبد الله الطيب – جرحنا الدامي –

الذي أوصاني في رسالته النفيسة التي زينت بها الطبعة الثانية من كتابي (عادات سودانية) أوصاني رحمه الله بالرجوع والاتصال بالطيب محمد الطيب قائلاً عنه: (فإن له بعادات أهل السودان وأشعارهم الوطنية معرفة واسعة حتى أنغام أناشيدهم يحسن أداءها. وله بالبجاة (البجة) دراية ورواية، ومع ذلك لم يغب عنه – رواية ومكافحة – كثير من أدب غرب السودان من كردفان إلى دارفور..) فهذه شهادة ناهيك بها على معرفة أدبِ أهل السودان كلهم، فإن شهد له بأنه يحسن معرفة أدب هذه الأصقاع النائية فهو بمعرفة تراث أهله في الشمال أعرف وما ترك شيئاً في تراث أهل الوسط وهو الذي يمثل مجموع التراث أو قاسمه المشترك الأعظم. ولايكاد يتحدث أحد في تراث أهل السودان فيتجاوز الطيب محمد الطيب.

من من السودانيين لا يعرف الطيب محمد الطيب الذي كتب عن الخلاوي وكأنه أحد شيوخها، وكتب عن الأنادي كأنه أحد مرتاديها وكتب عن المشايخ وكأنه أحد تلاميذهم.

من من الباحثين يمتلك ذاكرة الطيب وحسن أدائه الممزوج بعشق التراث وهو مضرب المثل في ذلك حتى إن أستاذنا الطيب صالح بارك الله في أيامه يذكره دائماً بالخير وحين قدم لكتابي (بين امرئ القيس والحاردلو) بالغ وضمّني – ولا أستحق – إلى الطيب محمد الطيب والفرجوني اللذين ضرب بهما المثل في عشق الشعر السوداني (الدوبيت) وجودة حفظه وحسن روايته .. وما أنا بين هؤلاء الفحول الأعلام القمم إلا كالعشب في أصول نخلات طوال. رحم الله ميّتهم وبارك في أيام حيّهم.

تحدث الناس عن عشق الطيب للتراث وعصاميته في تحصيل كنوزه وبراعته في استخراج نوادره ومهارته في عرض جواهره ورحلته وهو يجوب الآفاق لملاقاة أهله ومشافهتهم وإبحاره الطويل الصبور في مناهله ومجاهله ومصادره يلبس المخيط والمرقوع والمقطوع ولايبالي لأنه ليس في طريقه إلى حفل ولكنه في طريقه إلى حقل.. حقل من حقول المعرفة .. هذا بعض ما قالوه ولكنه روى لي قصة هي أدل من كل ما قالوه على جريان حب التراث في عروقه وسريانه في دمه ومخالطته أمشاج نفسه. قال لي إنه سكن في بري الشريف في أواخر السبعينات تقريباً نحو سبع سنوات مستأجراً بيت السيدة ميمونة بنت الشريف

يوسف الهندي وهو يأمل طيلة هذه السنوات السبع أن يقف على كتاب الشريف يوسف النادر المرقوم بتاج الزمان في تاريخ السودان - وهو مخطوط نفيس يقع في عشرة أجزاء في تاريخ السودان وجغرافيته وثقافته وعاداته وتقاليده وأنسابه وقبائله - اطلع عليه الأستاذ محمد عبد الرحيم صاحب (نفثات اليراع) في الثلاثينيات وأثنى عليه، وقرظه عرفات محمد عبد الله وعشري وتجيلة واندهش كل من وقف عليه.. وما يزال المخطوط بكراً حصاناً مصونة لم تمتد إليها يد لامس. فرحل الطيب عليه رحمة الله من بري بغصته على الكتاب بعد أن تغزل فيه فقط ولمح شيئاً يسيراً من مفاتنه. أليس هذا هو العشق والوله والغرام بالتراث إلى حد الهيام.. الحد الذي يجعلك تجاور قوماً سبع سنوات لتحصل على بغيتك .. ولكن لعلّ لهم عذراً وأنت تلوم.. فقد كان الشريف شجاعاً وضع في هذا السفر الضخم كل ما عرفه وما بلغ مسامعه من أخبار أهل السودان فأوردها بصدق الباحث وأمانة العالم ثم مضت الأيام وزوّر الناس التاريخ وتخشى الأسرة الهندية الكريمة مما عسى أن يفجع بعض الناس مما فيه من صواعق وفواجع وفظائع.. فآثروا أن يبقوه رهين خزائنهم وحبيسها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.. ذكرت ذلك من باب التذكير بحرصه على نفائس التراث ورأيه في تحصيلها عليه رحمة الله..

ومما يدخل في سياق بحثه الدائم وهمّه المتصل بالتراث أنني دخلت عليه قبل أشهر في داره بأم درمان، وما اطمأنّ المجلس ولا أخذنا مجالسنا كما ينبغي حتى بادرني قائلاً : ود حلال والله.. أنا لي مدة بفكّر في أبيار علي (يعني الميقات المكاني المعروف بناحية المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) الناس بنسبوها للسلطان علي دينار.. لكن القريشي مادح الشايقية قال:

من أبيار علي اندليتو شفت النور شلع فوق بيتو
يا حجاجنا جملة بكيتو جدولن العيون حتيتو

واستطرد قائلاً: القريشي معاصر حاج الملحي وهم الاتنين أقدم من السلطان علي دينار.. والله اندهشت من هذه المنهجية العلمية البارعة وروح المؤرخ المتأصلة في الرجل.. حتى ذكرني بابن خالويه الذي قال: أنا منذ سبعين سنة أبحث عن (الجِرَشّى) تخيلوا إنساناً يعلق كلمة في ذهنه سبعين سنة حقيقة لا مجازاً إلى أن وجد معناها والشاهد عليها في قول الشاعر :

بكى جزعاً من أن يموت وأجهشت إليه الجِرَشَّى وارمَعَلّ خَنينُها

و الجِرَشَّى هي النفس، وارمعلّ: علا وارتفع، والخنين: صوت من الخياشيم.

قلت للأستاذ عليه رحمة الله وأنا في غاية الاستغراب للمصادفة العجيبة: دي مكاشفة ولا شنو؟ البارح والله وأنا أقرأ في كتابِ السمهودي (الوفا بأخبار مدينة المصطفى) فوجدته يذكر هذه الأبيار وسبب تسميتها وأن الأصل في ذلك أن سيدنا علياً قد وجد بها جِنّاً فقاتلهم وطردهم وهو متوقف في هذا الخبر، ولكن المهم في الأمر أن السمهودي مؤلف هذا الكتاب توفي في عام ٩١١هـ فهو بلا شك أقدم من القريشي وحاج الملحي وعلي دينار.. فقال لي: ريحتني والله، وقد أوردت هذا المجلس مع الأستاذ الطيب محمد الطيب في سهرة من سهرات برنامج (في رياض المديح النبوي) في إذاعة الكوثر بتفاصيله قبل أشهر... داعياً للأستاذ الطيب ومترحماً على البروفسير عون وما كنت أعلم أنه في طريقه إليه بهذه السرعة في هذا الطريق الذي لابد منه.. وأذكر هنا أيضاً بأن السلطان علي دينار كان عظيماً في موضعه وقد كانت له مآثر ومفاخر لا تحصى منها الكسوة السنوية للكعبة ومنها الصّرة التي تجمع من أموال الملوك والرعية لأهل الحرمين ومنها المحمل السنوي؛ هذا سوى مآثره وكرمه الذائع ولكن نسبة أبيار الميقات إليه لا تصحّ.. أما (القُلّة) التي اتخذت منها المدينة النبوية كنيتها عند السودانيين فقالوا (حاج أم قُلّة) فهي ثابتة لأهل السودان وهي تاج من الذهب الخالص حمله الشيخ عجيب المانجلك وتوّج به أعلى قبة الرسول صلى الله عليه وسلم في

أواخر القرن العاشر الهجري وذكره بعض شعراء العبدلاب في قوله عن الشيخ عجيب ملك العبدلاب الفخم الضخم:

وآثـــــاره في يثرب خير شــاهــــد على الدهر تبقى والسنين الضواحك

وفي قبــة المختـــــار خلّــد ذكـــــره بتــاج مــن الإبريــز حلــو السبائك

والطيب عليه رحمة الله فوق علمه وصبره ومصابرته وعصاميته أوتي قلباً يسع الجميع.. كل من يعرف الطيب يحس أنه أول المفجوعين به فهو من طراز البشر الذين منحهم الله رقة ولطفا وحميمية تجعل كل من تجمعه به المعرفة يخيل إليه أنه يعرفه أكثر من غيره وأنه أقرب الناس من قلب الطيب.

أدخلتني المصادفة المحضة مكتب رئيس جامعة الرباط البروفسير حسن أبوعايشة فقابلني مدير مكتبه العقيد الأنصاري بالتعزية في الطيب.. قلت له: الطيب محمد الطيب؟ قال: نعم.. كان والله كالصاعقة علي، فقد كنت زرته بالسلاح الطبي قبل ثلاثة أو أربعة أيام من رحيله؟؟ واستبشرت بأنه بدأ يتكلم ويميز، وسألته: عرفتني؟ قال لي: (آي .. عرفتك) هكذا .. لكن الحاجة فاطمة شريكة حياته الساهرة عليه والملازمة لحالته والعاتبة على التقصير في حقه أفادتني بأنه ما يزال فاقد التمييز.. خرجت ألهج بالدعاء له وأحس بالفقد ولكني أرجو رحمة الله.. أنا شخصياً لا أستطيع الوفاء بحق هؤلاء الأعلام الفحول - الطيب محمد الطيب وعبد الله الطيب والطيب صالح ألا ترى اشتراكهم في هذا الطيِّب - إن لكل منهم عليّ حقاً فقد أعطوني فوق حقي .. هاتفت الراحل الأستاذ الطيب قبل أعوام من الرياض وذلك بعد صدور كتابي (عادات سودانية) فقال لي: أنا جاتني عمرة ماشي الحجاز لكن عايز أحولها لزيارة عشان أزورك في محلك .. ووفى بوعده وما أروع الوفاء - هذه الكلمة التي تنوء الجبال بحمل معناها- فقضت مدينة الرياض في ضيافته أياماً لا تنسى، مرة في داري المتواضعة ومرة في دار البروفسير أبوعايشة ومرة بالسفارة. وقد أسمعناه في إحدى الليالى شيئاً من مدايح الشريف يوسف .. وفي تلك الليلة عرفت شغف الشيخ الأستاذ

أبوعايشة بالمديح النبوي، واكتشفت أن البروفسير مختار عجوبة كغيرة من السودانيين فيه بذرة صوفية كامنة فقد علق على تلك الليلة وأنه حلّق فيها في آفاق عجيبة وطالبنا بألاّ نفوت عليه مثل هذه الجلسات على قلتها في الرياض.

وأنا هنا أعزيه - عجوبة- فهو من ركائز تراثنا الاجتماعي. أما أبوعايشة فقد تركته يوم سماعه بالخبر في حالة يشفق عليه منها.. فقد كان غائباً عن البلاد مدّة.. قال لي : الليلة قلت للحاجة في المساء نمشي نزور الطيب) فكان القدر أسرع منهما أيضاً.. وبينه وبين الطيب وأسرته وُدٌّ قديم وأواصر.

حين جاء الطيب إلى الرياض حمل إليّ نسخة من كتابه (المسيد) فوجدها عندي وعليها تعليقات فأخذ نسختي وأعطاني التي معه.. وقلت له أنت بزيارتك هذه قلدتني جميل العمر وطوقتني بدين يصعب على مثلي سداده ولكني أصارحك بأنني لست بالقدر الذي في نفسك.. فضحك وقال لي: لا تتواضع إلى هذا الحدّ يسيء فهمك الذين لا يعرفون أقدار الرجال وحكى لي قصة صرت أحكيها في كل مناسبة وهي أن شاباً ظلمه أهل أبيه في ميراث فقالت له أمه: (يا ولدي الناس البكتبو العرضحالات جنب المحكمة تحت الشدر ديل شوف لك واحد منهم يكتب لك مكتوب دخلو على القاضي يمكن ربنا ينصرك على أهلك ديل).. فذهب الصبي إلى أحد كتاب العرضحالات وشرح له المظلمة فأجلسه بالقرب منه و(تكل سفّتو) وبدأ يكتب، فلما فرغ دعا الشاب وبدأ يقرأ له ما كتب فاستغرق الصبي في البكاء فسأله العرضحالجي : يا ولدي بتبكي مالك؟ فقال له: يا عمي والله أنا ما كنت عارف نفسي مظلوم قدر كدي. رحم الله الطيب فقد كان كنزاً من التراث يسعى على قدمين.

وكان كبير القلب أباً بكل معاني الأبوة.. سألني مرة بعد عودتي إلى السودان: أها ساكن وين - أنا عارفك شيخ عرب ولاحقاك حرفة الأدب. قلت له: والله من ناحية مادية أسأل الله أن أرجع إليه يوم القيامة خالياً من الذنوب والآثام مثلما رجعت من السعودية إلى وطني.. أما الممتلكات فوالله ليس لي في الخرطوم إلاّ الشبر الضيق إذا تمت الأيام فيها ولا

أرجو أن أقبر بها رغم أن قبر أبي فيها وقد أوصى بأن يجاور شيوخه ببري.. استضحك الأستاذ وردّ عليّ بأن هذه سلاطة كواهلة.. ثم عرض عليّ السكن معه في إحدى شققه العلوية واستطرد قائلاً: ما تخاف ولا تتردد بسكنك بي حقك.. مش ناس الجامعة بدوك بدل سكن، وعشان أثبت ليك الجدية الشقة عايزة صيانة تعال نفّذ الصيانة بمعرفتك ونتحاسب.. كان والله جاداً واستهوتني الفكرة جداً.وهل يرفض جوار الطيبين؟ وحكيت له قصة تراثية مشهورة على لسان الحيوان.. وهي أن فأراً أرسل أحد أولاده للكديس وقال ليه أبوي قاليك محلنا ده المطر غرقو وعايزين نجي نجاوركم.. فقال بخبث شديد : الله الله نحن بنابى جواركم ياوَدْ اب راساً حِلو؟؟ فضحك وقمت عنه بنية تنفيذ عرضه ورغبتي.. ثم حسبت الأمر بصورة واقعية فأنا أحب الرجل وسأستفيد كثيراً من جواره ولكن داره فيها خصوصية شديدة سأخترقها أنا ببيتي المفتوح أبداً فخشيت عليه من الإزعاج.. ثم مرت الأيام وسكنت في حي قريب منه علني أجد في القرب سلوى ولكن كان المرض أقوى منه وكانت المقادير أسرع منّا معاً.

وفي صيوان العزاء تجد السودان ممثلاً في المعزين.. ينتفي بينهم وجود المثل الفرنسي (مات كلب الكونت فمشى الكل في جنازته ومات الكونت فلم يمش أحد في جنازته) وهو مثل يضرب لعبيد العين وأصحاب النفاق الاجتماعي..

حمل جثمان الطيب على أكتاف أهل الخرطوم كلهم مثلما سيظل محمولاً في قلوب السودانيين كلهم.. وكان سرادق العزاء مجمعاً تستطيع أن تجد فيه كل من تريد بألوانهم الحسية والمعنوية.. دخل أحد المعزين وبعد أن قابل شقيق الراحل محمد وصهره مأمون والأستاذ أمين عبد المجيد قال: يا أخوانا ورونا الناس البعزوهم منو..فقال له أحد الحاضرين كان قريباً مني: (عزي كل الناس) وهذه حقيقة ذكرتني أحد المهندسين جاء يعزي في والدنا عليه رحمة الله فسأل أحد زملائه : نعزي منو؟ فقال له: أول ما تنزل من الزلط أرفع الفاتحة مع أي زول يقابلك...

والحقيقة أن الأستاذ الطيب هو فقد أهل السودان كلهم عاش أغبش مع الغبش وعاش وجيهاً مع الوجهاء وهو فقد الجميع قبل أهله والمكلومين فيه من أمثالنا من العايشين على فتات موائد التراث التي أعدها الطيب ورهطه الكرام.

وفي الختام أعتذر للقراء مرتين، مرة عن انشغالنا من الإطلالة علـيهم إلاّ في الـشديد القوي، فإذا كان حال الدنيا الموت فقد آمنا أن الانشغال الفظيـع هـو حـال أهـل الـسودان. والاعتذار الثاني عن الخصوصية التي تشوب بعض كتاباتنا فـنحن لا نكتـب في الـصحف بحوثاً علمية وإنما نسكب بعض مشاعر الأسى وهي ضرب من التأسي والمشاركة الوجدانية التي لا نشك أن النفوس الطيبة الكريمة تقبله وتشاركنا فيه.

اللهم ارحم الطيب محمد الطيب بأضعاف ما قدّم لوطنه وأمته وانفعه بإخلاصه وحسن نيته ونبل مقصده واجعل البركة في زو جته وذريته وأهله أجمعين وأحسن عزاء أهله وأمتـه فيـه وأخرج من رحم هذه الأمة الولود من يرفع الراية بعده وأجرنا في مصيبتنا.

الرجل الوطن

تحت وطأة الحمى التي ألزمتني الفراش منذ يومين اتصل ابني أبو بكر من جامعة الرباط يعزيني في الطيب صالح؟ والله لم أصدقه فخرجت أسحب ثياب الحمى فوجدت التلفزيون في "(كل الجمال)" وأي جمال بعد الطيب صالح؟ وتوجهت أتمايل نحو محلات الصحف فوجدتها خالية ربما أن الوفاة كانت بعد صدورها وما قطع شكي باليقين إلا رسالة موبايل وردتني من البروفيسور حسن أبو عائشة يعزيني فقطعت جهيزة ثم توالت الرسائل والهواتف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتحت وطأة الحمى ووطأة الحزن الذي عقد الألسنة وقطّع نياط القلوب وكسر الأقلام وأراق المداد، استميح صحيفة "(الرائد) السباقة وقراءها أن أعيد عليهم هذه الكلمة التي نشرت قبل أعوام في (إطلالة في عشق الوطن) بصحيفة الخرطوم بتاريخ ١٥ أبريل ٢٠٠٤م إلى أن نتماسك لنقول كلمة في حق الأديب الذي حمل السودان في حدقات كل كلمة خطّها ولن أوفيه أنا ولا غيري لأن الرجل كان أمةً وكان أكبر من الخيال.

الأخ الأديب الدكتور حسن أبشر لك ولقراء إطلالتك الممتعة التهنئة بالعودة الميمونة وإن وجدتم أن (جِرْمَنَا الدقيق) يسمح لنا بالتسلل عبر بابكم (الموارب) لنقول كلمة في حق أديب العرب والسودان الطيب صالح فذلك من حسن ظنكم وحسن حظنا.

وللناس فيما يعشقون مذاهب، والعشق أقوى ضروب الحب وهو الإفراط فيه، مأخوذ من البعير يلزم طروقة (ناقة) واحدة لا يحن إلى غيرها والناقة إذا اشتدت ضبعتها (شهوتها) قيل لها (عاشق) وهي في هذه الحالة تنهار ولا تقوى على الحركة ويقال أصابها (الهَوَس) ولا تعجب في ربط ذلك بالإبل فإن معظم ألفاظ اللغة إنما هي مأخوذة من صفاتها وأحوالها كالهيام والوله والتدلُّه والحنين والنتيجة والـمَجَّان ونحوها. والعشق ضروب أسماها الحب الإلهي وأدناها ما تعلق بالجسد. ولفرط تعلق السودانيين بالحبيب المصطفى (ص) يسمون أنفسهم عشاقاً فيتكرر هذا اللفظ باستفاضة في معجم المديح النبوي نحو قول ود

الهندي (العاشقين في كل يوم على الرسول عابين شيوم) و(العشاق حازمين جمالهم نحو منى وعرفات فالهم) وقول ود أب شريعة (للمحبوب في شروقو قوم بي ليل يا عشوقو ملجاي كاتلني شوقو).

وعشق الأرض والوطن من أصدق ألوان العشق حتى بالغ أحمد شوقي حين قال:

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي

وما نزاع الناس في الأرض وحدودها، أفراداً ودولاً، إلا دليل على تعلُّقهم بها مع أن نصيب الإنسان منها شبر يفقده بمرور الزمن وربما عاد ذلك إلى الحنين إلى الأصل الأول وهو التراب فإن ابتداء وجود الإنسان وانتهاء مصيره إليه (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى).

والناس يسمون الذهب (العشق) ولا أراه إلا لأنه أنفس أنواع المال وهم يقولون (إذا عشقت أعشق قمر) وهو قمة الجمال عندهم والعشق اسم للاتصال القوي بين الأشياء حتى السيارة فإننا حين (نُعَشِّقُها) فذلك يعني أن نجعل تروسها متشابكة بعضها ببعض وحفظ الله عون الشريف قاسم كما حفظ عاميتنا.

وكنت أظن أن السودانيين وحدهم هم الذين يعشقون الطيب صالح فإنهم يجمعون على ذلك أو يُلِمُّون! حتى وجدت شاعراً عراقياً كبيراً صاحب دواوين عديدة بديعة – بعث إليّ مشكوراً من استراليا بباقة منها – اسمه يحيى السماوي من سماوة أبي الطيب المتنبي هذا الشاعر العراقي (ختم) السودانيين و(عَقَبَهُمْ) في عشق الطيب صالح؛ ففي احتفائية الصحفيين الرياضيين بالأستاذ الطيب صالح بالرياض اعتلى السماوي المنصة في هيئة الراهب المتبتل وهو ينشد:

أيجارَى إذا أطلَّ الشِّهابُ
كيف يمشي مع الذهاب الإيابُ
أنا أدري بأنني مَحْضُ حَرْفٍ
يُتَهَجّى وأنتَ الكتابُ

ثم قال وددت أن أقول شعراً ولكن والله هذا الرجـل أخجـل قـافيتي فخـشيت أن أقول شعراً فأفضح عورتي. ثم قال أريد أن أقول شيئاً عـن رجـل يـسميه النـاس (الطيـب صالح) وأنا أسميه (الرجل الوطن والنخلة التي أصبحت بستاناً لوطنها والوطن الذي يمـشي على قدمين) لم يقل السماوي شعراً في تلك الليلة ولكنه كان نـاثراً يحلـق بجنـاحي شـاعر، فساقط درراً من النثر هي الشعر.

يسير يحيى السماوي في ركاب الطيب صالح كالتلميذ المطيـع والحـوار المريـد ويـردد بـأن الطيب صالح أكبر من حنجرته ويرى تكريم الناس للطيب صالح شرفاً لهم وتكريماً لأنفسهم أكثـر من كونه تكريماً للطيب. يعشق الطيب صالح ولكنه يحكي عن عشق الآخـرين العجيـب للطيـب فيروي قصة أحد العشاق زاره في داره باستراليا فوجد صورة للطيب صالح تزين جدار المنزل فأصـر ذلك الزائر على أن تلتقط له صورة تذكارية مع تلك الصورة على الجدار.

ويقودنا تبتل السماوي في عشق الطيب صـالح إلى تبتـل الطيـب نفـسه في عـشق الحاردلو، فالطيب صالح مثل عبد الله الطيب كلاهما ماهر وبارع في إدارة الدفة حتـى يعيـدا سفينة الحديث والحوار إلى مياه معشوقيهما الحاردلو وأبي الطيب.

خرج عبدالله الطيب – عليه شآبيب الرحمة – مرة ومعه طائفة مـن تلاميـذه، وهـم أساتذة فيهم زميلنا الأديب الدكتور الحسين النور – والرواية له – خرجوا لتـسجيل حلقـة في الإذاعة اتفقوا على موضوعها سلفاً وفي الطريق قال لتلاميذه الذين أعـدوا أنفـسهم لمـا اتفقوا عليه: رأيكم شنو نخلي الحلقة عن أبي الطيب؟ وقد كان. والطيب صـالح حـين يـثني عليه المعجبون يقشعر ويستغفر قال له أحد الشباب (والله يا أستاذ أنا بغيظني تواضعك ده) فقال (يا جماعة أنا حين أنظر إلى نفسي وأقارنها بأدبائنا من أمثال الحاردلو والفـراش وحـاج الملحي أجد نفسي لا أساوي شيئاً بينهم!!).

وقبل تلك الليلة بساعات وفي الوقـت الـضائع فلجـأني القـائمون علـى (عـرس الطيـب) بـأن اسمـي مـدرج في البرنـامج وأن علـيّ أن أشـارك بـنص شـعري فراوغـت و(تزاوغت) ولكن لا جدوى فلم أجد مطية أفره وأنجد من العامية السودانية الغنية السخية فقلت أبياتاً طالبني بعدها الإخوة في الجالية النوبية بـأن أحـضرها معـي مترجمـة في المـرات

القادمة وكان الأستاذ الكاتب الحسي الثائر أحمد علاء الدين أثناء إلقائي الأبيات يصفق بحرارة عجيبة رصدتها الكاميرا وفي نهاية الحفل سحبني سحباً إلى حضرة الأستاذ الطيب وقال له بلهجة محسية (يا أستاذ والله الدكتور ده قال قصيدة عظيم وجميل ورائع لكن والله أنا والعراقي ده – يعني الشاعر يحيى السماوي – ما فاهمين أي حاجة) ولعله أراد قولي:

محتاج عشان أكتب شعر في شيخنا عنوان الفكر
عِتْلاً مخوَّل من بُلام
وتَلباً غليد من ختُّو فوقو شبٌّ قام
وفرساً يجابِد في اللِّجام
وكيكاً يَنيص من شافني زام
ومُربيتاً أُمّاتا القُدَام
تيلاد أبو الطيب بجاويات همام
ديل كلهن يتناوبن زي البريد
كان ألحق الطيب وأجيب لي بيت قصيد
وعارف اللحوق شِيتاً بعيد
ده الطيب اليدّي العلال ما بنلحق علماً فريد(*)

***

محتاج عشان أكتب شعر في شيخنا سلطان الفكر
هبَّة دُعاش
ونسمة خريفاً في البطاين قالوا راش
وبَنَّة قُشوش مطورة محريب أو غَبَاش
وريحة بَرَمْ لي رويحتي تَدِّيها انتعاش
ونالاً وكِت جاهو الغَفَرْ
وهبَاهو في وقت السحر

(*) العتل: البعير القوي. مُخوَّل من بلام: ترك بلا لجام ولا قيد ليقوى. التلب: الجمل القوي. غليد: ضخم. الكيك: القوي. ينيص: يصدر صوتاً. المربيت: الناقة الشابة.

جـاب لـي روايحـاً كـالخُمَرْ

كـان سـايْ تـواتيني الفِكَـرْ

وأقـدر أجيـب بيـتين شـعر في شـيخنا مخـزون الفكـر[١]

يـا أخوانـا شـان أكتـب شـعر في شـيخنا قـاموس الفكـر

محتـاج شـجاعة أولاد فِتِـرْ

الوِرثـو دار خَـالُم نَعـيم القَطّعـو اضـنيهو الـترك علـشانْ يقِـر

محتـاج قلـب همبـاتي لابِـدْ في كِتِـر

وبطحـاني سـيفو مِعَلُّمِنّـو علـى الـبِتِر

وكـاهلي صـميم في الـدايرو تَـبْ مـا بِـنُّتِر

وأدروبِ جَنَـبْ شـوتالو جـاهز للـشَّتِر

ودينكـاوي حربتـو زايـدة فـوق الـراس شـبر

وركـابي مـن دَنْبُـو الفراسـة العنـدو ميراثـا حِكِـر

وفـوراوي مـن دينـار خِبِـرْ سِـهَمْ الكَبِـر

أو شـايقي مـن عثمـان عـرف دربِ الهَبِـر

ونوبـاوي عنـدو دِهـن كـتير ماخـد علـى الجـر والعَـصِرْ

شـان أقـدر أكتـب لـي شـعر

في الفوقـو هيبـة العـارفين لا نفخـة لا زُور لا كِبـر[٢]

***

(١) الدعاش: الهواء الذي يحمل نسيم التربة المبللة بماء المطر. البنة: الرائحة الزكية. قشوش: أعشاش. المحريب: نبات له رائحة طيبة. البرم: زهرة أشجار الطلح والسنط والسيال. النال: نبات طيب الرائحة. الغفر: الشتاء.

(٢) أولاد فِتِر: قطاع طرق شجعان ومشاهير. نعيم: همباتي رباطابي مشهور ... والهمباتي هو الشاطر والنَّهّاض وقاطع الطريق. لابد: مختفي. كتر: شجر شائك. البتر: القطع. شوتال: خنجر. دَنْبُو: أحد فرسان قبيلة الركابية التي ينتمي إليها الطيب صالح. حِكِر: محتكرة. الكبر القطع. عثمان: قاطع طريق شايقي مشهور. الهبر: النهب. الكِبَر: العجب والتكبُّر.

يـــــــستاهل الطيـــــــب دواويـــــــن مـــــــن شـــــعر
مكتوبــــــــــــــة بالـــــــــــــدُّر والتِّبَـــــــــــــرْ
أقلامهـــا بـــي عـــدد الـــدروت عـــدد الهَـــشَاب في كردفـــان
عـــــــدد النخيــــــــل والأنـــــــدرابِ والسيـــــــسبان
عـــدد الـــسِّدِر عـــدد الـــسُّنط عـــدد الطلـــح حطـــب الـــدخان
عـــدد الحَـــرَاز يمكـــن يجـــي يـــصالح المطـــر مـــا نحـــن في جـــو الـــسلام
ومـــــــــــدادها نيلينّـــــــــــــا العِظـــــــــــام
الأزرق الجـــــابِ الكِليـــــــت يـــــوم هـــــاج وقـــــام
والأبـــيض أب صـــدراً وســـيع والأتـــبراوي الـــصيدو حـــام
والأحمـــــــــــــر أب زبـــــــــــــداً رُكـــــــــــام
والقـــــــاش وســـــــــيتيت بَـــــــا سَـــــــلاَم
وبحـــــر العـــــرب الطّـــــابَقْ الـــــسوباط وقـــــام
يـــــبقن مـــــداد للعـــــايز أكتـــــب فيـــــك شـــــعر
ومـــــــــا يلحقـــــــــن حـــــــــد الـــــــــشُّكِر (*)

***

يـــــــستاهل الطيـــــــب دواويـــــــن ننـــــــشُرا
أوراقـــا بـــي مـــسلحة ســـهول ســـودانا يابِـــسَا وأخـــضرا
عطـــــشانة كـــــان رَويانـــــه كـــــان لاحْقَـــــه الـــــتَرَّا
أحرُفْنـــــــــــا فوقَـــــــــــا نَـــــــــــسَطِّرا
فـــــــوق القـــــــرا فنـــــــون الـــــــورى
جـــــــــلمع تواضـــــــــع وفنجـــــــــره

(*) الدروت والهشاب والأندراب: أشجار معروفة في البيئة السودانية. الكليت: حطب تستخدمه نساء السودان مع الطلح والشاف في شكل حمام بخار (الدخان).

ده الطيـــــب الحـــــايز نهايـــــة المفخـــــره

لا اتغــــــابى ناســــــو ولا افــــــترى

لا صَـــــــــرَّ وشُـــــــــو ولا ازدرى

حاشـــــــاه شُـــــــغْل الفَنْتَـــــــرةْ(1)

****

وهي طويلة وكنت قلت في أولها:

ده الطيـــــب الطـــــابتبو سُـــــمعتنا وفـــــشت

الطيـــــب الـــــبي طيبـــــو ســـــيرتنا انتـــــشت

الطيـــب (الـــدِّيَرْتنا) مـــاجابـــت نظـــيرو مـــن نـــشت

ده الطبعـــــو حـــــالي ومـــــا نفـــــور

كتَـــــل الأنـــــا ودفـــــن الغُـــــرور

أخلاقـــــو بقْيَـــــتْ ليهـــــو ســـــور

مـــــن الخَـــــلال الزَّائفـــــه

مـــــولاه مـــــن كـــــلْ شـــــين عَفَـــــا

ده الزَّيـــــو كـــــان بالقندفـــــه

مَـــــسَّخْ علينـــــا المعرفـــــة(2)

رحم الله الطيِّب الصالح الذي عرف الناس عنه الكثير الكثير، ولكِنَّا عرفنا عنه ما يثلج الصدر ويدعو للفخر... وسيتوالى حديثنا عنه إن شاء الله. اللهم أحسن إليه وآجرنا فيه ولا حول ولا قوة إلا بك.

(1) التُّرا: الثرى وهو التراب الليّن. الفنجرة: الظَّرف والأناقة. العنترة: الازدراء.

(2) فشت: شاعت وانتشرت. الديرة: البلد. القندفه: الفهلوه والادعاء.

الشريف زين العابدين الهندي

طهر وعفاف ووطنية*

الحمد لله القائل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر] وصلى الله على نبيه القائل : (إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب) ، ورحم الله القائل :

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد

الموت نقاد وفي كفه ... جواهر يختار منها الجياد

ودع السودانيون الراحل المقيم الشريف زين العابدين الهندي وداع أهل الوفاء للأوفياء في يوم صوم قائظ لم يمنع أهل الود من أن يكونوا في ركب الود يتقدمهم رأس الدولة ونوابه ووزراؤه ومن ورائهم جموع العارفين لأفضال الراحل في موكب وموقف لن ينساهما أهل الراحل ومحبوه. كان الجميع أهل فقد ومصيبة وكان الكل يعزي الكل ثم احتشد الناس مساء وكلهم منذ أول يوم متفقون على أن الكل جاء ليتقبل العزاء لا ليعزي. وقد أعاد التاريخ نفسه في ليلة التأبين التي جاءت على عجل ولكنها كانت تليق بالراحل وتشبه شمائل أهل السودان.

أعاد التاريخ نفسه في هذا الموقع مراراً، فمن هذا البيت خرج أبو الوطنية الشريف يوسف الهندي ورضيع الوطنية منه ابنه الشريف حسين وكلاهما شُيِّع كما شيع الزين وكلاهما أُبّن كما أبّن الزين. في ليلة تأبين الشريف الكبير (١٩٤٢م) وقف الشيخ عبد الله البنا منشداً قصيدته الدالية العصماء :

أقم لرجالِ القُطْرِ ما شئت من حمد ... وقف عند أسباب القرابات والوُدِّ

إلى أن قال فيها عن الشريف محمد الأمين جد الراحل المقيم :

أبوك سمير الله يتلو كتابه ... وينشر نور الوَحْي في الغَوْر والنجد

* جريدة الخرطوم- زوايا خاصة - ٢١ أكتوبر ٢٠٠٦م.

ويُمْلــي فتتلــوه القلــوبُ خواشــعاً   ويـدعو فَيُرْجَـى في الجمـاهير والحـشد

هل ترى كانت مصادفة أن يقف الشاعر الفرجوني أمس الموقف نفسه أم أنها الصلات الأبدية والروابط الأزلية التي تربط هذه الأسر الكريمة التي جعلت الجد يمدح الجد والحفيد يؤبن الحفيد .

لفت نظري في ذلك التأبين المهيب الصادق اتفاق المتحدثين جميعاً على صفات في الراحل كأنهم تواصوا عليها ولكنه التواتر الذي يدل على الصدق . ذكروا زهده وعفافه وشجاعته وثباته على مواقفه وجرأته في الحق وإعلانه لقناعاته، وذكروا طهره ونبله ونظافة يده وسعة صدره ووطنيته وتجافيه عن الدنيا وازوراره عن المال والجاه والمناصب وذكروا أدبه وإبداعه وخطابته وذرابته وغير ذلك. ولست في مقام تزكية الشريف ولكن قبل أن أدلف إلى محطات صغيرة خاصة بيني وبين أخواني وبين الراحل أحب الإشارة إلى جانب تأصيلي أُذكِّر فيه القارئ ببعض مصادر هذا الإرث الفاخر الذي تسربل به الشريف الراحل.

كانت قناعة الشريف الزين هي قول الشاعر :

إن الفتـــى مـــن يقـــول هـــا أنـــذا   لـيس الفتـى مـن يقـول كـان أبـي

ولكن هذا الفهم لم يكن يمنعه من العل والنهل من منابع العطاء الثرة في أسرته وفي غيرها . فإن سألت عن حب الوطن فللشريف في كل شبر فيه أصرة وقرابة وذكرى، فهو سليل الأسرة الحجازية التي وفدت إلى السودان في القرن التاسع الهجري وظلت أكثر من ستة قرون عملها هو القرآن وعلومه لم يشتغلوا بغير ذلك وانداحوا في السودان من منطقة السروراب والجزيرة مرنات وكمر ود عبود إلى وسط الجزيرة في منطقة الغوبية بأربجي (وهنا وعلى جدهم محمد الهندى نزل الشيخ تاج الدين البهاري وسلك الناس الطريق القادري كما في طبقات ود ضيف الله) وود هجا وود المنسي إلى جنوب الجزيرة في منطقة ود الهندي والقضيضيم والعقدة وسنار ثم إلى شرق الجزيرة في حلة الشريف يعقوب ونوارة وفي ديار العقليين بين الرهد والدندر إلى قرية راشد قريبا من القضارف وحتى أصوصة في

حدود الحبشة. وإذا أضفت إلى ذلك خريطة انتشار الأسرة الحديثة لم تجد جهة من السودان ليس لها فيها رحم، أليس طبيعياً أن يحب الراحل هذا الوطن الذي له في كل صقع فيه آصرة ووشيجة .

وفي ليلة تأبين الشريف الأبِ (١٩٤٢م) وقف الشاعر محمد المهدي المجذوب يثني على هذه الأسرة فقال : **ارو لي يا نحاس بعض الشجون إنها في عزيفك المجنون ...**

إلى أن قال :

رد آبــــاؤك الهـــــداة إلى القــــرآن	**نــــوراً مـــن البيــــان الرصــــين**
أنــت مــن معــشر تَخِـفُّ المحاريــب	**إليهم في رهبــــــة وفتــــــون**
مــنهم ذلــك الــذي رتــل القــرآن	**في أفـــــق خــــشية وســــكون**
هـــام في الليـــل هاتفـــاً بالتراتيـــل	**هتــــاف النــــسيم بالنــــسرين**
كلمتــه الــسمله يــستنزل التنزيـــل	**مــــن ســــر نورهـــا المكنــــون**
رضـــي الله عـــنهم ورضـــوا عنـــه	**وســــروا قلـــوب حـــور عـــين**

ولن أطيل بتفاصيل سير هؤلاء المعشر وكلم أهل فضل ولكني أبدا بأقربهم وهو الذي أشار إليه المجذوبِ بقوله : { منهم ذلك الذي رتل القرآن } يريد جد الراحل الشريف محمد الأمين الهندي وهو مدرسة قائمة بذاتها في هذه الأسرة ولد وعاش ومات بين دفتي المصحف متعلماً ومعلماً للقرآن الكريم صنف عشرة مصنفات في علوم القرآن بعضها أراجيز اشتملت على كل صغيرة وكبيرة في الكتاب الكريم وعلومه وضبطه ورسمه وقراءاته يصل أبيات بعضها إلى خمسمائة وثمانية وثمانين بيتاً من الشعر الرصين والنظم الثمين. سافر هذا الرجل إلى الأزهر على حمار ومكث فيه سبع سنين دأباً وفي طنطا ثلاثاً . وجاور بالحرمين ثم عاد معلماً ضخماً للقرآن وعلومه حتى توفي في أول زحف جيش الإمام المهدي إلى الخرطوم (١٣٠١هـ) وصلى عليه الإمام المهدي ودفن في الرّهد شمال كَردفان. من هذا الإمام الحجة أخذ الشريف الراحل أشياء لا تحصى. كان الشريف محمد الأمين زاهداً

ناسكاً كثير الصمت شجاعاً مهاباً صبوراً. قال ابنه الشريف يوسف عن زهده: كان زاهداً لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً ولا يملك منها سوى السكين (المطوة) التي يبري بها قلمه، وفراشه حصير ولا مخدة له ولم تكن عنده ناقة ولا جمل ولا بقرة ولا معزة ولا نعجة ولا جمل ولا حصان ولا حمار. انتقل من حلة الشريف يعقوب إلى نوارة على حمار تلميذه إبراهيم مختار ومن نوارة إلى الأبيض (نحو ٦٠٠كلم) لملاقاة الإمام المهدي على حمار تلميذه محمد كُرْمِنُّو ولم يكن له عبد ذكر يتولى خدمته وله حوالي مئة جارية هن خدم الفقرا (طلابِ القرآن وكانوا بالآلاف) جميعهن ممن انقطع عنهن دم الحيض وليس لهن أرب في الرجال، ولا يشتري جارية إلا بهذه الصفة. هل وجدتم الشريف الزين هنا في شخص جده هذا ؟ هل عرفتم له ثمرة عربية خاصة ؟ هل وجدتم عنده (خدم وحشم).

أما صمت الشريف محمد الأمين فقال عنه ابنه الشريف يوسف (كان مسجوناً في خلوته كان لسانه محزوناً في فمه وفوهُ مطبق عليه لا يفتح هذه الأقفال إلا لعلم أو لتلاوة ...) قلت وكان الصمت شأن الراحل وكان الصمت من الصادات الأربع الشهيرات التي أوصانا بها وسيأتي تفصيلها. ثم قال الشريف يوسف عن والده كان ورعاً لا يقبل الهدية؛ رد هدية الشيخ عوض الكريم أبِ سن وهي ثلاثمائة رحل عيش (ستمائة جوال ذرة) وقال له أعطها الشريف أحمد الريح ينفقها على الضيوف، كما رد هدية محمود ود زائد وهي نقدية محمولة على ناقة.. تخيلوا ريالات منقولة على ناقة ، بل تخيلوا: رد هدية الإمام المهدي فقد أرسل له ناقة بيضاء (لاندكروزر) ومئة جنيه ذهب (مليار) ضيافة مع أحمد سليمان أمين مال المهدية فردها الشريف وقال له : إن شاء الله يكون حظنا من المهدي غير الدنيا) .

كان الشريف محمد الأمين صَدَّاعاً بالحق لا يخشى في ذلك لومة لائم. قال له أحمد أغا أحد ولاة أعمال الأتراك وقد احتدم النقاش بينهما، الله ما قال : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] فقال له الشريف محمد الأمين، الله قال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الكهف. والآن يدرك القراء من أين ورث الراحل

تلك الصفات التي تواترت عند كل المؤبنين للراحل؛ فوقف عندها الأستاذ عبد الرسول النور ويوسف حسن والدكتور الصادق الهادي وعلي بيتاي وبونا ملوال والشيخ أبو سبيب والأستاذ غازي سليمان وصاغها الفرجوني شعراً. وكان حديث الأستاذ علي عثمان نائب رئيس الجمهورية ختام مسكها . قال لي الأستاذ معتصم فضل مدير الإذاعة السودانية وقد نقلت إذاعته الوفية هذا الحدث من العاشرة إلى الواحدة والنصف دون خروج عليه ولو لثانية - وهذا شأن الأوفياء أجهزة وأشخاصاً -أعجب مدير الإذاعة -بكلمات الأستاذ علي ولعله ركز عليها أكثر من غيرها في الاستماع ولو تابع بقية الكلمات لما وجدها أقل أهمية من كلمة الأستاذ، فقد قال الناس ماذا يريد أن يقول بونا ملوال فلما قال حير الناس مثلما حيرهم بالوقوف على قبر الراحل بالدموع الغزار ، أما الأستاذ نائب الرئيس فدأبه التجويد وهو منذ أن وضع يده على يد الشريف نشأ بينهما عشق عجيب تراه وتحسه وتسمعه في حديث كل منهما عن الآخر .

ولا بُدّ من تسجيل كلمة للتاريخ هنا، فلأوّل مرة يكلمني فيها الشريف زين عن السياسة قال لي بالحرف: يا وَد أبّا أنا ما شايف زول أصلح للسودان من عمر وعلي ديل- يعني الرئيس ونائبه- وأنا ختّيت إيدي في أيديهم، البوافقني حبابو والبخالفني حبابو" فلما حكيت هذه العبارة لثالثهم قال لي بالحرف: وشيخ علي يقسم ويشهد أنه لم يَرَ سياسياً أعف وأطهر وأنزه من الشريف زين.

ولا يحتاج الشريف الزين إلى مرجع في الشجاعة في قول الحق والثبات على المبادئ والجهر بالرأي الخاص فقد كان أبوه الشريف يوسف أُعجوبة زمانه في ذلك كان يواجه الإنجليز في كل ما يراه حتى يتوسل له السيدان الميرغني والمهدي ويخفّفا من حدته وانفعاله. كتب السيد مدير الخرطوم هدلستون كتاباً ورد فيه اسم الإمام المهدي فتناول الشريف يوسف القلم وكتب بعد الاسم [عليه السلام] فسأل الحاكم عمن أضاف العبارة فتصدى

له الشيخ بابكر بدري وأعلمه أنه بخط الشريف يوسف ولكنه أقنعه بألا داعي للمواجهة لأنه يعرف أن الشريف لا يبالي .

وقد كان مرة أذن لصلاة المغرب في دار الحاكم العام لما حان وقت الأذان والحاكم يتلو خطابه ثم نهض الشريف وأم من قام معه للصلاة ومن يومها شطب اسمه من كشف التشريفات. وله مع الإنجليز مواقف لا تحصى ناهيك عن مواقف الشجاعة والبطولة والفروسية في الأحداث والمناسبات المختلفة .

يقول الأستاذ حسن نجيلة في (الملامح)كان الشريف يوسف طيب الله ثراه قوي الشكيمة حاد الذكاء .. إذا آمن بفكرة اندفع نحوها بكل قوة وإذا أعرض عن شيء لا تستطيع قوة في الأرض أن تثنيه . وكذلك كان الشريف الزين، ومن أشبه أباه فما ظلم .

وتستطيع أن تجد أصلاً لأخلاق الراحل وصفاته في كل فرد من أفراد هذا البيت العريق فإذا كانت عبقرية الشريف يوسف تتجلى في مهابته وشجاعته وعلمه فقد دارت عبقرية ابنه وخليفته الشريف عبد الرحمن في موهبة سياسة البشر وملكة قيادتهم تلك الموهبة والملكة التي تسير بوقود الحب المتبادل فحين رحل الشريف يوسف ورث ابنه وخليفته الشريف عبد الرحمن عبئاً جليلاً وحملاً ثقيلاً واختباراً شاقاً فهذا الشريف البدر الذي أضاء سماء السودان في زمانه، تُرى أي كوكب سيسد مكانه حين يفتقد؟ ثم برهنت الأيام بأن رحم هذا البيت ولود فكان الشريف عبد الرحمن ظاهرة خاصة في بيت الهندي بشعبيته والتصاقه بأحبابه يعرف صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وعاملهم وعاطلهم يدخل في جلائل أمورهم ودقائقها يجدونه معهم في كل مناسبة ، قرأت مكاتباته للوالد عليه رحمة الله والمهمات التي كان يشرفه بها والتي تتراوح مابين حقن الدماء وفك الرقاب وبين اختلاف أولاد فلان في حبل أو حبلين في طين الجروف أو البلدات. ويكفي للتعبير عن مكانة الخليفة الشريف عبد الرحمن في النفوس أن يظن كل من يحضر مجلسه أنه أقرب الناس إليه دون بقية الحاضرين وذلك لأنه كما قدمنا أوتي ملكة سياسة الناس، يوزع بينهم

الكلمة والنظرة والبسمة والمداعبة والسؤال عن الحال بإنصاف ومهارة وبراعة وكان الشريف عبد الرحمن رحمه الله ببساطته وشعبيته مدرسة في حياة الشريف الزين .

وكان شقيق الراحل الخليفة الثاني لوالده الشريف إبراهيم الهندي رجلاً من أهل البادية لا يحب القيود والبروتوكولات في الخلافة التي جاءها على مضض مدة قصيرة كان ضيقه بها أشد من ضيق حسان الحِرِك الشكري بقصور أخواله ملوك سنار وأشد من ضيق ميسون بنت بحدل الكلبية من قصور زوجها معاوية بن أبي سفيان في الشام وأشد من ضيق الزين بوزارة الخارجية ولكنه كان كبيراً وكان عجباً من العجائب في الأدب والأصالة. هُيِّئت للشريف إبراهيم مرة عربته ووقفت أمام السرايا استعداداً للسفر إلى البطانة التي تهيم بها روحه ويتعلق بها فؤاده وفي تلك اللحظة افتقد خليفة والده (والدنا الخليفة القرشي) وأنه لم يودعه فاستغرب غيابه وأرسل الخليفة محمد صالح عبد الجبار يستعجله قال: فوجدت الخليفة داخل ضريح الشريف يوسف جاثياً عند قبره ومسبحته في يده ورأسه إلى خشب التابوت فقلت له : (الشريف مسافر وهو في انتظارك) قال فالتفت إليَّ وهو في حالة غريبة (عيونو زي أنوار اللوري) وقال لي قول ليهو الإذن ما جاء قال فأخبرت الشريف الخليفة فقال للسائق عبد المجيد عليهم الرحمة جميعاً: بَطِّل العربية نحن الشَّبَكْنا في ناس الإذن ديل شنو؟ وتأجل السفر في ذلك اليوم. هذا خليفة السجادة وهذا أحد أتباعه فتأمل الأدب والأصالة والسلوك .

أما الخليفة الحالي الشريف الصديق الهندي فهو أقرب أبناء الشريف يوسف إلى مدرسة جده قطب القرآن فهو رجل القرآن والوصي عليه ولو قلنا إنه المثال الحي والقدوة الماثلة للراحل المقيم في الورع والزهد والقناعة والصبر والعزوف عن الدنيا لما فارقنا الحقيقة .

وإذا تتبعت أخوان الراحل المقيم استطعت أن تجده ماثلاً في كل منهم أخذ من الفاروق الشجاعة والفراسة ومن الحسن القناعة والصبر وكان الحسين هو مدرسته الكبرى

بعد مدرسة أبيه وجده يصدر عنها الشريف الراحل في كثير من أحواله وطباعه لذلك كان من هواجسه وشواغله التي لا ينقطع حديثه عنها كلما اجتمعنا به شوقه وتوقه إلى إحياء نار قرآن جده خادم القرآن وقطب خدامه الشريف محمد الأمين بمؤسسة علمية قرآنية يكون مقرها تقاقيب الشريف ونيران قرآنه في منطقة نوارة في شرق الجزيرة وكان دائماً يردد لي أن الأرض موجودة وأن (المشروع بِقَوِّمْ نَفْسُو إذا بدأ) وأنه حدث مرة بعض أهل الهمم والعزائم عن تاريخ جده قطب القرآن وخدمته النادرة المنقطعة النظير لكتاب الله فلمس فيه حماساً لتخليد مثل هذه الذكرى وإحيائها وطلب مني أن أكتم الأمر فكتمته ولكنني الآن أذيعه فلعلَّه يقع في يد صاحبه فيحقق الله به حلم الشريف الراحل الذي لا شك أبداً في أنه لم يراجع ذلك المتحمس مرة أخرى لما يعلمه الجميع من خلقه ونهجه.

كان يسألني أسئلة لا تخطر ببالي؛ قال لي مرة : أبوك الشريف محمد الأمين قعد في الأزهر سبع سنوات وفي طنطا ثلاث سنوات ما تزوج؟ وهو والله سؤال مهم ووجيه تثيره تجربة الشريف الراحل نفسه فحين مكث في مصر تزوج وله من زوجته هذه محمدالفاتح وأخوته يحفظهم الله. وربما دار بخلده ماحدث لشيخ العرب أحمد بيك أبوسن عليه رحمة الله فقد ظهر بعد زمن متطاول أنه في رحلته إلى مصر تزوج هناك وأن له ذرية بمصر عرفت بالمصادفة ثم قدر الله أن ترتبط حبال الأسرتين كما ذكر المرحوم علي أبوسن، وعلى الرغم من طول المدة فإن ذلك إذا كان وأراد الله له الظهور فإنه لن يخفى.

وسألني مرة أخرى : (يا ود أبّا إنت في تنقيبك في تاريخ أبوك الشريف يوسف ده دحين لقيت ليهو شيخ درس عليه ؟) قلت له : لا ما علمت له شيخا أبداً وقد سألت الوالد الخليفة القرشي عن ذلك فأجابني بأن : الشريف يوسف "علمه علم وهبي" ويؤكد ذلك قوله في إحدى قصائده : "وعلمي الخط من إلهي كذا علوم أتتني وهبي".

قال لي أنا شلت ديوان النور البراق (وهو من مؤلفات والده بالعربية الفصحى في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في تسع وعشرين قصيدة على حروف المعجم في كل

قصيدة سبعون شطرة) قال وعرضته على الشيخ محمد متولي الشعراوي "وبينهما صداقة" وقلت له اقرأه ثم نتناقش فيه لاحقاً فلما طالعه وأثنى عليه قال قلت له: مؤلِّف هذا الكتاب لم يقرأ على أحد وليس له شيخ في خلوة ولا كُتَّاب ولا مدرسة قال فاندهش وقال لي "ما أصَدَّقْشِ" ؟

والشريف الزين رجل عميق الفكر متواصل التأمل لا يمر مرور الكرام في قراءاته، يقرأ موالد والده كأخيه الحسين برهافة صوفية متأصلة وبنبرات تزلزل كيان الروح ويجل ديوان النور البراق إجلالاً عجيباً صححني في كثير من محفوظاتي لهذا الديوان لأنه اطلع عليه بخطوط مختلفة ولا غرابة فقد كان هو وشقيقه الحسين من كُتَّابِ والدهما وكانا يسجلان له ولكن الذي استوقفني أنه يستنبط من هذا الديوان ومن بعض مدائح والده مراحل تَرَقِّيهِ في السلوك الصوفي فالمدائح التي ألفها والده في شرق الجزيرة في "الحريز" مواقف تعبر عن أشواق وهيام ووله ووجْد شديد بجده الحبيب ﷺ ولما اجتمع به بالصور والكيفيات التي رويت عنه هدأت روحه وابتل ظمأه وبدأ في حديث الوصف والمعجزات والإرشاد والسلوك للمريد. وهو يتفق مع والدي عليهما الرحمة اتفاقاً كاملاً في أن كليهما يريان أن الشريف يوسف حين يتحدث عن جده كأنما يتحدث عن شخص موجود ماثلاً أمامه. والعجيب أن في ديوان النور البراق مواضع كانت تهز والدنا هزاً عنيفاً ووجدناها هي المواضع نفسها التي تهز الشريف زين، فحين نتلو عليه مقطعاً من حرف الشين من مسمطات ديوان النور البراق تفتقده تماماً ويغيب عنك إذا مدحت له المقطع المشار إليه بالرواية (اللّحن):

فغابوا وصحوا بالفؤاد المُكَسَّر وآبوا بعقل المستهام الجوهر
وأُتُوا بقلب للوصال مطهر وحنوا لجمع بين قبر ومنبر

حنين أبي المفقود أن ضَمَّه النَّعْشُ

وهنا "ينتحب كلاهما ويبكيان بكاء يقطع نياط القلب وتجد نفسك تشاركهما البكاء رغم أنفك ... هؤلاء قوم لهم شأن غير شأننا.

كانت للوالد عليه رحمة الله غرفة معلومة ينزل فيها في مسيد الشريف الهندي ببري هي غرفة القهوة "مكان إعداد الشاي" مقسومة قسمين بينهما بابٍ مُقْفَلٌ بالطوب إلا منوراً صغيراً يدخل منه كل دخان القهوة وضجيج روادها وهو يَسْتَحْلي المقام بها الأيام والأسابيع والشهور على الرغم من مضافات ونزل سرايا الشريف الممهدة لأمثاله ..لكن هل كان يجيء من الجزيرة طلباً للضيافة ؟ كلا كانت هذه الغرفة مكان الزيارات المفاجئة للشريف الزين ، تخلو إذا كان الوالد موجوداً وإذا لم يكن موجوداً يطلب منا تبروقة "مصلاية سعف" يجلس فيها بين المغرب والعشاء ، يردد بعض مديح الذكر لا يسأل أحداً ولا يلتفت ولا ينهض يتمايل كالغصن وينوني ويبكي وينتحب ولصدره أزير كأزيز المرْجَل فإذا أذن العشاء ودعنا في صمت وانصرف ودموعه تتبعه ونظراتنا تشيعه.

كانت في الشريف نزاهة عجيبة وعفة لا تتصور ليس في الجانب المادي فقط ولكن في طول حياته وعرضها؛ فالشريف لا يستفيد قطعاً ومطلقاً من صلاته الخاصة بالناس ولا من وزن اتباع الطريقة الهندية لمصلحة الحزب. كان يعجبه جداً اشتغالي بالتراث النفيس لبيت الشريف وحين صدر كتابي عن جده قطب القرآن قال لأستاذي وأستاذ الأجيال الدكتور الحبر يوسف نور الدائم "لقد علمنا د. إبراهيم القرشي عن الشريف محمد الأمين ما لم نكن نعلم" هذا هو التواضع وهضم النفس وإلا فمن يجعل الساقية مكان البحر واللصيق إزاء الأصيل ، ولقد عد شيخ الحبر كلمة الشريف هذه شهادة ليس بعدها شهادة وقد صدق أستاذي وبَرَّ. وفي شهادة د.الحبر نفسه شهادة أخرى ولله الحمد والمنة .

ولقد كنا نحن أبناء الخليفة القرشي خاصة إذا دخلنا على الشريف الزين خرج بنا من دنيا السياسة بلا عودة وحلق بنا في عوالم جده ووالده وآبائنا تلاميذهم يطوف بنا في تلك العوالم التي نعلم تمام العلم أنها محط أشواقه ومأوى روحه ومهوى فؤاده ، والله إنّا لنجلس

معه الساعات الخمس والست المتتالية ونستجديه أن يقوم فيستجم ويرتاح ولا نفلح. وهو يعلم الله يبلل منديلاً بمنديل من نهر الدموع المنحدر من مقلتيه الكريمتين .

جمعت له مرة بعض لطائف والده من كتابه المخطوط "الشعر والغُنا في السودان" وأنا في صحبة أخي خادم التراث الشريف أبو الحيران فكان رحمه الله يضحك حتى يستند إلى الكرسي ويغطي وجهه الكريم بمنديله كعادته ثم يقول متعجباً : (ده كلام أبوك الشريف) فأقول هكذا نقلته عن قائليه بسنده والكتاب تحفة وكان يتشوق لنشره ونسأل الله تيسيره. المهم في أثناء تناولنا لتلك الطرف جاءت جماعة من الحزب لأمر جلل يريدون منه تمثيلهم بكلمة قصيرة مدتها خمس دقائق فقط ثم يعيدونه أدراجه فرفض وقال لهم أنا محموم وعلي الطلاق كان ما الدكتور ده أنا ما كنت مارق من أوضتي - أكرمك الله حياً وميتا -أبي وشيخي ورضي عنك ما أقام رضوى وعسيب. والله لقد حملتني ما لا يقوى على حمله ثبير ولا أُحد. ولكنا على درب أجدادك وأبيك وأبينا سائرون إن شاء الله مستمسكين بصاداتك الأربع التي أوصيتنا بها "الصبر والصدق والصمت والصلاة" .. نعاهدك على ذلك والموعد الحشر .

دخلنا عليه مرة ومعنا ابن أخيه وسميه زين العابدين الشريف عمر الهندي وكانت داره بجنينة حلة كوكو عاجة بالناس كالعادة . فلما أحضروا لنا مشروباً نقصت الكبابي من عندنا فقال مداعباً أخي عبد الله "ما عندنا كبابي ياود الخليفة ياهن ديل العندنا" وضحك وضحكنا. ولما زرته مرة ومعي أخي أبو الحيران والأستاذ محمود صالح عثمان صالح الرجل القامة في الرجال والهامة في خدمة التراث والثقافة جلسنا مع الشريف جلسة طيبة واستعاد مع الأستاذ محمود بعض الذكريات ولكنه لاحظ قلقي للضيافة العادية وحرصي على إكرام الأستاذ محمود فقال لي: "محمود زول بيت يا دكتور" فارتحت لهذا التصنيف الذي يرفع جميع حواجز الكلفة . وهنا لابد من تسجيل كل أصوات الشكر لمحمود الخصل هذا، فله علينا في تراث الشريف أياد سالفة وديون مستحقة فقد أعانني على طباعة كتاب "قطب القرآن الشريف محمد الأمين

الهندي" وعلى غيره من كتبي . وستصل في غضون هذا الأسبوع بإذن الله نسخته من كتاب "لوطني وللتاريخ" مذكرات الشريف حسين الهندي التي تكفل بطباعة آلاف منها وإيصالها إلى باب أبي الحيران بالمعمورة . ووجدت معه نسخة جميلة من الأوبريت الملحمة الأدبية الرائعة أخذها من الأستاذ الكابلي وهو بصدد طباعتها هذه الأيام وكان يريد أن يطبع ديوان الشريف الزين كاملاً دون أن يعلمه بذلك ولكن الأقدار لا تسابق وسنزوده بديوان الشريف إن شاء الله مع أخي الشريف الأمين الشريف الصديق وزير الثقافة بالجزيرة وسنكتب مقدمة للأوبريت مع أخي الشريف القادم من مضارب البادية الشريف الصديق الشريف إبراهيم الهندي وسنكون عوناً بإذن الله لكل من يريد أن يسطر حرفا يخلد ذكرى هذا الرجل الأمة وليتنا بعد كل هذا نفي بمعشار عشر العشر من حقه علينا .

وقلت في معرض زهده رحمه الله: قابلته في السبعينات مقابلة عجيبة وكنت طالباً بالجامعة وكنت أترك داخلية الجامعة وأجد نفسي في (بُرِّي) بين الفُقَرا في غمار ليالي المديح والذكر وكان مقر إقامتي غرفة والدي التي مر ذكرها . وقبل شروق الشمس بقليل لمحت رجلاً على هيئة عجيبة يدخل من باب الدهليز وهو أحد مداخل مسيد الشريف مواجهةً للقبة ورقى الرجل درج السرايا لا يلوي على شيء فأسرعت خلفه لعلمي أن باب والدنا الخليفة الشريف الصديق يكون مغلقاً في ذلك الوقت، فأدركته في المخلوان الشمالي ، كان عائداً من الحبشة عليه جلابية كأنما نسجت من رمال أم درمان الحمراء وعليه عمامة أشبه بالحبل المفتول يحمل حقيبة سوداء اللون غبشاء من الغبار طويلة الحمالات يعلقها على كتفه وعليه شعثة وغبرة كأنما خرج من قبر باللوى والدكادك كما يقول الشهاب الحلبي، وفي لحظتها فتح (آدم) الملازم الباب وكأنما كان على موعد معه وليس في السرايا هاتف يومها في زمن كانت الأنفاس فيه محسوبة ، ولكنه مع ذلك كان "زمن زين وشعرو مغطي الاضنين" .

كان الشريف رحمه الله ضعيف الشهية ميالاً إلى الأكلات الشعبية . كنت في الأشهر الأخيرة أزوره مع ابن أخيه أخي أبو الحيران وهو يحمل فطوره وفيه كثير من الأطايب

والمطايب فيختار الراحل الكسرة بالتقلية ولا يزيدها . ونسميه فطوراً مجازاً وغالباً ما يكون بعد منتصف النهار. ودخلنا عليه مرة أخرى مع أخوتي أبناء الخليفة القرشي فحبسنا بقية نهارنا وقال الليلة لازم "نَكَرِّمْ" ليكم، وذبحوا . وجلس معنا حتى أشفقنا عليه من طول الجلسة والبكاء المستمر . وأعد (عم سلمان) الغداء ومعه (عبد الرحيم) هو طعام خال من الفنيات كالعادة ولكنه هنيء مريء مليء بالبركات . "سلمان طباخه الذي يقول له (سلمان منال آل البيت) وعبد الرحيم الذي يقدم الضيافة وهو معتمد محلية ربك. أي مدرسة هذه ؟ المهم أن الشريف أكل معنا أكل من لم يذق طعاماً منذ زمان . وقال أنا متجنب اللحم بسبب (القَاوُت) لكن الليلة والله آكل وآكل ... وخرجنا منه مرة وقد وجدناه يتغدى بعد صلاة المغرب فأكلنا معه وأكل معنا كأكله في المرة السابقة ، ثم مدحنا وبكينا وانصرفنا فلحقنا الأخ عبد الرحيم عبر الموبايل هو في حلة كوكو ونحن في تفتيش سوبا وقال خليتو الشريف في حالة عجيبة .. قلنا ليه العجب نِحْنا!! .

بالمناسبة يسمع الناس بجنينة الشريف وتراها فتسمع جَعْجَعَةً ولا ترى طِحْناً وتقول طباخ الشريف (عم سلمان) وكان مطبخه في العراء في زاوية مكشوفة من بيت الجنينة، تغسل الأواني وتكفأ على حائط أشبه بالموضأ ويطبخون في الظل والعَلَال . ولو أراد الشريف أن يأكل باسم الشريف أو باسم الحكومة أو باسم نفسه وحِزبه أو باسم أدبه أو من فيض أحبابه أو من عطاء إخوانه لأكل على خوانات ملوك فارس أو أصناف طعام ملوك الروم في الزمان الغابر، ولكنه الزهد مع القدرة والزهد بمعنى الكلمة التي وضعت له لغة وفقهاً واصطلاحاً .

رحم الله الشريف الذي كان له مع كل من عرفه أضعاف ما ذكرته في هذه العجالة ... وأحسن الله إليه بقدر ما أحسن لوطنه وأهله وأحبابه وأورثه الفردوس الأعلى وعوّض السودان فيه خيراً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

في رثاء والدي (رحمه الله وأسكنه فسيح جناته)

كنت كتبت شكراً وعرفاناً في مُطَبَّقةٍ وزِّعت على الأهل وكل من شارك في التعزية في والدنا الخليفة القرشي الفكي عثمان الفقيه القرآني والشيخ الزعيم المولود ١٨٨٣م والمتوفَّى ١٩٩٥م، وقد استعصى عليَّ الشعر أوّلاً ثم جادت القريحة بهذه الأبيات التي رأيت أن أذيِّل بها مجموعة التعزيات التي سبقتها في العظماء من أمثاله:

مهـــج تـــذوب وأكبـــد تتفطـــر ... وأســـى يعـــم وأدمـــع تتحـــدر
لمـــا نعـــى النـــاعي أبـــاك وزلزلـــت ... صُـــمُّ القلـــوب فكـــل بـــاكٍ يُعْـــذر
فالخطـــبُ داهٍ والمـــصابُ مُـــرَوِّعٌ ... والـــنفس تجـــزع والقـــضاء مـــسطر[*]
وقـــع المقـــدر وهـــو هـــاجس غُـــربتي ... كـــل المـــصائب بعـــد فقـــدك تـــصغر
مـــا كـــان فقـــدُك فَقْـــدَ أهلـــك وَحْـــدَهُم ... عـــم المـــصاب فكـــلُّ عـــين تقطـــر
كيـــف اصـــطباري والحبيـــب مُعَفَّـــرٌ ... في التُّـــرْبِ جانبـــه العزيـــز الأطهـــر[٢]
لـــولا التجلُّـــدُ مـــا حبـــستُ مـــدامعي ... أســـفاً عليـــك ولا أفـــاد تَـــصَبُّر
لـــو شـــئتُ أن أبكـــي دمـــاً لبكيتُـــهُ ... فعليـــك كنـــتُ مـــن المنيَّـــةِ أحـــذَرُ
لكنمـــا الـــدنيا عُلاَلَـــةُ راكـــبٍ ... والنـــاسُ فيهـــا رائـــح ومُهَجِّـــرُ
والـــصبر أجمـــل لـــو رزقـــتُ قليلَـــه ... والباقيـــات أعـــزُّ كنـــزٍ يـــذخَرُ
يـــا راكبـــاً إمـــا دنـــوت فَـــبَلِّغَنْ ... عـــني رســـالةَ ذاهـــلٍ لا يـــصبر[٣]
قـــف بـــالبراري عنـــد روضـــة عابـــد ... وأَطِـــلْ وقوفَـــكَ فـــالكريم مقـــدر[٤]
وأســـأل بقلـــب والـــهٍ متقطِّـــع ... والـــدمع منـــك منـــابع تتفجَّـــرُ
أَسَـــدَ العـــرينِ فَـــدَتْكَ نفـــسي مـــا الـــذي ... جعـــل المنيَّـــةَ في حياضـــك تُجْـــسُرُ[٥]
مائـــة وعـــشرون انقـــضَتْ أو نحوهـــا ... ياليتهـــا لـــو ضُـــوعفت أو أكثـــر

(*) الخطب: المصيبة. (٢) معفر: مغبر. (٣) ذاهل: الذي اشتد به الحزن. (٤) البراري: بري الشريف بالخرطوم وبها قبره. (٥) المنية: الموت، تجسر: تتجرأ.

مـــا أذهبـــت أيامُهَـــا عَزَمَاتِـــهِ ... بــل ظَــلَّ عــن رأيٍ ســديد يَــصْدُرُ

بَحْـرَ المكـارم هـل دَرَى البحـر الـذي ... بجـوار قـبرك أنَّ بحـراً يُقْبَـر[*] [(1)]

كَهْـفَ الطَّريـد وملجـأ العـاني الـشَّريد ... وزادَ مــن جافــاه دهْــرٌ أعْــسَر[(2)]

مـن لليتـامى يـا أبـا الأيتـام مـن ... للمُعْـوزِين وجـائعٍ يَتَـضَوَّرُ[(3)]

مـــن للطريـــق وإخـــوةٍ في الله لـــو ... ملكـــوا فَـــدَاك صـــغيرهم والأكـــبر

مـــن كـــلِّ فـــجٍ أقبلـــوا في مـــأتمٍ ... كانـت ليـالي العُـرْسِ عنـه تُقَـصِّر[(4)]

عَمَرَتْـــهُ أمــــداح الرســــول كأنمـــا ... هــو موســم الأعيـاد بـل هــو أفخـرُ

مــن للــتلاوة في الــضحى في الليـــل ... في الأســحار دَيْــدَنُكَ الــذي لا تَهْجُــرُ[(5)]

الله يعلــــم مـــــا أتيتُـــك طارقـــاً ... إلا وَجَـــدْتُك خاشـــعاً تَتَـــدَبَّرُ[(6)]

كحمـــائم البانـــات تتلـــو مَوْهِنـــاً ... آيـــات ربِّـــك والمـــدامعُ تَقْطُـــرُ[(7)]

لله دَرُّ أخـــي الـــسماحة والنَّـــدى ... واري الزِّنَـــادِ قُـــدُوره لا تَفْـــدُرُ[(8)]

يــا جــامِعَ الــدنيا لغــيرك جُــدْ بِهَــا ... فالـــدهر إن صـــافاك ســـوف يُكَـــدِّرُ

أوَ مَـا رأيـتَ أبـي الـذي انقـادتْ لـه ... مـــا كـــان يكنِزُهـــا ولا يَتَكَثُّـــرُ[(9)]

حتـــى إذا وافـــاه محتـــومُ القـــضا ... صـــارت بـــإذن الله زاداً يُـــدْخَرُ

لله دَرُّ أخـــي المكـــارم والتُّقـــى ... حـــامي الـــذِّمام وجـــاره لا يُغْـــدَرُ

لله دَرُّ أخـــي المـــروءةِ والحِجَـــا ... جَبَـلُ الرَّزانـةِ ناصـحٌ لا يَـضْجَرُ[(10)]

---

(١) البحر هنا النيل ونسميه في العامية نهر. (٢) العـاني: الأسـير. (٣) المعوزين: الفقراء، يتضور: يتألم من الجوع. (٤) من كل فج: من كل جهة. (٥) ديدنك: عادتك. (٦) الطارق: الذي يأتي بالليل خاصة. (٧) موهنا: آخر الليل. (٨) الندى: الكرم. واري الزناه: سريع إلى الجود، لا تفدر: لا تموت نارها. (٩) انقادت له: يعني الدنيا، لا يتكثر: لا يجمعها حتى تصبح كثيرة.
(١٠) الحجا: العقل ، الزرانة: رجاحة العقل.

([†]) نلوذ: نحتمي، غائلة: السوء والمكروه (٢) تهي: تضعف. (٣) تعفر: تغبر: وهو من العفار وهو التراب. (٤) نأت: ابتعدت، الأعصر: الزمان والمقصود هنا أنه دفن بين أحبابه ورفقاء شبابه من السادة الأشراف (٥) عج: عرج واتجه، الشريف هنا الشريف يوسف الهندي. (٦) صدعت: شقت وفرقت، النوى: البعد ومعناه أصابهم الدهر ففرقهم. (٧) الصقع: الناحية، أزرى به: أرهقه وأتعبه، شظف: سوء.
([‡]) دالفاً: مقارباً للموت. (٢) مهمه: خلاء، تقتفيها: تتبعها. (٣) نرفو: نرقع ونصلح، الخرق: الشق. (٤) وطر: حاجة وغرض، رحى المنية: طاحونة الموت. (٥) الغوادي: مطر الصباح، والسواري: مطر الليل، واري: غطى. (٦) المزن: السحاب، والصيب: المطر، الكنهور: السحاب المتراكم. (٧) إشارة إلى سور القرآن (النجم وقاف وغافر) وبقية الخواتيم وهي ما تلاه المرحوم، كان يكثر من تلاوتها والصلاة بها وقلنا (غافر) بما فيها من سناد حفاظاً على اسم السورة.

صافي السَّريرةِ لا يبيتُ وقَلْبُه … نحو امريءٍ مُتَغَيِّرٍ مُتَكَدِّرُ
حُلْوُ الشَّمائل لا يُمَلُّ حديثُه … كالدُّرِّ يُتْحِفُ سامعيه ويَأْسِرُ
جَبَلٌ هَوَى كُنَّا نَلُوذُ بِرُكْنِهِ … من كُلِّ غائلةٍ وشرٍّ يُحْذَرِ[١]
لله قبرٌ ضَمَّ أَعْظُمَكَ التي … في الله ما كنت تَهي أو تَفْتُرِ[٢]
دفنوك فيه وقد دَفَنْتُك في الحشا … ما للثُّرَيَّا بالتراب تَعَفُّرُ[٣]
فأَحفَظُهُ يا قلبُ احتفاظَ مَحَارَةٍ … باللؤلؤِ المكنون، لا يَتَغَبَّر
خَدِّي لِخَدِّك يا حبيبُ وسادةٌ … لو كنت أملك، أو مكانَك أُقْبَرُ
ماكنتُ أرجو أن أُخَلَّفَ بَعْدَكم … لكنَّها الآجالُ لا تَتَأخر
نَمْ هانئاً أبتاهُ ما مات امرؤٌ … ذِكراه يَعْبَقُ مِسْكُها والعَنْبَرُ
ما مات من أبقى المآثرَ جَمَّةً … تَفْنَى الظَّواهرُ ثم يبقى الجَوْهَرُ
نَمْ فالعزاءُ ثَوَاءُ شَخْصِك بيننا … في السِّيرة الحُسْنى وذكرٍ يُنْشَر
سبحان من جمع الأحبة بعدما … نَأَتْ المنازلُ واستطالت أَعْصُرُ[٤]
دَفَنُوك بينَهُمْ وكنتَ رَفِيْقَهُمْ … قبلَ المماتِ بِصُحبةٍ لا تُنْكَرُ
يا راكباً إمَّا فرغْتَ فَعُجْ على … قبر الشَّريف فإن ذلك أجْدَرُ[٥]
دَارَ الكرامِ فَدَتْكِ نفسي كم هنا … طلعت شُموس أو تجلَّت أقمر
فيكِ الذي جمع المكارمَ كُلَّها … صِدِّيقُنا فهو العزاءُ الأكبر
هو والدي من قبلِ فَقْدِي والدي … هو مَوئلي ولأجْلِ ذا أَتَصَبَّرُ
وأسير في الدَّرب الذي نهجُوه لي … فعسى عَوِيصُ الكَسْر ربُّك يَجْبُر
يا حسرةَ النَّائين عن وطنٍ به … وقعُ المصيبة قد يَهُون ويَصْغُر
يادهرُ ما صنعت يداك بِجِيرةٍ … صَدَعَتْ نواك قَنَاتَهُمْ فَتَبَعْثَروا[٦]
في كلِّ صقْعٍ نازحٌ أزرَى به … شَظَفُ المعيشةِ والزمانُ الأغْبَرُ[٧]
لو كنتُ من أمرِ القضا مُسْتَقْبِلا … ماكنتُ منه على العَمَى استَدْبِرُ

مافارقَتْ عَتَبَاتُ دارِك أرجُلي ... وظَلِلْتُ أَخْدِمُ دالِفاً يَتَعَثَّرُ(١)
لكنَّ عَيْشاً ضُيِّقت أسبابُهُ ... ثَقُلَتْ مَؤُونَتُهُ وكُنْتَ تُدَبِّرُ
جعل النَّوى ترمي بنا في مَهْمَهٍ ... نُمْضِي الليالي تَقْتَفِيها الأَشْهُرُ(٢)
نرجو إيِاباً غانماً نرفُو بِهِ ... خَرْقاً على مَرِّ الليالي يَكْبُرُ(٣)
ومضى الزمانُ وما انقضى وَطَرٌ لنا ... وَرَحَى المنيَّةِ بالأحبة تَغْدِرُ(٤)
ياليتَ شعري أيَّ أيامي مَضَى ... وبأيِّ أرض الله بَعْدَكَ أُقبَرُ
غُفْرَانَك اللهمَّ ما نال امرؤٌ ... إلا نصيباً في الكتاب مُسَطَّرُ
سَقَتْ السَّواري والغَوادي روضةً ... واري ثَرَاها ذاكراً لا يَفْتُرُ(٥)
وتسابقتْ سُحُب الرِّضا وتَتَابَعَتْ ... دِيَمُ المَرَاحِمِ فوق قبرك تُمْطِرُ
وسحائبُ الغفران بَعْدُ هَوَاطِلٌ ... مُزْنٌ يَسِحُّ وَصَيِّبٌ وكَنَهْوَرُ(٦)
ثم الصلاةُ على الحبيب وفوقَها ... زاكي السلامِ، أَرِيجُهُ ما العَنْبَرُ
تَغدُو بها ريحُ الصَّبَا ميمونةً ... عن حضرةِ المختار لا تَتَأَخَّرُ
فَبِهَا عسى قَلَمْ الكريمِ يَخُطُّنَا ... في السَّابقين إذا أُقِيم المَحْشَرُ
وعليك من باريكَ خَيْرُ تَحِيَّةٍ ... ما "النَّجمُ" تُتْلَى ثم "قَافُ" وغَافِرُ(٧)

الله وجمعنا به في مستقر رحمته.

رقم الإيداع (٢٠١٥/٣٨)